

بَدَائِعُ التَّفْسِيرِ

الجماعة لنا فسر الإمام

ابن تميم الجوزية

رحمة الله تعالى

رابعه ونسوه مادته ورتبها
صالح أحمد الشامي

جمعه ووزع أحاديثه
سري السيد محمد

طبعة جديدة منقحة

المجلد الأول

دار ابن الجوزي

جميع الحقوق محفوظة لدار ابن الجوزي

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٢٧ هـ

طبعة جديدة منقحة

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢٧ هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

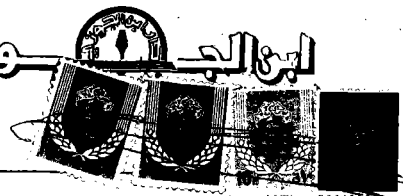
المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -

الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحصاء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ -

جدة - ت: ٢٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الغمر - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت - هاتف: ٨٦٩٦٠٠/٣ -

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٣٤٤٩٧٠

البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com



هذا العقد
بموجب العقد
الرقم ١٧٨
١٩٩١ / ١ / ١٩٩١

التاسع ١٥ / ٨ / ١٩٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا السيد السيد محمد (صديق الحسيني) أنني
قد جئت بمقومه شرطية كتاب "بداية التفسير"
لناشره الأستاذ سعد فواز الصبيح

وليس لي يد غيرة بعد نشره أو طبعه
أذا أخذت قطع من سنة ١٩٢١
واستلمت جميع مقومته

تسليمه من قبل السيد محمد
١٩٢١
٤٠٠٠
١٩٢١
٤٠٠٠

المقرع عافيه
صاحب ذرابه الجوزي
عبدية فوزي الصبيح
محمد الصبيح

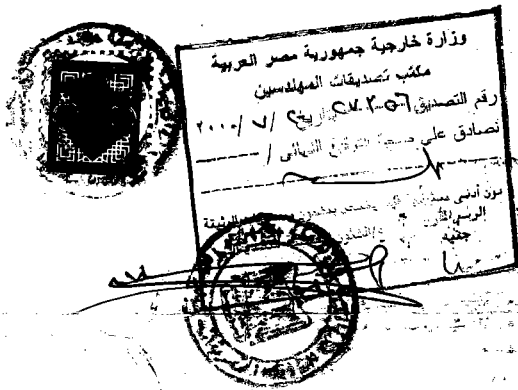
تسليمه من قبل السيد محمد
١٩٢١
٤٠٠٠
١٩٢١
٤٠٠٠

١٤
١٩٢١
٤٠٠٠



١٧٨٦
١٩٢١
٤٠٠٠
١٩٢١
٤٠٠٠
Mohammed Khamis Al-Marfoufi

العمام
شارع ابن خلدون تلفون ٤٤٢٤٤٥٢
فاكس ١٤٤٢١٠٠٠ ص ب ٢٩٨٢



صورة الصفحة الثانية من العقد بين دار ابن الجوزي ويسري السيد محمد

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(مقدمة الطبعة الثانية)

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

يعدُّ الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - أحد أعلام المسلمين المكثرين من التأليف.. وتناولت كتاباته فنوناً شتى.. وكانت له يد طولى في تفسير القرآن الكريم، ولكنه لم يؤلف كتاباً في ذلك.

وما فسّره من آيات الذكر الحكيم جاء في كتبه المتعددة، فتارة يقتضيه البحث تفسير آية، وتارة بعض آية، وتارة عدّة آيات.. فجاء التفسير عرضاً ولم يقصد إليه. اللهم إلا في تفسير «المعوذتين» حيث قصد إلى ذلك، فوضع العنوان الواضح «تفسير المعوذتين» وتناول شرحهما بشكل مفصّل.. وختم ذلك بقوله:

«فهذا ما منَّ الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين، وله الحمد والمِنَّة، وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط، فما ذلك على الله بعزيز، والحمد لله رب العالمين».

وقال مثل ذلك في آخر تعليقه على سورة «الكافرون»، ولم يقصد إلى تفسيرها، وإنما جاء الكلام عنها خلال حديثه عن «ما» في قوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا يَعْبُدُونَ﴾.

على أن ما شرحه من الآيات الكريمة شيء كثير، وقد قدّره الأستاذ الشيخ بكر أبو زيد بخمسة مجلدات فقال:

«وكتابته على مواضع متفرقة من القرآن. هي من خلال كتبه المطبوعة تقع في نحو خمس مجلدات فيما يظهر حسب التتبع.

وقد قام الشيخ محمد أويس الندوي بجمع ما وقف عليه في مجلد واحد وسَمَّاه: «التفسير القيم للإمام ابن القيم».

وهو عمل مشكور، لكنه لم يستوف ولم يقارب»^(١).

وقد يَسَّرَ الله تعالى للأستاذ الشيخ يسري السيد محمد جمع التفسير الوارد في اثنين وثلاثين كتاباً - وهي الكتب المطبوعة - من كتب الإمام ابن القيم، والتي قارب عدد مجلداتها خمسين مجلداً.

وتم طبع هذا الجمع من قبل دار ابن الجوزي، وصدر في خمس مجلدات تحت عنوان «بدائع التفسير».

وقد زارني الأستاذ سعد بن فواز الصميل - صاحب الدار - وحدثني عن رغبته في إعادة النظر بالكتاب ومراجعته. وذلك إعداداً لإعادة طبعه بعد نفاذ طبعته الأولى. ورأيت من واجبي أن ألبي طلبه، باعتبار هذا العمل جزءاً من المشروع الذي قطعت شوطاً منه، وهو: «تقريب تراث الإمام ابن القيم» والذي صدر منه حتى الآن خمسة عشر كتاباً.

وأستطيع - بعد إنجاز العمل - أن ألخص عملي بالنقاط التالية:

١ - ضبط النصوص وتصحيح الأخطاء الواقعة فيها، وهي كثيرة، وكان لا بدَّ من الرجوع إلى الأصول التي هي مراجع هذه النصوص.

٢ - تحرير النصوص مما لابسها، وذلك أن ابن القيم رحمته الله لم يقصد إلى تفسير هذه الآيات التي جُمِعَتْ، وإنما تناولها عرضاً في السياق الذي وردت فيه، فهي جملة في نص، لها ارتباطها بما قبلها وما بعدها.

والذي يبدو، أن حرص الشيخ يسري على الأمانة في نقل النص، جعله يقتطعه اقتطاعاً - كما هو - الأمر الذي يفسر لنا الغرابة الشديدة التي يجدها القارئ عند رجوعه إلى كثير من الآيات، حيث يواجهه كلام غير مفهوم. . وقد يجد ذلك عند نهاية النص، حيث يجد نفسه أمام كلام لا صلة له بالنص المفسر^(٢).

وإزاء هذه الحال، كان لا بدَّ من بذل الجهد لتحرير النص مما لابسها وخالطه، إما في أوله، وإما في آخره، أو فيهما، وذلك بالاختصار على النص «المفسر» حتى لا يكون القارئ في حيرة من أمره.

(١) التقريب لفقهِ ابن قيم الجوزية (١/١٩٤).

(٢) وانظر على سبيل المثال في الطبقة الأولى (١/٤٩٨): ما جاء أول النص السطر (١١)، وما جاء آخر النص (١/٤٩٧) السطر (١١ و١٢)، وما جاء (١/٥٠٦) السطر (١٥)، حيث جاء قوله: «كما قيل» ولم يأت بالقول. . والأمثلة كثيرة.

وقد يسر الله سبحانه لي ذلك، مع الحرص الشديد على عدم التدخل في النص، وما هو إلا إعمال الفكر في فهم النص.. والوقوف على مفاصل الكلام، وتخليص النص مما جاوره.

٣ - على أن هذا الجهد لم يكن مفيداً في معالجة بعض النصوص، لشدة ارتباطها بما قبلها وما بعدها، فكان لا بد من الاستعانة بإضافة بعض الكلمات التي تعرّف القارئ بالسياق الذي جاء به الشرح، وما أضفته من كلمة أو أكثر جعلته ضمن حاصرتين [] التزاماً بأمانة الحفاظ على النص.

٤ - وفي مقابل ذلك جاءت بعض النصوص مبتورة، إما من أولها أو من آخرها، بحيث أصبح الكلام غير مفهوم، فكان لا بد من استكمال هذه النصوص، بالرجوع إلى أصولها^(١)..

٥ - كثير من النصوص نقلت كما هي من أصولها بعناوينها وفصولها المتعددة.. وهذا كثير منتشر في الكتاب من أوله إلى آخره، وأول ما يطالعنا من ذلك ما يتعلق بسورة الفاتحة حيث تم نقل الصفحات (٧ - ١٢٢) من الجزء الأول من كتاب «مدارج السالكين»، كما هي، وفي سورة البقرة نجد عناوين مثل «تلاعب الشيطان باليهود».. «وجوب اتباع الصحابة»، وهكذا جاءت الموضوعات كما هي في أصولها!؟

فكان لا بد والحالة هذه من بذل الجهد لاستخلاص ما يتعلق بالتفسير..

٦ - جاء خلال تفسير بعض الآيات «استطراد»، وهذا الاستطراد - في الغالب - له علاقة بالبحث الذي جاءت الآية ضمنه، فهو استطراد بالنسبة للآية، لا للبحث، وفي هذه الحالة لا بد من حذفه، وأما الاستطرادات التناسبية التي هي ذات علاقة بتفسير الآية، فإني أثبتها، وفي بعض الأحيان أنقلها إلى الحاشية.

٧ - بما أن الجمع تمّ من كتب متعددة، فقد جاء نصيب بعض الآيات وافرأ من التفاسير، حيث تكرر شرحها في أكثر من كتاب. وقد تصل هذه النصوص المفسّرة للآية الواحدة إلى أربعة أو خمسة..

(١) ومثال ما بتر أوله: (٣٨٤/١) عند الآية (١٨٣) من سورة البقرة، و(١٤٧/٢) الآية (٣٣) من الأنعام، و(٢٥٩/٢) الآية (٨٠) من الأعراف، و(٦٧/٣) الآية (١٢٧) من النحل، و(٣١٥/٣) الآية (٧١) من الفرقان.. ومن أمثلة ما بتر آخره (٣٦٩/٥) آخر السورة.. كما جاء في الطبعة الأولى.

فكان لا بد من دراسة هذه النصوص . فإن كانت تصب في موضوع واحد، اقتصرت على الأوسع نصاً والأشمل معنى، وإذا كان كل نص يطرق جانباً لم يطرقه الآخر، فإني أثبتها جميعاً، بعد ترتيبها حسب أولويتها في تناول النص المفسر . . والغاية من ذلك التخلص من التكرار، توفيراً للوقت على القارئ . . وكثيراً ما جاءت النصوص متطابقة . .

٨ - في بعض السور لم يُراعَ ترتيب الآيات حسب ورودها في السورة، فعملت على التزام ذلك، ونتيجة لذلك فقد تم نقل أكثر من أربعين نصاً من أماكنها إلى حيث ينبغي أن تكون .

٩ - اعتمدت في تخريج الأحاديث على ذكر الكتاب والباب، مما أطال الحواشي، فرأيت أن أقتصر على ذكر رقم الحديث، وذلك فيما يتعلق بالصحيحين أو أحدهما، فهو أيسر على القارئ .

١٠ - في أحيان قليلة كان الإمام ابن القيم يتناول الآيتين من السورتين بتفسير واحد، فرأيت أنه من المستحسن الإحالة في الآية الثانية على الآية الأولى حيث دُكرَ التفسير .

١١ - تمّ توحيد طريقة العرض للنصوص . حيث يوضع نص الآية المفسرة، يسبقه جملة «قوله تعالى»، ثم يأتي الشرح بعد ذلك . يستثنى من هذه الطريقة «الفاتحة» و«المعوذتان» .

أما الفاتحة فلا نجد لها عند الإمام ابن القيم تفسيراً بالمعنى التقليدي، وذلك مع كثرة النصوص الواردة بشأنها . فرأيت أن أختار أقرب النصوص ليكون تفسيراً، وجمعت بقية المادة في فصول^(١)، كل منها يتناول جانباً منها، بعد أن كانت في الطبعة الأولى تحت ما يقرب من سبعين عنواناً .

وأما المعوذتان، فقد رأينا أن المؤلف قصد إلى تفسيرها، ونظراً لكثرة الأفكار المطروحة في الشرح رأيت أن أضع عناوين جانبية، تسهل على القارئ الوقوف على مطلوبه، ولم أندخل في الفصول والتقسيمات التي وضعها المؤلف .

(١) وقد أفدت من ترتيب تفسير سورة الفاتحة بهذا الشكل، من جهودي في تهذيبي لكتاب مدارج السالكين .

وبما أن هذه الفصول ليست تفسيراً بالمعنى التقليدي، فقد رأيت أن أضعها تحت عنوان عام هو: «قبسات من إحياءات سورة الفاتحة» .

١٢ - وضعت بين كل آيتين ثلاث نجوم صغيرة، حتى يسهل على القارئ الوصول إلى الآية المطلوبة.

وإذا كان تفسير الآية طويلاً، يتناول أفكاراً متعددة. فإني أضع فاصلاً بين هذه الموضوعات، وهو عبارة عن ثلاثة مربعات صغيرة.

١٣ - جاءت الطبعة الأولى حافلة بالنصوص الطويلة، التي يصل بعضها إلى صفحتين أو أكثر، الأمر الذي يتعب القارئ، فرأيت تقسيم هذه النصوص إلى فقرات، فذلك مما يريح العين، ويعين على الفهم.

١٤ - تمّ استدراك أكثر من مائة نصّ، معظمها في تفسير آيات لم تفسر في الطبعة الأولى، وبعضها في استكمال تفسير آيات سبق تفسيرها، وقد وضع كلٌّ منها حيث ينبغي أن يكون.

١٥ - اخترت للكتاب مقدمة من كلام المؤلف تتناسب مع موضوعه. وبعد: فهذا ما يسر الله عمله في مراجعة هذا الكتاب القيم، راجياً أن أكون قد أسهمت في تقريب تراث هذا الإمام إلى القارئ الكريم، موفراً له الجهد والوقت. والله المسؤول أن يجعل أعمالنا خالصة له، إنه نعم المسؤول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

وكتبه
صالح أحمد الشامي

٥ شوال سنة ١٤٢٦هـ
٢٠٠٥/١١/٧

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين وحده لا شريك له، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم أجمعين رسوله الخاتم الداعي له.

وبعد:

فمما لا شك فيه ولا يجحده إلا ميت القلب مظلم العقل غائب أو مغيب الوعي، أن بشائر النور قد هلّت وشمس الشريعة قد أشرقت وحدائقها أثمرت شباباً صالحاً انتبهوا من سبات طويل أريد بهم، وليل مظلم أحاطهم، وشهوة خالطت قلوبهم، وسكرة ألمّت بعقولهم.

انتبهوا على صوت صحوة، أن هلموا إلى ربكم، فقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، هذه اليقظة هي عودة حميدة مباركة إلى دينهم. الذي هو حصنهم المنيع ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فراراً إلى ربهم سبحانه الذي حثهم بقوله: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] ففروا خوفاً وطمعاً وهاجروا إليه شوقاً وحباً، ولم لا وهو حبيبهم وخالقهم وهاديهم إلى صراط مستقيم بإذنه، فهو حسبهم ونعم الوكيل، بيده الخير، ففي رحمته سعة لهم، وفي فضله ملجأ لهم، فأيقنوا بفضل الله أن هذه الحياة لجة، فاتخذوا صالح الأعمال سفناً لينجوا من عذاب ربهم، إنهم فتية آمنوا بربهم وسط غابة الكفر والإلحاد، وانقادوا طائعين لنيبهم ﷺ فارين من طواغيت الإنس والجن أعوان الشيطان، متبصرين بهدي سلف الأمة الصالح الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ولكن... هل تأتي الرياح بما تشتهي السفن؟ ليس دائماً، بل الأصل أن سفينة المؤمن لا بد أن تتخبطها أمواج البلاء والمحن وأعاصير الأعداء من المنافقين والفساق وإخوانهم من صنوف الأعداء، حتى يصل إلى ربه راضياً مرضياً، هذه سنن الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الْقَاهِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ

خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَرَزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ الْآلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

نعم إنها سنن الله تعالى، الامتحان والتمحيص حتى يميز الله الخبيث من الطيب، والعاقبة للمتقين، إذاً فلا مفر من الاستعانة بالله وحسن التوكل عليه مع الأخذ بالأسباب الصحيحة الشرعية. والتعاون على البر والتقوى، ونبذ الخلاف وهجر التعصب، والقيام لوجه الله تعالى قومة لا يُبتغى بها سواه وحده لا شريك له، لا رياء ولا سمعة ولا رياسة إنما ابتغاء وجه الله تعالى، وجماع الأمر قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فهم غرس الله تعالى الذي يغرسه لهذا الدين، هذه اليقظة التي أزعجت الشرق والغرب، فأعدوا لها عدة هي واهية، وحشدوا لها حشوداً لها حشوداً عاتية، ومكروا، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، ويكيدون ويكيد كيداً سبحانه وهو الله الغالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لكن لا بد لهذه العودة الحميدة إلى صراط الله المستقيم من منهج صحيح سليم، ووعي وتدبر عميق صادق مخلص. وهذا إنما يتم بصحة المنهج الذي يتفرع عند العمل الصائب والدعوة الصحيحة. ومما لا يختلف عليه اثنان من عقلاء المسلمين ونبهاء المؤمنين وأتقياء الصالحين أن المنهج ليس بجديد مخترع أو ملفق مصطنع أو قديم منغلق.

بل المنهج واضح كضوء الشمس في الظهيرة لا يخفى إلا على الأعمى ولا يغيب إلا عن المنافق، هذا المنهج هو «كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بمفهوم السلف الصالح ﷺ». شريعة وعقيدة، أخلاقاً وسلوكاً، فكراً وعملاً، هذا المنهج هو الميزان بين الخير والشر، والفرقان بين الحق والباطل.

كما قال إمام أهل السنة سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبي ﷺ والافتداء بهم، وترك البدع...» في وصية أقل ما تُصان به أن تكتب بالذهب. (طبقات الحنابلة: ١/٢٤١). هذا المنهج الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات، من ظلمات الظلم إلى نور العدل، من ظلمات الحكم الجاهلي البهائي إلى نور الحكم القرآني الرباني، فلا ولن ينصلح حالنا إلا بما صلح به حال أولنا، وهم أبائنا وقدوتنا، كما قال الإمام مالك: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح بها أولها».

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع
 ونحن نقول هذا لكل «فرزدق» أراد أن يفتخر علينا بغيرهم وينزع من قلوبنا
 اتباعهم، فعمله هذا ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾
 [آل عمران: ١١٧]، الصرُّ: البرد الشديد، أو ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَرَابٍ يَغِيغُهُ
 يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فكيف نقابل الله تعالى ونحن نتبع غير سبيل المؤمنين، كيف نقابله ونحن نرضى
 بغيرهم قدوة ومثلاً ومناراً متبعاً، هيهات هيهات.

وما فسره ابن القيم رحمه الله تعالى، والمجموع في «بدائع التفسير»، ما هو إلا
 صورة من الصور التي قرب بها العلماء المنهج الصحيح تقريباً سليماً سهلاً. حتى
 يتيسر للمسلمين العمل المبني على علم صحيح، وهو خير دليل على قوة المنهج
 الإسلامي وسلامته من كل عطب ونقائه من كل شائبة، وسترى أيها القارئ الكريم
 كيف أن القرآن كلام الرحمن، شريعة الإسلام، أنزله رب العالمين ليكون هو
 المنهج المتبع والكتاب المهيم.

لتمم للصحة المباركة خطوات النجاح وتكفل بالفلاح، ويعم الصلاح، فلا مفر
 من التمسك بهذا المنهج.

وصاحب هذا التفسير إمامنا ابن القيم غني عن أن يقال عنه كذا وكذا... من
 قصائد المدح، فالشاهد عليه قلمه وهو المبين عن فكره، فأليك أخي المسلم وأختي
 المسلمة هذا البستان، فإن لمست ناعماً من زهوره أو شممت طيباً من ريحانه،
 فاشكر الله تعالى على ما يسر ووفق، أما إن أصابتك شوكة، فاعلم أن كل بني آدم
 خطاء وخير الخطائين التوابون، فاستغفروا الله لي وللمسلمين.

وكتبه

الذي لا غنى له عن ربه طرفة عين

يسري السيد محمد أحمد علي

أبو فاطمة

الهرم - في أول ذي الحجة ١٤١٣هـ

الموافق ١٩٩٢/٥/٢٣م

كتب الإمام ابن القيم التي جمع منها الكتاب

- ١ - «اجتماع الجيوش الإسلامية»: طبع في الهند سنة (١٣١٤هـ) وصور في دار الفكر سنة (١٤٠١هـ)، وهذه هي التي اعتمدت عليها في جمعي التفسير. ثم وصلتني نسخة جديدة طبع الرياض لسنة (١٤٠٨هـ) بتحقيق الدكتور عواد عبد الله المعتق. وهي تعد من أحسن كتبه المطبوعة تحقيقاً وإخراجاً.
- ٢ - «أحكام أهل الذمة»: طبع سنة (١٤٠١هـ) في مجلدين، دار القلم، بتحقيق الدكتور صبحي الصالح رحمه الله تعالى، وقد توفي الدكتور المحقق في المحرم من سنة (١٤٠٧هـ)، وهي طبعة جيدة جداً لكن تحتاج إلى تخريج للأحاديث بشكل دقيق. وهي التي اعتمدها في عملي.
- ٣ - «إعلام الموقعين عن رب العالمين»: طبع في مكتبة الكليات الأزهرية سنة (١٣٨٨هـ) بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد. وهي تكاد تكون خالية من التصحيحات لكنها خالية أيضاً من التخريجات، وطبع أيضاً في إحدى مكاتب مصر تصويراً على طبعة الشيخ عبد الرحمن الوكيل. وهي مليئة بالتصحيف والسقط، وقد صححت فيها أكثر من مائتين من الأخطاء. وهنا يجدر التنبيه على خطورة إعادة طبع الكتب دون إضافة جديد عليها من تحقيق، وتخريج، فضلاً أن تطبع بعيوبها.
- ٤ - «أسماء مؤلفات ابن تيمية»: وهي طبعة دمشق، لسنة (١٣٧٢هـ) بتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد.
- ٥ - «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»: اعتمدت على طبعة السنة المحمدية لسنة (١٣٥٨هـ) بتحقيق الشيخ حامد الفقي

رحمه الله تعالى. وهي طبعة جيدة غير مستوفاة تخريج الأحاديث. وقد وصلتني طبعة المكتب الإسلامي وهي من جزئين، وإن شاء الله اعتمدها في الطبعة الثانية، وهي جيدة جداً.

٦ - «إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان»:

طبع «الكليات الأزهرية» سنة (١٣٩٦هـ) بتصحيح وتخريج العلامة محمد جمال الدين القاسمي.

٧ - «بدائع الفوائد»:

وهو من أعظم كتب ابن القيم، طبع «المطبعة المنيرية» بتصحيح الشيخ منير الدمشقي رحمه الله تعالى، وقد راجع أصوله على غير نسخة بعد عرضها على جماعة من أهل العلم والفهم والذكاء.

٨ - «التبيان في أقسام القرآن»:

طبع «دار المعرفة» بتحقيق الشيخ حامد الفقي، وهي طبعة جيدة ولكن ككثير من كتب ابن القيم تحتاج لتحقيق.

٩ - «تحفة الودود في أحكام المولود»:

طبع «دار الريان للتراث» بتحقيق الدكتور عبد الغفار سليمان. وهي جيدة، وأعتمدها في التفسير.

١٠ - «تهذيب سنن مختصر أبي داود»:

طبع «السنة المحمدية» سنة (١٣٦٨هـ) بتحقيق الشيخ حامد الفقي ومشاركة العلامة أحمد شاكر في الأجزاء الثلاثة الأولى.

١١ - «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام»:

طبع «المطبعة المنيرية» سنة (١٣٥٧هـ)، وصورت عليها طبعة «دار الطباعة المحمدية»، وهي التي وقعت في يدي أولاً، وهي بتحقيق «الشيخ طه يوسف شاهين»، وهي مسروقة حرفياً عن الطبعة المنيرية كلمة كلمة، ولم تزد عن المنيرية إلا في التصحيف والتحريف، وهذا مما يؤسف له. ثم أمدني بعض الأصدقاء بطبعة حديثة جيدة بتحقيق «محيي الدين مستو»، ولكن تحتاج لتخريج أدق.

١٢ - «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»:

طبع مكتبة القرآن سنة (١٤٠٨هـ) وهي المعتمدة، وأيضاً طبعة «مكتبة المتنبي» والأخيرة رديئة جداً. ثم وقع لي طبعة «الأستاذين يوسف علي بدوي، ومحيي الدين مستو» وهي جيدة.

١٣ - «الداء والدواء»:

طبع «مكتبة المدني» بتحقيق الدكتور محمد جميل غازي رحمه الله تعالى، وهي خالية غالباً من التصحيف، لكن لم تخرج أحاديثها كالعادة، وقد طبع أيضاً تحت اسم «الجواب الكافي...».

١٤ - «الرسالة التبوكية»:

طبع «مكتبة التوعية» سنة (١٤٠٨هـ)، وهي جيدة.

١٥ - «روضة المحبين ونزهة المشتاقين»:

طبع «مكتبة التراث» دون تحقيق.

١٦ - «الروح»:

طبع «دار الندوة الجديدة» دون تحقيق. وقد وصلني محققاً في جزئين من عمل الدكتور بسام العموش، مكتبة ابن تيمية، الرياض، وهي جيدة، ولكن أدخل مقدمته (١٦٦/١) كأنها من أصل الكتاب دون إشارة إلى بداية الكتاب (١/١٦٧). مع عدم الفهرسة للجزء الأول، وهو مع ذلك اعتمد على مخطوطات جيدة.

١٧ - «زاد المعاد في هدي خير العباد»:

طبع بتحقيق الأستاذين شعيب وعبد القادر الأرناؤوط في «خمسة أجزاء»، وهي أجود ما أخرج من كتب ابن القيم.

١٨ - «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل»:

تصوير دار المعرفة، بيروت، سنة (١٣٩٨هـ) دون تحقيق، وهي مصورة على الطبعة الأولى للطبعة الحسينية لسنة (١٣٢٣هـ)، ونصفه الأول على مخطوطة العلامة الألوسي، والنصف الثاني على مخطوطة دار الكتب المصرية، كما ورد في آخر الكتاب (٣٠٧).

١٩ - «الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة»:

طبع «دار العاصمة» الرياض (١٤٠٨هـ) بتحقيق الشيخ علي بن محمد، في أربعة أجزاء في طبعة جيدة. وقد عقد مقارنة بين الكتاب الأصلي وبين مختصره للموصلية (١/١١٧)، وأن الكتاب لم يصلنا كاملاً، ويدل على ذلك كلامه عن الطاغوت الثالث والرابع في المختصر، وهذا مما لم يصلنا.

- ٢٠ - «طريق الهجرتين وباب السعادتين»: طبع «المكتبة السلفية» سنة (١٤٠٠هـ) الطبعة الثالثة بإشراف الأستاذ محب الدين الخطيب. وهي دون تحقيق، وهي المعتمدة. وقد طبع في دار ابن القيم سنة (١٤٠٩هـ) على الطبعة الأولى، وامتازت بالتحقيقات.
- ٢١ - «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية»: طبع مكتبة المدني سنة (١٩٨٥م) بتحقيق الشيخ الدكتور محمد جميل غازي رحمه الله تعالى، وهي خالية من التخريج.
- ٢٢ - «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»: طبع «دار ابن كثير» دمشق، الثانية (١٤٠٧هـ)، وهي جيدة لكنها غير محققة.
- ٢٣ - «الفروسية»: طبع دار الصحابة، مصر، سنة (١٤١١هـ)، وهي جيدة.
- ٢٤ - «الفوائد»: طبع المكتبة القيمة بمصر، سنة (١٤٠٠هـ)، وهي تحتاج لتخريج وتحقيق جديدين.
- ٢٥ - «كتاب الصلاة وحكم تاركها»: طبع المكتب الإسلامي سنة (١٤٠١هـ) الأولى بتحقيق تيسير زعتر، وقد أجاد في إخراجها.
- ٢٦ - «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية»: وهي المعروفة بالقصيدة النونية، طبع دار الفاروق الحديث، مصر، وهي كثيرة التحريف.
- ٢٧ - «الكلام على مسألة السماع»: طبع «دار العاصمة» الرياض سنة (١٤٠٩هـ) الطبعة، تحقيق راشد عبد العزيز الحمد.
- ٢٨ - «الكلم الطيب والعمل الصالح»: وهو المعروف باسم «الوابل الصيب» طبع دار الريان، سنة ١٤٠٨هـ، وطبع المكتبة السلفية، ثم طبع «دار البيان» بتحقيق الأرنؤوط، وهي أجودها، واعتمد على الأولى، ثم على هذه.

- ٢٩ - «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»: وهو من أمتع كتب ابن القيم، وينبغي الاهتمام بدراسته وخاصة للنشء، لمعرفة السلوك القويم والطريق الصحيح المثمر إلى الله تعالى، طبع «السنة المحمدية» سنة (١٣٧٥هـ) بتحقيق الشيخ حامد الفقي رحمه الله تعالى.
- ٣٠ - «مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة»: طبع مكتبة حميدو سنة (١٣٩٩هـ) بتصحيح محمود حسن ربيع، وللأسف أنه أسوأ الكتب إخراجاً من ناحية التحقيق أو التخريج مع أهميته العظمى، وفوائده الجزيلة.
- ٣١ - «المنار المنيف في الصحيح والضعيف»: طبع «مكتبة المطبوعات الإسلامية» سورية سنة (١٤٠٣هـ) بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وهي جيدة جداً.
- ٣٢ - «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى»: طبع المكتبة القيمة، سنة (١٤٠٧هـ) الرابعة. هذا ما وصلنا من كتبه رحمه الله تعالى، وهي «اثنان وثلاثون كتاباً» من «ثمانية وتسعين»، كما ذكر العلامة بكر أبو زيد (٣٠٩).

بدائع التفسير

الجامع لما فسرہ الإمام "ابن قيم الجوزية"

- رحمه الله تعالى -

راجعه ونسّق مادته ورتبها

جمعه وخرج أحاديثه

صالح أحمد الشامي

يسري السيد محمد

المجلد الأول

دار ابن الجوزي

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة للإمام ابن القيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، رب العالمين، وإله المرسلين، وقيوم السماوات والأرضين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والغبي والرشاد، والشك واليقين.

أنزله لنقرأه تدبراً، وتأمله تبصراً، ونسعد به تذكراً، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق أخباره، ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه، ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحكيم من بين رياضه وأزهاره. فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذي أشرق له الظلمات، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الدخول، فلا يغلق إذا غلقت الأبواب.

وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيع به الأهواء، والنزل الكريم الذي لا يشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تقلع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هدايةً وتبصيراً، وكلما بَجَسَتْ مَعِينَهُ فَجَّرَ بِهَا يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ تَفْجِيرًا. فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح، إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح! حي على الفلاح. نادى به منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم: ﴿يَقَوْمًا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأحاف: ٣١].

سبحان الله! ماذا حُرِمَ المعرضون عن نصوص الوحي، واقتباس العلم من مشكاتها من كنوز الذخائر؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟!.

أفيظنُّ المعرضُ عن كتابِ ربِّه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلَّص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال؟.

هيهات والله، لقد ظنَّ أكذب الظنِّ، ومَنَّته نفسه أبين المحال، إنَّما ضُمنت النجاة لمن حَكَّم هدى الله تعالى على غيره، وتزوَّد التقوى واتَّتمَّ بالدليل، وسلَّك الصُّراط المستقيم، واستمسك من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصامَ لها، والله سميعٌ عليم. وبعد، فلما كان كمالُ الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعملِ الصالح، وهما الهدى ودينُ الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ ۝٢﴾ [سورة العصر].

فأقسم سبحانه أن كلَّ واحدٍ خاسرٌ إلا من كَمَّل قُوَّته العلمية بالإيمان، وقُوَّته العملية بالعمل الصالح، وكَمَّل غيره بالتوصية له بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يَتَمَّانِ إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما، كان حقيقاً بالإنسان أن يُنفقَ ساعاتِ عمره - بل أنفاسه - فيما ينالُ به المطالبَ العالية، ويخلصُ به من الخسران المبين.

وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهُمه وتدبُّره، واستخراج كنوزه وإثارة دفايته، وصرفِ العناية إليه، والعكوفِ بالهمة عليه، فإنَّه الكفيلُ بمصالح العباد، في المعاشِ والمعادِ، والموصلُ لهم إلى سبيل الرشادِ، فالحقيقةُ والطريقةُ، والأذواقُ والمواجيد الصحيحة، كلها لا تُقْبَسُ إلا من مشكاته، ولا تُستثمرُ إلا من شجراته. ونحن - بعون الله - ننبهُ على هذا بالكلام على فاتحة الكتابِ وأمِّ القرآن، وعلى بعض ما تضمَّنته هذه السورة من هذه المطالبِ، وما تضمَّنته من منازل السائرين، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتها، ومواهبها وكسيياتها، وبيان أنه لا يقومُ غيرُ هذه السورة مقامها، ولا مسدّها، ولذلك لم يُنزل اللهُ في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها.

والله المستعان، وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١).

(١) هذه مقدمة كتاب «المهذب من مدارج السالكين»، وهي مختارة من مقدمة «مدارج السالكين» للمؤلف، رأيت أن تكون مقدمة لهذا الكتاب، لما فيها من الحث على العناية بالقرآن الكريم، فهماً وتدبراً وتفسيراً... [الشامي].

سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٣)
 مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)
 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

هي فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم، والخوف والحزن، لمن عرف مقدارها، وأعطائها حقها.

ومن ساعده التوفيق، وأعين بنور البصيرة، حتى وقف على أسرار هذه السورة وما اشتملت عليه: من التوحيد، ومعرفة الذات والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد الربوبية والألوهية، والتوكل والتفويض إلى من له الأمر كله، وله الحمد كله، ويده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله... أغنته عن كثير من الأدوية والرقى^(١).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١].

١ - الاسم في أصل الوضع ليس هو «المسمى»، ولهذا تقول: سميت هذا الشخص بهذا الاسم، كما تقول: حليته بهذه الحلية، والحلية غير المحلى، فكذلك الاسم غير المسمى.

وقد صرح بذلك سيبويه، وأخطأ من نسب إليه غير هذا... وفي كتابه قريب من ألف موضع: أن الاسم هو اللفظ الدال على المسمى، ومتى ذكر الخفض أو النصب، أو التنوين، أو اللام، أو جميع ما يلحق الاسم من زيادة ونقصان، وتصغير وتكبير، وإعراب وبناء، فذلك كله من عوارض الاسم، لا تعلق لشيء من ذلك بالمسمى أصلاً.

(١) زاد المعاد (٣/٣٧٣).

وما قال نحوي قط، ولا عربي: إن الاسم هو المسمى، ويقولون: أجلُّ مسمى، ولا يقولون: أجلُّ اسم.. ويقولون: باسم الله، ولا يقولون: بمسمى الله، وقال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء» ولا يصح أن يقال: لي خمس مسميات، والله تسعة وتسعون اسماً، ولا يصح أن يقال: تسعة وتسعون مسمى.

وإذا ظهر الفرق بين الاسم والمسمى، فبقي هاهنا: التسمية. والتسمية عبارة عن فعل «المسمى» ووضعه الاسم «للمسمى»، كما أن التحلية عبارة عن فعل المحلى، ووضعه الحلية على المحلى. فيها هنا ثلاث حقائق: اسم، ومسمى، وتسمية.. ولا سبيل إلى جعل لفظين منها مترادفين على معنى واحد لتباين حقائقها.

٢ - اسم «الله»: زعم السهيلي، وشيخه أبو بكر ابن العربي أن اسم «الله» غير مشتق، لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق.

ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى، وأنه مستمد من أصل آخر، فهو باطل.

ولكن الذين قالوا بالاشتقاق، لم يريدوا هذا المعنى، ولا ألمَّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى، وهي الإلهية، كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير، فإن هذه أسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، والقديم لا مادة له، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء، فهو جواب القائلين: باشتقاق اسمه: «الله».

ثم الجواب عن الجميع: أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله. وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعاً، ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة..

فلاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادي، وإنما هو اشتقاق تلازم، سمي المتضمن بـ«الكسر» مشتقاً، المتضمن بـ«الفتح» مشتقاً منه، ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى.

٣ - استبعد قوم أن يكون «الرحمن» نعتاً لله من قولنا: «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا: «الرحمن» علم، والأعلام لا ينعت بها.

ثم قالوا: هو بدل من اسم «الله» قالوا: ويدل على هذا أن الرحمن علم مختص بالله، لا يشاركه فيه غيره، فليس هي كالصفات التي هي: العليم والقدير والسميع والبصير، ولهذا تجري على غيره تعالى.

قالوا: ويدل عليه أيضاً، وروده في القرآن غير تابع لما قبله، كقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١-٢]، وهذا شأن الأسماء المحضة، لأن الصفات لا يقتصر على ذكرها دون الموصوف.

قال السهيلي: والبدل عندي ممتنع، وكذلك عطف البيان، لأن الاسم الأول لا يفتقر إلى تبين، فإنه أعرف المعارف كلها وأبينها، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ولم يقولوا: وما الله؟ ولكنه وإن جرى مجرى الأعلام، فهو وصف يراد به الشناء، وكذلك «الرحيم»، إلا أن «الرحمن» من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه..

وفائدة الجمع بين الصفتين «الرحمن» و«الرحيم» الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة، وخاصة وعامة. تم كلام السهيلي.

قلت: أسماء الرب تعالى، هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، ف«الرحمن» اسمه تعالى ووصفه، لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة جرى تابعاً على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، بل ورود الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصاً به تعالى، حسن مجيئه مفرداً غير تابع كمجيء اسم الله كذلك، وهذا لا ينافي دلالة على صفة الرحمن، كاسم الله فإنه دال على صفة الألوهية، ولم يجئ قط تابعاً لغيره، بل متبوعاً، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة.

فتأمل هذه النكتة البديعة، يظهر لك بها أن «الرحمن» اسم وصفة، لا ينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً.

٤ - وأما الجمع بين «الرحمن» و«الرحيم»، ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما السهيلي.

وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم.

فكان الأول للوصف، والثاني للفعل.

فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

ولم يجئ قط (رحمن بهم)، فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد نجدها في كتاب.

٥ - لحذف العامل في «بسم الله الرحمن الرحيم» فوائد عديدة:

منها: أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله، فلو ذكرت الفعل، وهو لا يستغني عن فاعله، كان ذلك مناقضاً للمقصود، فكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى، ليكون المبدوء به اسم الله، كما تقول في الصلاة: الله أكبر، ومعناه: من كل شيء، ولكن لا نقول: هذا المقدر ليكون اللفظ مطابقاً لمقصود الجنان، وهو أن لا يكون في القلب إلا الله وحده، فكما تجرّد ذكره في قلب المصلي، تجرّد ذكره في لسانه.

ومنها: أن الفعل إذا حذف، صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة، وليس فعل أولى بها من فعل، فكان الحذف أعمّ من الذكر، فإن أي فعل ذكرته كان المحذوف أعمّ منه.

ومنها: أن الحذف أبلغ، لأن المتكلم بهذه الكلمة كأنه يدعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل، فكأنه لا حاجة إلى النطق به، لأن المشاهدة والحال دالة على أن هذا وكل فعل فإنما هو باسمه تبارك وتعالى، والحوالة على شاهد الحال أبلغ من الحوالة على شاهد النطق^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢) ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٤) ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٥) ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٦) [الفاتحة: ٢ - ٧].

للفاتحة قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية.

وسعادة [العبد] التامة موقوفة على استكمال قوته العلمية والإرادية، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة

(١) بدائع الفوائد (١/١٦ - ٢٥).

الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها. فهذه المعارف الخمس يحصل كمال قوته العلمية. وأعلم الناس: أعرّفهم بها وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمثته عليه، وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستح من مواجته بتلك الخدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون ذلك، وأنه لا سبيل إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونه.

فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه أوليائه وخاصته وأن يجنبه الخروج على ذلك الصراط إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب، فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام.

فإن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾، يتضمن الأصل الأول، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنی، وهي اسم «الله» و«الرب» و«الرحمن». فاسم «الله» متضمن لصفات الألوهية، واسم «الرب» متضمن لصفات الربوبية. واسم «الرحمن» متضمن لصفات الإحسان والجود والبر. ومعاني أسمائه تدور على هذا.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونه، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة.

وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيماً منعماً وذلك من موجبات ألوهيته فهو الإله الحق، وإن جحده الجاحدون، وعدل به المشركون. فمن تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجاتهم عن عوام المتعبدين. والله المستعان^(١).

قبسات من إحياءات

سورة الفاتحة

[ويتم عرضها في الفصول الآتية]

الفصل الأول

الفاتحة عماد الصلاة

وليقف [المصلي] عند كل آية من الفاتحة ينتظر جواب ربه له وكأنه يسمعه يقول: حمدني عبدي. حين يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقف لحظة ينتظر قوله: أثنى عليّ عبدي.

فإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ انتظر قوله: مجدني عبدي.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتظر قوله: هذا بيني وبين عبدي.

فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها انتظر قوله: هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل.

ومن ذاق طعم الصلاة علم أنه لا يقوم غير التكبير والفاتحة مقامهما، كما لا يقوم غير القيام والركوع والسجود مقامها، فلكل عبودية من عبودية الصلاة سر وتأثير، وعبودية لا تحصل من غيرها، ثم لكل آية من آيات الفاتحة عبودية وذوق ووجد يخصها.

فعند قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى: فعلاً ووصفاً واسماً. وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلاً ووصفاً واسماً، فهو محمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه، منزّه عن العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه.

(١) جاء في الحديث القدسي قوله تعالى: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدني ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدني ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال: هذا لعبدي، ولعبدني ما سأل. رواه مسلم (٢٩٥).

فأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصالحة وعدل لا تخرج عن ذلك، وأوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت جلال، وأسمائه كلها حسنى.

وحمده قد ملأ الدنيا والآخرة والسموات والأرض وما بينهما وما فيهما، فالكون كله ناطق بحمده، والخلق والأمر صادر عن حمده وقائم بحمده ووجد بحمده، فحمده هو سبب وجود كل موجود، وهو غاية كل موجود، وكل موجود شاهد بحمده، وإرساله رسوله بحمده. وإنزاله كتبه بحمده، والجنة عمُرت بأهلها بحمده والنار عمُرت بأهلها بحمده، وما أطيع إلا بحمده، وما عصي إلا بحمده، ولا تسقط ورقة إلا بحمده، ولا يتحرك في الكون ذرة إلا بحمده.

وهو المحمود لذاته، وإن لم يحمده العباد، كما أنه هو الواحد الأحد ولو لم يوحد العباد، والإله الحق وإن لم يؤلهوه^(١).

ثم قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها وهي بيده، إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها.

والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله عالماً بالحق، عاملاً به، لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المنفرد بالهداية الموجبة للاهتداء، التي لا يتخلف عنها، وهي جعل العبد مريداً للهدى، محباً له، مؤثراً له عاملاً به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]^(٢).

□ □ □

(١) الكلام عن مسألة السماع (١٩٥ - ١٩٧). (٢) شفاء العليل (٥٢، ٥٣).

الفصل الثاني

المطالب العالية في سورة الفاتحة

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن.

١ - فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنی والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: «الله، والرب، والرحمن» وبنيت السورة على الألوهية والربوبية والرحمة. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الألوهية، ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة.

والحمد يتضمن الأمور الثلاثة: فهو المحمود في ألوهيته، وربوبيته، ورحمته. والثناء والمجد كما لان لجده.

٢ - وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

٣ - وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:

أحدها: كونه (رب العالمين). فلا يليق به أن يترك عباده سُدى هَمَلًا، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما. فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به. وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم (الله) وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه (الرحمن) فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه علم إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب. فاقضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم

من اقتضاها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب. وأدرك منه أولو الأبواب أمراً وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر (يوم الدين) فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات. وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه. وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين. وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن ما يُعبد به تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه. وعبادته: هي شكره وحبه وخشيته، فطري ومعقول للعقول السليمة. لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله، وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل ولم يؤمن به؛ ولهذا جعل سبحانه الكفر برسله كفراً به.

الموضع السادس: من قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق. وجعل الإيمان في القلب وتحببه إليه، وتزيينه في قلبه، وجعله مؤثراً له، راضياً به، راغباً فيه. وهي هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما. وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له، وجعلنا مرادين لاتباعه ظاهراً وباطناً. ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم. ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن ههنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله؛ فأمر يفوته الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور؛ كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى - وهي آخر مراتبها - وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق

الجنة، وهو الصراط الموصل إليها. فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنسوب على مثن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطُرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المخدوش المسلّم، ومنهم المكرّس في النار.

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذُو القُدَّة بالقُدَّة جزاء وفاقاً: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

الموضع السابع: من معرفة نفس المسؤول، وهو الصراط المستقيم. ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعيّنه طريقاً للمقصود، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة. فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة.

ففي ذكر المنعم عليهم - وهم من عرف الحق واتبعه - والمغضوب عليهم - وهم من عرفه واتبع هواه - والضالين - وهم من جهله -: ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة؛ لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود. وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.

٤ - و[تضمنت] ذكر الصراط المستقيم منفرداً، معرفاً تعريفين:

تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة. وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فوحد لفظ صراطه وسبيله، وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابن مسعود: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، وَقَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ خَطَّ خَطْوَةً عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، وَقَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ، وَعَلَى كُلِّ سَبِيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ،

ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَنُكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق. ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد. فإنه متصل بالله، موصل إلى الله.

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريق مرافقه فيها غاية العزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرق، وعلى الأُنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له. وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم. فلا يكثر بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلون قدراً، وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلّة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين. وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم.

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلاً المطالب، ونيلاً أشرف المواهب: علّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم.

فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء.

□ □ □

(١) أخرجه الإمام أحمد رضي الله عنه رقم (٤١٤٢)، وصححه الشيخ المحدث أحمد شاكر رحمته الله، وابن حبان في صحيحه رقم (٥) بتحقيق أحمد شاكر، ورواه الحاكم (٣١٨/٢)، وصححه ووافقه الذهبي. وانظر تحقيق الإمام ابن كثير على هذا الحديث (٢٠٥/٢) من تفسيره.

الفصل الثالث

التوحيد في سورة الفاتحة

اشتملت هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد. ونوع في الإرادة والقصد. ويسمى الأول: التوحيد العلمي. والثاني: التوحيد القصدي الإداري؛ لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة. والثاني بالقصد والإرادة. وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الألوهية. فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيان: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه.

وأما المفصل: فذكر صفة الألوهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه والخضوع له، فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها.

ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصيتها سواه. ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر.

فهذا دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات .

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها - وهي : الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك - فمبني على أصليين :

أحدهما : أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله . فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي أوصاف . وبذلك كانت حُسْنَى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس، فيقال : اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقم . اللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك .

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى : ﴿وَدَرُّوا الَّذِينَ يُنَادُونَكَ فِي أَسْمَاءٍ سَيَّجُزُونَ مَا كَانَ لَكُمْ بِهَا مِنْ شَيْءٍ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] . ولأنها لو لم تدل على معاني وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَمِيمُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن القوي من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة .

فالإلحاد : إما بجحدها وإنكارها . وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد . فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها .

الأصل الثاني : أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم . فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة . ويدل على الصفة الأخرى باللزوم . فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة وعلى الذات وحدها، وعلى السمع وحده بالتضمن . ويدل على اسم الحي وصفة الحياة بالالتزام . وكذلك سائر أسمائه وصفاته .

ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه . ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام . فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة

- أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

إذا تقرر هذان الأصلان: فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنی، والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنی إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ويقال: الرحمن والرحيم، والقدوس والسلام، والعزیز والحكيم: من أسماء الله. ولا يقال: الله، من أسماء الرحمن ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنی، دال عليها بالإجمال. والأسماء الحسنی تفصيل وتبيين لصفات الألوهية التي اشتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال على كونه مألوهاً معبوداً، تؤله الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك. والحمد وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله. إذ استحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير، ولا قادر ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

وفي ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود في ألوهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود ورحمن محمود، وملك محمود. فله بذلك جميع أقسام الكمال.

الفصل الرابع

اشتغال الفاتحة على شفاءين

تشتمل «الفاتحة» على الشفاءين: شفاء القلوب وشفاء الأبدان.

١ - فأما اشتغالها على شفاء القلوب: فإنها اشتملت عليه أتم اشتغال، فإن مدار

اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد.

ويترتب عليها داءان قاتلان، وهما: الضلال والغضب. فالضلال نتيجة فساد

العلم، والغضب ينتجه فساد القصد. وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب

جميعها، فهداية الصراط المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال؛ ولذلك كان

سؤال هذه الهداية أفرَضَ دعاء على كل عبد وأوجه عليه كل يوم وليلة، في كل

صلاة لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علماً ومعرفة وعملاً وحالاً: يتضمن

الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل.

فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة

إليها كان كلا نوعي قصده فاسداً، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله

وعبوديته، من المشركين ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها.

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت

الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت حصلوا على أعظم الخسران والحسرات،

وهم أعظم الناس ندامة وتحسراً، إذا حق الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب

الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر

كثيراً في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشد

ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حققت

الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا

مخدوعين مغرورين، فيا له هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة

الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضاً كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء: عبودية لله لا غيره، بأمره وشرعه، لا بالهوى، ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم. والاستعانة على عبوديته به، لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد: وهما الرياء، والكبر. فدواء الرياء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواء الكبر ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، و﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومن مرض الكبر والعجب ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ومن مرض الضلال والجهل ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، و﴿الضَّالِّينَ﴾. وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه. فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت الله وكلامه، وفهمت عنه فهماً خاصاً، اختصها به، من معاني هذه السورة.

٢ - وأما تضمناها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة وما شهدت به قواعد الطب ودلت عليه التجربة.

فأما ما دلت عليه السنة: ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ مروا بحي من العرب فلم يقرؤهم

ولم يضيفوهم فلدغ سيد الحي فأتوهم فقالوا: هل عندكم من رقية أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم ولكنكم لم تقرونا فلا نعمل حتى تجعلوا لنا جُعللاً، فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأن لم يكن به قلبه، فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتي النبي ﷺ، فأتيناه فذكرنا له ذلك فقال: «ما يدريك أنها رقية، كلوا واضربوا لي معكم بسهم»^(١).

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه فأغنته عن الدواء، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء هنا، مع كون المحل غير قابل؛ إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم، فكيف إذا كان المحل قابلاً؟!

□ □ □

(١) رواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

الفصل الخامس

العبادة والاستعانة في سورة الفاتحة

[العبادة والاستعانة]

وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب، انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مئة كتاب وأربعة كتب؛ جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين: فنصفهما له تعالى وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصفهما لعبده وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

والعبادة تجمع أصليين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً.

ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوباً لهم، بل هو غاية مطلوبهم ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم: منكرين لكونه إلهاً، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم، فهذا غاية توحيدهم. وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]. ﴿قُلْ لَيْنَ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]. ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره ولا رب سواه.

والاستعانة تجمع أصليين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد

من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره، مع ثقته به، لاستغناؤه عنه. وقد يعتمد عليه، مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه. فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

والتوكل معنى يلتزم من أصلين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذان الأصلان - وهما التوكل والعبادة - قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها.

[تقديم العبادة على الاستعانة]

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله»، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب». فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما تقدم اسم الله على الرب في أول السورة.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان مع الشطر الذي له، وهو ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة.

ولأن العبادة المطلقة: تتضمن الاستعانة، من غير عكس. فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به، ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته. فكانت العبادة أكمل وأتم. ولهذا كانت قسم الرب، ولأن الاستعانة جزء من العبادة، من غير عكس، ولأن الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له. ولأن «العبادة» لا تكون إلا من مُخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة. وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه؛ أهم من التعرض لصدقته.

ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يجب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رفقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رفقها سبباً لنيل الإعانة. وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

[حكمة تقديم المعبود والمستعان على الفعلين]

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصص، فهو في قوة لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقهاء فيها.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَأَيْنَى فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]. ﴿وَأَيْنَى فَأَنْتُونَ﴾ [البقرة: ٤١]. كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هو في قوة: لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من هذا السياق.

[أقسام الناس بحسب العبادة والاستعانة]:

إذا عرف هذا: فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام: [القسم الأول]: أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لِحَبِّهِ معاذ بن جبل. فقال: «يا معاذ، والله إنني لأحبك، فلا تنس أن تقول في دُبُر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(١).

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب؛ إسعافه بهذا المطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاذه، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيت في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. ومقابل هؤلاء:

القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض: يسأله أولياؤه وأعداؤه ويُمَدُّ هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فسأله حاجة فأعطاه

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢).

إياها، وامتعه بها، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته: كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه.

فليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائله ليست لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حمايةً وصيانةً وحفظاً لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه: فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدأً، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية القائلون: بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألفاظ، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل. فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة؛ فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكن أوليائه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر.

فعبادة هؤلاء لهم نصيب من العبادة، لا استعانة معه؛ فهم موكلون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد قال ابن عباس رضي الله عنهما: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل. فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولم يجدوا ذوق

التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف .
فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم،
ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم . ولو
توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً بإزالته،
لأزاله .

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، وتفردته بالخلق والتدبير والضرر
والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن،
وإن شاء الناس، فيوجب له هذا اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وطمأنينة به وثقة به
ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه .

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضرر، وأنه ما شاء كان وما لم
يشأ لم يكن، ولم يدُر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به على حفظه
وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به فقضيت له، وأسعف بها، ولكن لا
عاقبة له، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق . فمن استدل بشيء من
ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين . فهو من
أجهل الجاهلين، وأبعدهم معرفة بالله ودينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه
ويسخطه .

□ □ □

الفصل السادس

التحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

[المتابعة والإخلاص]

إذا عرف هذا؛ فلا يكون العبد متحققاً بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين.

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص للمعبود.

فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة. وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقة،

فأعمالهم كلها لله وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله.

فمعاملتهم ظاهراً، وباطناً لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا

شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا

هرباً من ذمهم.

بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً، ولا

موتاً ولا حياة ولا نشوراً. فالعمل لأجل هؤلاء، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم،

ورجاؤهم للضر والنفع منهم، لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل بشأنهم،

وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله

وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله

بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس أثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو

العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذي بلا عباده بالموت والحياة

لأجله. قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [تبارك: ٢].

وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه

وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السنة.

القسم الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقاً لشرع، ولا هو خالصاً للمعبود، كأعمال المتزينين للناس المرئيين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله ﷻ. ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]. يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمداً باتباع السنة والإخلاص.

القسم الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العباد والمتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقده قربة إلى الله فهذا حاله، كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة.

القسم الرابع: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله. كطاعة المرئيين، وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير خالصة فلا تقبل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

[أفضل العبادات]

ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادات وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء من هواها، وهو حقيقة التبع.

قالوا: والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثاً لا أصل له «أفضل الأعمال أحمرها» أي أصعبها وأشقها، وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاق إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقليل منها

غاية الإمكان، وإطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعدد، فأروه

أفضل من ذي النفع القاصر، فأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله»^(١). رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه وعمل النفاع متعد إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد: كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النعم»^(٢). وهذا التفضيل للنفع المتعدي، واحتجوا بقوله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينتقص من أجورهم شيء»^(٣)، واحتجوا بقوله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير»^(٤)، وبقوله ﷺ: «إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر والنملة في جحرها»^(٥).

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس^(٦). ورأى هؤلاء الفرق في أمر الله ونفع عباده والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت

بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

(١) ضعيف. رواه أبو يعلى (٦/٦٥ و ١٠٦ و ١٩٤)، ورواه البزار (٢/٣٩٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (رواه أبو يعلى والبزار وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك) (٨/١٩١)، والطبراني في الكبير (١٠/١٠٥) والأوسط، قال الهيثمي: (فيه عمر وهو أبو هارون القرشي متروك) مجمع الزوائد (٨/١٩١)، ورواه الخطيب في تاريخه (٦/٣٣٤).

(٢) رواه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦). (٣) رواه مسلم (٢٦٧٤).

(٤) رواه الترمذي عن أبي أمامة (٢٦٨٥). (٥) رواه الترمذي (٢٦٨٢).

(٦) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن. والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعلم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن. والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل. والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاء، أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك. والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعب، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقراءهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشيعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأداة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشر، فهي أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله، فخلطتهم حينئذ أفضل من عزلتهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إظهار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه. وهؤلاء هم أهل التعب المطلق.

والأصناف قبلهم أهل التعب المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقض وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعب المطلق ليس له غرض في تعب بعينه يؤثر على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبه عليها. فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره: فإن رأيت العلماء رأيتهم معهم، وإن رأيت العباد رأيتهم معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيتهم معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيتهم معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيتهم معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيتهم معهم.

فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيدته القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه.

فهذا هو المتحقق بإياك نعبد وإياك نستعين حقاً، القائم بهما صدقاً. ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر به في كل وقت وبوقته، ومجلسه حيث انتهى ووجده خالياً، لا تملكه إشارة، ولا يتعبه قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الأمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالخنلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكتها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله.

فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق من البين وتخلي عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلي عنها، فواهاً له. ما أغربه بين الناس، وما أشدَّ وحشته منهم، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان.

[قواعد العبادة]

وَبِنِي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان، والقلب، وعمل القلب والجوارح.
فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقاً هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.
وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

ف﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ متضمن للتعريف بالأميرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بهما.

[لزوم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى الموت]

قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْنِيكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٤١﴾ حَقَّ أَتْنَا الْيَقِينَ﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧]. واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير.

وفي الصحيح في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه»^(١) أي الموت وما فيه.

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٣).

فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لَمَّا يسأله الملكان: «من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟»، ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه التعب فهو زنديق كافر بالله ورسوله، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه، وكلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ، بل على جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم. والواجب على أولي العزم: أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

[انقسام العبودية إلى عامة وخاصة]

العبودية نوعان: عامة، وخاصة.

فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برُّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣]. فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَخَزُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]. وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝٧ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْكَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]. وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة: لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعاً واختياراً، وانقياداً لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهراً ورجماً.

الفصل السابع

مراتب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علماء وعملًا

[مراتب العبودية]

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل؛ فأما مراتبها العلمية فمربتان:

إحداهما: العلم بالله.

والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب:

العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان:

إحداهما: دينه الأمر الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم العلم

بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية فمربتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين

المقربين.

فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب

المباحات وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات

والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية.

فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن دونهم

يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل

هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

□ □ □

ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح وهي لكل واحد من القلب واللسان، والجوارح.

[عبودية القلب]

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة، وهذه قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو أفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان:

إحدهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصدق. والفرق بينه وبين الإخلاص: أن للعبد مطلوباً وطلباً،

فالإخلاص: توحيد مطلوبه، والصدق: توحيد طلبه.

فالإخلاص: أن لا يكون المطلوب منقسماً. والصدق: أن لا يكون الطلب

منقسماً. فالصدق بذل الجهد، والإخلاص أفراد المطلوب.

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

وكذلك النصح في العبودية ومدار الدين عليه. وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية

على الوجه المحبوب للرب المرضي له. وأصل هذا واجب. وكمال مرتبة المقربين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق؛ وهو

مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين.

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة. قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين

موضعاً من القرآن، أو بضعاً وتسعين وله طرفان أيضاً. واجب مستحق، وكمال

مستحب.

وأما المختلف فيه فكالرضا، فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية، والقولان

لأصحاب أحمد. فمن أوجبه قال: السخط حرام؛ ولا خلاص عنه إلا بالرضا.

وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب.

ومن قال: هو مستحب، قال: لم يجئ الأمر به في القرآن ولا في السنة.
وإنما جاء في القرآن مدح أهله، والثناء عليهم لا الأمر به.

قالوا: وأما قولكم: «لا خلاص عن السخط إلا به» فليس بلازم فإن مراتب الناس في المقدور ثلاث. الرضا: وهو أعلاها، والسخط وهو أسفلها، والصبر عليه بدون الرضا به: وهو أوسطها، فالأولى للمقربين السابقين. والثالثة للمقتصدين. والثانية: للظالمين، وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط وهو غير راض به فالرضا أمر آخر.

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التآلم وظن أنهما متباينان. وليس كما ظنه، فالمريض الشارب للدواء الكريه متآلم به راض به، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متآلم. يصومه راضياً به، والبخيل متآلم بإخراج زكاة ماله راض بها. فالتآلم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به.

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به رباً وإلهاً والرضا بأمره الديني، فمتفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلماً إلا بهذا الرضا. «أن يرضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسلاً».

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء - وهو القلب - قائماً بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق وهي نوعان: كفر ومعصية.

فالكفر: كالشك والنفاق والشرك وتوابعها.

«والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر».

فالكبائر: كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدكم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة ولا صلاح للقلب، ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلاً بأضدادها ولا بد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها. وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضاً: شهوة المحرمات وتمنيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهي، فشهوة الكفر والشرك: كفر، وشهوة البدعة: فسق، وشهوة الكبائر: معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزاً عن بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(١)، فنزله منزلة القاتل، لحرصه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب. وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

[عبودية اللسان]

وأما عبوديات اللسان الخمس: فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما يتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام، وفي ابتدائه قولان. ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم، وهو أشدها تحريماً.

(١) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.
وقد اختلف السلف. هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين؟ على قولين.
والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة
وإما مرجوحة. لأن للسان شأناً ليس لسائر الجوارح، وإذا أصبح ابن آدم فإن
الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا،
وإن اعوججت اعوججنا. وأكثر ما يُكَبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد
ألسنتهم، وكل ما يتلفظ به اللسان، فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أو لا،
فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح.

وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح
المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه
منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا
يكون إلا مضرة. فتأمله.

[عبوديات الجوارح]

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً: إذ
الحواس خمسة؛ وعلى كل حاسة خمس عبوديات.
فعلى السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من
استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر
بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء.
ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة
من رده، أو الشهادة على قائله.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجنبية التي تخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم
تدع إليه حاجة، من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة
ونحوها.

وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع
ونحوها. ولا يجب عليه سدُّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا
خاف السكون إليه والإنصات، فحيث يجب تجنب سماعها وجوب سد الذرائع.
وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن،
وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكرهه ولا يعاقب عليه.
والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها وينفقها ويستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.
والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبية بشهوة مطلقاً، وبغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.
والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً والنظر في المصحف ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه. فإن له فضولاً كما للسان فضولاً، وكم قاد فضولها إلى فضول عزّ التخلص منها، وأعيى دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات. وهي قسمان:

عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت. فإن تركه حتى مات، مات عاصياً قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.
ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن به من الهلاك، على أصح القولين.

والذوق الحرام: كذوق الخمر والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم

الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في اللوائم والدعوات ونحوها، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله ﷻ، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.
وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي يعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوم وربُّ الخبْرة عند الحكم بالتقويم، والعبيد ونحو ذلك.
وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبية للافتتان بما وراءه.
وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «من عُرِضَ عليه ريحان فلا يردّه فإنه طيب الريح، خفيف المحمل»^(١).

والمكروه: كشم طيب الظلْمَة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.
والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس. فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يحب جماعها والأمة الواجب إعفافها.
والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبية.
والمستحب: إذا كان فيه غض بصره وكف نفسه عن الحرام وإعفاف أهله.
والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه.

ومن هذا لمس بدن الميت - لغير غاسله - لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريماً له، ولهذا يستحب ستره عن العيون وتغسيله في قميص في أحد القولين.
والمباح ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.
وهذه المراتب أيضاً مُرتَّبة على البطش باليد والمشى بالرجل، وأمثلتها لا تخفى^(٢).

(١) رواه مسلم (٢٢٥٣).

(٢) ما سبق من «مدارج السالكين» (٧/١ - ١٢٢) إلا ما سبق بيان مرجعه.

الفصل الثامن

مراتب الهداية في ﴿أَهْدِنَا﴾

إن حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: أن العبد يشهد من قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال، التي لها كل الأسماء الحسنى. ثم يشهد من قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً، قصداً وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً.

ثم يشهد من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جميع أنواع الاستعانة، والتوكل والتفويض، فيشهد منه جمع الربوبية.

ويشهد من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ جمع الإلهية.

ويشهد من ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ثم يشهد من ﴿أَهْدِنَا﴾ عشر مراتب إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان، فيجعله عالماً بالحق مدركاً له.

الثانية: أن يُقَدِّرَهُ عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مُرِيداً له.

الرابعة: أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة: أن يثبت على ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة، وأخص من الأولى، فإن

الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً، وهذه فيها وفي منازلها تفصيلاً.

الثامنة: أن يُشْهَدَ المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه، فيكون مطالعاً له في

سيره، ملتفتاً إليه غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشْهَدَ فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يُشْهَدَ الطريقين المنحرفين عن طريقها، وهما طريق أهل الغضب،

الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها

جهلاً وضللاً، ثم يشهد جمع ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين^(١).

(١) مدارج السالكين (٣/٥١٠).

الفصل التاسع

بحث في «فقه اللغة» لسورة الفاتحة

قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٢﴾ فيها عشرون مسألة:

أحدها: ما فائدة البدل في الدعاء^(١) والداعي مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان، والبدل القصد به بيان الاسم الأول.

الثانية: ما فائدة تعريف ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ باللام وهماً لأخبر عنه بمجرد اللفظ دونها، كما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

الثالثة: ما معنى الصراط ومن أي شيء اشتقاقه، ولم جاء على وزن فعال، ولم ذكر في أكثر المواضع في القرآن بهذا اللفظ، وفي سورة الأحقاف ذكر بلفظ الطريق؟ فقال: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

الرابعة: ما الحكمة في إضافته إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بهذا اللفظ ولم يذكرهم بخصوصهم فيقول: صراط النبيين والصديقين، فلم عدل إلى لفظ المبهم دون المفسر؟

الخامسة: ما الحكمة في التعبير عنهم بلفظ الذين مع صلتها دون أن يقال: المنعم عليهم، وهو أخصر كما قال: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وما الفرق.

السادسة: لم فرق بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم، فقال في أهل النعمة: الذين أنعمت، وفي أهل الغضب: المغضوب، بحذف الفاعل؟

السابعة: لم قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فعدى الفعل بنفسه ولم يعده بـ«إلى» كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَأَجْبِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧].

الثامنة: أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يقتضي أن

(١) البدل هو قوله تعالى: ﴿صِرَاطٍ﴾ فهي بدل من ﴿الصِّرَاطَ﴾ [الشامي].

نعمته مختصة بالأولين دون المغضوب عليهم ولا الضالين. وهذا حجة لمن ذهب إلى أنه لا نعمة له على كافر، فهل هذا استدلال صحيح أم لا؟
التاسعة: أن يقال: لم وصفهم بلفظ غير، وهلاً قال تعالى: لا المغضوب عليهم كما قال: ولا الضالين. وهذا كما تقول: مررت بزيد لا عمرو، وبالعاقل لا الأحمق.

العاشرة: كيف جرت «غير» صفة على الموصول وهي لا تتعرف بالإضافة وليس المحل محل عطف بيان؟ إذ بابه الأعلام ولا محل لذلك، إذ المقصود في باب البديل هو الثاني والأول توطئة وفي باب الصفات المقصود الأول، والثاني بيان وهذا شأن هذا الموضع، فإن المقصود ذكر المنعم عليهم ووصفهم بمغايرتهم معنى الغضب والضلال.

الحادية عشرة: إذا ثبت ذلك في البديل فالصراط المستقيم مقصود الإخبار عنه بذلك، وليس في نية الطرح، فكيف جاء صراط الذين أنعمت عليهم بدلاً منه وما فائدة البديل هنا؟

الثانية عشرة: إنه قد ثبت في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد وأبو حاتم تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود والنصارى وبأنهم الضالون، فما وجه هذا التقسيم والاختصاص وكل من الطائفتين ضال مغضوب عليه؟

الثالثة عشرة: لم قدم المغضوب عليهم في اللفظ على الضالين؟
الرابعة عشرة: لم أتى في أهل الغضب بصيغة مفعول المأخوذة من فعل ولم يأت في أهل الضلال بذلك فيقال: المضلين، بل أتى فيهم بصيغة فاعل المأخوذة من فعل؟

الخامسة عشرة: ما فائدة العطف بـ«لا» هنا؟ ولو قيل المغضوب عليهم والضالين لم يختل الكلام وكان أوجز.

السادسة عشرة: إذا قد عطف بها فيأتي العطف بها مع الواو للمنفي، نحو: ما قام زيد ولا عمرو، وكقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّاتِحَلُّهُمْ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢]. وأما بدون الواو فبابها الإيجاب، نحو: مررت بزيد لا عمرو فهذه ست عشرة مسألة في ذلك.

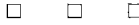
السابعة عشرة: هل الهداية هنا هداية التعريف والبيان أو هداية التوفيق والإلهام؟

الثامنة عشرة: كل مؤمن مأمور بهذا الدعاء أمراً لازماً لا يقوم غيره مقامه ولا بد منه، وهذا إنما نسأله في الصلاة بعد هدايته فما وجه السؤال لأمر حاصل، وكيف يطلب تحصيل الحاصل؟

التاسعة عشرة: ما فائدة الإتيان بضمير الجمع في اهدنا والداعي يسأل ربه لنفسه في الصلاة وخارجها ولا يليق به ضمير الجمع؟ ولهذا يقول: (رب اغفر لي وارحمني وتب علي).

العشرون: ما حقيقة الصراط المستقيم الذي يتصوره العبد وقت سؤاله؟ فهذه أربع مسائل حقها أن تقدم أولاً، ولكن جر الكلام إليها بعد ترتيب المسائل الست عشر.

فالجواب بعون الله وتعليمه، فإنه لا علم لأحد من عباده إلا ما علمه، ولا قوة له إلا بإعانتة.



أما المسألة الأولى: وهي فائدة البذل من الدعاء، أن الآية وردت في معرض التعليم للعباد والدعاء، وحق الداعي أن يستشعر عند دعائها ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به، إذ الدعاء مخ العبادة^(١). والمخ لا يكون إلا في عظم والعظم لا يكون إلا في لحم ودم، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجاً بالثناء، فمن ثمَّ جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيها مشوباً بالخير تصريحاً من الداعي بمعتقدته وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه، فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم، وأنه صراط الذي اختصهم بنعمته، وحباهم بكرامته فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. والمخالفون للحق يزعمون أنهم على الصراط المستقيم أيضاً والداعي يجب عليه اعتقاد خلافهم وإظهار الحق الذي في نفسه، فلذلك أبدل وبين لهم ليمرن اللسان على ما اعتقده الجنان.

ففي ضمن هذا الدعاء المهم، الإخبار بفائدتين جليلتين، إحداهما: فائدة الخبر، والفائدة الثانية: فائدة لازم الخبر. فأما فائدة الخبر فهي الإخبار عنه بالاستقامة

(١) ورد في حديث «ضعيف» رواه الترمذي (٣٣٧١).

ويغني عنه الحديث الصحيح: «الدعاء هو العبادة» رواه الترمذي (٢٩٦٩).

وأنة الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته، وأما فائدة لازم الخبر لإقرار الداعي بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلى ربه .

فهذه أربع فوائد: الدعاء بالهداية إليه، والخبر عنه بذلك، والإقرار، والتصديق لشأنه، والتوسل إلى المدعو إليه بهذا التصديق؛ وفيه فائدة خامسة: وهي أن الداعي إنما أمر بذلك لحاجته إليه، وأن سعادته وفلاحه لا تتم إلا به، فهو مأمور بتدبر ما يطلب وتصور معناه، فذكر له من أوصافه ما إذا تصور في خلدته وقام بقلبه كان أشد طلباً له وأعظم رغبة فيه، وأحرص على دوام الطلب والسؤال له . فتأمل هذه النكت البديعة .



وأما المسألة الثانية: وهي تعريف الصراط باللام هنا؛ فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، ألا ترى أن قولك: جالس فقيهاً أو عالماً، ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم . ولا قولك: أكلت طيباً، كقولك: الطيب . ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق»، ثم قال: «ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق»^(١)، فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثه، وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه، فإذا عرفت هذا فلو قال: اهدنا صراطاً مستقيماً لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط المعين: الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته، وجعله طريقاً إلى رضوانه وجنته وهو دينه الذي لا دين له سواه، فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن، لا شيء مطلق منكر .

واللام هنا للعهد العَلَمي الذهني وهو أنه طلب الهداية إلى سر معهود، قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال، فلم يكن بد من التعريف .

(فإن قيل): لم جاء منكرأ في قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَجْنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦٦]؟

(١) رواه البخاري (١١٢٠، ٧٤٩٩)، ومسلم (٧٦٩).

فالجواب هو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم، وهداية رسوله إليه، ولم يكن للمخاطبين عهد به ولم يكن معروفاً لهم، فلم يجئ معرفاً بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده، ولا تقدمه في اللفظ معهود تكون اللام معروفة إليه، وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين الموضوعين: أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكري لفظي، وإذا لا واحد منهما في هذه المواضع؛ فالتنكير هو الأصل وهذا بخلاف قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)، فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن الله صراطاً مستقيماً هدى إليه أنبياءه ورسله وكان المخاطب سبحانه المسؤول من هدايته عالماً به دخلت اللام عليه فقال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢).

□ □ □

وأما المسألة الثالثة: وهي اشتقاق الصراط، فالمشهور أنه من: صرطت الشيء أصرطه إذا بلعته بلعاً سهلاً فسمي الطريق صراطاً لأنه يسترط المارة فيه. والصراط ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقاً مستقيماً، سهلاً، مسلوكاً، واسعاً، موصلاً إلى المقصود. فلا تسمي العرب الطريق المعوج صراطاً ولا الصعب المشق، ولا المسدود غير الموصل، ومن تأمل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك، قال جرير^(١):

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا عَوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٍ

وبنوا الصراط على زنة فعال، لأنه مشتمل على سالكة اشتمال الحلق على الشيء المسروط، وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء كاللحاف والخمار والرداء والغطاء والفراش والكتاب إلى سائر الباب يأتي لثلاثة معانٍ:
أحدها: المصدر كالقتال والضراب.

والثاني: المفعول نحو الكتاب والبناء والغراس.

والثالث: أنه يقصد به قصد الآلة التي يحصل بها الفعل ويقع بها، كالخمار والغطاء والسداد لما يخمر به ويغطي ويسد به، فهذا آلة محضة والمفعول هو الشيء المخمر والمغطي والمسدود.

(١) هو جرير بن عطية الخطفي.. وهو من فحول الشعراء، كان شُبّه من شعراء الجاهلية بالأعشى، الشعر والشعراء. (طبقات الشعراء) لابن قتيبة (٢٣٢)، والبيت من ديوانه (٥٠٧).

ومن هذا القسم الثالث إله بمعنى مألوه.

وأما ذكره له بلفظ الطريق في سورة الأحقاف خاصة، فهذا حكاية الله تعالى لكلام مؤمني الجن أنهم قالوا لقومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. وتعبيرهم عنه ههنا بالطريق فيه نكتة بديعة، وهي: أنهم قدموا قبله ذكر موسى وأن الكتاب الذي سمعوه مصدقاً لما بين يديه من كتاب موسى وغيره، فكان فيه كالنبا عن رسول الله ﷺ في قوله لقومه: ﴿مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم، وإنما بعثت مصدقاً لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان، فقال مؤمنو الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى سبيل مطروق؛ قد مرت عليه الرسل قبله، وأنه ليس ببدع كما قال في أول السورة نفسها، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول أي مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل، فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقه، فذكر الطريق هاهنا إذاً أولى لأنه أدخل في باب الدعوة والتنبيه على تعين اتباعه والله أعلم. ثم رأيت هذا المعنى بعينه قد ذكره السهيلي^(١)، فوافق فيه الخاطر الخاطر.

□ □ □

وأما المسألة الرابعة: وهي إضافته إلى الموصول المبهم دون أن يقول: صراط النبيين والمرسلين، ففيه ثلاث فوائد:

(إحداها) إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا، فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم، هو بهدائيتهم إلى هذا الصراط. فبه صاروا من أهل النعمة، وهذا كما يعلق الحكم بالصلة دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علق عليها من الحكم بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْإِنْتِهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا

(١) ذكره السهيلي - رحمه الله تعالى - في كتابه الممتع النفيس «نتائج الفكر» ص(٥٩)، وما بعدها، في بحث نفيس في معنى قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ.

حَوْثٌ عَلَيْهِمْ ﴿١٣﴾ [الأحقاف: ١٣]. وهذا الباب مطرد فالإتيان بالاسم موصولاً على هذا المعنى من ذكر الاسم الخاص.

(الفائدة الثانية) فيه إشارة إلى أن نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن من هدي إلى هذا الصراط، فقد أنعم عليه فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله؛ أن الأول: يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل الهداية إليه، والثاني: يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه.

(الفائدة الثالثة) أن الآية عامة في جميع طبقات المنعم عليهم، ولو أتى باسم خاص لكان لم يكن فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم فكان في الإتيان بالاسم العام من الفائدة أن المسؤول الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التي سلكها كل من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا أجل مطلوب وأعظم مسؤول، ولو عرف الداعي قدر هذا السؤال لجعله هجيراً وقرنه بأنفاسه فإنه لم يدع شيئاً من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه. ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضاً متكرراً في اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه، ومن ثم يعلم تعين الفاتحة في الصلاة، وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها.

□ □ □

وأما المسألة الخامسة: وهي أنه قال: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: المنعم عليهم، كما قال: ﴿الْمَعْصُومِينَ عَلَيْهِمْ﴾ فجوابها وجواب المسألة السادسة واحد، وفيه فوائد عديدة:

(أحدها) أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجلود تضاف إلى الله ﷻ فيذكر فاعلها منسوبة إليه، ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جاء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبني الفعل معها للمفعول أدباً في الخطاب وإضافته إلى الله أشرف قسمي أفعاله فمنه هذه الآية، فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبني الفعل للمفعول فقال: ﴿الْمَعْصُومِينَ عَلَيْهِمْ﴾، وقال في الإحسان: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يُهْدِينِي﴾ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٨٠﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠].

فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض، قال: ﴿وَلِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل: أمرضني، وقال: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدَ بِنِي آلِ الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]. فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب، وحذفوا فاعل إرادة الشر، وبنوا الفعل للمفعول.

ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فأضاف العيب إلى نفسه. وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

ومنه وهو أطف من هذا وأدق معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ...﴾ إلى آخرها [النساء: ٢٣]، ثم قال: ﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤].

وتأمل قوله: ﴿فِيظَلُّوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَلَبْتِ أَجَلْتُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]. كيف صرح بفاعل التحريم في هذا الموضع، وقال في حق المؤمنين: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَتُهُ وَالْدَّمُ﴾ [المائدة: ٣].

(الفائدة الثانية) أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها، وأصل الشكر ذكر المنعم والعمل بطاعته، وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى، الذي هو أساس الشكر، وكان في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من ذكره وإضافته النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله، فضمن هذا اللفظ الأصليين، وهما الشكر والذكر المذكوران في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

(الفائدة الثالثة) أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده، وهو المنعم بالهداية دون أن يشركه أحد في نعمته، فاقتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف الأفراد فيقال: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة، وأما الغضب، فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم، وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم، فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه، ويرضى عمن رضي عنه، فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه، وهذا حقيقة العبودية، واليهود قد غضب الله عليهم، فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم، فحذف فاعل

الغضب، وقال: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضب الله عليه بخلاف الإنعام، فإنه لله وحده، فتأمل هذه النكتة البديعة.

(الفائدة الرابعة) أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم، والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم والاختصار عليها، وأما أهل النعمة فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشادة بذكرهم، وإذا ثبت هذا فالألف واللام في المغضوب وإن كانتا بمعنى الذين فليست مثل الذين في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمى، فإن قولك: الذين فعلوا معناه القوم الذين فعلوا، وقولك: الضاربون والمضربون ليس فيه ما في قولك: الذين ضربوا أو ضربوا. فتأمل ذلك. فالذين أنعمت عليهم، إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم بخلاف المغضوب عليهم، فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم، والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم.

□ □ □

وأما المسألة السابعة: وهي تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف «إلى»^(١). فجوابها أن فعل الهداية يتعدى بنفسه تارة وبحرف «إلى» تارة وباللام تارة، والثلاثة في القرآن.

فمن المعدى بنفسه هذه الآية وقوله: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

ومن المعدى بـ«إلى» قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومن المعدى باللام قوله قول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾

[الأعراف: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والفروق لهذه المواضع تدق جداً عن أفهام العلماء، ولكن نذكر قاعدة تشير إلى الفرق وهي: أن الفعل المعدى بالحروف المتعددة لا بد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق نحو: رغبت عنه، ورغبت فيه، وعدلت إليه، وعدلت عنه، وملت إليه وعنه، وسعيت إليه وبه.

وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق نحو: قصدت إليه، وقصدت له، وهديته إلى كذا، وهديته لكذا.

(١) في قوله: ﴿أَهْدَانَا الصِّرَاطَ﴾ حيث لم يقل: اهدنا إلى الصراط [الشامي].

وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر.

وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف، ومعنى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال فيشربون الفعل المتعدي به معناه، هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه^(١) رحمه الله تعالى، وطريقة حدّاق أصحابه يضمّنون الفعل معنى الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف.

وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن.

وهذا نحو قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]. فإنهم يضمّنون يشرب معنى يروي، فيعدونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل على الفعلين أحدهما: بالتصريح به، والثاني: بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها. ومنه قوله في السحاب: شربن بماء البحر حتى روين، ثم ترفعن وصعدن. وهذا أحسن من أن يقال: يشرب منها، فإنه لا دلالة فيه على الري، وأن يقال: يروي بها لأنه لا يدل على الشرب بصريحه، بل باللزوم، فإذا قال: يشرب بها دل على الشرب بصريحه وعلى الري بخلاف الباء، فتأمل.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُلْطَمُ تَذْفَهُ﴾ [الحج: ٢٥]. وفعل الإرادة لا يتعدى بالباء ولكن ضمن معنى يهم فيه بكذا، وهو أبلغ من الإرادة، فكان في ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة، وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه، ويكفي المثالان المذكوران.

فإذا عرفت هذا ففعل الهداية متى عدي بـ«إلى» تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتي بحرف الغاية، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتي باللام الدالة على الاختصاص والتعيين، فإذا قلت: هديته لكذا، فهم معنى ذكرته له وجعلته له وهياته ونحو هذا، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله، وهو التعريف والبيان والإلهام.

(١) سيبويه: إمام النحو، حجة العرب، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي، ثم البصري، صاحب «الكتاب» الذي لم ينسج مثله. وسيبويه تعني «رائحة التفاح». عاش اثنتين وثلاثين سنة، وقيل: نحو الأربعين، قيل: مات سنة ثمانين ومئة وهو أصح، وقيل: سنة ثمان وثمانين ومئة. من سير أعلام النبلاء (٨/٣٥١)، تاريخ بغداد (١٢/١٩٥).

فالقائل إذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، هو طالب من الله أن يعرفه إياه ويبيئه له ويلهمه إياه ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف وأتى به مجرداً معدى بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عدي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف، فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها.

□ □ □

وأما المسألة الثامنة: وهي أنه خص أهل السعادة^(١) بالهداية دون غيرهم فهذه مسألة اختلف الناس فيها وطال الحجاج من الطرفين؛ وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا؟ فمن نافٍ محتج بهذه بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. فخص هؤلاء بالإنعام فدل على أن غيرهم غير منعم عليه، ولقوله لعباده المؤمنين: ﴿وَلَا تُؤْتُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]. وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة فأى نعمة على من خلق للعذاب الأبدي؟

ومن مثبت محتج بقوله: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله لليهود: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. وهذا خطاب لهم في حال كفرهم، وبقوله في سورة النحل التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٨١] فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُمِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْذَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨١ - ٨٣]. وهذا نص صريح لا يحتمل صرفاً.

واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة الله، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم إلا من كابر وجحد حق الله تعالى وكفر بنعمته.

وفصل الخطاب في المسألة: أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم، ومطلق النعمة عام للخلقة كلهم؛ برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم، فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم فهذه غير مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك، فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب، وإن أراد

(١) وفي نسخة خص أهل الهداية بالنعمة دون غيرهم.

سلب مطلق النعمة أخطأ، وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب.

وبهذا تتفق الأدلة، ويزول النزاع؛ ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب، والله الموفق للصواب.

وأما قوله تعالى: ﴿يَبَيِّنْ إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم، ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة؛ بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم. وبأن ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله، والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته، وكأن نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكراً، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفرهم برسولي وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه؟ وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم، والله أعلم.

□ □ □

وأما المسألة التاسعة: وهي أنه قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ﴾ ولم يقل: (لا المغضوب عليهم) فيقال: لا ريب أن «لا» يعطف بها بعد الإيجاب، كما تقول: جاءني زيد لا عمرو، وجاءني العالم لا الجاهل. وأما «غير» فهي تابع لما قبلها وهي صفة ليس إلا كما سيأتي، وإخراج الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخرجه مخرج العطف، وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف في هذا الموضع والوصف، فتقول: لو أخرج الكلام مخرج العطف وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم لا المغضوب عليهم، لم يكن في العطف بها أكثر من نفي إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم كما هو مقتضى العطف، فإنك إذا قلت: جاءني العالم لا الجاهل، لم يكن في العطف أكثر من نفي المجيء عن الجاهل وإثباته للعالم، وأما الإتيان بلفظ «غير» فهي صفة لما قبلها، فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين أحدهما: أنهم منعم عليهم، والثاني: أنهم غير مغضوب عليهم، فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الشناء عليهم ومدحهم، فإنه يتضمن صفتين: صفة ثبوتية وهي كونهم منعماً عليهم، وصفة سلبية وهي كونهم غير مستحقين لوصف الغضب وأنهم مغايرون

لأهله، ولهذا لما أريد بها هذا المعنى جرت صفة على المنعم عليهم، ولم تكن صفة منصوبة على الاستثناء لأنها يزول منها معنى الوصفية المقصود.

وفيها فائدة أخرى وهي أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادعوا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام، فكأنه قيل لهم: المنعم عليهم غيركم لا أنتم. وقيل للمسلمين: المغضوب عليهم غيركم لا أنتم. فالإتيان بلفظة غير في هذا السياق أحسن وأدل على إثباتها المغايرة المطلوبة.

فتأمله وتأمل كيف قال: المغضوب عليهم ولا الضالين، ولم يقل: اليهود والنصارى مع أنهم هم الموصوفون بذلك تجريداً لوصفهم بالغضب والضلال الذي به غايروا المنعم عليهم، ولم يكونوا منهم بسبيل لأن الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال، فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد.

□ □ □

وأما المسألة العاشرة: وهي جريان «غير» صفة على المعرفة، وهي لا تتعرف بالإضافة ففيه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن «غير» هنا بدل لا صفة وبدل النكرة من المعرفة جائز، وهذا فاسد من وجوه.

[منها]: أن «غير» لا يعقل ورودها بدلاً وإنما ترد استثناء أو صفة أو حالاً. وسر ذلك أنها لم توضع مستقلة بنفسها بل لا تكون إلا تابعة لغيرها، ولهذا قلما يقال: جاءني غير زيد، ومررت بغير عمرو. والبدل لا بد أن يكون مستقلاً بنفسه كما تبين أنه المقصود، ونكتة الفرق أنك في باب البدل قاصد إلى الثاني متوجه إليه، قد جعلت الأول سلماً ومرقاة إليه فهو موضع قصدك ومحط إرادتك، وفي باب الصفة بخلاف ذلك إنما أنت قاصد الموصوف موضع له بصفته، فاجعل هذه النكتة معياراً على باب البدل والوصف ثم زن بها غير المغضوب عليهم هل يصح أن يكون بدلاً أو وصفاً؟

الجواب الثاني: أن «غير» ههنا صح جريانه صفة على المعرفة، لأنها موصولة، والموصول مبهم غير معين ففيه رائحة من النكرة لإبهامه، فإنه غير دال على معين، فصلح وصفه «بغير» لقربه من النكرة، وهذا جواب صاحب الكشاف قال: (فإن قلت: كيف صح أن يقع «غير» صفة للمعرفة وهو لا يتعرف، وإن أضيف إلى المعارف قلت: الذين أنعمت عليهم، لا توقيت فيه فهو كقوله:

ولقد أمر على اللثيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني) ومعنى قوله: لا توقيت فيه، أي لا تعيين لواحد من واحد كما تعين المعرفة، بل هو مطلق في الجنس، فجرى مجرى النكرة، واستشهاده بالبيت معناه أن الفعل نكرة وهو يسبني، وقد أوقعه صفة للثيم المعرفة^(١) باللام لكونه غير معين فهو في قوة النكرة فجاز أن ينعت بالنكرة، وكأنه قال: على لثيم يسبني.

وهذا استدلال ضعيف؛ فإن قوله: (يسبني) حال منه لا وصف، والعامل فيه فعل المرور. المعنى أمر على اللثيم ساباً لي، أي أمر عليه في هذه الحال فأتجاوزه ولا أحفل بسبه.

الجواب الثالث: وهو الصحيح أن «غير» هنا قد تعرفت بالإضافة، فإن المانع لها من تعريفها شدة إبهامها أو عمومها في كل مغاير للمذكور، فلا يحصل بها تعيين ولهذا تجري صفة على النكرة مع إضافتها إلى المعرفة، ومعلوم أن هذا الإبهام يزول لوقوعها بين متضادين يذكر أحدهما ثم تضيفها إلى الثاني فيتعين بالإضافة ويزول الإبهام الذي يمنع تعريفها بالإضافة كما قال:

نحن بنو عمرو الهجان الأزهر النسب المعروف غير المنكر
أفلا تراه أجرى «غير المنكر» صفة على «النسب» كما أجرى عليه «المعروف»؛
لأنهما صفتان معينتان، فلا إبهام في «غير» لأن مقابلها «المعروف» وهو معرفة
وضده المنكر متميز متعين كتعيين «المعروف»، أعني تعين الجنس.

وهكذا قوله: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فالمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم، فإذا كان الأول معرفة كانت «غير» معرفة لإضافتها إلى محصل متميز غير مبهم، فاكتسبت منه التعريف، وينبغي أن تتفطن هنا لنكتة لطيفة في «غير» تكشف لك حقيقة أمرها، فأين تكون معرفة؟ وأين تكون نكرة؟ وهي أن «غير» هي نفس ما تكون تابعة له وضد ما هي مضافة إليه فهي واقعة على متبوعها وقوع الاسم المرادف على مرادفه، فإن «المعروف» هو تفسير «غير المنكر»، والمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم، هذا حقيقة اللفظة، فإذا كان متبوعها نكرة لم تكن إلا نكرة، وإن أضيفت، كما إذا قلت: رجل غيرك فعل كذا وكذا، وإذا كان متبوعها معرفة لم تكن إلا معرفة، كما إذا قيل: المحسن غير المسيء محبوب معظم عند الناس،

(١) في نسخة المعرف.

والبر غير الفاجر مهيب، والعاذل غير الظالم مجاب الدعوة، فهذا لا تكون فيه «غير» إلا معرفة، ومن ادعى فيها التثكير هنا غلط وقال ما لا دليل عليه، إذ لا إبهام فيها بحال فتأمله.

فإن قلت: عدم تعريفها بالإضافة له سبب آخر وهي أنها بمعنى «مغاير» اسم فاعل من «غاير» كمثل بمعنى مماثل، وشبه بمعنى مشابه، وأسماء الفاعلين لا تعرف بالإضافة وكذا ما ناب عنها.

قلت: اسم الفاعل إنما لا يتعرف بالإضافة إذا أضيف إلى معموله، لأن الإضافة في تقدير الانفصال، نحو هذا ضارب زيد غداً. وليست «غير» بعاملة فيما بعدها عمل اسم الفاعل في المفعول حتى يقال: الإضافة في تقدير الانفصال، بل إضافتها إضافة محضة كإضافة غيرها من النكرات. ألا ترى أن قولك: غيرك، بمنزلة قولك: سواك. ولا فرق بينهما، والله أعلم.

□ □ □

وأما المسألة الحادية عشرة: وهي: ما فائدة إخراج الكلام في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿مخرج البدل مع أن الأول في نية الطرح؟

(فالجواب): أن قولهم الأول في البدل في نية الطرح كلام لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه، بل البدل نوعان: نوع يكون الأول فيه في نية الطرح، وهو بدل البعض من الكل وبدل الاشتمال؛ لأن المقصود هو الثاني لا الأول وقد تقدم، ونوع لا ينوي فيه طرح الأول وهو بدل الكل من الكل بل يكون الثاني بمنزلة التذكير والتوكيد وتقوية النسبة، مع ما تعطيه النسبة الإسنادية إليه من الفائدة المتجددة الزائدة على الأول، فيكون فائدة البدل التوكيد والإشعار بحصول وصف المبدل للمبدل منه.

فإنه لما قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فكأن الذهن طلب معرفة ما إذا كان هذا الصراط مختصاً بنا أم سلكه غيرنا ممن هداه الله، فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا كما إذا دلت رجلاً على طريق لا يعرفها وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لا يفارقها، فأنت تقول: هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك، ثم تزيد ذلك عنده توكيداً وتقوية فتقول: وهي الطريق التي سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة. أفلا ترى كيف أفاد وصفك لها بأنها طريق السالكين

الناجين قدراً زائداً على وصفك لها بأنها طريق موصلة وقريبة سهلة مستقيمة؟ فإن النفوس مجبولة على التأسى والمتابعة، فإذا ذكر لها من تتأسى به في سلوكها أنست واقتحمتها، فتأمله.

□ □ □

وأما المسألة الثانية عشرة: وهي ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى، مع تلازم وصفى الغضب والضلال؟

(فالجواب) أن يقال: هذا ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى، فإن كل مغضوب عليه ضال وكل ضال مغضوب عليه، لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفها وأحقها به وألصقه بها، وأن ذلك هو الوصف الغالب عليهما، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب في القرآن والنصارى بالضلال، فهو تفسير للآية بالصفة التي وصفهم بها في ذلك الموضع. أما اليهود فقال تعالى في حقهم: ﴿يَسْكَمَا أَشْتَرُوا بِوَجْهِ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَضْبٍ عَلَى عَضْبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]. وفي تكرار هذا الغضب هنا أقوال:

أحدها: أنه غضب متكرر في مقابلة تكرر كفرهم برسول الله ﷺ والبغي عليه ومحاربتة، فاستحقوا بكفرهم غضباً، وبالبغي والحرب والصد عنه غضباً آخر.

القول الثاني: أن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء والغضب الثاني بكفرهم بالمسيح.

والقول الثالث: أن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح، والغضب الثاني بكفرهم بمحمد ﷺ.

والصحيح في الآية أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التي تشفع الواحد، بل المراد غضب بعد غضب بحسب تكرر كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء، وكفرهم بالمسيح، وبمحمد ﷺ ومعاداتهم لرسول الله، إلى غير ذلك من الأعمال التي كل عمل منها يقتضي غضباً على حدته. وهذا كما في قوله: ﴿فَأْتِجِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (٢) ثُمَّ أَتِجِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴿[الملك: ٣، ٤]، أي كرة بعد كرة لا مرتين فقط. وقصد التعدد في قوله: ﴿فَبَاءُوا بِعَضْبٍ عَلَى عَضْبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] أظهر، ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضباً، وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضباً آخر، وقتلهم إياهم يستدعي غضباً آخر، وتكذيبهم المسيح

وطلبهم قتله ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضباً، وتكذيبهم النبي ﷺ يستدعي غضباً، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضي غضباً، وصددهم من أراد الدخول في دينه عنه يقتضي غضباً، فهم الأمة الغضبية أعادنا الله من غضبه، فهي الأمة التي باءت بالغضب المضاعف المتكرر، وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى.

وقال تعالى في شأنهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مُؤَبَّةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]. فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسوخ وهو أشد ما يكون من الغضب.

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨٠].

وأما وصف النصارى بالضللال ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٧]. فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولاً، ثم أضلوا كثيراً وهم أتباعهم، فهذا قبل مبعث النبي ﷺ حيث ضلوا في أمر المسيح وأضلوا أتباعهم، فلما بعث النبي ﷺ ازدادوا ضللاً آخر بتكذيبهم له وكفرهم به فتضاعف الضلال في حقهم.

هذا قول طائفة منهم الزمخشري وغيره.

وهو ضعيف فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع فوصفهم بثلاث صفات:

أحدها: أنهم قد ضلوا من قبلهم.

والثاني: أنهم أضلوا أتباعهم.

والثالث: أنهم ضلوا عن سواء السبيل.

فهذه صفات لأسلافهم الذين نهى هؤلاء عن اتباع أهوائهم، فلا يصح أن يكون

وصفاً للموجودين في زمن النبي ﷺ؛ لأنهم هم المنهيون أنفسهم لا المنهين عنهم، فتأمله. وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال في النصرارى ضلالاً بعد ضلال لفرط جهلهم بالحق، وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار الغضب في حق اليهود، ولهذا كان النصرارى أخص بالضلال من اليهود، ووجه تكرار هذا الضلال أن الضال قد أخطأ نفس مقصوده، فيكون ضالاً فيه فيقصد ما لا ينبغي أن يقصده ويعبد من لا ينبغي أن يعبد، وقد يصيب مقصوداً حقاً، لكن يضل في طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه.

فالأول: ضلال في الغاية.

والثاني: ضلال في الوسيلة، ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله.

وأسلاف النصرارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة؛ فضلوا عن مقصودهم حيث لم يصيبوه، وزعموا أن إلههم بشر يأكل ويشرب ويبكي وأنه قتل وصلب وشفع، فهذا ضلال في نفس المقصود حيث لم يظفروا به وضلوا عن السبيل الموصلة إليه، فلا اهدوا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصول إليه، ودعوا أتباعهم إلى ذلك فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيراً، فكانوا أدخل في الضلال من اليهود فوصفوا بأخص الوصفين.

والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة، فخافوا أن يذهب بالإسلام فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق، فإنهم كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله كما يعرفون أبناءهم، ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعههم إلا بإرادتهم الفاسدة من الكبر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء، ووبخ النصرارى بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق، فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى يتركب منها، فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به وإيثار غيره عليه بعد معرفته، فلم يكن ضلالاً محضاً، وكفر النصرارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوباً عليهم ضالين.

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نياله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق، والبغي يمنعه من إرادته، كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم؛

تعريفاً وبياناً وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً وإعانة، فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريداً له قاصداً لاتباعه، فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال.

وكان السلف يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى. وهذا كما قالوا، فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه، وحسد من آتاه الله من فضله، وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، إلى غير ذلك من الأخلاق التي ذم بها اليهود؛ من الكفر واللي والكتمان والتحريف والتحيل على المحارم وتلبس الحق بالباطل، فهذا شبهه باليهود ظاهر. وأما من فسد من العبّاد فعبد الله بمقتضى هواه، لا بما بعث به رسوله ﷺ، وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد، فشبّه بالنصارى ظاهر.

فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد. ومن تصور الشبهين والوصفين وعلم أحوال الخلق علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه ولا أوجب منه عليه، وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته، وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين إنه قريب مجيب.

□ □ □

وأما المسألة الثالثة عشرة: وهو تقديم المغضوب عليهم على الضالين، فلوجوه عديدة:

أحدها: أنهم متقدمون عليهم بالزمان.

الثاني: أنهم كانوا هم الذين يلون النبي ﷺ من أهل الكتابين، فإنهم كانوا جيرانه في المدينة، والنصارى كانت ديارهم نائية عنه، ولهذا تجد خطاب اليهود والكلام معهم في القرآن أكثر من خطاب النصارى، كما في سورة البقرة والمائدة وآل عمران وغيرها من السور.

الثالث: أن اليهود أغلظ كفرّاً من النصارى، ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة؛ فإن كفرهم عن عناد وبغي كما تقدم، فالتحذير من سبيلهم والبعد

منها أحق وأهم بالتقديم وليس عقوبة من جهل كعقوبة من علم وعاند.
والرابع: وهو أحسنها أنه تقدم ذكر المنعم عليهم، والغضب ضد الإنعام،
 والسورة هي السبع المثاني التي يذكر فيها الشيء ومقابله، فذكر المغضوب عليهم
 مع المنعم عليهم فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس في تقديم الضالين، فقولك:
 الناس منعم عليه ومغضوب عليه فكن من المنعم عليهم، أحسن من قولك: منعم
 عليه وضال.

□ □ □

وأما المسألة الرابعة عشرة: وهي أنه أتى في أهل الغضب باسم المفعول، وفي
 الضالين باسم الفاعل.

فجوابهما ظاهر؛ فإن أهل الغضب من غضب الله عليهم وأصابهم غضبه فهم
 مغضوب عليهم، وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه،
 ولهذا استحقوا العقوبة عليه، ولا يليق أن يقال: ولا المضلين مبنياً للمفعول، لما
 في رايحه من إقامة عذرهم، وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم بل فعل فيهم.

□ □ □

وأما المسألة الخامسة عشرة: وهي ما فائدة زيادة «لا» بين المعطوف والمعطوف
 عليه؟ ففي ذلك أربع فوائد:

أحدها: أن ذكرها تأكيد للنفي الذي تضمنه «غير»، فلولا ما فيها من معنى النفي
 لما عطف عليها بلا مع الواو، فهو في قوة: لا المغضوب عليهم ولا الضالين، أو
 غير المغضوب عليهم وغير الضالين.

الفائدة الثانية: أن المراد المغايرة الواقعة بين النوعين، وبين كل نوع بمفرده،
 فلو لم يذكر «لا»، وقيل: غير المغضوب عليهم والضالين، أو هم أن المراد ما غير
 المجموع المركب من النوعين، لا ما غير كل نوع بمفرده، فإذا قيل: ولا الضالين
 كان صريحاً في أن المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء. وبيان ذلك أنك إذا
 قلت: ما قام زيد وعمرو، فإنما نفيت القيام عنهما، ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل
 واحد منهما بمفرده.

الفائدة الثالثة: رفع توهم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم، وأنهما صنف
 واحد، وصفوا بالغضب والضلال ودخل العطف بينهما كما يدخل في عطف
 الصفات بعضها على بعض، نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي

صَلَاتِهِمْ حَشِيعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴿١﴾ إلى آخرها [المؤمنون: ١ - ٣].
فإن هذه صفات للمؤمنين، ومثل قوله: ﴿سَيِّحَ أَسَدَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ﴿٢﴾
وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ [الأعلى: ١ - ٣]، ونظائره، فلما دخلت «لا» علم أنهما صنفان
متغايران مقصودان بالذكر وكانت «لا» أولى بهذا المعنى من «غير» لوجوه:
أحدها: أنها أقل حروفاً.

الثاني: التفادي من تكرار اللفظ.

الثالث: الثقل الحاصل بالنطق بغير مرتين من غير فصل إلا بكلمة مفردة، ولا
ريب أنه ثقل على اللسان.

الرابع: أن «لا» إنما يعطف بها بعد النفي، فالإتيان بها مؤذن بنفي الغضب عن
أصحاب الصراط المستقيم كما نفي عنهم الضلال، و«غير» وإن أفهمت هذا ف«لا»
أدخل في النفي منها.

وقد عرف بهذا الجواب، المسألة السادسة عشرة وهي أن «لا» إنما يعطف بها
في النفي.

□ □ □

وأما المسألة السابعة عشرة: وهي أن الهداية هنا من أي أنواع الهدايات؟ فاعلم
أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي
أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]. أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشبهه
فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به،
ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى
جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق
به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها،
وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرجلين للمشي، واليدين للبطش
والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو
لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد،
وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه.

ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو، فتبارك الله رب العالمين. وهدى
النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومن الأبنية، ثم تسلك سبل ربها مذلة

لها لا تستعصي عليها ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء.

ومن تأمل بعض هدايته الماثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة، فإن من لم يهمل هذه الحيوانات سدى ولم يتركها معطلة بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها؛ كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير من خلقه مهملًا وسدى معطلًا لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته، بل يتركه معطلًا لا يأمره ولا ينهيه ولا يثيبه ولا يعاقبه؟ وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله؟! ولهذا أنكر ذلك على من زعمه ونزه نفسه عنه، وبين أنه يستحيل نسبة ذلك إليه وأنه يتعالى عنه فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴿المؤمنون: ١١٥، ١١٦﴾. فنزه نفسه عن هذا الحساب فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا لا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿فصلت: ١٧﴾، أي: بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا. ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿الشورى: ٥٢﴾.

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴿المدثر: ٣١﴾.

الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلها إليهما، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿يونس: ٩﴾، وقال أهل الجنة فيها: ﴿لَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴿الأعراف: ٤٣﴾، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿تَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْجَاهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿الصفات: ٢٢، ٢٣﴾.

إذا عرف هذا فالهداية المسؤولة في قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام. (فإن قيل): كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق؟ قيل: هذه هي.

□ □ □

المسألة الثامنة عشرة: وقد أجاب عنها من أجاب: بأن المراد التثبيت ودوام الهداية، ولقد أجاب، وما أجاب وذكر فرعاً لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها، ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول الله.

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور؛ وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوباً للرب تعالى مرضياً له فيؤثره، وكونه مغضوباً له مسخوطاً عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء؛ نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريداً لجميع ما يحب الله منه أن يفعله، عازماً عليه ومريداً لترك جميع ما نهى الله عنه، عازماً على تركه بعد خطوره بالبال مفصلاً، وعازماً على تركه من حيث الجملة مجملاً، فإن نقص من إرادته لذلك شيء؛ نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائماً به فعلاً وتركاً، فإن نقص من فعله شيء؛ نقص من هداه بحسبه.

فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية، ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها: أحدها: أمور هُدي إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها؛ فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هُدي إليها من وجه دون وجه؛ فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكامل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هُدي إليها تفصيلاً من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها.

فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه، ويتعلق بالماضي أمر سابع،

وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها، وإذا كان كذلك فإنما يقال: كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟ ثم يجاب عن ذلك: بأن المراد التثبيت والدوام عليها إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل، فحينئذ يكون سؤال الهداية سؤال تثبيت ودوام.

فأما إذا كان ما يجله أضعاف ما يعلمه، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه، فالمسؤول هو أصل الهداية على الدوام تعليماً وتوفيقاً وخلقاً للإرادة فيه وإقداراً له، وخلقاً للفاعلية وتثبيتاً له على ذلك.

فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علماً وعملاً والتثبيت عليها والدوام إلى الممات. وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه وينذره أصلاً وتفصيلاً وتثبيتاً، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام فليس له أنفع، ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية. فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا على دينه.

□ □ □

أما المسألة التاسعة عشرة: وهي الإتيان بالضمير في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ ضمير جمع.

فقد قال بعض الناس في جوابه: إن كل عضو من أعضاء العبد وكل حاسة ظاهرة وباطنة مفتقرة إلى هداية خاصة به. فأتى بصيغة الجمع تنزيلاً لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه، وعرضت هذا الجواب على شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - فاسترَّكه واستضعفه جداً. وهو كما قال: فإن الإنسان اسم للجمله لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه. والقائل إذا قال: اغفر لي وارحمني واجبرني وأصلحني واهدني سائل من الله ما يحصل لجملته ظاهره وباطنه، فلا يحتاج أن يستشعر لكل عضو مسألة تخصه يفرد لها لفظه.

فالصواب أن يقال: هذا مطابق لقوله: إياك نعبد وإياك نستعين، والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانتة وهدايته، فأتى به بصيغة ضمير الجمع، أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك. فيكون هذا أحسن وأعظم موقعاً عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك.

ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك استدعى مقتته؛ فإذا قال: أنا وكل من في البلد ممالكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم، لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جداً وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك، فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائله الهداية ما لا يتضمنه لفظ الأفراد، فتأمل.

وإذا تأملت أدعية القرآن رأيت عامتها على هذا النمط نحو: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. ونحو دعاء آخر البقرة وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن.

□ □ □

وأما المسألة العشرون: وهي ما هو الصراط المستقيم؟.

فنذكر فيه قولاً وجيزاً، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته؛ وحقيقته شيء واحد: وهو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله وجعله موصلاً لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا، وهو أفراد بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحداً في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحداً في طاعته، فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول.

وهذا معنى قول بعض العارفين: «إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين؛ صدق محبته وحسن معاملته». وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأى شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين، ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته، والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمداً رسول الله، وهذا هو الهدى ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به. فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها، وهي معنى قول من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة، ومعنى قول من قال: متابعة رسول الله ظاهراً وباطناً علماً وعملاً، ومعنى قول من قال: الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره.

وأما ما عدا هذا من الأقوال، كقول من قال: الصلوات الخمس، وقول من قال

حب أبي بكر وعمر، وقول من قال: هو أركان الإسلام الخمس التي بني عليها.
فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع لا تفسير مطابق له بل هي جزء من أجزاءه، وحقيقته
الجامعة ما تقدم، والله أعلم^(١).



سورة البقرة

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الْمَرْءُ﴾ [البقرة: ١].

تأمل سر ﴿الْمَرْءُ﴾ كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة، فالألف إذا بدئ بها أولاً كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتماداً على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف، أعني الحلق واللسان والشفيتين.

وترتيب في التنزيل منذ البداية إلى الوسط إلى النهاية، فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي يتفرع منها ستة عشر مخرجاً، فيصير منها تسعة وعشرون حرفاً عليها مدار كلام الأمم الأولين والآخرين مع تضمنها سرّاً عجبياً. وهو أن للألف البداية، واللام التوسط، والميم النهاية، فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما.

وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه؛ فمشتملة على تخليق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر، فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة وسورة الروم.

وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات^(١) لم يجمعها غيرها؛ وهي الجهر والشدة والاستعلاء والإطباق، والسين مهموس مرخو مستفل صفيري منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء؛ فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف. وتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة، كيف نجد السورة مبنية على

(١) ذكر المصنف أربعة، والخامسة: هي القلقلة.

كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك قَ، والسورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن، وذكر الخلق، وتكرير القول ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم وتلقي الملكين قول العبد وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقديم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرون والتنقيب في البلاد، وذكر القيل مرتين، وتشقق الأرض وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل والرزق وذكر القوم وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاوراة، وسر آخر وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح.

وإذا أردت زيادة إيضاح هذا، فتأمل ما اشتملت عليه سورة صَ من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم: ﴿أَجْعَلِ آلَهُآ إِلَهًا وَجِدًّا﴾ [ص: ٥]. إلى آخر كلامهم، ثم اختصاص الخصمين عند داود، ثم تخصص أهل النار، ثم اختصاص الملائة الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانياً في شأن بنيه، وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم، فليتأمل اللبيب الفطن، هل يليق بهذه السورة غير صَ؟! وبسورة قَ غير حرفها؟! وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، والله أعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وهذا يتضمن أمرين:

أحدهما: أنه يهدي به من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس على اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم أن الله سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض ويمقت فاعل ذلك، ويحب العدل والإحسان والجود والصدق والإصلاح في الأرض ويحب فاعل ذلك، فلما نزل الكتاب، أثناب سبحانه أهل البر بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حال بينهم وبين الهداء به.

والأمر الثاني: أن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملاً، وقبل أوامره وصدق أخباره، كان ذلك سبباً لهداية أخرى تحصل له على التفصيل.

(١) بدائع الفوائد (٣/١٧٤). وانظر بشأن الأحرف في أوائل السور (٣/١٧٦).

فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية. فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى. وكلما فوت حظاً من التقوى؛ فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداية، وكلما اهتدى زادت تقواه^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿البقرة: ٦، ٧﴾.

معلوم أن هذا ليس حكماً يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفاراً قبل ذلك ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم، فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار؛ فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسح قرده وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب، كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك. اهـ.

قال: و«الختم»، قال الأزهرى^(٢): أصله التغطية، وختم البذر في الأرض، إذا غطاه. قال أبو إسحاق: معنى ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق منه، فلا يدخله شيء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وكذلك قوله: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣]، قلت: الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق^(٣).

(١) الفوائد (١٢٨، ١٢٩).

(٢) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر، اللغوي الإمام المشهور في اللغة، كان فقيهاً شافعي المذهب غلبت عليه اللغة فاشتهر بها، ألف «تهذيب اللغة» من أعظم كتبه، وانظر في ذلك مقدمة الأستاذ العلامة «عبد السلام هارون» لهذا الكتاب (١/١٣)، ولذ في (٢٨٢) وتوفي في (٣٧٠) وقيل: (٣٧١)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٦/٣١٥)، و«وفيات الأعيان» (٤/٣٣٤)، و«شذرات الذهب» (٣/٧٢).

(٣) شفاء العليل (٩١، ٩٢).

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]. وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]. وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَدَعَوْتُوهُمْ أَمْ أَنْتَ صَلِمْتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]. مما أشكل إعرابه على فحول العربية واختلفت أقوالهم في ذلك.

فقال صاحب الكشاف^(١): سواء اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر، ومنه قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِّلسَّالِئِلِ﴾ [فصلت: ١٠]، بمعنى مستوية، وارتفاعة على أنه خبر لـ «إن»، «وأُنذرتهم أم لم تنذرهم» في موضع رفع على الفاعلية، كأنه قيل: إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه، كما تقول: إن زيداً مختصم أخوه وابن عمه، أو يكون «أُنذرتهم أم لم تنذرهم» في موضع الابتداء، وسواء خبراً مقدماً بمعنى سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لإن. (قال: فإن قلت: الفعل أبدأً خبر لا مخبر عنه، فكيف صح الإخبار عنه في هذا الكلام؟)

(قلت): هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، وقد وجدنا العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلاً يبيّن، من ذلك قولهم: (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) معناه: لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن، وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل، والهمزة وأم مجردتان بمعنى الاستواء، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً.

قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام، كما جرى على حرف النداء في قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة. يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما أن ذاك جرى على صورة النداء ولا نداء، ومعنى الاستواء استواءهما في علم المستفهم عنهما، لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن؛ إما الإنذار وإما عدمه ولكن لا بعينه، وكلاهما معلوم بعلم غير معين.

(١) هو الزمخشري، العلامة، كبير المعتزلة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد، صاحب «الكشاف» وهو تفسير للقرآن بثه مذهبه الاعتزالي، وكان داعية له، من مؤلفاته: «أساس البلاغة»، «والفائق في غريب الحديث» وغيرها. كان مولده في رجب سنة (٤٦٧هـ)، وتوفي في ليلة عرفة سنة (٥٣٨هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٥٥/٢٠)، و«وفيات الأعيان» (٥/١٦٨، ١٦٩)، و«العقد الثمين» (١٤٧/٧)، وانظر: «الكشاف للزمخشري» (٢٥/١).

(قلت:) هذا قوله وقول طائفة من النحاة، وقد اعترض على ما ذكرناه بأنه يلزم القائل به أن يجيز سواء قمت أم قعدت دون أن تقول علي أو عليك.
وأنه يجيز سيان أذهب زيد أم جلس، ويتفقان أقام زيد أم قعد، وما كان نحو هذا مما لا يجوز في الكلام ولا روي عن أحد، لأن التقدير الذي قدره منطبق على هذا.

وقالت طائفة أخرى: سواء هاهنا مبتدأ، والجملة الاستفهامية في موضع الخبر، وإنما قالوا هذا وإن كان سواء هاهنا مبتدأ، والجملة لا تكون في موضع المبتدأ أبداً ولا في موضع الفاعل، وأورد عليهم أن الجملة إذا وقعت خبراً فلا بد فيها من ضمير يعود على المبتدأ، فأين الضمير العائد على سواء هاهنا؟ فأجابوا عن هذا: بأن سواء وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو في المعنى خبر، لأن المعنى: سواء عليهم الإنذار وعدمه. قالوا: ولا يلزم أن يعود من المبتدأ ضمير على الخبر، فلما كان سواء خبراً في المعنى دون اللفظ روعي المعنى، ونظير هذا قولهم: ضربي زيداً قائماً، فإنه لم يعد على «ضربي» ضمير من الحال التي سدت مسد الخبر، لأن معناه أضرب زيداً أو ضربت زيداً، والفعل لا يعود عليه ضمير فكذلك ما هو في معناه وقوته، ونظيره أيضاً: أقائم أخوك؟ لأن «أخوك» وإن سد مسد الخبر فإنه فاعل في المعنى، «وقائم» معناه معنى الفعل الراجع للفاعل، فروعيت هذه المعاني في هذه المواضع، وهجر فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، وبقي حكم الابتداء مقتضياً للرفع لفظاً، والمبتدأ متضمن لمعنى يخالف معنى الابتداء فحكم لذلك المعنى فلم يعد على اللفظ ضمير، وحكم للفظ المبتدأ بحكم الابتداء فارتفع، فهذا قول هذه الطائفة الأخرى.

واعترض عليه بعد الاعتراف بحسنه وقوته، بأن العرب لم تنطق بمثل هذا في «سواء» حتى قرنته بالضمير المجرور بعلى نحو سواء عليكم، وسواء عليهم، وسواء عليّ، فإن طردوا ما أصلوه في سواء، سواء قرن بعلى أم لم يقرن فليس كذلك، وإن خصوه بالمقرون بعلى فلم يبينوا سر اختصاصه بذلك.

وقالت طائفة ثالثة منهم السهيلي: وهذا لفظه: لَمَّا كانت العرب لا تقول: سيان أقمت أم قعدت، ولا مثلان، ولا شبهان، ولا يقولون ذلك إلا في سواء مع المجرور بعلى، وجب البحث عن السر في ذلك، وعن مقصد القوم في هذا الكلام، وعن المساواة بين أي شيء هي، وفي أي الصفات هي من الاسمين

الموصوفين بالتساوي، فوجدنا معنى الكلام ومقصوده إنما هو تساوي عدم المبالاة بقيام أو قعود أو إنذار أو ترك إنذار، ولو أرادوا المساواة في صفة موجودة في الذات لقالوا: سواء الإقامة والشخص، كما يقولون: سواء زيد وعمرو، وسيان ومثلان يعني استواءهما في صفة ذاتيهما، فإذا أردت أن تسوي بين أمرين في عدم المبالاة وترك الالتفات لهما وأنهما قد هانا عليك وخفًا عليك، قلت: سواء عليّ أفعل أم لم يفعل، كما تقول: لا أبالي أفعل أم لم يفعل؛ لأن المبالاة فعل من أفعال القلب، وأفعال القلب تلغى إذا وقعت بعدها الجمل المستفهم عنها أو المؤكدة باللام، تقول: لا أدري أقام زيد أم قعد، وقد علمت ليقومن زيد، ولكن لا تلغى هذه الأفعال القلبية حتى يذكر فاعلها في اللفظ أو في المعنى فتكون حيثئذ في موضع المفعول بالعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ الْأَخِيرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٨ - ٩).
أخبر ﷺ أن هؤلاء المخادعين مخدوعون، وهم لا يشعرون أن الله خادع من خدعه، وأنه يكفي المخدوع شرًّا من خدعه.

والمخادعة: هي الاحتيال، والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع، وهذا موافق لاشتقاق اللفظ في اللغة، فإنهم يقولون: طريق خَيْدَع، إذا كان مخالفاً للقصْد لا يُشْعَرُ به، ولا يفطن له، ويقال للسراب: الخَيْدَع، لأنه يغر من يراه، وضب خَدَع، أي: مراوغ، كما قالوا: أخدع من ضب.
ومنه: «الحرب خَدَعَةٌ»^(٢)، وسوق خادعة، أي: متلونة.
وأصله: الإخفاء والستر، ومنه سميت الخزانة: مخدعاً^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (البقرة: ١٠).
ومرض القلب خروجه عن صحته واعتداله، فإن صحته أن يكون عارفاً بالحق محباً له، مؤثراً له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه وإما بإيثار غيره عليه.

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٤٥ - ٤٧).

(٢) رواه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩). (٣) إغاثة اللهفان (١/ ٣٤٠).

فمرض المنافقين: مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة. . وقد سمي الله سبحانه كلاً منهما مرضاً.

قال ابن الأنباري^(١): أصل المرض في اللغة: الفساد، مرض فلان: فسد جسمه وتغيرت حاله، ومرضت بالمرض: تغيرت وفسدت، قالت ليلي الأخيلية^(٢):
إذا هبط الحجاج مريضة تتبع أقصى دائها فشفاهها
وقال آخر:

ألم تر أن الأرض أضحت مريضة لفقد الحسين والبلاد اقشعرت
والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد، وضعف، ونقصان، وظلمة.
ومنه مرض الرجل في الأمر إذا ضعف فيه، ولم يبالغ، وعين مريضة النظر: أي فاترة ضعيفة، وريح مريضة: إذا هب هبوبها، كما قال:
راحت لأربعك الرياح مريضة

أي: لينة ضعيفة حتى لا يعفى أثرها.
وقال ابن الأعرابي^(٣): أصل المرض النقصان ومنه: بدن مريض؛ أي ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين. ومرض في حاجتي: إذا نقصت حركته.
وقال الأزهري عن المنذري عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها. قال: والمرض: الظلمة، وأنشد:
وليلة مرضت في كل ناحية فما يضيء لها شمس ولا قمر

(١) الإمام الحافظ اللغوي ذو الفنون، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري المقرئ النحوي، من كتبه: «كتاب الوقف والابتداء»، و«كتاب المشكل»، و«شرح المفضليات» وغيرها كثير، ولد في (٢٧٢) وكانت وفاته في (٣٢٨)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (٢٧٤/١٥)، تاريخ بغداد (١٨١/٣ - ١٨٦)، طبقات الحنابلة (٦٩/٢ - ٧٣)، وفيات الأعيان (٣٤١/٤ - ٣٤٣).

(٢) هي ليلي بنت الأخيل، من عُقيل بن كعب، وهي من أشعر النساء لا يقدم عليها غير خنساء. . ماتت في زمن الحجاج. انظر: الشعر والشعراء، (طبقات الشعراء) لابن قتيبة (٢٢٠)، وفيات الأعيان (٤٧/٢ - ٥٠).

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي إمام اللغة. ولد بالكوفة سنة (١٥٠) وتوفي في (٢٣١)، انظر: حياته وأثاره في مقدمة كتابه «العبر» للأستاذ الدكتور «رمضان عبد التواب» حفظه الله تعالى. وانظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٦٨٧)، تاريخ بغداد (٥/٢٨٢ - ٢٨٥)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٩٥)، وفيات الأعيان (٤/٣٠٦ - ٣٠٩)، تهذيب اللغة (١/٢٠، ٢١).

هذا أصله في اللغة.

ثم الشك والجهل والحيرة والضلال وإرادة الغي وشهوة الفجور في القلب: تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين، فقال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض، فأجابهم المنافقون بقولهم: إنما نحن مصلحون، فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وأن ما نسبوه لهم إليه إنما هو صلاح لا فساد.

فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن أسجل على المنافقين أربع إفسادات؛ أحدها: تكذيبهم، والثاني: الإخبار بأنهم مفسدون، والثالث: حصر الفساد فيهم بقوله: هم المفسدون، والرابع: وصفهم بغاية الجهل، وهو أنه لا شعور لهم بالبتة بكونهم مفسدين، وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع، ثم نفى عنهم العلم في قولهم: ﴿أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]. فنفى علمهم بسفاههم وشعورهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسداً ولا شعور له بفساده البتة، مع أن أثر فساد مشهور في الخارج، مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه. وكذلك كونه سفياً، والسفه غاية الجهل، وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله كان من أشقى النوع الإنساني، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله، ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه؛ فتضمنت الآياتان الإفساد عليهم بالجهل وفساد آلات الإدراك، بحيث يعتقدون الفساد صلاحاً والشر خيراً.

* * *

(١) شفاء العليل (٩٨، ٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

وكذلك المناظرة الثانية معهم أيضاً، فإن المؤمنين قالوا لهم: ﴿ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾، فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾. وتقرير المناظرة من الجانبين أن المؤمنين دعواهم إلى الإيمان الصادر من العقلاء بالله ورسوله، وأن العاقل يتعين عليه الدخول فيما دخل فيه العقلاء الناصحون لأنفسهم ولا سيما إذا قامت أدلته، وصحت شواهد، فأجابهم المنافقون بما مضمونه: أننا إنما يجب علينا موافقة العقلاء، وأما السفهاء الذين لا عقل لهم يميزون به بين النافع والضار، فلا يجب علينا موافقتهم، فرد الله تعالى عليهم، وحكم للمؤمنين وأسجل على المنافقين بأربعة أنواع:

(أحدها) تسفيهم، (الثاني) حصر السفه فيهم، (الثالث) نفي العلم عنهم، (الرابع) تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من الإخبار عن سفه أهل الإيمان، (والخامس) أيضاً وهو تكذيبهم، فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السفه^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَّا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَةٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَّجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓ أَفْئَانِهِمْ مِّنَ الصُّوعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧ - ٢٠].

هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون فإنها تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر.

فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلاً نارياً ومثلاً مائياً، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة، فإن النار مادة النور والماء مادة الحياة، وقد

(١) بدائع الفوائد (٤/١٣٠، ١٣١).

جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء متضمناً لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سماه روحاً ونوراً، وجعل قابليه أحياء في النور، ومن لم يرفع به رأساً أمواتاً في الظلمات.

وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي، وأنهم بمنزلة من استوقد ناراً لتضيء له ويتنفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به، وانتفعوا به، وآمنوا به، وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام؛ طفئ عليهم وذهب الله بنورهم ولم يقل: بنارهم، فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

فهذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه فهو لا يرجع إليه، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(١).

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ كيف جعل ضوءها خارجاً عنه منفصلاً ولو اتصل ضوءها به ولا بسه لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة، لا ملابسة ومخالطة. وكان الضوء عارضاً والظلمة أصلية؛ فرجع الضوء إلى معدنه وبقيت الظلمة في معدنها؛ فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به، حجة من الله تعالى قائمة؛ وحكمة بالغة، تعرف بها إلى أولي الأبواب من عباده.

وتأمل قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، ولم يقل: بنارهم، ليطابق أول الآية؛ فإن النار فيها إشراق وإحراق؛ فذهب بما فيها من الإشراق - وهو النور - وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وهو النارية.

تأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾، ولم يقل: بضوئهم، مع قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾؛ لأن الضوء هو زيادة في النور. فلو قال: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط، دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادته.

وأيضاً فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، وأيضاً فإن الله تعالى سمى كتابه نوراً، ورسوله نوراً، ودينه نوراً، ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم: ذهاب بهذا كله.

(١) إعلام الموقعين (١/٢٠٠، ٢٠١).

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت بِإِحْسَانِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، كيف طابق بين هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضى بها، وبذل الهدى في مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضى بها، بدلاً عن النور الذي هو الهدى والنور، فبذلوا الهدى والنور، وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فإيا لها من تجارة ما أخسرها! وصفقة ما أشد غبنها!

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحده، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فجمعها. فإن الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا بالأهواء، والبدع، وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله ﷺ، من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل، فإنها متعددة متشعبة. ولهذا يفرد الله سبحانه الحق ويجمع الباطل، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فجمع سبيل الباطل، ووجد سبيل الحق. ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]. فإن تلك هي طرق مرضاته، التي يجمعها سبيله الواحد، وصراطه المستقيم. فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها. وقد صح عن النبي ﷺ أنه خط خطأ مستقيماً، وقال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال: «هذه سبيل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]^(١).

وقوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ قال ابن عباس: في آذانهم صمم عن استماع القرآن، وهو عليهم عمى، أعمى الله قلوبهم فهم لا يفقهون، أولئك ينادون من مكان بعيد، مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء.

والبكم: جمع أبكم، وهو الذي لا ينطق، والبكم نوعان: بكم القلب وبكم

(١) حديث صحيح: رواه أحمد (٤١٤٢) وصححه المحدث أحمد شاكر رحمه الله.

وكذلك من عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام، فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته. فإنه لا يخرج إليه، ولا يعزم عليه.

وحال هؤلاء حال الضعيف البصيرة والإيمان، الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد والزواج والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفتطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفظام على الصبي أصعب شيء وأشقه. والناس كلهم صبيان العقول، إلا من بلغ مبلغ الرجال العقلاء الألباء، وأدرك الحق علماً وعملاً ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب، وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود.

□ □ □

وقد اشتمل هذان المثالن على حكم عظيمة.

منها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره، لا من قبل نفسه. فإذا ذهب تلك النار بقي في ظلمة. وهكذا المنافق، لما أقر بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه، وتصديق جازم، كان ما معه من النور كالمستعار.

ومنها: أن ضياء النار يحتاج دوامه إلى مادة تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح، يقوم بها ويدوم بدوامها، فإذا لم توجد مادة الإيمان طفئ كما تطفأ النار بفراغ مادتها.

ومنها: أن الظلمة نوعان؛ ظلمة مستمرة لم يتقدمها نور، وظلمة حادثة بعد النور؛ وهي أشد الظلمتين وأشقهما على من كانت حظه؛ فظلمة المنافق ظلمة بعد إضاءة، فمثلت حاله بحال المستوقد للنار، الذي حصل في الظلمة بعد الضوء، وأما الكافر فهو في الظلمات لم يخرج منها قط.

ومنها: أن في هذا المثل إيذاناً وتنبهاً على حالهم في الآخرة، وأنهم يعطون نوراً ظاهراً، كما كان نورهم في الدنيا ظاهراً. ثم يطفأ ذلك أحوج ما يكونون إليه إذ لم تكن له مادة باقية تحمله، وبقوا في الظلمة على الجسر، لا يستطيعون العبور، فإنه لا يمكن أحداً عبوره إلا بنور ثابت يصحبه حتى يقطع الجسر. فإن لم يكن لذلك النور مادة من العلم النافع والعمل الصالح، وإلا ذهب الله تعالى به أحوج ما

كان إليه صاحبه. فطابق مثلهم في الدنيا بحالتهم التي هم عليها في هذه الدار، وبحالتهم يوم القيامة عندما يقسم النور.

ومن هاهنا يعلم السر في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَبُورِهِمْ﴾ ولم يقل: أذهب الله نورهم.

فإن أردت زيادة بيان وإيضاح، فتأمل ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وقد سئل عن الورود؟ فقال: «نجيء نحن يوم القيامة على تل فوق الناس. قال: فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد: الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا تبارك وتعالى بعد ذلك، فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا. فيقول: أنا ربكم. فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك. قال: فينطلق بهم، فيتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم - منافق أو مؤمن - نوراً ثم يتبعونه. وعلى جسر جهنم كالليب وحسك، تأخذ من شاء الله تعالى. ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون. فتنجو أول زمرة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، سبعون ألفاً لا يحاسبون. ثم الذين يلونهم، كأضواء نجم في السماء، ثم كذلك. ثم تحل الشفاعة، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، فيجعلون بفناء الجنة، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء...»^(١)، وذكر باقي الحديث.

فتأمل قوله: «فينطلق فيتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم نوراً: المنافق والمؤمن» ثم تأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَبُورِهِمْ وَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾، وتأمل حالهم إذ أطفئت أنوارهم، فبقوا في الظلمة، وقد ذهب المؤمنون في نور إيمانهم يتبعون ربهم ﷻ.

ومنها: أن المثل الأول متضمن لحصول الظلمة، التي هي الضلال والحيرة التي ضدها الهدى. والمثل الثاني: متضمن لحصول الخوف الذي ضده الأمن. فلا أمن ولا هدى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال ابن عباس^(٢) وغيره من السلف: مثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً

(١) رواه مسلم (١٩١).

(٢) راجع تفسير الطبري في تفسير الآية (١٤٠/١).

في ليلة مظلمة في مفازة فاستضاء ورأى ما حوله. فاتقى ما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، فبقي في ظلمته خائفاً متحيراً. كذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان، آمنوا على أموالهم وأولادهم، وناكحوا المؤمنين ووارثوهم، وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم؛ فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف.

وقد فسرت تلك الإضاءة وذهاب النور: بأنها في الدنيا، وفسرت بأنها في البرزخ وفسرت بيوم القيامة. والصواب: أن ذلك شأنهم في الدور الثلاثة، فإنهم لما كانوا كذلك في الدنيا جوزوا في البرزخ وفي القيامة بمثل حالهم، جزاء وفاقاً: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فإن المعاد يعود إلى العبد فيه ما كان حاصلًا منه في الدنيا، ولهذا يسمى يوم الجزاء: ﴿وَمَن كَانَتْ فِي هُدًى مِّن قَبْلِهِ فَمَوْءُودٌ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]. ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

ومن كان مستوحشاً مع الله بمعصيته إياه في هذه الدار؛ فوحشته معه في البرزخ ويوم المعاد أعظم وأشد. ومن قرت عينه به في هذه الحياة الدنيا قرت عينه به يوم القيامة وعند الموت ويوم البعث، فيموت العبد على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه. ويعود عليه عمله بعينه، فينعم ظاهراً وباطناً، فيورثه من الفرح والسرور واللذة والبهجة، وقرة العين والنعيم، وقوة القلب واستبشاره وحياته وانشراحه، ما هو من أفضل النعيم، وأجله وأطيبه وألذّه، وهل النعيم إلا طيب النفس، وفرح القلب وسروره وانشراحه، واستبشاره؟.

هذا وينشأ له من أعماله ما تشتهيه نفسه، وتلذذ عينه من سائر المشتبهات التي تشتهيها الأنفس وتلذذها الأعين، ويكون تنوع تلك المشتبهات، وكمالها وبلوغها مرتبة الحسن والموافقة، بحسب كمال عمله ومتابعته فيه وإخلاصه، وبلوغه مرتبة الإحسان فيه وبحسب تنوعه، فمن تنوعت أعماله المرضية المحبوبة له في هذه الدار تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار، وتكثرت له بحسب تكثر أعماله هنا، وكان مزيده متبوعها والابتهاج بها، والالتذاذ هناك على حسب مزيده من الأعمال، ومتبوعه فيها في هذه الدار.

وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة أثراً وجزاء ولذة ونعيماً يخصه، لا يشبه أثر الآخر وجزاءه، لهذا تنوعت لذات أهل الجنة، وآلام أهل النار، وتنوع ما فيها من الطيبات والعقوبات. فليست لذة كل من ضرب في كل مرضاة الله بسهم وأخذ منها بنصيب، كلذة من إنما سهمه ونصيبه في نوع

واحد منها، ولا ألم من ضرب في كل مساخط الله بنصيب، كآلم من ضرب بسهم واحد في مساخطه.

وهذا الباب يفتح لك أبواباً عظيمة من فهم المعاد، وتفاوت الناس في أحواله، وما يجري فيه من الأمور^(١).

فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافياً، وإلى الإيمان وحقائقه منادياً، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعياً، وإلى طريق الرشاد هادياً. لقد أسمع منادي الإيمان لو صادف آذاناً واعية، وشفّت مواعظ القرآن لو وافقت قلوباً خالية. ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات. فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة، فأغلقت أبواب رشدها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها فلم ينفع فيها الكلام، وسكرت بشهوات الغي وشبهات الباطل، فلم تصغ بعد إلى الملام، ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام، ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة، وأسر الهوى والشهوة، وما لجرح بميت إيلام^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢١ - ٢٤﴾.

فهذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين، من إثبات الصانع وصفات كماله؛ من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وحكمته وأفعاله، وحدوث العالم وإثبات نوعي توحيده تعالى؛ توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له.

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٢ - ١٦).

(٢) الوابل الصيب (٦٨ - ٧٠) بتحقيق الأرنؤوط.

ثم قرر تعالى بعد ذلك إثبات نبوة رسوله محمد ﷺ أبلغ تقرير وأحسنه وأتمه وأبعده عن المعارض، فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله، وقد أخبر عن المعاد والجنة، والنار فثبت صحة ذلك ضرورة.

فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه، فصدرها تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم، ثم قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، فأمرهم بعبادة ربهم؛ وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا، وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكاً خالصاً حقيقياً، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه - فعبادته له وشكره إياه واجب عليه.

ولهذا قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، ولم يقل: إلهكم، والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها؛ فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، فنبه بهذا أيضاً على وجوب عبادته وحده، وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود، وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضع من القرآن: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. فإذا كان هو وحده الخالق، فكيف لا يكون وحده المعبود؟! وكيف تجعلون معه شريكاً في العبادة، وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق؟! وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم، وأنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم، وخلقته تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته فلا شبيه له فيها، ولا في أفعاله فلا شريك له فيها.

ثم ذكر المطلوب من خلقهم، وهو أن يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه، ويذكرونه فلا ينسونه، ويشكرونه ولا يكفرونه؛ فهذه حقيقة تقواه.

وقوله: ﴿لَمَلَكُمْ تَتَّقُونَ﴾، قيل: إنه تعليل للأمر، وقيل: تعليل للخلق، وقيل: المعنى: اعبدوه لتقوه بعبادته. وقيل: المعنى خلقكم لتقوه، وهو أظهر لوجوه: (أحدها) أن التقوى هي العبادة، والشيء لا يكون علة لنفسه.

(الثاني) أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(الثالث) أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من الأمر. ولمن نصر الأول أن يقول: لا يمتنع أن يكون قوله: لعلكم تتقون تعليلاً للأمر بالعبادة، ونظيره قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فهذا تعليل لكتب الصيام، ولا يمتنع أن يكون تعليلاً للأمرين معاً، وهذا هو الأليق بالآية، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. فذكر تعالى دليلاً آخر متضمناً للاستدلال بحكمته في مخلوقاته؛ فالأول متضمن لأصل الخلق والإيجاد، ويسمى دليل الاختراع والإنشاء، والثاني متضمن للحكم المشهودة في خلقه ويسمى دليل العناية والحكمة، وهو تعالى كثيراً ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن، وذكر سبحانه في آية البقرة قرار العالم وهو الأرض، وسقفه وهو السماء، وأصول منافع العباد، وهو الماء الذي أنزله من السماء، فذكر المسكن والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه، ونبه تعالى بجعله للأرض فراشاً على تمام حكمته، في أن היאها لاستقرار الحيوان عليها؛ فجعلها فراشاً ومهاداً وبساطاً وقراراً، وجعل سقفها بناءً محكماً مستوياً لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب.

ثم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها، وظفر العقل بها بأول وهلة وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح، وأن كل متكلم ومستدل ومحجاج إذا بالغ في تقرير ما يقرره وأطاله وأعرض القول فيه، فغاياته - إن صح ما يذكره - أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن. فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من البرهان الشافي في التوحيد، أي إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال، فكيف تجعلون له أنداداً وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله.

فلما قرر نوعي التوحيد انتقل إلى تقرير النبوة فقال: ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْهُ لَوْ سِوَرَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]. إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به، وقلتم: إنه مفتعل فأتوا ولو بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل

الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه، يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك، حتى إن الذين راموا معارضته كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه، ويحكمون بسماجته، وقبح ركاكته وخسته؛ فهو كمن أظهر طيباً لم يشم أحد مثل ريحه قط، وتحدى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله، فاستحى العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحمقان بعذرة منتنة خبيثة، وقالوا: قد جئنا بمثل ما جئت به. فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهاناً وعظمة وجلالة!

وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال: ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته: أجهد عليّ بكل من تقدر عليه من أصحابك، وأعاونك وأولياك، ولا تبق منهم أحداً حتى تستعين به، فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلاً إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه، أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله.

والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق؛ أميهم وكتابتهم وعربهم وعجمهم، ويقول: لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبداً، فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحياء، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة، وإيتام الأولاد، وقتل النفوس والإقرار بالعجز عن معارضته، وتقدير النبوة بهذه الآية له وجوه متعددة: هذا (أحدها).

(وثانيها) إقدامه ﷺ على هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالاً عاماً إلى يوم القيامة؛ أنهم لن يفعلوا ذلك أبداً، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

(وثالثها) النظر إلى نفس ما تحدى به، وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه. وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه.

وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره ولو لم يتأمله، فتأمل هذا الموضوع من إعجاز القرآن، تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه، حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها، وبعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته، وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام، وبعضهم على

ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب، إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله.

فإذا ثبتت النبوة بهذه الحججة القاطعة فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره وطاعة أمره، وقد أخبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعن المعاد والجنة والنار فثبتت صحة ذلك يقيناً، فقال تعالى: ﴿فَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَيَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥] الآية. فاشتملت الآيات على تقرير مهمات أصول الدين من إثبات خالق العالم وصفاته ووحدانيته ورسالة رسوله، والمعاد الأكبر^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه وعظمته، وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة، وقد بشرك به وضمنه لك وجعله أسهل شيء عليك وأيسره، وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، ونعيم القلب وقررة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه. والأزواج جمع زوج، والمرأة زوج للرجل وهو زوجها، هذا هو الأفضح وهو لغة قريش وبها نزل القرآن؛ لقوله: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ومن العرب من يقول: زوجة وهو نادر لا يكادون يقولونه.

وأما المطهرة، فإن جرى صفة على الواحد فيجري صفة على جمع التكثير إجراء له مجرى جماعة، كقوله تعالى: ﴿وَمَسَلِكُنَّ طَيْبَةً﴾ [الصف: ١٢]، وقولهم: ﴿قُرَى ظَهْرَةَ﴾ [سبأ: ١٨] ونظائره. والمطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق، وكل قدر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ.

(١) بدائع الفوائد (٤/١٣١ - ١٣٦).

قال عبد الله بن المبارك^(١): حدثنا شعبة عن قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، قال: «من الحيض والغائط والنخامة والبصاق»، وقال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس: (مطهرة: لا يحضن ولا يحدثن ولا يتنجسن). وقال ابن عباس أيضاً: (مطهرة من القذر والأذى لا يبيلن ولا يتغوطن ولا يمدن ولا يمينن ولا يحضن ولا يبصقن ولا يتنخمن ولا يلدن)، وقال قتادة: (مطهرة من الإثم والأذى، طهرهن الله سبحانه من كل بول وغائط وقذر ومأثم)^(٢).

وقولهم: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: شبيهه ونظيره لا عينه، وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره من الفواكه والثمار، أو هذا نظير الذي رزقناه قبل في الجنة؟

قيل: فيه قولان: ففي تفسير السدي^(٣) عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل أنهم أتوا بالثمرة في الجنة، فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابهاً يعرفونه. وقال آخرون: هذا الذي رزقنا من ثمار الجنة، من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضاً في اللون والطعم، واحتج أصحاب هذا القول بحجج:

إحداها: أن المشابهة التي بين ثمار الجنة بعضها لبعض؛ أعظم من المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا، ولشدة المشابهة قالوا: هذا هو.

(١) ذكر هذا الحديث ابن كثير في تفسيره (٦٤/١) في تفسير الآية ذاتها.

وقال: رواه الحافظ «أبو بكر بن مردويه»، ثم قال: هذا حديث غريب، وقد رواه الحاكم في مستدركه، وقال: على شرط الشيخين. وهذا الذي ادعاه فيه نظر... إلخ. اهـ. وقد بذلت جهدي ولم أعثر عليه في المستدرک، وانظر: «فتح القدير» للشوكاني في (٥٥/١)، والطبري (٣٩٧/١) بتحقيق آل شاكر.

(٢) حادي الأرواح (١٧٧ - ١٧٨).

(٣) السُّدِّي، إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، الإمام المفسر أبو محمد الحجازي الأعور... روى عن أنس وابن عباس وغيرهم، وحدث عنه شعبة وسفيان الثوري وآخرون. توفي في سنة سبع وعشرين ومائة، روى له مسلم والأربعة. وهو غير السدي الصغير، محمد بن مروان الكوفي أحد المتروكين، سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٤)، الطبقات الكبرى (٦/٣٢٣)، والأثر رواه الطبري في تفسيره (١٧١/١).

الحجة الثانية: ما حكاه ابن جرير^(١) عنهم قال: ومن علة قائلِي هذا القول أن ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله كما كان، حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدي، حدثنا سفيان: سمعت ابن مرة يحدث عن أبي عبيدة وذكر ثمر الجنة، وقال: كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى.

الحجة الثالثة: قوله: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾، وهذا كالتعليل والسبب الموجب لقولهم: هذا الذي رزقنا من قبل.

والحجة الرابعة: أن المعلوم أنه ليس كل ما في الجنة من الثمار قد رزقوه في الدنيا، وكثير من أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رأوها.

ورجحت طائفة: منهم ابن جرير وغيره القول الآخر، واحتجت بوجوه: قال ابن جرير^(٢): والذي يحقق صحة قول القائلين: إن معنى ذلك هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا: أن الله جل ثناؤه قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا﴾، يقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، ولم يخصص أن ذلك من قيلهم في بعض دون بعض، فإذا كان قد أخبر جل ذكره عنهم أن ذلك من قيلهم كلما رزقوا ثمرة، فلا شك أن ذلك من قيلهم في أول رزق رزقوه من ثمارها أتوا به بعد دخولهم الجنة واستقرارهم فيها، الذي لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة، فإذا كان لا شك أن ذلك من قيلهم في أوله كما هو من قيلهم في وسطه وما يتلوه، فمعلوم أنه محال أن يقولوا لأول رزق رزقوه من ثمار الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل، هذا من ثمار الجنة، وكيف يجوز أن يقولوا لأول رزق من ثمارها ولما يتقدمه عندهم غيرها: هذا هو الذي رزقنا من قبل، إلا أن ينسبهم ذو غية وضلال إلى قيل الكذب، الذي قد طهرهم الله منه، أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قيلهم لأول رزق يرزقونه من ثمارها، فيدفع صحة ما أوجب الله صحته من غير نصب دلالة على أن ذلك في حال من أحوالهم دون حال، فقد تبين أن معنى الآية كلما رزقوا من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.

قلت: أصحاب القول الأول يخصصون في هذا العام بما عدا الرزق الأول، لدلالة العقل والسياق عليه، وليس هذا ببدع من طريقة القرآن، وأنت مضطر إلى تخصيصه ولا بد بأنواع من التخصيصات:

(٢) المصدر السابق.

(١) تفسير الطبري (١/١٧١).

أحدها: أن كثيراً من ثمار الجنة؛ وهي التي لا نظير لها في الدنيا، لا يقال لها ذلك.

الثاني: أن كثيراً من أهلها لم يرزقوا جميع ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنة.

الثالث: أنه من المعلوم أنهم لا يستمرون على هذا القول أبد الآباد، كلما أكلوا ثمرة واحدة: قالوا: هذا الذي رزقنا في الدنيا، ويستمرون على هذا الكلام دائماً إلى غير نهاية، والقرآن العظيم لم يقصد إلى هذا المعنى، ولا هو مما يعتني بهم من نعيمهم ولذتهم، وإنما هو كلام مبين خارج على المعتاد المفهوم من الطيب.

ومعناه: أنه يشبه بعضه بعضاً ليس أوله خيراً من آخره، ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها؛ من نقصان حملها وصغر ثمارها وغير ذلك، بل أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله، وهو خيار كله يشبه بعضه بعضاً. فهذا وجه قولهم ولا يلزم مخالفة ما قصد الله ﷻ، ولا نسبة أهل الجنة إلى الكذب بوجه. والذي يلزمهم من التخصيص يلزمك نظيره وأكثر منه. والله أعلم.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾، قال الحسن: خيار كله لا رذل، ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تستردلون بعضه، وأن ذلك ليس فيه رذل؟ وقال قتادة: خيار لا رذل فيه.

فإن ثمار الدنيا يتقى منها ويرذل منها.

وكذلك قال ابن جريج وجماعة. وعلى هذا فالمراد بالتشابه التوافق والتماثل.

وقالت طائفة أخرى، منهم ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب رسول الله ﷺ: متشابهاً في اللون والمرأى، وليس يشبه الطعم، قال مجاهد: متشابهاً لونه مختلفاً طعمه.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وقال يحيى بن أبي كثير: «عشب الجنة الزعفران، وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونها ثم يأتونهم بمثلها فيقولون: هذا الذي رزقنا جئتمونا به أنفأ. فيقول لهم الخدم: كلوا فإن اللون واحد والطعم مختلف. فهو قوله ﷻ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾. وقالت طائفة وناس معنى الآية: أن يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أفضل وأطيب. قال ابن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: يعرفون أسماءه؛ كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في

الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً يعرفونه. وليس هو مثله في الطعم، واختار ابن جرير^(١) هذا القول قال: ودليلنا على فساد قول من قال: إن معنى الآية هذا الذي رزقنا من قبل؛ أي في الجنة وتلك الدلالة على فساد ذلك القول، هي الدلالة على فساد قول من خالف قولنا في تأويل قوله: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، أن الله ﷻ أخبر عن المعنى الذي من أجله قال القوم: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، قلت: هذا لا يدل على فساد قولهم كما تقدم^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾

[البقرة: ٢٦].

وهذا جواب اعتراض اعترض به الكفار على القرآن، وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة؛ فلو كان ما جاء به محمد ﷺ كلام الله لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة، فأجابهم الله تعالى بأن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه وإبطال الباطل وإدحاضه، كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض.

فكأن معترضاً اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك؛ فأخبر تعالى عما له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة، وهي إضلال من شاء وهداية من شاء. ثم كأن سائلاً سأل عن حكمة الإضلال لمن يضل به بذلك، فأخبر تعالى عن حكمته وعدله، وأنه إنما يضل به الفاسقين: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧]. فكانت أعمالهم هذه القبيحة التي ارتكبوها سبباً لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول، وأنه لا

(٢) حادي الأرواح (١٤١ - ١٤٤).

(١) تفسير الطبري (١/١٧١).

(٣) بدائع الفوائد (٤/١٣٦).

عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور؛ ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق.

(الأول) كونهم كانوا أمواتاً لا أرواح فيهم بل نطفاً وعلقاً، ومضغة مواتاً لا حياة فيها.

(الثاني) أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإمامة.

(الثالث) أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.

(الرابع) أنه يحييهم بعد هذه الإمامة فيرجعون إليه، فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأول ويكذب بالرابع! وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق! فالذي أحياكم بعد أن كنتم مواتاً ثم أماتكم بعد أن أحياكم، ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعد ما يميتكم؟ وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله! فكيف يقع منكم بعد ما شاهدتموه! ففي ضمن هذه الآية الاستدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله وعلى المعاد^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰٓؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّبِعُكُمْ أَنبِيَاؤُهُمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

فهذه كالمناظرة من الملائكة والجواب عن سؤالهم، كأنهم قالوا: إن استخلفت في الأرض خليفة كان منه الفساد وسفك الدماء، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك، وإن جعلت فيها فتجعل فيها من يسبح بحمدك، ويقدم لك، ونحن نفعل ذلك.

فأجابهم تعالى عن هذا السؤال: بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة، وإن وراء ما زعمتم من الفساد مصالح وحكماً لا تعلمونها أنتم، وقد ذكرنا منها قريباً من أربعين حكمة في كتاب «التحفة المكية»،

(١) بدائع الفوائد (٤/١٣٦، ١٣٧).

فاستخرج تعالى من هذا الخليفة وذريته الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين، وعمر بهم الجنة، وميز الخبيث من ذريته من الطيب فعمر بهم النار. وكان ضمن ذلك من الحكم والمصالح ما لم يكن للملائكة تعلمه.

ثم إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسجود له تكريماً له وتعظيماً له وإظهاراً لفضله. وفي ضمن ذلك من الحكم ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: امتحانهم بالسجود لمن زعموا أنه يفسد في الأرض، ويسفك الدماء فأسجدهم له، وأظهر فضله عليهم لما أثنوا على أنفسهم وذموا الخليفة، كما فعل سبحانه ذلك بموسى، لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض، فامتحنه بالخضر وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث. وهذه سنته تعالى في خليفته، وهو الحكيم العليم.

ومنها: جبره لهذا الخليفة وابتدأه له بالإكرام والإنعام؛ لما علم مما يحصل له من الانكسار والمصيبة والمحنة، فابتدأه بالجبر والفضل، ثم جاءت المحنة والبلية والذل، وكانت عاقبتها إلى الخير والفضل والإحسان، فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين؛ إنعام قبلها وإنعام بعدها، ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم، فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداءً، وجعل العاقبة لهم، فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب فهي محفوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها، فتبارك الله رب العالمين.

ومنها: استخراجه تعالى ما كان كامناً في نفس عدوه إبليس من الكبر والمعصية الذي ظهر عند أمره بالسجود؛ فاستحق اللعنة والطرود والإبعاد على ما كان كامناً في نفسه عند إظهاره، والله تعالى كان يعلم منه ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيه، بل على وقوع معلومه، فكان أمره بالسجود له مع الملائكة مظهراً للخبيث والكفر الذي كان كامناً فيه، ولم تكن الملائكة تعلمه، فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه وكان خافياً عنهم من أمره، فكان في الأمر بالسجود له تكريماً لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض وجبراً له وتأديباً للملائكة، وإظهاراً لما كان مستخفياً في نفس إبليس، وكان ذلك سبباً لتمييز الخبيث من الطيب، وهذا من بعض حكمه تعالى في إسجادهم لآدم.

ثم إنه سبحانه لما علم آدم ما علمه، ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه

فأنبأهم به آدم، وكان في طي ذلك جواباً لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض، فإنه يفسد فيها، ويسفك الدماء، فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان في ظنهم^(١).

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾.

المعنى: نقديسك ونزهك عما لا يليق بك، وهذا قول جمهور أهل التفسير. وقال ابن جرير: ونقدس لك: ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس، ومما أضاف إليك أهل الكفر بك. قال: وقال بعضهم: نعظمك ونمجذك، قاله أبو صالح، وقال مجاهد: نعظمك ونكبرك. انتهى.

وقال بعضهم: ننزهك عن السوء فلا ننسبه إليك، واللام فيه على حدها في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]؛ لأن المعنى تنزيه الله لا تنزيه نفوسهم لأجله. قلت: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: نسبح بحمدك، فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء.

قال ميمون بن مهران: سبحانه الله كلمة يعظم بها الرب ويحاشى بها من السوء، وقال ابن عباس: هي تنزيه الله من كل سوء. وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم: سبحت الأرض إذا تباعدت فيها، ومنه: ﴿كُلُّ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]. فمن أثنى على الله ونزهه عن السوء فقد سبَّحه، ويقال: سبَّح الله وسبَّح له، وقدسه وقدس له^(٢).

وفي قصة آدم بيان فضل العلم من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه رد على الملائكة لما سأله: كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه؟ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فأجاب سؤالهم: بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمون وهو العليم الحكيم، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه، وصالحى عباده والشهداء والصدّيقين، والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان، من هو خير من الملائكة، وظهر إبليس من هو شر العالمين فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا، ولا بهذا ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة.

(١) بدائع الفوائد (٤/١٣٧ - ١٣٩). (٢) شفاء العليل (١٧٩).

الثاني: أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله، ميّزه عليهم بالعلم فعلمه الأسماء كلها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. جاء في التفسير أنهم قالوا: لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا، فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال: ﴿يَتَكَادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، أقروا له بالفضل.

الثالث: أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه، قال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم، وأنه أحاط علماً بظواهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض، فتعرف إليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم.

الرابع: أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه، فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه، فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

في ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم وإبائه من السجود له وبيان فسادها، وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه، وأخبر فيها أن امتناع إبليس من السجود كان كبيراً منه وكفراً ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة تعنتاً، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر، وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه، وأما شبهته الداحضة؛ وهي أن أصله وعنصره النار، وأصل آدم وعنصره التراب، ورتب على ذلك أنه خير منه فهي باطلة من وجوه عديدة:

(أحدها) أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.

(١) مفتاح دار السعادة (٥٦، ٥٧).

(الثاني) أن طبعها الخفة والحدة والطيش، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

(الثالث) أن التراب يتكون فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم، ولباس العباد وزيتهم وآلات معاشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

(الرابع) أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة ولا عن ما يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقاً، وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور فلا تدعوه إليها الضرورة، فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان؟

(الخامس) أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجته أضعاف أضعاف ما وضع فيه، فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفاً، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تبق ولم تذر.

(السادس) أن النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملاً لها، والتراب لا يفتقر إلى حامل، فالتراب أكمل منها.

(السابع) أن النار مفتقرة إلى التراب؛ وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكوناً من التراب أو فيه، فهي الفقيرة إلى التراب، وهو الغني عنها.

(الثامن) أن المادة الإبلية هي المارج من النار، وهو ضعيف يتلاعب به الهوى فيميل معه كيفما مال، ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره، ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب، قهر هواه وأسره ورجع إلى ربه؛ فاجتباها واصطفاه فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضاً سريع الزوال فزال، وكان الثبات والرزانة أصلياً له فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك، فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصره، آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللعين إلى أصله الرديء.

(التاسع) أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع، فالشر كامن فيها لا يصددها عنه إلا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته، فأين أحدهما من الآخر؟!

(العاشر) أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه، وأخبر عن منافعها وخلقها،

وأنة جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التفكير فيها، والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب، إلا موضعين ذكرها فيهما بأنها تذكرة ومتاع للمقوين، تذكرة بنار الآخرة، ومتاع لبعض أفراد الإنسان وهم المقوون النازلون، وهي الأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن؟!

(الحادي عشر) أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصاً، وأخبر أنه بارك فيها عموماً، فقال: ﴿أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبِزْكَ فِيهَا قَدَرًا فِيهَا أَنْوَارًا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءٌ لِلْسَّالِفِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٩، ١٠]. فهذه بركة عامة؛ وأما للبركة الخاصة ببعضها فلقوله: ﴿وَبَحَّيْنَهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ٧١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُورَيْنِ يُؤْتِي فِيهَا مَاءً غَيْرًا غَيْرًا يُغْتَرَبُ فِيهَا وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١]، وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلاً، بل المشهور أنها مذهب للبركة ماحقة لها، فأين المبارك في نفسه، المبارك فيما وضع فيه، إلى مزيل البركة وماحقها؟

(الثاني عشر) أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه، ويسبح له فيها بالغدو والآصال عموماً، وبيته الحرام الذي جعله قياماً للناس مباركاً فيه وهدي للعالمين خصوصاً، ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفاً وفضلاً على النار.

(الثالث عشر) أن الله تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار والعيون، والثمرات والحبوب والأقوات، وأصناف الحيوانات وأمتعتها، والجبال والنبات والرياض، والمراكب البهية والصور البهيجة، ما لم يودع في النار شيئاً منه، فأى روضة وجدت في النار، أو جنة أو معدن أو صورة، أو عين فوارة أو نهر مطرد، أو ثمرة لذيدة أو زوجة حسنة أو لباس وسترة؟

(الرابع عشر) أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض، فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها، فهي تابعة لها خادمة فقط؛ إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه ومن يقضي حوائجه.

(الخامس عشر) أن اللعين لقصور نظره، وضعف بصيرته رأى صورة الطين شراباً ممتزجاً بماء فاحتقره، ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين؛ الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، والتراب الذي جعل خزانة المنافع والنعم، هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة، فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته، لرأى أنه خير من النار وأفضل.

وإذا استقرت الوجوه التي تدلك على أن التراب أفضل من النار وخير منها؛ وجدتها كثيرة جداً، وإنما أشرنا إليها إشارة، ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين، فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة، ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة، فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له، إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خلقاً وخلقاً؟ وقد خلق الله تعالى الملائكة من نور وآدم من تراب، ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب.

فهذا وأمثاله مما يدل على ضعف مناظرة اللعين، وفساد نظره وإدراكه، وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم، فعارض حكمة الله وأمره برأيه الباطل، ونظره الفاسد.

فقياسه باطل نصاً وعقلاً، وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه، فنعود بالله من الخذلان، ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء الذي ما رمي العبد بشر منه، ولأن يلقي الله بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشرار به أسلم له من أن يلقي الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه، وهل طرد الله إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس ثم قدمه عليه.

والله يعلم أن شبه عدو الله مع كونها داخضة باطلة، أقوى من كثير من شبه المعارضين لنصوص الأنبياء بأرائهم وعقولهم.

فالعالم يتدبر سر تكرير الله لهذه القصة مرة بعد مرة، وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس وهو لا يشعر، فقد أقسم عدو الله أنه ليغوين بني آدم أجمعين إلا المخلصين منهم، وصدق تعالى ظنه عليهم، وأخبر أن المخلصين لا

سبيل له عليهم، والمخلصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله، والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء، فيجرد عبادة الله عن عبادة ما سواه، ويجرد متابعة رسوله، وترك ما خالفه لقوله دون متابعة غيره، فليزن العاقل نفسه بهذا الميزان قبل أن يوزن يوم القدوم على الله، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿البقرة: ٣٥، ٣٦﴾.

فهذا يدل على أن هبوطهم كان من الجنة إلى الأرض من وجهين:
أحدها: من لفظة اهبطوا، فإنه نزول من علو إلى سفلى.

الثاني: ولكم في الأرض مستقر عقب قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾، فدل أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض، ثم أكد هذا بقوله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]. ولو كانت الجنة في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده.

قالوا: وقد وصف سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد، فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]. وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً. فإن الرجل ولو كان في أطيب منازلها لا بد أن يعرض له شيء من ذلك.

وقابل سبحانه بين الجوع والظمأ، والعري والضحى، فإن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر. فنفى عن سكانها ذل الظاهر والباطن، وحر الظاهر والباطن، وذلك أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش، والعري والضحى. وهذا شأن ساكن جنة الخلد.

قالوا: وأيضاً فلو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية، وأن ملكها يبلى.

(١) بدائع الفوائد (٤/١٣٩ - ١٤٣).

قالوا: وأيضاً، هذه القضية في سورة البقرة ظاهرة جداً في أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء، فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿البقرة: ٣٤ - ٣٧﴾.

فهذا إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة، فلهذا أتى فيه بضمير الجمع. وقد قيل: إن الخطاب لهما وللحية، وهذا ضعيف جداً، إذ لا ذكر للحية في شيء من قصة آدم ولا في السياق ما يدل عليها.

وقيل: الخطاب لآدم وحواء وأتى فيه بضمير الجمع، كقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. وهما داود وسليمان. وقيل: لآدم وحواء وذريتهما.

وهذه الأقوال ضعيفة غير الأول، لأنها بين قول لا دليل عليه، وبين ما يدل اللفظ على خلافه، فثبت أن إبليس داخل في هذا الخطاب وأنه من المهبطين.

فإذا تقرر هذا، فقد ذكر سبحانه الإهباط ثانياً بقوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. والظاهر أن هذا الإهباط الثاني غير الأول، وهو إهباط من السماء إلى الأرض، والأول إهباط من الجنة، وحيث أن الجنة التي أهبط منها أولاً فوق السماء جنة الخلد.

وأما قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣]. فهذا خطاب لآدم وحواء. وقد جعل بعضهم لبعض عدواً، فالضمير في قوله: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا﴾، إما أن يرجع إلى آدم وزوجته، وإما أن يرجع إلى آدم وإبليس، ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له.

وعلى هذا فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط، وهما آدم وإبليس فالأمر ظاهر.

وأما على الأول - وهو رجوعه إلى آدم وزوجه - فتكون الآية قد اشتملت على أمرين:

أحدهما: أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط.

والثاني: إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه، وبين إبليس. ولهذا أتى بضمير الجمع في الثاني، دون الأول. ولا بد أن يكون إبليس داخلاً في حكم هذه العداوة قطعاً.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]. وقال لذريته: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع، دون التثنية.

وأما الإهباط: فتارة يذكر بلفظ الجمع، وتارة بلفظ التثنية، وتارة بلفظ الإفراد، كقوله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضَكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٤]، وكذلك في سورة ص، وهذا لإبليس وحده. وحيث ورد بصيغة الجمع، فهو لآدم وزوجه وإبليس، إذ مدار القصة عليهم. وحيث ورد بلفظ التثنية، فإما أن يكون لآدم وزوجه؛ إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة وأقدا على المعصية، وإما أن يكون لآدم وإبليس، إذ هما أبوا الثقلين، وأصلا الذرية. فذكر حالهما ومآل أمرهما، ليكون عظة وعبرة لأولادهما، وقد حكيت القولين في ذلك.

والذي يوضح أن الضمير في قوله: ﴿أَهْبَطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣] لآدم وإبليس: أن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم، دون زوجه. فقال: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فِدَتْ لهُمَا سَوْءَ نُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَنْبَأَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْبَطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٣]، وهذا يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم، وإبليس الذي زين له المعصية، ودخلت الزوجة تبعاً.

فإن المقصود إخبار الله تعالى الثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر، فذكر أبويهما أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الإنسان فقط. وقد أخبر سبحانه عن الزوجة بأنها أكلت مع آدم، وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة. فعلم أن حكم الزوجة كذلك، وأنها صارت إلى ما صار إليه آدم. وكان تجريد العناية إلى ذكر حال أبوي الثقلين أولى من تجريدها إلى ذكر أبي الإنس وأمهم، فتأمل.

وبالجملة، فقوله: ﴿أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ظاهر في الجمع، فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله: ﴿أَهْبَطَا﴾ من غير موجب^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرِئَإِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ..﴾ [البقرة: ٤٠].

فإنما يذكّرهم بنعمته على آبائهم، ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة؛ بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم، وبأن ظلّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم، فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسوله، والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله، ولم ينقد لدينه وطاعته، وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكراً، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفرهم برسولي وتكذيبكم له، ومعاداتكم إياه، وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم، والله أعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾

[البقرة: ٤١].

أي فيقتدي بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم، وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

فنهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه. ولبسه به خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر، من التلبيس، وهو التدليس والغش الذي يكون باطنه خلاف ظاهره، فكذلك الحق إذا لبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق، وتكلم بلفظ له معنيان: معنى صحيح ومعنى باطل، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ومراده الباطل، فهذا من الإجمال في اللفظ^(٣).

وقال: وقد اختلف في قوله: ﴿وَتَكُنْهُوَ﴾: هل هو منصوب أو مجزوم؟ على

قولين مبنيين على «الواو»، هل هي «واو» عطف أو «واو» صرف؟

فمن جعلها «واو» عطف قال: النهي تعلق بكل واحد من الأمرين على انفراده، ولو كانت «واو» صرف لكان المنهي عنه جمعهما لا أفرادهما، ومن جعلها «واو»

(٢) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٢٢٤).

(١) بدائع الفوائد (٢/٢٣).

(٣) الصواعق المرسله (٣/٩٢٦).

صرف قال: لبس الحق بالباطل مستلزم لكتمانه، كما يكتم الحق من لبسه بما يستره ويغشيه، فهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالنهي عن أحدهما نهى عن الآخر بطريق اللزوم، ففي كون الواو «واو» جمع إفادة هذا المعنى، وإن كتمان الحق ملازم لبسه بالباطل لا ينفك عنه، ولا يمكن إيقاع أحدهما إلا بالآخر، وهذا شأن كل متلازمين، وهذا القول أميز من الأول وأعرّب^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

فأمرنا بإقامتها، وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦].

فإنما كبرت على غير هؤلاء، لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه، والخشوع له وقلة رغبتهم فيه، فإن حضور العبد في الصلاة وخشوعه فيها، وتكميله لها واستفراغه وسعه في إقامتها وإتمامها، على قدر رغبته في الله^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

فكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا أي هنيئاً واسعاً ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال السدي: هو باب من أبواب بيت المقدس، وكذلك قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: والسجود بمعنى الركوع.

فكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا أي هنيئاً واسعاً ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال السدي: هو باب من أبواب بيت المقدس، وكذلك قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: والسجود بمعنى الركوع.

(٢) كتاب الصلاة (١٧٠).

(١) الصواعق المرسله (٤/١٢١٤).

(٤) تفسير الطبري (١/٢٩٩).

(٣) كتاب الصلاة (١٧١).

وأصل السجود: الانحناء لما تعظمه. فكل منحني لشيء تعظيماً له فهو ساجد. قاله ابن جرير وغيره، قلت: وعلى هذا فانحناء المتلاقين عند السلام، أحدهما لصاحبه من السجود المحرّم، وفيه نهى صريح عن النبي ﷺ^(١). ثم قيل لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةً﴾؛ أي: حط عنا خطايانا. هذا قول الحسن، وقتادة وعطاء.

وقال عكرمة وغيره: أي قولوا: (لا إله إلا الله). وكان أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تُحطُّ بها الخطايا، وهي كلمة التوحيد.

وقال: سعيد بن جبير عن ابن عباس «أمرؤا بالاستغفار»، وعلى القولين: فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار، وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم. فتلاعب الشيطان بهم، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، وفعلاً غير الذي أمرؤا به.

فروى البخاري^(٢) في صحيحه، ومسلم أيضاً من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم، فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة». فبدلوا القول والفعل معاً؛ فأنزل الله عليهم رجزاً من السماء. قال أبو العالية: هي الغضب. وقال ابن زيد: هو الطاعون. وعلى هذا، فالطاعون بالرصد لمن بدل دين الله قولاً وعملاً^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَنْمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامِ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَحْبَبُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١].

(١) روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «سمعت رجلاً يقول لرسول الله ﷺ: الرجل منا يلقي أخاه أو صديقه، أينحنني له؟ قال: لا، قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: لا، قال: أياخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم».

أخرجه الترمذي (٧٠/٥) في الاستئذان، باب في المصافحة، وابن ماجه (١٢٢٠/٢) في الآداب، باب المصافحة.

(٢) رواه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥). (٣) إغاثة اللهفان (٢/٣٠٨ - ٣٠٩).

ومن تلاعب الشيطان باليهود، أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملؤا ذلك، وذكروا عيش الثوم والبصل، والعدس والبقل والقثاء، فسألوه موسى ﷺ .

وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها، ولهذا قال لهم موسى ﷺ : ﴿أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيُّوْا مِصْرًا﴾ أي: مصرًا من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ .

فكانوا في أفصح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواء، وأبعدها عن الأذى، ومجاورة الأتبان والأقذار، سقفهم الذي يظلمهم من الشمس: الغمام، وطعامهم: السلوى، وشرابهم المن .

قال ابن زيد: كان طعام بني إسرائيل في التيه واحداً، وشرابهم واحداً، كان شرابهم عسلاً ينزل من السماء، يقال له: المن، وطعامهم: طير يقال له: السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل، لم يكن لهم خبز ولا غيره .

ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة .

وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحجر اثنا عشر عيناً من الماء، فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير، فذموا على ذلك .

فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغى بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى، بحظه من العيش النكد القاني في هذه الدار^(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥] .

قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥] . قال: رموا الحيتان في السبت، ثم أرجؤوها في الماء، فاستخرجوها بعد ذلك، فطبخوها، فأكلوها والله أوْحَمُ أكلة، أكلة أسرع في الدنيا عقوبة، وأسرع عذاباً في الآخرة، والله ما كانت لحوم الحيتان تلك بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين، إلا أنه عجل لهؤلاء، وأخر لهؤلاء . وقوله: (رموها في

السبت)، يعني: احتالوا على وقوعها في الماء يوم السبت، كما بين غيره أنهم حفروا لها حياضاً ثم فتحوها عشية الجمعة، ولم يرد أنهم باشروا رميها يوم السبت، إذ لو اجترؤوا على ذلك لاستخرجوها^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٣].

ومن تلاعب الشيطان باليهود - في حياة نبيهم - ما قصه الله ﷻ من قصة القتل الذي قتلوه وتدافعوا فيه، حتى أمروا بذبح بقرة، وضربه ببعضها. وفي هذه القصة أنواع من العبر.

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله ﷺ.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هدى المهتدي، وإعذاراً وإنذاراً للضال.

ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكيناً، وصم يوماً، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

فإن الآية غنيّة عن البيان المفصل، مبيّنة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شدّد عليهم. قال أبو جعفر بن جرير^(٢) عن الربيع عن أبي العالية: لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

(٢) تفسير الطبري (٣٣٦/١) وما بعدها.

(١) إعلام الموقعين (٢١٢/٣).

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر. فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿الْتَّخِذْنَا هُزُؤًا﴾، فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سأله عنه - قالوا: ﴿الْتَّخِذْنَا هُزُؤًا﴾، وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله.

فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الأمر به. ولو كان هو الأمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها. فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا في الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم، قولهم لنبيهم: ﴿أَلَتَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر.

وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها، فذلك جهل ظاهر. فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح. فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير^(١): وقد كان بعض السلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى: ﴿أَلَتَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، وزعم أن ذلك نفي منهم، قال: وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلاً منهم، وهفوة من هفواتهم.

ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان منها. قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: «إن القوم بعد أن أحيا الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله أنكروا قتله».

وقالوا: والله ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدرأ.

فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله تعالى وهتكه، وحرمه ميراث المقتول.

(١) تفسير الطبري (١/٣٣٦).

ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب. ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة. والبقرة من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل. والظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل؛ ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل. اهـ^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

[البقرة: ٧٤].

أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة، لم تكن دونها، وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل «أو» في هذه المواضع بمعنى «بل»، ومن قال: «من» جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي، وقول من جعلها بمعنى الواو^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ

- إلى قوله - وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٥ - ٧٩].

فدَّمَ ﷻ المحرِّفين لكتابه، والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة، وهي الأمانى، والذين يكتبون الباطل، ويقولون: هذا حق وهو من عند الله، وذم في عدة مواضع الذين يكتُمون ما أنزله من الكتاب والبيئات والهدى، وهذه الأنواع الأربعة المذمومة موجودة في هؤلاء المعرضين عن نصوص الوحي المعارضين لها بأرائهم وعقولهم وأهوائهم، فإنهم تارة يكتُمون الأحاديث والآيات المخالفة لأقوالهم، ومنهم طوائف تضع أحاديث على وفق مذاهبهم وأهوائهم في الأصول والفروع، ويقولون: هذا من عند الله، وتارة يضعون كتباً بأرائهم وعقولهم، وأذواقهم وخيالاتهم، ويدعون أنها الدين الذي يجب اتباعه ويقدمونها على نصوص الوحي^(٣).

* * *

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣١٤ - ٣١٧).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (٢٥٠، ٢٥١).

(٣) الصواعق المرسله (٣/ ١٠٤٩، ١٠٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخِذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ قُلُوبُنَا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم، وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر فإن قولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، فيما أن يكون قولاً على الله بلا علم فيكون كاذباً، وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله، وعهد عهده إلى المخبر، وهذا منتف قطعاً، فتعين أن يكون خبراً كاذباً قائله كاذب على الله تعالى^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْئُوتُونَ بِبَعْضِ الْكُتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

فهذه حجة من الله احتج بها على أهل الكتاب، فإنه كان قد أخذ عليهم الميثاق: أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يجليه عن دياره، وأن يفدي بعضهم بعضاً من الأسر، فهذه ثلاثة عهود خالفوا منها عهدين وأخذوا بالثالث؛ فقتل بعضهم بعضاً وأخرجه من دياره، ثم فادوا أسراهم لأن الله أمرهم بذلك، فإن كنتم قد فاديتهم الأسارى لأن الله أمركم بفدائهم فلم تقتلتم بعضهم بعضاً وأخرجتموهم من ديارهم، والله قد نهاكم عن ذلك؟ والأخذ ببعض الكتاب يوجب عليكم الأخذ بجميعة؛ فكيف تكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون^(٢).

وقد سمي الله ﷻ من عمل ببعض كتابه، وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به وكافراً بما ترك العمل به.

* * *

(٢) بدائع الفوائد (٤/١٤٣، ١٤٤).

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ أَتُكْبِرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقُولُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فهذا هو الذي تسميه النظائر والفقهاء: التشهي والتحكم، فيقول أحدهم صاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته، وإن كان القول موافقاً لما تهواه وتشتهيه، إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك، وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم لا جواب له عليهما البتة، فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعة، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات؛ إذ لو كان الشرع تابعاً للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعاً له: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾^(١) [المؤمنون: ٧١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨].

قوله تعالى: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾. قال^(٢) أوعية: (قلت) هذا أحد القولين، والقول الثاني وهو أرجح: غلف أي في غشاوة لا نفقه عنك ما تقول، نظيره قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَثٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يضعف قول من قال: أوعية جداً، وقال: إنما هي جمع أغلف، ويقال للقلب الذي في الغشاء: أغلف وجمعه غلف، كما يقال للرجل غير المختون: أقلف وجمعه قلف^(٣).

وقال ابن عباس وقتادة: على قلوبنا غشاوة، فهي في أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما تقول.

وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن. كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَثٍ﴾ [فصلت: ٥]. وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِيْ غِطَاةٍ عَن ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١] ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة، فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة. وليس

(٢) أي الإمام أحمد رضي الله عنه.

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٤).

(٣) بدائع الفوائد (٣/١١٦).

له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعية للعلم.

والغلاف قد يكون وعاءً للجد والريء، فلا يلزم من كون القلب غلافاً أن يكون داخله العلم والحكمة، وهذا ظاهر جداً.

فإن قيل: فالإضراب: بـ«بل» على هذا القول الذي قويتومه، ما معناه؟ أما على القول الآخر فظاهر، أي ليست قلوبكم محلاً للعلم والحكمة، بل مطبوع عليها.

قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور. وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخله في غلف فلا تفقهه. فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذرون في عدم الإيمان. فأكذبهم الله وقال: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]. فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله، إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان، فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة.

والمعنى: لم يخلق قلوبهم غلفاً لا تعي ولا تفقه، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهون، بل اكتسبوا أعمالاً عاقبتهم عليها بالطبع على القلوب، والختم عليها^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فهذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد ﷺ، فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية، ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره، فيفتح لهم وينصرون، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به وجحدوا نبوته، فاستفتاحهم به وجحد نبوته مما لا يجتمعان؛ فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي، كان جحد نبوته محالاً، وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقاً كان استفتاحهم به باطلاً، فإن كان استفتاحهم

(١) شفاء العليل (٩٣).

به حقاً فنبوته حق، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلاً فاستفتاحهم به باطل، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه البتة، ويمكن تقريرها على صور عديدة:

(منها) أن يقال: قد أقررتم بنبوته قبل ظهوره باستفتاحكم به فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره.

(الثانية) أن يقال: كنتم تستفتحون به، وذلك إقرار منكم بنبوته قبل ظهوره استناداً إلى ما عندكم من العلم بظهوره، فلما شاهدتموه وصار المعلوم معانياً بالرؤية، فالتصديق به حينئذ يكون أولى، فكفرتم به عند كمال المعرفة، وأمنتكم به حين كانت غيباً لم تكتمل، فأمنتكم به على تقدير وجوده، وكفرتم به عند تحقق وجوده، فأبي تناقض وعناد أبلغ من هذا؟

(الثالثة) أن يقال: إيمانكم به لازم لاستفتاحكم به، ووجود الملزوم بدون لازمه محال.

(الرابعة) أن يقال: استفتاحكم به هل كان عن دليل أو لم يكن عن دليل؟ فلا بد أن يقولوا: كان عن دليل، وحينئذ يجب طرد الدليل، والقول: بموجبه حيث وجد، فأما أن يقال: بموجبه في موضع ويجحد. موجبه في موضع أقوى منه؛ فمن أبطل الباطل.

(الخامسة) أن يقال: إن كان الاستفتاح به تصديقاً للنبي الذي أخبر بظهوره وقامت البراهين على صدقه؛ فالإيمان به متعين تصديقاً للنبي الأول أيضاً، وإن كان ترك الإيمان قبل ظهوره تكذيباً للنبي الأول؛ فترك الإيمان به بعد ظهوره أشد تكذيباً، فأنتم في كفركم به مكذبون للنبي الأول والثاني، وهذا من أحسن الوجوه.

(السادسة) أن يقال: إن كان الاستفتاح به حقاً لما ظهر على يد النبي المبشر به من المعجزات، فالإيمان به عند ظهوره يكون أقوى؛ لانضمام المعجزات التي ظهرت على يده، وهي تستلزم لصدقه إلى المعجزات التي ظهرت على يد النبي المبشر به، فقويت أدلة الصدق، وتظافت براهينه.

والمادة الحق يمكن إبرازها في الصور المتعددة، وفي أي قالب أفرغت، وصورة أبرزت، ظهرت صحيحة، وهذا شأن مواد براهين القرآن في أي صورة أبرزتها؛ ظهرت في غاية الصحة والبيان، فالحمد لله المان بالهدى على عباده المؤمنين^(١).

* * *

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٤ - ١٤٧).

قوله تعالى: ﴿بِسْمَا أَسْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَصْبِ عَلَى عَصْبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

فالغضب الأول: بسبب كفرهم بالمسيح.

والغضب الثاني: بسبب كفرهم بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما. اهـ^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

هذه حكاية مناظرة بين الرسول ﷺ وبين اليهود، كأنه لما قال لهم: ﴿ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، فأجابوه بأن قالوا: ﴿تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾، ومرادهم بهذا التخصيص أن تؤمن بالمنزل علينا دون غيره؛ فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين؛ دل عليهما قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ إلى آخر الآية.

[الوجه الأول] قال: إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم؛ لأنه حق فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد لأنه حق مصدق لما معكم، وحكم الحق الإيمان به أين كان ومع من كان، فلزمكم الإيمان بالحقين جميعاً، أو الكفر الصراح.

وفي قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ نكتة بديعة جداً؛ وهي أنهم لما كفروا به وهو حق؛ لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم؛ لأجل أنه حق، فإذا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم؛ ولا فيما جاء به محمد ﷺ، لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني، وأعطوا الحق حقه من الإيمان، ففي ضمن هذه الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني، وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فأمن ببعضه وكفر ببعضه، كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض، لم ينفعه إيمانه بما آمن به حتى يؤمن بالجميع.

ونظير هذا التفريق تفريق من يرد آيات الصفات وأخبارها، ويقبل آيات الأوامر والنواهي، فإن ذلك لا ينفعه؛ لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض، فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له، فالشبهة التي عرضت لمن

رد بعض ما جاء به النبي ﷺ أولى أن لا تكون نافعة، وإن كانت هذه عذراً له فشيبة من كذب بعض الأنبياء مثلها.

وكما أنه لا يكون مؤمناً حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كفر بجميعهم، فكذلك لا يكون مؤمناً حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول؛ فإذا آمن ببعضه ورد بعضه فهو كمن كفر به كله. فتأمل هذا الموضع، واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم يتبين لك أن أكثر من يدعي الإيمان بريء من الإيمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوجه الثاني من النقض قوله: ﴿فَلِمَ تَقُولُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، ووجه النقض أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم، فلم قتلتموهم من قبل؟ وفيهم أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم، فلا آمنتهم بما أنزل إليكم ولا بما أنزل على محمد ﷺ؟ ثم كأنه توقع منهم الجواب بأننا لم نقتل من ثبت نبوته، ولم نكذب به، فأجيبوا على التقدير هذا الجواب الباطل منهم: بأن موسى قد جاءكم بالبينات، وما لا ريب معه في صحة نبوته، ثم عبدتم العجل بعد غيبته عنكم وأشركتم بالله، وكفرتم به، وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقه، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجَلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

فهكذا تكون الحجج والبراهين ومناظرات الأنبياء لخصومهم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤].

كانوا يقولون: نحن أحباء الله ولنا الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وإنما يعذب منا من عبد العجل مدة، ثم يخرج من النار وذلك مدة عبادتهم له، فأجابهم تبارك وتعالى عن قولهم: إن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة بالمطالبة، وتقسيم الأمر بين أن يكون لهم عند الله عهد عهده إليهم، وبين أن يكونوا قد قالوا عليه ما لا يعلمون، ولا سبيل لهم إلى ادعاء العهد، فتعين الثاني وقد تقدم.

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٨، ١٤٩).

ثم أجابهم عن دعواهم خلوص الآخرة لهم بقوله: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ لأن الحبيب لا يكره لقاء حبيبه، والابن لا يكره لقاء أبيه، لا سيما إذا علم أن كرامته ومثوبته مختصة به، بل أحب شيء إليه لقاء حبيبه وأبيه، فحيث لم يحب ذلك ولم يتمنه، فهو كاذب في قوله مبطل في دعواه.

ونظير هذا قوله في سورة المائدة رداً عليهم قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨]. يعني: أن الأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه.

وهنا نكتة لطيفة جداً قل من يتبها لها، ونحن نقرها بسؤال وجواب (فإن قيل): معلوم أن الأب قد يؤدب ولده إذا أذنب، والحبيب قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعض ما يكره، (قيل): لو تأملت أيها السائل قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾، لعلمت الفرق بين هذا التعذيب، وبين الهجران والتأديب، فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب من المسخ قردة وخنازير، وتسلب أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم ويخربون متعبداتهم، ويسبون ذرارهم؛ فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأب بابنه.

ومعلوم أن الرحمن الرحيم لا يفعل هذا بأمة إلا بعد فرط إجرامها، وعتوها على الله، واستكبارها عن طاعته وعبادته، وذلك ينافي كونهم أحبابه؛ فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم لأدبهم ولم يعذبهم، فالتأديب شيء، والتعذيب شيء، والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح، فهذا لون وهذا لون.

وفي ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي ﷺ، وهي أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عدوانه وتكذيبه، وهو يخبرهم خبراً جزمياً أنهم لن يتمنوا الموت أبداً، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه لوجدوا طريقاً إلى الرد عليه، بل ذلوا وغلبوا وعلموا صحة قوله، وإنما منعهم من تمني الموت معرفتهم بما لهم عند الله من الخزي والعذاب الأليم؛ بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ.

فإن قيل: فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين، فقالوا: فنحن نتمناه، قيل: وهذا أيضاً معجزة أخرى، وهي أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألستهم فلم

ترده قلوبهم، ولم تنطق به ألسنتهم تصديقاً لقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾^(١)

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾

[البقرة: ١٠١].

تأمل قوله تعالى في هذه الآية، كيف نجد تحته برهاناً عظيماً على صدقه، وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول، ويصدق مع تباعد زمنهما، وشهادة أعدائه، وإقرارهم له بأنه لم يتلقه من بشر، ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا نبي أو من أخذ عنه، وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد البتة، ولو كان ذلك لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه، ولعارضوه بمثل ما جاء به، إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذاً عن بشر أن يأخذوا هم عن ملك، أو عن نظيره فيعارضوا ما جاء به.

والمقصود: أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول من غير مواطأة، ولا تشاعر ولا تلقُّ منه ولا ممن أخذ عنه، دليل قاطع على صدق الرسولين معاً. ونظير هذا أن يشهد الرجل بشهادة، فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته صدقاً لا يتطرق إليه شبهة، فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به، فهذا يكفي في صدقه إذا تجرد الإخبار، فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول، فكيف في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول، فكيف إذا بشر به الأول، فكيف إذا اقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها والله أعلم^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾

[البقرة: ١٠٢].

[جاء هذا في حق السحرة من اليهود]؛ أي علموا: مَنْ أخذ السحر وقبَّله لا نصيب له في الآخرة، ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشتركون به ويقبلونه ويتعلمونه^(٣).

* * *

(٢) بدائع الفوائد (٤/١٤٧، ١٤٨).

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٩، ١٥٠).

(٣) مفتاح دار السعادة (٩٩).

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾

[البقرة: ١٠٤].

نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة مع قصدهم بها الخير؛ لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم، فإنهم كانوا يخاطبون^(١) بها النبي ﷺ ويقصدون بها السب، يقصدون «فاعلاً» من الرعونة، فنهى المسلمون عن قولها سداً لذريعة المشابهة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبي ﷺ؛ تشبهاً بالمسلمين يقصدون بها غير ما قصده المسلمون^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ

اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وإذا كان الرب تعالى لا حَجْرَ عليه، بل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وبيتلي عبادَه بما شاء، ويحكم ولا يحكم عليه، فما الذي يحيل عليه، ويمنعه أن يأمر أمة بأمر من أوامر الشريعة، ثم ينهى أمة أخرى عنه، أو يحرم محرماً على أمة ويبيحه لأمة أخرى؟

بل أي شيء يمنعه سبحانه أن يفعل ذلك في الشريعة الواحدة في وقتين مختلفين، بحسب المصلحة؟ وقد بين ذلك ﷺ بقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه، وتصريفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء، كما أنه يمحو من أحكامه القدريّة الكونية ما يشاء ويثبت، فهكذا أحكامه الدينية الأمرية، ينسخ منها ما يشاء، ويثبت منها ما يشاء، فمن أكفر الكفر، وأظلم الظلم: أن يعارض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى وتدفع نبوته، وتجحد رسالته: بكونه أتى بإباحة بعض ما كان محرماً على من قبله، أو تحريم بعض ما كان مباحاً لهم. وبالله التوفيق، يضل من يشاء ويهدي من يشاء^(٣). اهـ.

* * *

(١) راجع: الطبري (١/٤٦٩)، وابن كثير (١/١٥٢).

(٢) إعلام الموقعين (٣/١٨٢). (٣) إغاثة اللهفان (٢/٣٢٦، ٣٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

هذه دعوى من كل واحد من الطائفتين أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهما، فقالت اليهود: لا يدخلها إلا من كان هوداً. وقالت النصارى: لا يدخلها إلا من كان نصرانياً. فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه مع أمن اللبس، ووضح المعنى، فطالبهم الله تعالى بالبرهان على صحة الدعوى فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهذا هو المسمى سؤال المطالبة بالدليل؛ فمن ادعى دعوى بلا دليل يقال له: هات برهانك إن كنت صادقاً فيما ادعيت، ويحتج بهذه الآية من يقول: بلزوم النافي الدليل كما يلزم المثبت، وحكوا في ذلك ثلاث مذاهب (ثالثها) يلزمه في الشرعيات دون العقلية، واستدلوا بالآية لا يصح لأن الله تعالى لم يطالبهم بدليل النفي المجرد، بل ادعوا دعوى مضمونها إثبات دخولهم هم الجنة، وأن غيرهم لن يدخلها، فطولبوا بالدليل الدال على هذه الدعوى المركبة من النفي والإثبات، وصاحب هذه الدعوى يلزمه الدليل باتفاق الناس، وإنما الخلاف في النفي المجرد. ولو استدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّكْرَ إِلَّا أَنْيَامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]. لكان أقرب مع كونه متضمناً للنفي والإثبات، لكن الدعوى فيه إنما توجهت إلى النفي.

ومقصود الكلام أنا لا نعذب بعد تلك الأيام، فلم ينكر عليهم اعترافهم بالتعذيب تلك الأيام، بل دعواهم أنهم لا يعذبون بعدها، وذلك نفي محض، فلذلك قلنا: إن الاستدلال بها أقرب من هذه الآية. وبعد فالتحقيق في مسألة النافي هل عليه دليل؟ أن النفي نوعان:

(نوع) مستلزم لإثبات ضد المنفي، فهذا يلزم النافي فيه الدليل؛ كمن نفى الإباحة فإنه يطالب بالدليل قطعاً؛ لأن نفيها يستلزم ثبوت ضد من أصدادها ولا بد من دليل، وكذلك نفي التعذيب بالنار بعد الأيام المعدودة يستلزم دخول الجنة والفوز بالنعيم، ولا بد له من دليل.

(النوع الثاني) نفي لا يستلزم ثبوتاً؛ كمن نفى صحة عقد من العقود أو شرط أو عبادة في الشرعيات، ونفي إمكان شيء ما من الأشياء في العقلية، فالنافي إن

نفى العلم به لم يلزمه دليل، وإن نفى المعلوم نفسه وادعى أنه منتف في نفس الأمر فلا بد له من دليل^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَكُمْ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧].

فرد عليهم سبحانه دعواهم له اتخاذ الولد ونزه نفسه عنه، ثم ذكر أربع حجج على استحالة اتخاذه الولد.

أحدها: كون ما في السموات والأرض ملكاً له، وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد له؛ لأن الولد بعض الوالد وشريكه، فلا يكون مخلوقاً له مملوكاً له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب عبد من العبيد، والابن نظير الأب؛ فكيف يكون عبد من عبده تعالى ومخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره؟ فهذا من أبطل الباطل! وأكد مضمون هذه الحجة بقوله: ﴿كُلُّ لَكُمْ قَلْبُونَ﴾، فهذا تقرير لعبوديتهم له، وأنهم مملوكون مربوبون ليس فيهم شريك ولا نظير ولا ولد، فإثبات الولد لله من أعظم الإشراك به؛ فإن المشرك به جعل له شريكاً من مخلوقاته مع اعترافه بأنه مملوك، كما كان المشركون يقولون في تليبتهم: (ليبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك)، فكانوا يجعلون من أشركوا به مملوكاً له عبداً مخلوقاً، والنصارى جعلوا له شريكاً هو نظير وجزء من أجزاءه، كما جعل بعض المشركين الملائكة بناته، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥].

فإذا كان له ما في السموات والأرض عبيداً قانتين مربوبين مملوكين؛ استحال أن يكون له منهم شريك، وكل من أقر بأن الله ما في السموات وما في الأرض لزمه أن يقر له بالتوحيد ولا بد، ولهذا يحتج سبحانه على المشركين بإقرارهم بذلك كقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥].

(الحجة الثانية) قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهذه من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه، ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

أَفَنَّى يَكُونُ لَهُمْ وَلَدٌ ﴿[الأنعام: ١٠١]﴾. أي من أين يكون لبديع السموات والأرض ولد؟ ووجه تقرير هذه الحجة أن من اخترع هذه السموات والأرض - مع عظمهما وآياتهما - وفطرهما وابتدعهما فهو قادر على اختراع ما هو دونهما، ولا نسبة له إليهما البتة، فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه، ويجعلونه نظيراً وشريكاً وجزءاً مع أنه تعالى بديع العالم العلوي والسفلي وفاطره ومخترعه وبارئه، فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب حتى يقولوا: إنه ولده! فإذا كان قد ابتدع العالم علويه وسفليه، فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي؟

فمن نسب الولد لله فما عرف الرب تعالى ولا آمن به ولا عبده، فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه.

وإن شئت أن تقر الاستدلال بوجه آخر، وهو أن يقال: إذا كان نسبة السموات والأرض وما فيهما إليه، إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع، أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود، فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالبنوة، وقدرته على اختراع العالم وما فيه لم تزل، ولم يحتج فيها إلى معاون ولا صاحب ولا شريك؟! وإن شئت أن تقرها بوجه آخر فتقول: النسبة إليه بالبنوة تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة، وذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَكَ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]. فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يحيل نسبة الولد إليه، ونسبته إليه تقدح في كمال ربوبيته وكمال غناه وكمال قدرته. ولذلك كان نسبة الولد إليه مسبة له تبارك وتعالى، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى شتمني عبدي ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، أما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً. وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته»^(١).

وقال عمر بن الخطاب في النصارى: «أذلوهم ولا تظلموهم فلقد سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر»، وقال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِإِبَابِهِمْ ﴿ الآية [الكهف: ٤، ٥]. وأخبر تعالى: (أن السموات كادت تنفطر من قولهم هذا أو تنشق الأرض منه وتخر الجبال هدأً)^(١)، وما ذاك إلا لتضمنه شتم الرب تبارك وتعالى والتقصص به، ونسبة ما يمنع كمال ربوبيته وقدرته، وغناه إليه.

(الحجة الثالثة): قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَيْتُمْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وتقدير هذه الحجة: أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاداً بمجرد أمره وقوله: كن، فأبي حاجة به إلى ولد وهو لا يتكثر به من قلة ولا يتعزز به، ولا يستعين به، ولا يعجز عن خلق ما يريد خلقه؟! وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق ولا إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون. وهذا المخلوق العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد، وقد ذكر تعالى حججاً أخرى على استحالة نسبة الولد إليه فنذكرها في هذا الموضع.

(فمنها) كمال علمه وعموم خلقه لكل شيء واستحالة نسبة الصاحبة إليه، فقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ الآية [الأنعام: ١٠١]. فأما منافاة عموم خلقه لنسبة الولد إليه فظاهر؛ فإنه لو كان له ولد لم يكن مخلوقاً بل جزءاً، وهذا ينافي كونه خالق كل شيء، وبهذا يعلم أن الفلاسفة الذين يقولون: بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة أو بغير واسطة شر من النصراري، وأن من زعم أن العالم قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقاً لله، وقوله أخبث من قول النصراري، لأن النصراري أخرجوا عن عموم خلقه شخصاً واحداً أو شخصين، ومن قال: بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقاً لله، والنصراري لم يصل كفرهم إلى هذا الحد.

وأما منافاة عدم المصاحبة للولد فظاهر أيضاً؛ لأن الولد إنما يتولد من أصليين: فاعل ومحل قابل يتصلان اتصالاً خاصاً، فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد، فمن ليس له صاحبة كيف يكون له ولد؟! ولذلك لما فهم عوام النصراري أن الابن يستلزم المصاحبة لم يستنكفوا من دعوى كون مريم إلهة، وأنها والدة الإله عيسى، فيقول عوامهم: يا والدة الإله اغفري لي، ويصرح بعضهم بأنها زوجة الرب، ولا ريب أن القول بالإيلاد يستلزم ذلك، وإثبات إيلاد لا يعقل ولا يتوهم فخواص النصراري في حيرة وضلال، وعوامهم لا يستنكفون أن يقولوا:

(١) في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿١٣٠﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿١٣١﴾ نَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿١٣٢﴾ [مريم].

بالزوجة والإيلاد المعقول، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، والقوم في هذا المذهب الخبيث أضل خلق الله، فهم كما وصفهم الله بأنهم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل.

وأما منافاة عموم علمه تعالى للولد فيحتاج إلى فهم خاص، وتقريره أن يقال: لو كان له ولد لعلمه؛ لأنه بكل شيء عليم وهو تعالى لا يعلم له ولد، فيستحيل أن يكون له ولد لا يعلمه، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء على نفيه في نفسه، إذ لو كان لعلمه فحيث لم يعلمه فهو غير كائن^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

واختلف في الضمير في ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، فقيل: هو ضمير الكتاب الذي أتوه. قال ابن مسعود: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويقرؤونه كما أنزل ولا يحرفونه عن مواضعه.

قالوا: وأنزلت في مؤمني أهل الكتاب، وقيل: هذا وصف للمسلمين، والضمير في يتلونه للكتاب الذي هو القرآن، وهذا بعيد إذ عرف القرآن بأباه^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

[البقرة: ١٢٤].

فلما أتم ما أمر به من الكلمات؛ جعله الله إماماً للخلائق يأتون به^(٣).

فإن الله ﷻ لما عاهد إبراهيم ووعده أن يجعله للناس إماماً؛ وعده أن يكون أباً لشعوب كثيرة، وأن تكون الأنبياء والملوك من صلبه، وأن يكثر نسله، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامة العهد أن يختنوا كل مولود منهم، ويكون عهدي هذا ميسماً في أجسادهم، فالتختان علم للدخول في ملة إبراهيم، وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] على الختان^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْخَبُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾

[البقرة: ١٢٥].

(١) بدائع الفوائد (٤/١٥٢ - ١٥٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١١٢).

(٣) جلاء الأفهام (١٥٩).

(٤) تحفة الودود (١٦٢).

فأمر نبيه ﷺ وأمه أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى تحقيقاً للاقتداء . إحياء آثاره ﷺ (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٥ - ١٣٦].

وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة، أما المنع فما تضمنه حرف «بل» من الإضراب؛ أي ليس الأمر كما قالوا. وأما المعارضة ففي قوله: ملة إبراهيم حنيفاً؛ أي أتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب مما دعوتهم إليه من اليهودية والنصرانية، لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية، فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي، لا من كان يهودياً أو نصرانياً، فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل.

والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره، فيعبد وحده ويحب وحده ويطاع وحده ولا يجعل معه إلهاً آخر، فمن أولى بالهداية صاحب هذه الملة أو ملة اليهودية والنصرانية؟ ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد.

وهو أن يقولوا: فنحن على ملته أيضاً لم نخرج عنها، وإبراهيم وبنوه كانوا هوداً أو نصارى، فأجيبوا عن هذا السؤال: بأنهم كاذبون فيه، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، فقال تعالى: ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ الآية [البقرة: ١٤٠]. وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

(فإن قالوا): فهب أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً فنحن على ملته وإن انتحلنا هذا الاسم.

(فأجيبوا) عن هذا بقوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾؛ أي قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فهذه حال المؤمنين، ثم قال: ﴿فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾، وإن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به فهم على ملة إبراهيم وهم مهتدون، وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملته في شيء، وإنما هم في شقاق وعداوة؛ فإن ملة إبراهيم بالإيمان بالله وكتبه ورسله، وأن لا يفرق بين أحد منهم فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعضهم، فمن لم يأت بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملة إبراهيم، مشاق لمن هو على ملته.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَرِ اللّٰهُ﴾.

أي الله تعالى يعلم ما كان عليه إبراهيم والنبيون من الملل، وأنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، فالله تعالى يعلم ذلك، فلو كانوا يهوداً أو نصارى والله تعالى لا يعلم ذلك لكتتم أعلم من الله بهم، هذا مع أن عندكم شهادة وبينه من الله بما كان عليه إبراهيم، وبأن هذا النبي على ملته، ولكنكم كتتم هذه الشهادة عن أتباعكم فلم تؤدوها إليهم مع تحققكم لها، ولا أظلم ممن كتتم شهادة استشده الله بها فهي عنده من الله إلا أنه كتتمها من الله، فالمجرور متعلق بما تضمنه الظرف الذي هو عنده من الكون والحصول^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقوله: ﴿بِمِثْلِ﴾ فليس له مثل، والجواب من أوجه:

(الأول): أن المراد به التبيكيت، والمعنى: حصلوا ديناً آخر مثله وهو لا يمكن.

(الثاني): أن المثل صلة.

(الثالث): أنكم أمتتم بالفرقان من غير تصحيف ولا تحريف، فإن آمنوا بالتوراة

من غير تصحيف ولا تحريف فقد اهتدوا.

(الرابع): أن المراد إن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين، روى ابن جرير أن ابن

عباس قال: «قولوا: فإن آمنوا بالذي أمتتم به». قال عبد الجبار: ولا يجوز ترك

القراءة المتواترة^(٢).

* * *

(٢) وانظر ص(٢١٥، ٢١٦).

(١) بدائع الفوائد (٤/١٥٥ - ١٥٧).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٦﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ آتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ آيِنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمِمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٤٢ - ١٥٠﴾.

هذا سؤال من السفهاء أورده على المؤمنين، ومضمونه أن القبلة الأولى إن كانت حقاً فقد تركتم الحق، وإن كانت باطلاً فقد كنتم على باطل، ولفظ الآية وإن لم يدل على هذا فالسفهاء المجادلون في القبلة قالوه، فأجاب الله تعالى عنه بجواب شاف بعد أن ذكر قبله مقدمات تقرره وتوضحه، والسؤال من جهة الكفار أورده على صور متعددة ترجع إلى شيء واحد، فقالوا ما تقدم، وقالوا: لو كان نبياً ما ترك قبلة الأنبياء قبله، وقالوا: لو كان نبياً ما كان يفعل اليوم شيئاً وغداً خلفه، وقال المشركون: قد رجع إلى قبلكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم، وقال أهل الكتاب: لو كان نبياً ما فارق قبلة الأنبياء، وكثر الكلام، وعظمت المحنة على بعض الناس كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾

وتأمل حكمة العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطأه ومهّده وذلك بقواعد قبله، فذكر النسخ وأنه إذا نسخ شيئاً أتى بمثله أو خير منه، وإنه قادر على ذلك فلا يعجزه، ثم قرر التسليم للرسول وأنه لا ينبغي أن يُعْتَرَضَ عليه، ويُسألَ تعنتاً كما جرى لموسى مع قومه، ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمة وذكر بانيه وأثنى عليه وأوجب اتباع ملته، فقرر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة، وإلى بانيه بالاتباع والموالاة والموافقة، وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه ولا يقضون منه وطراً، فالقلوب عاكفة على محبته دائمة الاشتياق إليه، متوجهة إليه حيث كانت، ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين، وأضافه إليه بقوله: (أن طهراً بيتي)، وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت، وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه.

فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذكروا بها، فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة، ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت، فلما برز مرسوم ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ تلقاه رسول الله ﷺ والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيداً عندهم؛ لأن رسول الله ﷺ^(١) كان كثيراً ما يقلب وجهه في السماء ينتظر أن يحوله الله عن قبة أهل الكتاب، فولاه الله القبلة التي يرضاها، وتلقى ذلك الكفار بالمعارضة وذكر الشبهات الداحضة، وتلقاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقة، فذكر تعالى أصناف الناس عند الأمر باستقبال الكعبة، وابتدأ ذلك بالتسلية لرسوله والمؤمنين عما يقول السفهاء من الناس، فلا تعبأوا بقولهم فإنه قول سفیه ثم قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، فأخبر تعالى أن المشرق والمغرب له، وأنه رب ذلك، فأين ما تعبد له عبادة بأمره إلى أي جهة كانت فهم مطيعون له، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. فلم يصل مستقبل الجهات بأمره إلا له تعالى، فإذا كنتم تصلون إلى غير الكعبة بأمره، ثم أمركم أن تصلوا إليها فما صليتم إلا له أولاً وأخراً، وكنتم على حق في الاستقبال الأول والآخر؛ لأن كليهما كان بأمره ورضاه فانقلتم من رضاه إلى رضاه.

(١) راجع: تفسير الطبري (١٩/٢) طبعة الحلبي. و(١٧٢/٣) طبعة المعارف.

ثم نبه على فضل الجهة التي أمرهم بالاستقبال إليها ثانياً، بأنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، كما هداكم للقبلة التي جعلها قبلتكم وشرعها لكم ورضيها، ولكن أمركم باستقبال غيرها أولاً لحكمة له في ذلك، وهو أن يعلم سبحانه من يتبع الرسول ويدور معه حيثما دار، ويأتمر بأوامره كيف تصرفت وهو العالم بكل شيء، ولكن شاء أن يعلم معلومه الغيبي عياناً مشاهداً؛ فيتميز بذلك الراسخ في الإيمان المسلم للرسول المنقاد له ممن يعبد الله على حرف فينقلب على عقبه بأدنى شبهة.

فهذا من بعض حكمه في أن جعل القبلة الأولى غير الكعبة فلم يشرع ذلك سدى ولا عبثاً، ثم أخبر سبحانه أنه كما جعل لهم أوسط الجهات قبله بتعبدهم، فكذلك جعلهم أمة وسطاً فاختر القبلة الوسط في الجهات للأمة الوسط في الأمم، ثم ذكر أن هذا التفضيل والاختصاص ليستشهدهم على الأمم فيقبل شهادتهم على الخلائق يوم القيامة، ثم أجاب تعالى عما سأل عنه المؤمنون من صلاتهم إلى القبلة الأولى، وصلاة من مات من إخوانهم قبل التحويل، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾، وفيه قولان:

أحدهما: ما كان ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يجازيكم عليها لأنها كانت بأمره ورضاه.

والثاني: ما كان ليضيع إيمانكم بالقبلة الأولى، وتصديقكم بأن الله شرعها ورضيها.

وأكثر السلف والخلف على القول الأول، وهو مستلزم للقول الآخر.

ثم ذكر منته على رسوله واطلاعه على حرصه على تحويله عن قبلته الأولى، فقال: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب بأنهم يعلمون أنه الحق من ربهم ولم يذكر للضمير مفسراً غير ما في السياق، وهو الأمر باستقبال المسجد الحرام، وأن أهل الكتاب عندهم من علامات هذا النبي أن يستقبل بيت الله الذي بناه إبراهيم في صلاته.

ثم أخبر تعالى عن شدة كفر أهل الكتاب؛ بأنهم لو أتاهم الرسول بكل آية ما تبعوا قبلته، ففي ذلك التسلية له وتركهم وقبلتهم، ثم برأه من قبلتهم فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾.

ثم ذكر اختلافهم في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى، لأن القبلة من خواص الدين وأعلامه وشعائره الظاهرة، فأهل كل دين لا يفارقون قبلتهم إلا أن يفارقوا دينهم.

فأخبر تعالى في هذه الجملة الثلاث بثلاث إخبارات تتضمن براءة كل طائفة من قبلة الطائفة الأخرى، وتتضمن الإخبار بأن أهل الكتاب لو رأوا كل آية تدل على صدق الرسول لما تبعوا قبلته عناداً وتقليداً لآبائهم، وأنهم وإن اشتركوا في خلاف القبلة الحق، فهم مختلفون في باطلهم؛ فلا تتبع طائفة قبلة الأخرى، فهم متفقون على خلاف الحق، مختلفون في اختيار الباطل.

وفي هذه الآية أيضاً تثبيت للرسول ﷺ والمؤمنين على لزوم قبلتهم، وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب: ارجعوا إلى قبلتنا فنتبعكم على دينكم، فإن هذا خداع ومكر منهم؛ فإنهم لو رأوا كل آية تدل على صدق ما تبعوا قبلتك؛ لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم فلا مطمع للحق فيها، ولست أيضاً بتابع قبلتهم فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم وعودك إلى قبلتهم، وكذلك هم أيضاً مختلفون فيما بينهم فلا يتبع أحد منهم قبلة الآخر فهم مختلفون في القبلة، ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته، بل أكرمكم الله بقبلة غير قبلة هؤلاء المختلفين، اختارها الله لكم ورضيها، وأكد تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَدَا مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]. فهذا كله تثبيت وتحذير من موافقتهم في القبلة وبراءة من قبلتهم كما هم براء من قبلتك، وكما بعضهم بريء من قبلة بعض، فأنتم أيها المؤمنون أولى بالبراءة من قبلتهم التي أكرمكم الله بالتحويل عنها، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾.

ثم أخبر تعالى عن اختصاص كل أمة بقبلتهم، فقال: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّئُهَا﴾ وأصح القولين أن المعنى: هو متوجه إليها أي موليتها وجهه فالضمير راجع إلى «كل»، وقيل: إلى الله؛ أي الله موليتها إياه، وليس بشيء، لأن الله لم يول القبلة الباطلة أبداً ولا أمر النصارى باستقبال الشرق قط، بل هم تولوا هذه القبلة من تلقاء أنفسهم وولوها وجوههم.

وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ مشعر بصحة هذا القول؛ أي إذا كان أهل الملل قد تولوا الجهات فاستبقوا أنتم الخيرات، وبادروا إلى ما اختاره الله لكم ورضيه

وولاكم إياه ولا تتوقفوا فيه، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلى موقف القيامة، كما تجتمعون من سائر الجهات إلى جهة القبلة التي تؤمنونها، فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلى جهة الموقف الذي يؤمه الخلائق.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨]. وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم، كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم، فقال: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّبٌ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾.

وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه، وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل؛ يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه؛ لأنه كما أن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده، وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم، فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد، فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا، فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه؛ إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة، فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفوراً وذهاباً في الطريق الباطلة وعبادة غيره وإن دانوا غير دينه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات وبادروا إليها، ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر.

□ □ □

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من الكلام في ذكر محاجة أهل الباطل للمسلمين في القبلة، ونصر الله لهم بالحجة عليهم. وقد رأيت لأبي القاسم السهيلي^(١) في الكلام على هذه الآيات فصلاً أذكره بلفظه: قال في قول النبي ﷺ للبراء بن معرور: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها»، يعني: لما صلى إلى الكعبة قبل الأمر بالتوجه إليها، ولم يأمره بالإعادة لأنه كان متأولاً.

فقال أبو القاسم: وفي الحديث دليل على أن النبي ﷺ كان يصلي بمكة إلى بيت

(١) في «الروض الأنف» للسهيلي (٤/١١٣، ١١٤)، والحديث ذكره ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام (٢/٨٦ - ٨٨)، وانظر: الإصابة لابن حجر (١/٢٣٨)، وذكر صاحب كنز العمال الحديث، وعزاه لأبي نعيم (٨/٢٨).

المقدس، وهو قول ابن عباس يعني قوله للبراء «لقد كنت على قبلة»، وقالت طائفة ما صلى إلى بيت المقدس إلا منذ قدم المدينة سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً، فعلى هذا يكون في القبلة نسخان: نسخ سُنَّةِ بَسُنَّةٍ، ونسخ سُنَّةِ بقرآن، وقد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة، فروي عنه من طرق صحاح^(١): أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بمكة استقبل بيت المقدس وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فلما كان ﷺ يتحرى القبلتين جميعاً لم يبين توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة، ولذلك، والله أعلم، قال الله تعالى في الآية الناسخة: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ [البقرة: ١٤٩، ١٥٠].

أي: من أي جهة جئت إلى الصلاة وخرجت إليها؛ فاستقبل الكعبة، كنت مستديراً بيت المقدس أو لم تكن، لأنه كان بمكة يتحرى في استقباله بيت المقدس أن تكون الكعبة بين يديه. قال: وتدبر قوله: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، وقال لأتمته: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ولم يقل: حيث ما خرجتم، وذلك لأنه ﷺ كان إمام المسلمين، فكان يخرج إليهم في كل صلاة ليصلي بهم، وكان ذلك واجباً عليه إذ كان الإمام المقتدى به، فأفاد ذكر الخروج في خاصته هذا المعنى، ولم يكن حكم غيره هكذا يقتضي الخروج، ولا سيما النساء، ومن لا جماعة عليه.

قلت: ويظهر في هذا معنى آخر، وهو أن قوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. خطاب عام له ﷺ ولأتمته يقتضي أمرهم بالتوجه إلى المسجد الحرام في أي موضع كانوا من الأرض، وقوله: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ خطاب بصيغة الإفراد والمراد هو والأمة، بكقوله: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ أَتَى اللَّهُ﴾ [الأحزاب: ١]. ونظائره، وهو يفيد الأمر باستقبالها من أي جهة ومكان خرج منه. وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ يفيد الأمر باستقبالها في أي موضع استقر فيه، وهو تعالى لم يقيد الخروج بغاية بل أطلق غايته كما عم مبدأه، فمن حيث خرج إلى أي مخرج كان من صلاة أو غزو أو حج أو غير ذلك، فهو مأمور باستقبال المسجد الحرام هو والأمة. وفي أي بقعة كانوا من الأرض فهو مأمور هو والأمة باستقباله.

فتناولت الآيتان أحوال الأمة كلها في مبدأ تنقلهم من حيث خرجوا، وفي غايته

(١) راجع: الطبري (١٩/٢).

إلى حيث انتهوا، وفي حال استقرارهم حيث ما كانوا، فأفاد ذلك عموم الأمر بالاستقبال في الأحوال الثلاث التي لا ينفك منها العبد، فتأمل هذا المعنى ووازن بينه وبين ما أبداه أبو القاسم يتبين لك الرجحان، والله أعلم، بما أراد من كلامه وإنما هو كد أفهام أمثالنا من القاصرين.

فقوله: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يتناول مبدأ الخروج وغايته له وللأمة، وكان أولى بهذا الخطاب، لأن مبدأ التوجه على يديه كان، وكان شديد الحرص على التحويل، وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ يتناول أماكن الكون كلها له وللأمة، وكانوا أولى بهذا الخطاب لتعدد أماكن أكونهم وكثرتها بحسب كثرتهم واختلاف بلادهم وأقطارهم، واستدارتها حول الكعبة شرقاً وغرباً ويمناً وعراقاً، فكان الأحسن في حقهم أن يقال لهم: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾؛ أي من أقطار الأرض في شرقها وغربها وسائر جهاتها، ولا ريب أنهم أدخل في هذا الخطاب منه ﷺ، فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تظفر بها في موضع غير هذا، والله أعلم.

قال أبو القاسم: وكرر الباري تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في ثلاث آيات [البقرة: ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠]؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس: اليهود لأنهم لا يقولون: بالنسخ في أصل مذهبهم، وأهل الريب والنفاق اشتد إنكارهم له؛ لأنه كان أول نسخ نزل، وكفار قريش قالوا: ندم محمد على فراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا. وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه فيقولون: يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل، وقد فارق قبلة إبراهيم وإسماعيل وآثر عليها قبلة اليهود. فقال الله له حين أمره بالصلاة إلى الكعبة: ﴿لَتَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ على الاستثناء المنقطع؛ أي لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون، وقال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْفِرِينَ﴾، أي: من الذين شكوا وامتروا.

ومعنى ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: الذي أمرتك به من التوجه إلى البيت الحرام، هو الحق الذي كان عليه الأنبياء قبلك، فلا تتمر في ذلك، فقال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ قَرِيظًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يكتُمون ما علموا أن الكعبة هي قبلة الأنبياء.

ثم ساق من طريق أبي داود في كتاب النسخ والمنسوخ، قال: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا عنبة عن يونس عن ابن شهاب قال: كان سليمان بن عبد الملك لا

يعظم إيليا كما يعظمها أهل بيته، قال: فسرت معه وهو ولي عهد، قال: ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، فقال سليمان وهو جالس فيه: «والله إن في هذه القبلة التي صلى إليها المسلمون والنصارى لعجب كذا رأيته». والصواب اليهود. قال خالد بن يزيد: «أما والله إنني لأقرأ الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ، وأقرأ التوراة فلم تجدها اليهود في الكتاب الذي أنزله الله عليهم، ولكن تابوت السكينة كان على الصخرة؛ فلما غضب الله ﷻ على بني إسرائيل رفعه فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم». وروى أبو داود أيضاً أن يهودياً خاصم أبا العالية في القبلة، فقال أبو العالية: إن موسى كان يصلي عند الصخرة ويستقبل البيت الحرام، فكانت الكعبة قبلته وكانت الصخرة بين يديه، وقال اليهودي: بيني وبينك مسجد صالح النبي ﷺ، فقال أبو العالية: فإني صليت في مسجد صالح وقبلته الكعبة. انتهى.

□ □ □

(قلت): وقد تضمن هذا الفصل فائدة جلييلة، وهي أن استقبال أهل الكتاب لقبلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله، بل كان عن مشورة منهم واجتهاد، أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق أبداً وهم مقرون بذلك، ومقرون أن قبلة المسيح كانت قبلة بني إسرائيل وهي الصخرة، وإنما وضع لهم شيوخهم وأسلافهم هذه القبلة، وهم يعتذرون عنهم بأن المسيح فوض إليهم التحليل والتحریم وشرع الأحكام، وأن ما حللوه وحرموه فقد حلله هو وحرمه في السماء، فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يشرع استقبال المشرق على لسان رسوله أبداً، والمسلمون شاهدون عليهم بذلك.

وأما قبلة اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة البتة، وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا إليه، فلما رفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة.

وأما السامرة فإنهم يصلون إلى طور لهم بأرض الشام. يعظمونه ويحجون إليه، ورأيته أنا وهو في بلد نابلس، وناظرت فضلاءهم في استقباله، وقلت: هو قبلة باطلة مبتدعة. فقال مشار إليه في دينهم: هذه هي القبلة الصحيحة، واليهود أخطأواها؛ لأن الله تعالى أمر في التوراة باستقباله عيناً. ثم ذكر نصاً يزعمه من التوراة في استقباله، فقلت له: هذا خطأ قطعاً على التوراة؛ لأنها إنما أنزلت على

بني إسرائيل فهم المخاطبون بها وأنتم فرع عليهم فيها وإنما تلقيتموها عنهم، وهذا النص ليس في التوراة التي بأيديهم وأنا رأيتها وليس هذا فيها. فقال لي: صدقت إنما هو في توراتنا خاصة، قلت له: فمن المحال أن يكون أصحاب التوراة المخاطبين بها، وهم الذين تلقوها عن الكليم وهم متفرقون في أقطار الأرض، قد كتبوا هذا النص وأزالوه وبدلوا القبلة التي أمروا بها، وحفظتموها أنتم وحفظتم النص بها فلم يرجع إليّ الجواب.

□ □ □

(قلت): وهذا كله مما يقوي أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّئُهَا﴾ راجعاً إلى «كل»، أي: هو موليتها وجهه، ليس المراد أن الله موليه إياها، لوجوه هذا أحدها.

(الثاني): أنه لم يتقدم لاسمه تعالى ذكر يعود الضمير عليه في الآية، وإن كان مذكوراً فيما قبلها، ففي إعادة الضمير إليه تعالى دون «كل» رد الضمير إلى غير من هو أولى به، ومنعه من القريب منه الملاحق به.

(الثالث): أنه لو عاد الضمير عليه تعالى لقال: هو موليه إياها، هذا وجه الكلام كما قال تعالى: ﴿تَوَلَّوْهُ مَا قَوْلٌ﴾ [النساء: ١١٥]، فوجه الكلام أن يقال: ولاء القبلة، لا يقال: ولي القبلة إياه، فتأمله.

وقول أبي القاسم أنه تعالى كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثاً؛ رداً على الطوائف الثلاث ليس بالبين ولا في اللفظ إشعار بذلك، والذي يظهر فيه أنه أمر به في كل سياق لمعنى يقتضيه، فذكره أول مرة ابتداء للحكم ونسخاً للاستقبال الأول فقال: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم حيث يجدونه في كتبهم كذلك، ثم أخبر عن عبادتهم وكفرهم، وأنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته، ولا هو أيضاً بتابع قبلتهم، ولا بعضهم بتابع قبلة بعض، ثم حذر من اتباع أهوائهم، ثم كرر معرفة أهل الكتاب به كمعرفتهم بأبنائهم، وأنهم ليكتمون الحق عن علم، ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه فلا يلحقه فيه امتراء، ثم أخبر أن لكل من الأمم وجهة هو مستقبلها وموليتها وجهه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات،

ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج في ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ، ثم أعاد الأمر به غير مكرر له تكرراً محضاً، بل في ضمنه أمرهم باستقبالها حيثما كانوا، كما أمرهم باستقبالها أولاً حيثما كانوا، عند النسخ وابتداء شرع الحكم، فأمرهم باستقبالها حيثما كانوا عند شرع الحكم وابتدائه، وبعد المحاجة والمخاصمة والحكم لهم وبيان عنادهم ومخالفتهم مع علمهم، فذكر الأمر بذلك في كل موطن لاقتضاء السياق له؛ فتأمل، والله أعلم.

وقوله: إن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ منقطع قد قاله أكثر الناس، ووجهه أن الظالم لا حجة له؛ فاستثناؤه مما ذكر قبله منقطع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «ليس الاستثناء بمنقطع؛ بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه؛ حيث ظنوا أن الحجة هاهنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق». والحجة في كتاب الله يراد بها نوعان:

أحدهما: الحجة الحق الصحيحة كقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْكَلِيمَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

[والثانية]: ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو بباطل، كقوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]. وإذا كانت الحجة اسماً لما يحتج به من حق أو باطل صح استثناء حجة الظالمين من قوله: ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، وهذا في غاية التحقيق.

والمعنى: أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة فلا تخشوهم واخشوني^(١).

□ □ □

وتأمل حكمته الباهرة في شرع الصلاة أولاً إلى بيت المقدس إذ كانت قبلة الأنبياء، فبعث بما بعث به الرسل، وبما يعرفه أهل الكتاب، وكان استقبال بيت المقدس مقررًا لنبوته، وأنه بعث به الأنبياء قبله، وأن دعوته هي دعوة الرسل بعينها، وليس بدعاً، ولا مخالفاً لهم، بل مصدقاً لهم مؤمناً بهم، فلما استقرت أعلام نبوته في القلوب وقامت شواهد صدقه من كل جهة، وشهدت القلوب له بأنه رسول الله حقاً، وإن أنكروا رسالته عناداً وحسداً وبيغياً، وعلم سبحانه أن المصلحة

(١) بدائع الفوائد (٤/١٥٧ - ١٧٤).

له ولأتمته أن يستقبلوا الكعبة البيت الحرام أفضل بقاع الأرض وأحبها إلى الله، وأعظم البيوت وأشرفها وأقدمها قرر قبله أموراً كالمقدمات بين يديه؛ لعظم شأنه فذكر النسخ أولاً:

وأنه إذا نسخ آية أو حكماً أتى بخير منه، أو مثله، وأنه على كل شيء قدير^(١).

□ □ □

وتأمل قصة نسخ القبلة - لما كانت شديدة على النفوس جداً - كيف وطأ سبحانه قبلها عدة موطنات:

منها: ذكر النسخ.

ومنها: أنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله.

ومنها: أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، فعموم قدرته وعلمه صالح لهذا الأمر الثاني، كما كان صالحاً للأول.

ومنها: تحذيرهم الاعتراض على رسوله، كما اعترض من قبلهم على موسى، بل أمرهم بالتسليم والانقياد.

ومنها: تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود، وأن لا تستخفهم شبههم، فإنهم يودون أن يردوهم كفاراً من بعد ما تبين لهم الحق.

ومنها: إخباره أن دخول الجنة ليس بالتهود ولا بالتنصر، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل، والنية لله مع متابعة أمره.

ومنها: إخباره سبحانه عن سعته، وأنه حيث ولى المصلي وجهه؛ فثم وجهه تعالى، فإنه واسع عليم، فذكر الإحاطتين الذاتية والعلمية، فلا يتوهمون أنهم في القبلة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تبارك وتعالى ولا في الثانية، بل حيثما توجهوا؛ فثم وجهه تعالى.

ومنها: أنه ﷺ حذر نبيه ﷺ عن اتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بل أمر أن يتبع هو وأتمته ما أوحى إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده.

ومنها: أنه ذكر عظمة بيته الحرام، وعظمة بانيه وملته، وسقته من يرغب عنها، وأمر باتباعها، فنوّه بالبيت وبانيه وملته، وكل هذا توطئة بين يدي التحويل، مع ما في ضمنه من المقاصد الجليلة، والمطالب السنية.

(١) مفتاح دار السعادة (٣٥٨)، وإعلام الموقعين (٢٠٨/٤).

ثم ذكر فضل هذه الأمة، وأنهم الأمة الوسط العدل الخيار، فاقضى ذلك أن يكون نبيهم ﷺ أوسط الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وخيارهم، وكتابهم كذلك، ودينهم كذلك، وقبلتهم التي يستقبلونها كذلك؛ فظهرت المناسبة شرعاً وقدراً في أحكامه تعالى الأمرية والقدرية؛ وظهرت حكمته الباهرة، وتجلت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربها تبارك وتعالى (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

يدل على وجوب اتباع الصحابة ﷺ ووجه الاستدلال أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم، وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسول على أممهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوه بهم، ورفع ذكرهم، وأثنى عليهم؛ لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم، وتدعو لهم وتستغفر لهم.

والشاهد المقبول عند الله الذي يشهد بعلم وصدق؛ فيخبر بالحق مستنداً إلى علمه به، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] (٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتٌ بَلْ ءَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٣ - ١٥٧]

وعد الله الصابرين بثلاثة أشياء، وكل واحد خير من الدنيا وما عليها، وهي: صلواته تعالى عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية وهذا مفهوم لحصر الهدى فيهم (٣). وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «نعم العدلان، ونعمت العلاءة»، فبالهدى خلصوا

(٢) إعلام الموقعين (٤/١٦٦، ١٦٧).

(١) إعلام الموقعين (٤/٢٠٨).

(٣) عدة الصابرين (١١٣).

من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة، والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة: الضلال عن طريق السعادة، والوقوع في ضد الرحمة من الألم والعذاب، والذم واللعن الذي هو ضد الصلاة^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

فلعنة الله لهم تتضمن مقتله وإبعاده وبغضه لهم، ولعنة العبد تتضمن سؤال الله تعالى أن يفعل ذلك بمن هو أهل لللعنة^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى؛ فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا نذ في المحبة، لا في الخلق والربوبية. فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند، بخلاف ند المحبة، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأناداهم، وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: والذين آمنوا أشد حباً لله من محبة المشركين بالأناداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أناداهم بقسط منها. والمحبة الخالصة أشد من المحبة المشركة.

والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، فإن فيها قولين:

أحدهما: يحبونها كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبة الله، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً.

والثاني: أن المعنى يحبون أناداهم، كما يحب المؤمنون الله، ثم بيّن أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأناداهم.

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٧٢، ١٧٣). (٢) جلاء الأفهام (٨٦).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذموا بأن شَرَكُوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله، كمحبة المؤمنين له، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم، وهم في النار: أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ سَوَّيْتُمْ بَيْنَ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٧، ٩٨]. ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فالمعنى في أظهر الوجهين: لو يرى الذين ظلموا في الدنيا؛ إذ يرون العذاب في الآخرة، والجواب محذوف، ثم قال: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾^(٢). وقد اختلف في تعلق قوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ بماذا؟.

فقال طائفة: هو مفعول يرى، أي: ولو يرون أن القوة لله جميعاً؛ لما عصوه ولما كذبوا رسله، وقدموا عقولهم على وحيه.

وقالت طائفة: بل المعنى لأن القوة لله جميعاً، وجواب «لو» محذوف على التقديرين: أي: لو يرى هؤلاء حالهم، وما أعد الله لهم إذ يرون العذاب لرأوا أمراً عظيماً، ثم قال: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وهو متضمن للتهديد الشديد والوعيد^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فالأسباب التي تقطعت بهم هي: العلائق التي بغير الله، ولغير الله، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها، وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت؛ اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطان غايتها، وتضمحل باضمحلالها، وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل.

(٢) أقسام القرآن (٣).

(١) مدارج السالكين (٣/٢٠، ٢١).

(٣) الصواعق المرسله (٣/١٠٨١).

وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا؛ من اضمحل السعي والعمل والكد والخدمة التي يفعلها العبد لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال ذلك الذي عمل له؛ عدم ذلك العمل، وبطل ذلك السعي، ولم يبق في يده سوى الحرمان، ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة: «أليس عدل مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا». فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم؛ فتساقط بهم في النار، ويتولى عابدين الشمس والقمر والنجوم آلهتهم؛ فإذا كورت الشمس، وانتشرت النجوم؛ اضمحلت تلك العبادة وبطلت، وصارت حسرة عليهم^(١).

[والأسباب هي]: الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا.

وقال ابن عباس وأصحابه: يعني أسباب المودة الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا.

وقال ابن زيد: هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلى ثواب الله. وقيل: هي الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها.

وبالجملة فسمى الله سبحانه ذلك كله أسباباً؛ لأنها كانت يتوصل بها إلى مسيبتها، وبالله التوفيق^(٢).

فكل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم، ويعادي لهم، ويرضى لهم ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله ﷻ ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب، فينقطع يوم القيامة كل وصلة ووسيلة ومودة، وموالاته كانت لغير الله تعالى، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه؛ وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالات والمعاداة والتقريب والإبعاد، وتجريده متابعة رسوله وترك أقوال غيره، وترك ما خالف ما جاء به، والإعراض عنه وعدم الاعتناء به، وتجريد متابعتة تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلاً عن الشركة بينه وبين غيره، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه.

(٢) شفاء العليل (١٩٠).

(١) طريق الهجرتين (١٢٦).

فهذا هو السبب الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي آخيته التي يجول ما يجول، ثم إليها مرجعه. وهذه هي النسبة التي تنفع العبد، فلا ينفعه غيرها في الدور الثلاثة: أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فلا قوام له، ولا عيش ولا نعيم، ولا فلاح إلا بهذه النسبة. وهي السبب الواصل بين العبد وبين الله، ولقد أحسن القائل:

إِذَا تَقَطَّعَ حَبْلُ الْوَضَلِ بَيْنَهُمْ فَلِلْمُحِبِّينَ حَبْلٌ غَيْرٌ مُنْقَطِعٍ
وَإِنْ تَصَدَّعَ شَمْلُ الْقَوْمِ بَيْنَهُمْ فَلِلْمُحِبِّينَ شَمْلٌ غَيْرٌ مُنْصَدِعٍ

والمقصود: أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة بين العبد وبين الله فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق، إلا بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم. وقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم، ولغير وجهه، يجعلها الله هباءً منثوراً. ولا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً؛ وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة، أن يرى سعيه كله ضائعاً لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فتضمن هذا المثل: ناعقاً، أي: مصوتاً بالغنم وغيرها، ومنعوقاً به. وهو الدواب. فقيل: الناعق العابد، وهو الداعي للصنم، والصنم هو المنعوق به المدعو، وأن حال الكافر في دعائه كحال من ينعق بما لا يسمعه. هذا قول طائفة، منهم عبد الرحمن بن زيد وغيره.

واستشكل صاحب الكشاف^(١) وجماعة معه هذا القول، وقالوا قوله: ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ لا يساعد عليه؛ لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداءً.

وقد أوجب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة:

(١) انظر: الكشاف للزمخشري (١/١٠٧)، وراجع: الطبري (٢/٧٩).

أحدها: أن «إلاً» زائدة، والمعنى بما لا يسمع دعاء ونداء.

قالوا: وقد ذكر ذلك الأصمعي في قول الشاعر:

حراجيح ما تنفك إلا مناخة^(١)

أي: ما تنفك مناخة، وهذا جواب فاسد. فإن «إلاً» لا تزداد في الكلام المثبت.

الجواب الثاني: أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء، لا في خصوصيات المدعو.

الجواب الثالث: أن المعنى: أن مثل هؤلاء في دعائهم آهتهم التي لا تفقه

دعاهم، كمثل الناقع بغنمه فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه هو في دعاء ونداء.

وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته وليه الميت إلا العناء.

وقيل: المعنى: ومثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر

من الصوت. فإن الراعي هو داعي الكفار، والكفار هم البهائم المنعوق بها.

قال سيبويه: المعنى: ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناقع

والمنعوق به.

وعلى قوله: فيكون المعنى: مثل الذين كفروا وداعيتهم كمثل الغنم والناقع بها،

ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرق.

فإن جعلته من المركب كان تشبيهاً للكفار في عدم فقههم وانتفاعهم بالغنم التي

ينعق بها الراعي، فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء

والنداء، وإن جعلته من التشبيه المفرق، فالذين كفروا بمنزلة البهائم ودعاء داعيتهم

إلى الطريق، والهدى بمنزلة الذي ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق،

وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم، مجرد صوت الناقع، والله أعلم^(٢).

وسواء كان المعنى: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من

الدواب إلا أصواتاً مجردة، أو كان المعنى ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل

الدواب التي ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء؛ فالقولان متلازمان بل

هما واحد، وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى، فعلى

التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام، فهؤلاء لم

يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يتميز بها صاحبها عن سائر الحيوان^(٣).

(١) الشعر لذي الرمة في وصف إبل، وشطره الآخر:

على الخف أو نرمي بها بلداً قفراً

(٢) إعلام الموقعين (١/٢٣٧، ٢٣٨). (٣) مفتاح دار السعادة (٨٦).

قوله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ عَلَيْهِ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

الذي حسن مجيء «إن» ههنا الاحتجاج والإلزام.
فإن المعنى: أن عبادتكم لله تستلزم شكركم له، بل هي الشكر نفسه، فإن كنتم ملتزمين لعبادته داخلين في جملتها؛ فكلوا من رزقه واشكروه على نعمه، وهذا كثيراً ما يورد في الحجاج، كما تقول للرجل: إن كان الله ربك وخالقك فلا تعصه، وإن كان لقاء الله حقاً فتأهب له، وإن كانت الجنة حقاً فتزود إليها. وهذا أحسن من جواب من أجاب: بأن «إن» هنا قامت مقام إذا^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قد جمع الله خصال البرّ في هذه الآية الكريمة، فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنه الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة. وأنه الأعمال القلبية التي هي حقائقه، من الصبر والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب، وأصول الإيمان الخمس. ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هي خصال التقوى بعينها، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

في ضمن هذا الخطاب: ما هو كالجواب لسؤال مقدر: إن في إعدام هذه البنية الشريفة، وإيلام هذه النفس وإعدامها في مقابلة إعدام المقتول؛ تكثريراً لمفسدة

(٢) الرسالة التبوكية (١٥).

(١) بدائع الفوائد (٤٨/١).

القتل، فلاية حكمة صدر هذا ممن وسعت رحمته كل شيء، وبهرت حكمته العقول؟ فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾. وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصاً بمن قتله كفَّ عن القتل وارتدع، وأثر حب حياته ونفسه، فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله.

ومن وجه آخر: وهو أنهم كانوا إذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم، قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيَّه وقبيلته، وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره، وتشتد مؤنته، فشرع الله تعالى القصاص، وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله، ففي ذلك حياة عشيرته وحيَّه وأقاربه. ولم تكن الحياة في القصاص من حيث إنه قتل، بل من حيث كونه قصاصاً، يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غيره، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين.

وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز، والبلاغة والفصاحة، والمعنى العظيم.

فصدَّر الآية بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم، عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحساناً إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم، لا لمن لا يبلغ العباد ضره ونفعه.

ثم عقبه بقوله: ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾ إيذاناً بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل، وهو أن يفعل به كما فعل بالمقتول.

و«القصاص» في اللغة: المماثلة، وحقيقته راجعة إلى الاتباع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ لَأُخْتِيهِ قُصِيْبَةٌ﴾ [الفصص: ١١]؛ أي: اتبعي أثره. ومنه قوله: ﴿فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]؛ أي: يقصان الأثر ويتبعانه. ومنه: قص الحديث واقتصاصه، لأنه يتبع بعضه بعضاً في الذكر، فسمي جزاء الجاني قصاصاً؛ لأنه يتبع أثره، فيفعل به كما فعل، وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل، فيقتل بمثل ما قتل به، لتحقيق معنى القصاص.

ونكر سبحانه «الحياة» تعظيماً وتفخيماً لشأنها، وليس المراد حياة ما، بل المعنى أن في القصاص حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها المستحسنة في كل عقل، والتنكير كثيراً ما يجيء للتعظيم والتفخيم، كقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْرِفَةِ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

ثم خص أولي الألباب، وهم: أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته، إذ هم المنتفعون بالخطاب، ووازن بين هذه الكلمات وقولهم: «القتل أنفى للقتل»؛ ليتبين مقدار التفاوت، وعظمة القرآن وجلالته^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢].

رفع الإثم عمن أبطل الجنف والإثم من وصية الموصي، ولم يجعلها بمنزلة نص الشارع الذي تحرم مخالفته، وكذلك الإثم مرفوع عمن أبطل من شروط الواقفين ما لم يكن إصلاحاً، وما كان فيه جنف أو إثم، ولا يحل لأحد أن يجعل هذا الشرط الباطل المخالف لكتاب الله بمنزلة نص الشارع، ولم يقل هذا أحد من أئمة الإسلام^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلِكُمْ نَنفُوقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٤].

فرق الشارع بين أيام رمضان، وبين أيام القضاء، فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين، لا يجوز تقديمها ولا تأخيرها، وأطلق أيام قضاها فأطلق العدة ولم يوقتها، وهذا يدل على أنها تجزئ في أي أيام كانت؛ ولم يجئ نص عن الله ولا عن رسوله ولا إجماع على تقيدها بأيام لا تجزئ في غيرها.

وليس في الباب إلا حديث عائشة رضي الله عنها: «كان يكون عليّ الصوم من رمضان، فلا أقضيه إلا في شعبان، من الشغل برسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٣).

ومعلوم أن هذا ليس صريحاً في التوقيت بما بين الرمضانين كتوقيت أيام رمضان، بما بين الهلالين، فاعتبار أحدهما بالآخر ممتنع، وجمع بين ما فرق الله بينهما، فإنه جعل أيام رمضان محدودة بحد، لا تتقدم عنه ولا تتأخر.

(١) مفتاح دار السعادة (٤٣١، ٤٣٢).

(٢) إعلام الموقعين (٣/١٢٩).

(٣) رواه البخاري (١٩٥٠)، ومسلم (١١٤٦).

وأطلق أيام القضاء، وأكد إطلاقها بقوله: ﴿أُخْرَى﴾، وأفتى من أفتى من الصحابة بالإطعام لمن أخرها إلى رمضان آخر، جبراً لزيادة التأخير عن المدة التي بين الرمضانين، ولا تخرج بذلك عن كونها قضاء، بل هي قضاء، وإن فعلت بعد رمضان آخر؛ فحكمها في القضاء قبل رمضان وبعده واحد، بخلاف أيام رمضان.

يوضح هذا: أنه لو أفطر يوماً من أيام رمضان عمداً بغير عذر؛ لم يتمكن أن يقيم مقامه يوماً آخر مثله البتة. ولو أفطر يوماً من أيام القضاء قام اليوم الذي بعده مقامه.

وسر الفرق: أن المعذور لم يتعين في حقه أيام القضاء، بل هو مخير فيها، وأي يوم صامه قام مقام الآخر. وأما غير المعذور: فأيام الوجوب متعينة في حقه، لا يقوم غيرها مقامها^(١).

قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾ الآية. اختلف السلف في هذه الآية على أربعة أقوال:

أحدها: أنها ليست بمنسوخة، قاله ابن عباس.

الثاني: أنها منسوخة، كما قاله سلمة والجمهور.

الثالث: أنها مخصوصة، خص منها القادر الذي لا عذر له، وبقيت متناولة للمرضع والحامل.

الرابع: أن بعضها منسوخ، وبعضها محكم^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

يتناول نوعي الدعاء^(٣)؛ وبكل منهما فسرت الآية، قيل: أعطيه إذا سألني. وقيل: أثيبه إذا عبدني. والقولان متلازمان وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنيه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه. بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً فتأمل، فإنه موضع عظيم النفع قل من يظن له. وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً: هي من هذا القبيل^(٤).

(١) مدارج السالكين (١/٣٨٣، ٣٨٤). (٢) تهذيب السنن (٣/٢٠٧، ٢٠٨).

(٣) دعاء العبادة ودعاء المسألة، راجع الآية (٥٤، ٥٥) من سورة الأعراف.

(٤) بدائع الفوائد (٣/٣).

وقال:

وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا؛ فأجيبوا: بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجى لا مسألة البعيد المنادى.

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قريباً عاماً من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل قرب خاص من الداعي والعابد، كما قال النبي ﷺ راوياً عن ربه تبارك وتعالى: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً»^(١)، فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائله؛ فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ بَشِرُوهُمْ وَيَسْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فروى شعبة عن الحكم عن مجاهد، قال: هو الولد، وقاله الحكم وعكرمة والحسن البصري والسدي والضحاك، وأرفع ما فيه ما رواه محمد بن سعد عن أبيه: حدثني عمي عن أبيه، حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال: هو الولد^(٣). وقال ابن زيد: هو الجماع.

وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم. وعن ابن عباس رواية أخرى، قال: ليلة القدر.

والتحقيق أن يقال: لما خفف الله عن الأمة بإباحة الجماع ليلة الصوم إلى طلوع الفجر، وكان المجامع يغلب عليه حكم الشهوة، وقضاء الوطر حتى لا يخطر بقلبه غير ذلك، أرشدهم سبحانه إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة، ولا يباشروها بحكم مجرد الشهوة، بل يبتغوا بها ما كتب الله لهم من الأجر، والولد الذي يخرج

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) بدائع الفوائد (٧/٣)، (٨). (٣) الطبري (١٦٩/٢).

من أصلا بهم يعبد الله لا يشرك به شيئاً، ويتغون ما أباح الله لهم من الرخصة بحكم محبته لقبول رخصه، فإن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته، ومما كتب لهم ليلة القدر، فأمرُوا أن يتغوها، لكن يبقى أن يقال مما تعلق ذلك بإباحة مباشرة أزواجهم، فيقال: التي هي خير من ألف شهر، فكأنه سبحانه يقول: افضوا وطركم من نسائكم ليلة الصيام، ولا يشغلکم ذلك عن ابتغاء ما كتب لكم من هذه الليلة التي فضلکم بها . والله أعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾

[البقرة: ١٨٨].

أي: تضيفوا ذلك إلى الحكام، وتتوصلوا بحكمهم إلى أكلها .
فإن قيل: لو أراد هذا المعنى لقال: وتدلوا بالحكام إليها، وأما الإدلاء بها إلى الحكام؛ فهو التوصل بالبراطيل^(٢) بها إليهم، فترشوا الحاكم؛ لتتوصلوا برشوته إلى الأكل بالباطل .

قيل: الآية تتناول النوعين، فكل منهما إدلاء إلى الحكام بسببها، فالنهي عنهما معاً^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

سألوه^(٤) عن سبب ظهور الهلال خفياً، ثم لا يزال يتزايد فيه النور على التدرج حتى يكمل، ثم يأخذ في النقصان، فأجابهم عن حكمة ذلك من ظهور مواقيت الناس، التي بها تمام مصالحهم في أحوالهم ومعاشهم ومواقيت أكبر عبادتهم وهو الحج، وإن كانوا سألوا عن السبب؛ فقد أجيبوا بما هو أنفع لهم مما سألوا عنه، وإن كانوا إنما سألوا عن حكمة ذلك فقد أجيبوا عن عين ما سألوا عنه . ولفظ سؤالهم محتمل، فإنهم قالوا: ما بال الهلال يبدو دقيماً ثم يأخذ في الزيادة حتى يتم، ثم يأخذ في النقص^(٥)؟

* * *

(٢) البراطيل: الرشوة.

(٤) الطبري (٢/١٨٥).

(١) تحفة الودود (١٣).

(٣) إعلام الموقعين (١/١٢٩).

(٥) إعلام الموقعين (٤/٢٠١، ٢٠٢).

قوله تعالى^(١): ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فمد قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة، وهي الشرك، وأخبر أنه لا عدوان إلا على الظالمين، والمجاهر بالسب والعدوان على الإسلام غير مُنتَه، فقتاله واجب إذا كان غير مقدور عليه، وقتله مع القدرة حتم، وهو ظالم، فعليه العدوان الذي نفاه عن انتهى، وهو القتل والقتال، وهذا بحمد الله في غاية الوضوح^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَكَزَّوْا فَاِنَّكُمْ خَيْرَ اَلْزَادِ اَلْتَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

أمر الحجيج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد. ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى.

فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلِّغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى، والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى فجمع بين الزادين^(٣). اهـ. وقال: فذكر الزاد الظاهر، والزاد الباطن.

وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة^(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ففيه الأمر بالذكر بالكثر والشدة؛ لشدة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأى لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله ﷻ كانت عليه لا له، وكان خسارانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله، وقال بعض العارفين: لو أقبل عبد على الله تعالى كذا وكذا سنة، ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاتته أعظم مما حصله^(٥).

* * *

قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَعَثَّ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١) في بيان ما ينقض العهد وما لا ينقض. (٢) أحكام أهل الذمة (٢/٨٢٩).

(٣) إغاثة اللهفان (١/٥٨).

(٤) روضة المحبين (٢٢٦).

(٥) الواابل الصيب (٥٩).

قال سعيد^(١) عن قتادة: «ذكر لنا: أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى، وعلى شريعة الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله عليه السلام نوحاً، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، وبعث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق». وقال ابن عباس: «كان الناس أمة واحدة كانوا على الإسلام كلهم»^(٢). وهذا هو القول الصحيح في الآية.

وقد روى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا أمة واحدة، كانوا كفاراً»^(٣). وهذا قول الحسن وعطاء، قالوا: «كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح عليه السلام أمة واحدة على ملة واحدة، وهي الكفر، كانوا كفاراً كلهم أمثال البهائم، فبعث الله نوحاً وإبراهيم والنبیین». وهذا القول ضعيف جداً، وهو منقطع عن ابن عباس، والصحيح عنه خلافه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا همام حدثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال: «كانوا على الإسلام كلهم»^(٤). وهذا هو الصواب قطعاً، فإن قراءة أبي بن كعب: «فاختلفوا فبعث الله النبيين ومبشرين ومنذرين»، ويشهد لهذه القراءة: قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]. والمقصود: أن العدو كادهم، وتلاعب بهم حتى انقسموا قسمين - كفاراً ومؤمنين - فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث. اهـ^(٥).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَأَلْيَتِنِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥]. فسأله عن المنفق، فأجابهم بذكر المصريف، إذ هو أهم مما سأله عنه ونبههم عليه بالسياق، مع ذكره لهم في موضع آخر، وهو قوله تعالى: ﴿قُلِ الْمَغْفُورُ﴾، وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرهم إخراج^(٦).

* * *

(١)(٢)(٣) راجع هذه الأقوال في الآية: في تفسير الطبري (٢/٣٣٤)، والقرطبي (١/٨٣٨)، فتح القدير للشوكاني (١/٢١٤)، والدر المنثور (١/٥٨٢).
 (٤) راجع هذه الأقوال في الآية في: تفسير الطبري (٢/٣٣٤)، والقرطبي (١/٨٣٨)، فتح القدير للشوكاني (١/٢١٤)، والدر المنثور (١/٥٨٢).
 (٥) إغاثة اللهفان (٢/٢٠٣، ٢٠٤). (٦) إعلام الموقعين (٤/٢٠١).

قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

في هذه الآية عدة حكم وأسرار، ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحجوب، والمحجوب قد يأتي بالمكروه؛ لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب - فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد -، أوجب له ذلك أموراً:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال أمر ربه، وإن شق عليه في الابتداء؛ لأن عواقبه كلها خيرات ومسررات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع، وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب المنهي، وإن هويته نفسه، ومالت إليه، وأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشورور ومصائب؛ وخاصية العاقل تحمل الألم اليسير، لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة، لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل.

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غايتها، والعاقل الكيس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها؛ فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة؛ فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعت لذته إلى تناوله نهاه عنه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء مر المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه مرارة مذاقه عن تناوله؛ أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم، تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره؛ هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم، واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية أنها: تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له، ويقتضيه له لما يرجو من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه، وهو لا يعلم فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه، ورضي بما يختاره له أمره فيما يختاره له بالقوة عليه، والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أن يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات، التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله؛ أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر، وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه، مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه؛ اكتنفه في المقدور العطف عليه، واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره، إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه: تحيُّله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحاً كالमित. فإن السبع لا يرضى أن يأكل الجيف^(١).

فهذه الآية تضمنت الحض على التزام أمر الله وإن شق على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإن كرهته النفوس^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

يقول سبحانه: هذا الذي أنكرتموه عليهم [على المسلمين]، وإن كان كبيراً، فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله، والصد عن سبيله، وعن بيته، وإخراج المسلمين الذين هم أهله منه، والشرك الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم به أكبر عند الله من قتالهم في الشهر الحرام.

وأكثر السلف فسروا الفتنة هاهنا بالشرك، كقوله: ﴿وَقَالُوا هُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣]. ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ أي: لم يكن مآل شركهم، وعاقبته، وآخر أمرهم، إلا أن تبرؤوا منه، وأنكروه.

وحقيقتها: أنها الشرك الذي يدعو صاحبه إليه، ويقاقل عليه، ويعاقب من لم يفتن به، ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤].

قال ابن عباس: تكذيبكم. وحقيقته: ذوقوا نهاية فتنكم، وغايتها ومصير أمرها، كقوله: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤].

وكما فتنوا عباده على الشرك، فتنوا على النار، وقيل لهم: ذوقوا فتنكم. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَبُتُوا﴾ [البروج: ١٠]. فسرت الفتنة هاهنا بتعذيبهم المؤمنين وإحراقهم إياهم بالنار، واللفظ أعم من ذلك، وحقيقته: عذبوا المؤمنين ليفتنوا عن دينهم، فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين.

وأما الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه، أو يضيفها رسوله إليه، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقول موسى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ نَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فتلك بمعنى آخر، وهي بمعنى الامتحان، والاختبار، والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر، بالنعم والمصائب، فهذه لون، وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر، والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام، كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية، وبين أهل الجمل وصفين، وبين المسلمين، حتى يتقاتلوا ويتهاجروا لون آخر.

وهي الفتنة التي قال فيها النبي ﷺ: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي»^(١).

وأحاديث الفتنة التي أمر رسول الله ﷺ فيها باعترال الطائفتين^(٢) هي هذه الفتنة، وقد تأتي الفتنة ويراد بها المعصية كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي وَلَا نَفْتِنِيَّ﴾ [التوبة: ٤٩]. يقوله الجد بن قيس، لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك، يقول: ائذن لي في القعود، ولا تفتني بتعرضي لبنات بني الأصفر، فإني لا أصبر عنهن، قال تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]؛ أي: وقعوا في فتنة النفاق، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر^(٣).

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ من باب بدل الاشتمال، والسؤال إنما وقع عن القتال فيه، فلم قدم الشهر وقد قلت: إنهم يقدمون ما هم ببيانه أهم، وهم به أعنى؟

(١) رواه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: (٣٨/١٣) الفتن، باب: كيف الأمر إذ لم تكن جماعة، ومسلم (٥١٤/٤) في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين.

(٣) زاد المعاد (١٦٨/٣ - ١٧٠).

قيل: السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر، وتشنيع أعدائهم عليهم، وانتهاك حرمة، فكان اعتناؤهم واهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال. فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر، فلذلك قُدم في الذكر، وكان تقديمه بلفظ الظاهر، وهلا اكتفى بضميره فقال: (قل: هو كبير)، وأنت إذا سألته عن زيد: أهو في الدار؟ كان أوجز من أن تقول: أزيد في الدار؟

(قيل): في إعادته بلفظ الظاهر نكتة بديعة، وهي تعلق الحكم الخبري باسم القتال فيه عموماً، ولو أتى بالمضمر، وقال: (هو كبير)؛ لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسؤول عنه وليس الأمر كذلك، وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا نَقْرِبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ولم يقل: «فيه» تعليقاً لحكم الاعتزال بنفس الحيض، وأنه هو سبب الاعتزال. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ﴾، ولم يقل الحيض؛ لأن الآية جارية على الأصل، ولأنه لو كرره لثقل اللفظ لتكرره ثلاث مرات، وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمراً، ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضاً بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ﴾، فإنه إخبار بالواقع، والمخاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو نفس كونه حيضاً بخلاف تعليق الحكم، فإنه إنما يعلم بالشرع، فتأمل^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، قال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾؟ فقال: تأتيها من حيث أمرت أن تعتزلها، يعني: في الحيض، وقال علي بن أبي طلحة عنه: يقول في الفرج ولا تعدّه إلى غيره^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أن الطهر طهران: طهر بالماء من الأحداث والنجاسات، وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي، وهذا الطهور أصل لظهور الماء، وظهور الماء لا ينفع بدونه، بل هو مكمل له معه مهيبٌ بحصوله؛ فكان أولى بالتقديم؛ لأن العبد أول ما يدخل في الإسلام فقد تطهر بالتوبة من الشرك، ثم يتطهر بالماء من الحدث^(٤).

(٢) بدائع الفوائد (٢/٤٨).

(١) بدائع الفوائد (٢/٤٧).

(٤) بدائع الفوائد (١/٦٨).

(٣) زاد المعاد (٤/٢٦١).

قوله تعالى ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

كانت قريش والأنصار تشرح النساء على أقفائهن، فعابت اليهود عليهم ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

وفي الصحيحين عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها، كان الولد أحول، فأنزل الله ﷻ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾، وفي لفظ لمسلم: «إن شاء مجيبة، وإن شاء غير مجيبة، غير أن ذلك في صمام واحد»^(١).

والمجبية: المنكبة على وجهها، والصمام الواحد: الفرج، وهو موضع الحرث في الولد.

وأما الدبر: فلم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء، ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها، فقد غلط عليه.

وفي سنن أبي داود، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى المرأة في دبرها»^(٢).

وفي لفظ لأحمد وابن ماجه: «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها»^(٣). وفي لفظ للترمذي وأحمد: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها، أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»^(٤).

وفي الترمذي عن علي بن طلق، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأتوا النساء في أعجازهن، فإن الله لا يستحي من الحق»^(٥).

وإذا كان الله حرم الوطء في الفرج لأجل الأذى العارض، فما الظن بالحش الذي هو محل الأذى اللازم، مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل.

وأيضاً: فللمرأة حق على الزوج في الوطء، ووطؤها في دبرها يفوت حقها، ولا يقضي وطرها، ولا يحصل مقصودها.

وأيضاً: فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل، ولم يخلق له، وإنما الذي هُيئ له الفرج، فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعاً.

(١) رواه البخاري (٤٥٢٨)، ومسلم (١٤٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤٤٤/٢، ٤٧٩)، وأبو داود (٢١٦٢)، وصحح البوصيري إسناده.

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٢/٢، ٣٤٤)، وابن ماجه (١٩٢٣).

(٤) أخرجه أحمد (٤٠٨/٢، ٤٧٦)، وأبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥).

(٥) رواه الترمذي (١١٦٤).

وأيضاً: فإن ذلك مضر بالرجل، ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم..

وأيضاً: فإنه محل القدر والنجو..

وأيضاً: فإنه يضر بالمرأة جداً، لأنه وارد غريب بعيد عن الطباع، منافر لها غاية المنافرة.

وأيضاً: فإنه يحدث الهم والغم، والنفرة عن الفاعل والمفعول.

وأيضاً: فإنه يسود الوجه، ويظلم الصدر، ويطمس نور القلب، ويكسو الوجه وحشة، تصير عليه كالسيما يعرفها من له أدنى فراسة.

وأيضاً: فإنه من أكبر أسباب زوال النعم، وحلول النقم، فإنه يوجب اللعن والمقت من الله تعالى..

وأيضاً: فإنه يذهب الحياء جملة، والحياء هو حياة القلوب، فإذا فقدتها القلب، استحسن القبيح، واستقبح الحسن، وحينئذ فقد استحکم فساده^(١)..

* * *

قوله تعالى ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

والكسب قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: عقد القلب وعزمه كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ﴾؛ أي: بما عزمتم عليه وقصدتموه.

وقال الزجاج: أي: يؤاخذكم بعزمكم على أن لا تبروا، وأن لا تتقوا، وأن تعتلوا في ذلك بأنكم حلفتهم، وكأنه التفت إلى لفظ المؤاخذة، وأنها تقتضي تعذيباً؛ فجعل كسب قلوبهم عزمهم على ترك البر والتقوى لمكان اليمين.

والقول الأول أصح، وهو قول جمهور أهل التفسير؛ فإنه قابل به لغو اليمين، وهو أن لا يقصد اليمين؛ فكسب القلب المقابل للغو اليمين هو: عقده وعزمه. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، فتعقيد الأيمان: هو كسب القلب. اهـ^(٢).

وقال:

(٢) شفاء العليل (١٢٠).

(١) زاد المعاد (٤/٢٥٦ - ٢٦٣).

فأخبر تعالى أنه إنما يعتبر في الأيمان قصد القلب وكسبه، لا مجرد اللفظ الذي لم يقصده أو لم يقصد معناه، على التفسيرين في اللغو، فكيف إذا كان قاصداً لصد ما يتخيل عليه؟!^(١).

قال: واللغو نوعان:

أحدهما: أن يحلف على الشيء يظنه كما حلف عليه، فبين بخلافه.
والثاني: أن تجري اليمين على لسانه من غير قصد للحلف، كـ «لا والله»، و«بلى والله» في أثناء كلامه.

وكلاهما رفع الله المؤاخذه به، لعدم قصد الحالف إلى عقد اليمين وحقيقتها، وهذا تشريع منه سبحانه لعباده؛ ألا يرتبوا الأحكام على الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها حقائقها ومعانيها، وهذا غير الهازل حقيقةً وحكماً^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَبُصُّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ أَقَامُوا فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

ثبت في صحيح البخاري: عن أنس قال: آلى رسول الله ﷺ من نسائه، وكانت انفكت رجله، فأقام في مشربة له تسعاً وعشرين ليلة، ثم نزل، فقالوا: يا رسول الله، آليت شهراً، فقال: «إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعاً وَعِشْرِينَ»^(٣).

والإيلاء: لغة: الامتناع باليمين، وخصَّ في عرف الشرع: بالامتناع باليمين من وطء الزوجة، ولهذا عُديَّ فعله بأداة «من»؛ تضميناً له معنى «يمتنعون» من نسائهم، وهو أحسن من إقامة «من» مقام «على».

وجعل سبحانه للأزواج مدةً أربعة أشهر يمتنعون فيها من وطء نسائهم بالإيلاء، فإذا مضت فإما أن يفيء، وإما أن يُطلق، وقد اشتهر عن علي، وابن عباس: أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون الرضى، كما وقع لرسول الله ﷺ مع نسائه، وظاهر القرآن مع الجمهور.

وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين، ورجل آخر، فاحتج على محمد بقول علي؛ فاحتج عليه محمد بالآية؛ فسكت.

(٢) زاد المعاد (٥/٢٠٧).

(١) إعلام الموقعين (٣/٣٩٢).

(٣) رواه البخاري (١٩١١).

وقد دلت الآية على أحكام:

منها: هذا.

ومنها: أن من حلف على ترك الوطء أقلّ من أربعة أشهر لم يكن مؤلّياً، وهذا قول الجمهور، وفيه قول شاذ، أنه مؤل.

ومنها: أنه لا يثبت له حكم الإيلاء حتى يحلّف على أكثر من أربعة أشهر، فإن كانت مدة الامتناع أربعة أشهر، لم يثبت له حكم الإيلاء، لأن الله جعل لهم مدة أربعة أشهر، وبعد انقضائها إما أن يُطلّقوا، وإما أن يفيثوا، وهذا قول الجمهور، منهم: أحمد، والشافعي، ومالك، وجعله أبو حنيفة مؤلّياً بأربعة أشهر سواء، وهذا بناء على أصله أن المدة المضروبة أجلٌ لوقوع الطلاق بانقضائها، والجمهور يجعلون المدة أجلاً لاستحقاق المطالبة، وهذا موضع اختلف فيه السلف من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين ومن بعدهم.

فقال الشافعي: حدثنا سفیان، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار، قال: أدركتُ بضعة عشر رجلاً من الصحابة، كلهم يُوقَفُ المؤلّي^(١). يعني: بعد أربعة أشهر. وروى سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، قال: سألتُ اثني عشر رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المؤلّي، فقالوا: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر^(٢). وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم.

وقال عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت: إذا مضت أربعة أشهر ولم يفء فيها، طلقت منه بمضيها، وهذا قول جماعة من التابعين، وقول أبي حنيفة وأصحابه، فعند هؤلاء يستحقُّ المطالبة قبل مضي الأربعة الأشهر، فإن فاء وإلا طلقت بمضيها، وعند الجمهور: لا يستحق المطالبة حتى تمضي الأربعة الأشهر، فحينئذٍ يقال: إما أن تفيء، وإما أن تُطلق، وإن لم يفء، أخذَ بإيقاع الطلاق، إما بالحاكم، وإما بحبسه حتى يطلّق.

قال الموقعون للطلاق بمضي المدة: آية الإيلاء تدل على ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عبد الله بن مسعود قرأ: (فإن فاءوا فيهنّ فإن الله غفور رحيم)، فإضافة الفيئة إلى المدة تدل على استحقاق الفيئة فيها، وهذه القراءة إما أن تُجرى

(١) أخرجه الإمام الشافعي (٢/٢٩٤). بدائع المنن.

(٢) رواه الدارقطني (٤/٦١).

مجري خبر الواحد، فتوجب العمل، وإن لم تُوجب كونها من القرآن، وإما أن تكون قرآناً نسخ لفظه، وبقي حكمه لا يجوز فيها غير هذا البتة.

الثاني: أن الله سبحانه جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر، فلو كانت الفيئة بعدها، لزادت على مدة النص، وذلك غير جائز.

الثالث: أنه لو وطئها في مدة الإيلاء، لوقعت الفيئة موقعها، فدل على استحقاق الفيئة فيها.

قالوا: ولأن الله ﷻ جعل لهم تربص أربعة أشهر، ثم قال: ﴿فَإِنْ فَأَوْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٣١] وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ، وظاهر هذا أن هذا التقسيم في المدة التي لهم فيها التربص، كما إذا قال لغريمه: أصبر عليك بديني أربعة أشهر، فإن وفيتني وإلا حبستك، ولا يفهم من هذا إلا إن وفيتني في هذه المدة، ولا يفهم منه إن وفيتني بعدها، وإلا كانت مدة الصبر أكثر من أربعة أشهر، وقراءة ابن مسعود صريحة في تفسير الفيئة بأنها في المدة، وأقل مراتبها أن تكون تفسيراً.

قالوا: ولأنه أجلّ مضروب للفرقة، فتعقبه الفرقة كالعدة، وكالأجل الذي ضرب لوقوع الطلاق، كقوله: إذا مضت أربعة أشهر، فأنت طالق. قال الجمهور: لنا من آية الإيلاء عشرة أدلة.

أحدها: أنه أضاف مدة الإيلاء إلى الأزواج، وجعلها لهم، ولم يجعلها عليهم، فوجب ألا يستحق المطالبة فيها، بل بعدها، كأجل الدين، ومن أوجب المطالبة فيها لم يكن عنده أجل لهم، ولا يُعقل كونها أجلاً لهم، ويستحق عليهم فيها المطالبة.

الدليل الثاني: قوله: ﴿فَإِنْ فَأَوْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فذكر الفيئة بعد المدة بفاء التعقيب، وهذا يقتضي أن يكون بعد المدة، ونظيره قوله سبحانه: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَأَمَّا الْكُفْرُ الَّذِي يَبْمُغُونَ بِهِ فَأَبْسَسَ لَكُمْ لُجُجًا وَعُقُودًا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وهذا بعد الطلاق قطعاً.

فإن قيل: فاء التعقيب تُوجب أن يكون بعد الإيلاء لا بعد المدة؟

قيل: قد تقدّم في الآية ذكر الإيلاء، ثم تلاه ذكر المدة، ثم أعقبها بذكر الفيئة، فإذا أوجبت الفاء التعقيب بعدما تقدم ذكره، لم يجز أن يعود إلى أبعد المذكورين، ووجب عودها إليهما أو إلى أقربهما.

الدليل الثالث: قوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ [البقرة: ٢٢٧]، وإنما العزم ما عزم العازم على فعله، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فإن قيل: فترك الفیئة عزم على الطلاق؟

قيل: العزم هو إرادة جازمة لفعل المعزوم عليه أو تركه، وأنتم توقعون الطلاق بمجرد مضيّ المدة وإن لم يكن منه عزم لا على وطء ولا على تركه، بل لو عزم على الفیئة، ولم يُجامع طلقتم عليه بمضيّ المدة، ولم يعزم الطلاق، فكيفما قدرتم، فالآية حجة عليكم.

الدليل الرابع: أن الله سبحانه خيّر في الآية بين أمرين: الفیئة أو الطلاق، والتخيير بين أمرين لا يكون إلا في حالة واحدة كالكفارات، ولو كان في حالتين، لكان ترتيباً لا تخييراً، وإذا تقرر هذا، فالفیئة عندكم في نفس المدة، وعزم الطلاق بانقضاء المدة، فلم يقع التخيير في حالة واحدة.

فإن قيل: هو مخيّر بين أن يفیء في المدة، وبين أن يترك الفیئة، فيكون عازماً للطلاق بمضيّ المدة. قيل: ترك الفیئة لا يكون عزمًا للطلاق وإنما يكون عزمًا عندكم إذا انقضت المدة، فلا يتأتى التخيير بين عزم الطلاق وبين الفیئة البتة، فإنه بمضيّ المدة يقع الطلاق عندكم، فلا يُمكنه الفیئة، وفي المدة يمكنه الفیئة، ولم يحضر وقت عزم الطلاق الذي هو مضيّ المدة، وحينئذٍ فهذا دليل خامس مستقل.

الدليل السادس: أن التخيير بين أمرين يقتضي أن يكون فعلهما إليه، ليصح منه اختيارُ فعل كل منهما وتركه، وإلا لبطل حكمُ خياره، ومضيّ المدة ليس إليه.

الدليل السابع: أنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فافتضى أن يكون الطلاق قولاً يسمع، ليحسن ختم الآية بصفة السمع.

الدليل الثامن: أنه لو قال لغريمه: لك أجل أربعة أشهر، فإن وفيتني قبلت منك، وإن لم تُوفني، حبستك، كان مقتضاه أن الوفاء والحبس بعد المدة لا فيها، ولا يعقل المخاطب غير هذا.

فإن قيل: ما نحن فيه نظيرُ قوله: لك الخيار ثلاثة أيام، فإن فسخت البيع وإلا لزمك، ومعلوم أن الفسخ إنما يقع في الثلاث لا بعدها؟ قيل: هذا من أقوى حُججنا عليكم، فإن موجب العقد اللزوم، فجعل له الخيار في مدة ثلاثة أيام، فإذا انقضت ولم يفسخ، عاد العقد إلى حكمه، وهو اللزوم، وهكذا الزوجة لها حق على الزوج في الوطاء، كما له حقٌ عليها، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فجعل له الشارع امتناع أربعة أشهر لا حق لها فيهن، فإذا

انقضت المدة، عادت على حقها بموجب العقد، وهو المطالبة لا وقوع الطلاق، وحيثُ هذا دليل تاسع مستقل.

الدليل العاشر: أنه سبحانه جعل للمؤلين شيئاً، وعليهم شيئين، فالذي لهم تربُّصُ المدة المذكورة، والذي عليهم إما الفيئةُ وإما الطلاقُ، وعندكم ليس عليهم إلا الفيئة فقط، وأما الطلاقُ، فليس عليهم، بل ولا إليهم، وإنما هو إليه سبحانه عند انقضاء المدة، فيُحكم بطلاقها عقب انقضاء المدة شاء أو أبى، ومعلوم أن هذا ليس إلى المؤلي ولا عليه، وهو خلافُ ظاهر النص، قالوا: ولأنها يمين بالله تعالى توجب الكفارة، فلم يقع بها الطلاق كسائر الأيمان، ولأنها مدة قدرها الشرعُ، لم تتقدمها الفرقة، فلا يقع بها بينونة، كأجل العينين، ولأنه لفظ لا يَصِحُّ أن يقع به الطلاق المعجل، فلم يقع به المؤجلُ كالظهار، ولأن الإيلاء كان طلاقاً في الجاهلية، فنسخ كالظهار، فلا يجوز أن يقع به الطلاق لأنه استيفاء للحكم المنسوخ، ولما كان عليه أهلُ الجاهلية.

قال الشافعي: كانت الفرقُ الجاهلية تحلفُ بثلاثة أشياء: بالطلاق، والظهار، والإيلاء، فنقل الله ﷻ الإيلاء والظهار عما كانا عليه في الجاهلية من إيقاع الفرقة على الزوجة إلى ما استقرَّ عليه حكمهما في الشرع، وبقي حكمُ الطلاق على ما كان عليه، هذا لفظه.

قالوا: ولأن الطلاق إنما يقع بالصريح والكناية، وليس الإيلاء واحداً منهما، إذ لو كان صريحاً، لوقع معجلاً إن أطلقه، أو إلى أجل مسمى إن قيده، ولو كان كنايةً، لرجع فيه إلى نيته، ولا يردُّ على هذا اللعان، فإنه يُوجب الفسخ دون الطلاق، والفسخ يقع بغير قول، والطلاق لا يقع إلا بالقول.

قالوا: وأما قراءة ابن مسعود، فغايتها أن تدلَّ على جواز الفيئة في مدة التربُّص، لا على استحقاق المطالبة بها في المدة، وهذا حق لا ننكره.

وأما قولكم: جوازُ الفيئة في المدة دليلٌ على استحقاقها فيها، فهو باطل بالدين المؤجل.

وأما قولكم: إنه لو كانت الفيئة بعد المدة، لزادت على أربعة أشهر، فليس بصحيح، لأن الأربعة الأشهر مدة لزمن الصبر الذي لا يستحقُّ فيه المطالبة، فبمجرد انقضائها يستحقُّ عليه الحقُّ، فلها أن تعجل المطالبة به، وإما أن تُنظره. وهذا كسائر الحقوق المعلَّقة بأجال محدودة، إنما تُستحق عند انقضاء آجالها، ولا

يقال: إن ذلك يستلزم الزيادة على الأجل، فكذا أجل الإيلاء سواء^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءٌ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَبُوا فَأَنْتَ أَكْبَرُ مِنْ هُمْ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

[البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

فختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة، والإحسان إليها، بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه، والجزاء من جنس العمل.

فكما رجع إلى التي هي أحسن، رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم، فإن الطلاق لما كان لفظاً يسمع ومعنى يقصد، عقبه باسم (السميع) للنطق به، (العليم) بمضمونه^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ أَلطَّلَقَ مَرَّتَانِ فَاِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ...﴾ [البقرة: ٢٢٨، ٢٢٩].

فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها، فإذا كان الجماع حقاً للزوج عليها، فهو حق لها على الزوج بنص القرآن. وأيضاً فإنه سبحانه أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف، ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابة شهوتها تعدل شهوة الرجل، أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة، ولا يذيقها لذة الوطء مرة واحدة، ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه رداً عليه. والله ﷻ إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا غيره، فقال تعالى: ﴿فَاِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾.

وقالت طائفة: يجب عليه وطؤها في العمر مرة واحدة؛ ليستقر بذلك لها الصداق. وهذا من جنس القول الأول، وهذا باطل من وجه آخر، فإن المقصود إنما هو المعاشرة بالمعروف، والصداق دخل في العقد تعظيماً لحرمته وفرقاً بينه وبين السفاح، فوجوب المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصداق.

وقالت طائفة ثالثة: يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر مرة، واحتجوا على ذلك بأن الله ﷻ أباح للمؤلي تريض أربعة أشهر؛ وخير المرأة بعد ذلك، إن شاءت أن تقيم عنده، وإن شاءت أن تفارقه.

(٢) جلاء الأفهام (٩٣، ٩٤).

(١) زاد المعاد (٥/٣٤٤ - ٣٥٣).

فلو كان لها حق في الوطاء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه في تلك المدة، وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللذين قبله فليس أيضاً بصحيح، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها.

وأما جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر فنظراً منه سبحانه للأزواج، فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدة؛ لعارض من سفر أو تأديب أو راحة نفس أو اشتغال بهمهم، فجعل الله ﷻ له أجلاً أربعة أشهر. ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطاء مؤقتاً في كل أربعة أشهر مرة.

وقالت طائفة أخرى: بل يجب عليه أن يطأها بالمعروف، كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف، بل هذا عمدة المعاشرة ومقصودها، وقد أمر الله ﷻ أن يعاشرها بالمعروف، فالوطء داخل في هذه المعاشرة ولا بد، قالوا: وعليه أن يشبعها وطاءً إذا أمكنه ذلك، كما عليه أن يشبعها قوتاً، وكان شيخنا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يرجح هذا القول ويختاره^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].
فيه جواز الخلع كما دل عليه القرآن.

ومنع الخلع طائفة شاذة من الناس خالفت النص والإجماع.
وفي الآية دليل على جوازه مطلقاً بإذن السلطان وغيره، ومنعه طائفة بدون إذن.
والأئمة الأربعة والجمهور على خلافه.

وفي الآية دليل على حصول البينة به، لأنه سبحانه سماه فدية، ولو كان رجعيماً كما قال بعض الناس لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له، ودل قوله سبحانه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾، على جوازه بما قل أو كثر، وأن له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها^(٢).

[والآية] دليل على أن الخلع المأذون فيه، إنما هو إذا خاف الزوجان أن لا يقيما حدود الله، وأن النكاح الثاني إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله، فإنه شرط في الخلع عدم خوف إقامة حدوده، وشرط في العودة ظن إقامة حدوده^(٣).

(٢) زاد المعاد (٥/١٩٣).

(١) روضة المحيين (٢١٠، ٢١١).

(٣) إغاثة اللهفان (١/٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠].
إن الله سبحانه قال ذلك في المطلقة ثلاثاً.

أي إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الزوج الأول أن يتراجعا، والمراد به تجديد العقد، وليس ذلك مختصاً بالصورة التي يطلق فيها الثاني فقط، بل متى تفارقا بموت أو خلع أو فسخ أو طلاق، حلت للأول قياساً على الطلاق^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسِيكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١].

وذلك نص في أن الرجعة إنما تثبت لمن قصد الصلاح، دون الضرار، فإذا قصد الضرار لم يملكه الله تعالى الرجعة^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

فدلت الآية على عدة أحكام:

أحدها: أن تمام الرضاع حولان، وذلك حق للولد إذا احتاج إليه، وأكد بكاملين؛ لثلا يحمل اللفظ على حول وأكثر.

وثانيها: أن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل، فلهما ذلك.

وثالثها: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك، وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضاراً بها وبولدها فلا يجاب إلى ذلك، ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر، وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلاً في الحر والبرد، وقد تكامل نبات أسنانه وأضراسه،

(١) إعلام الموقعين (١/٢٦٦، ٢٦٧). (٢) إغاثة اللهفان (١/٣٧٧).

وقويت على تقطيع الغذاء وصحته، ففطامه عند ذلك الوقت أجود له، ووقت الاعتدال الخريفي أنفع في الفطام من وقت الاعتدال الربيعي؛ لأنه في الخريف يستقبل الشتاء والهواء يبرد فيه، والحرارة الغريزية تنشأ فيه وتنمو، والهضم يزداد قوة وكذلك شهوة^(١).

وقوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

ثبت عنه ﷺ في صحيح مسلم، أنه قال في خطبة حجة الوداع: «واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(٢).

وثبت عنه ﷺ في الصحيحين: أن هنداً امرأة أبي سفيان قالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح ليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي، إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «خذي ما يكفيك ولدك بالمعروف»^(٣).

وفي سنن أبي داود، من حديث حكيم بن معاوية، عن أبيه ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! ما تقول في نساءنا؟ قال: «أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تلبسون، ولا تضربوهن، ولا تقبحوهن»^(٤).

وهذا الحكم من رسول الله ﷺ مطابق لكتاب الله ﷻ حيث يقول تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ حَوْلَ نَوَالِيٍّ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِقَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، والنبي ﷺ جعل نفقة المرأة مثل نفقة الخادم، وسوى بينهما في عدم التقدير، وردّهما إلى المعروف^(٥).

□ □ □

وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾.

قال ابن جريج قلت لعطاء: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾؟

قال: على ورثة اليتيم أن ينفقوا عليه كما يرثونه.

قلت له: أيحبس وارث المولود إن لم يكن للمولود مال؟

قال: أفيدعه يموت؟

(١) تحفة الودود (٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

(٣) رواه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤). (٤) رواه أبو داود (٢١٤٤).

(٥) زاد المعاد (٥/٤٩٠ - ٤٩١).

وقال الحسن: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ قال على الرجل الذي يرث أن ينفق عليه حتى يستغني.

وبهذا فسر الآية جمهور السلف، منهم: قتادة، ومجاهد، والضحاك، وزيد بن أسلم، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الله بن عتبة بن مسعود، وإبراهيم النخعي، والشعبي، وأصحاب ابن مسعود، ومن بعدهم سفيان الثوري وعبد الرزاق، وأبو حنيفة وأصحابه، ومن بعدهم: أحمد وإسحاق وداود وأصحابهم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

فهذا يتناول المدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة. ولا تدخل فيه الحامل، لأنها خرجت بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، فجعل وضع حملهن جميع أجلهن، وحصره فيه. وأيضاً: فإن قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ في غير الحامل بالاتفاق، فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

لما ذكر سبحانه التعريض بخطبة المرأة الدال على أن المعرض في قلبه رغبة فيها ومحبة لها، وأن ذلك يحمله على الكلام الذي يتوصل به إلى نكاحها، رفع الجناح عن التعريض، وانطواء القلب على ما فيه من الميل والمحبة، ونفي مواعدتهن سراً.

ف قيل: هو النكاح. والمعنى: لا تصرحوا لهن بالتزويج، إلا أن تُعرضوا تعريضاً. وهو القول المعروف.

وقيل: هو أن يتزوجها في عدتها سراً. فإذا انقضت العدة أظهر العقد، ويدل

(٢) زاد المعاد (٥/٥٩٥).

(١) زاد المعاد (٥/٥٤٦).

على هذا قوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾، وهو انقضاء العدة. ومن رجح القول الأول قال: دلت الآية على إباحة التعريض بنفي الجناح، وتحريم التصريح بالنهاي عن المواعدة سرّاً، وتحريم عقد النكاح قبل انقضاء العدة. فلو كان معنى مواعدة السر: هو إسرار العقد. كان تكراراً.

ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ أن تتعدوا ما حدّ لكم فإنه مطلع على ما تسرون وما تعلنون.

ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ولولا مغفرته وحلمه لعنتم غاية العنت، فإنه سبحانه مطلع عليكم، يعلم ما في قلوبكم، ويعلم ما تعملون، فإن وقعتم في شيء مما نهاكم عنه فبادروا إليه بالتوبة والاستغفار، فإنه هو الغفور الحليم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فكبر قدره في باطنه بالعلم، وفي ظاهره باشتداد الجسم، فكمل ظاهره وباطنه ومعناه وصورته، وهذا أكمل من أن يكمل معناه وفكره دون ذاته وصورته، وهذا شأنه - سبحانه - فيما يريد تكميله من خلقه، فإنه يكمله ذاتاً ومعنى ظاهرّاً وباطناً^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ [البقرة: ٢٤٨].

قلت: اختلفوا [في السكينة]، هل هي عين قائمة بنفسها أو معنى؟ على قولين: أحدهما: أنها عين. ثم اختلف أصحاب هذا القول في صفتها. فروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام: «أنها ريح هفافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان».

ويروى عن مجاهد: أنها صورة هرة لها جناحان، وعينان لهما شعاع. وجناحان من زمرد وزبرجد، فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر.

وعن ابن عباس: هي طست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء. وعن وهب بن منبه: هي روح من روح الله تتكلم. إذا اختلفوا في شيء أخبرتهم ببيان ما يريدون.

(٢) الصواعق المرسلّة (٤/١٣٧٦).

(١) جلاء الأفهام (٩٤).

والثاني: أنها معنى. ويكون معنى قوله: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي ومجيئه إليكم: سكينه لكم وطمأنينة.

وعلى الأول: يكون المعنى: إن السكينه في نفس التابوت، ويؤيده عطف قوله: ﴿وَيَقِينَةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَآءَالُ هَارُونَ﴾، قال عطاء بن أبي رباح: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾، هي ما تعرفون من الآيات فتسكنون إليها.

وقال قتادة، والكلبي: هي من السكون، أي طمأنينة من ربكم؛ ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٥١﴾ فَهَزُمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿البقرة: ٢٥٠، ٢٥١﴾.

ففي الآية أربعة أدلة على خلق الله تعالى الأعمال وتكوينه وإيجاده لها: أحدها: قوله: ﴿أَمْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، والصبر فعلهم الاختياري، فسألوه ممن هو بيده مشيئته وإذنه، إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿وَتَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾، وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبیت فعله والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، فسألوه النصر؛ وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم، ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب؛ فيحصل النصر، وأيضاً فإن كون الإنسان منصوراً على غيره؛ إما أن يكون بأفعال الجوارح، وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم، وذلك أيضاً فعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده، وأثنى على من طلبه منه.

الرابع: قوله: ﴿فَهَزُمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري؛ أي بمشيئته وقضائه وقدره، ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر، فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه البتة^(٢).

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/٥٠٤، ٥٠٥). (٢) شفاء العليل (٦٣، ٦٤).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ففي آية الكرسي ذكر «الحياة» التي هي أصل جميع الصفات، وذكر معها قيوميته المقتضية لذاته وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه، من النوم والسنة والعجز وغيرها، ثم ذكر كمال ملكه. ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ثم ذكر سعة علمه وإحاطته، ثم عقبه بأنه لا سبيل للخلق إلى علم شيء من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أن يعلموه، ثم ذكر سعة كرسيه منبهاً به على سعته سبحانه وعظمته وعلوه، وذلك توطئة بين يدي ذكر علوه وعظمته، ثم أخبر عن كمال اقتداره ولا تعب. ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين على علو ذاته وعظمته في نفسه، وقال في سورة طه:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقد اختلف في تفسير الضمير في (به)؛ ف قيل: هو الله - سبحانه -؛ أي: ولا يحيطون بالله علماً، وقيل: هو ما بين أيديهم وما خلفهم. فعلى الأول يرجع إلى العالم، وعلى الثاني يرجع إلى المعلوم. وهذا القول يستلزم الأول من غير عكس، لأنهم إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم، فإن لا يحيطوا علماً به - سبحانه - أولى.

وكذلك الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾، يجوز أن يرجع إلى الله، ويجوز أن يرجع إلى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: ولا يحيطون بشيء من علم ذلك إلا بما شاء.

فعلى الأول: يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل.

وعلى الثاني: يكون مضافاً إلى المفعول.

والمقصود أنه لو كان ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ إنما يراد به اتصافه بالعلم والقدرة والملك، وتوابع ذلك كان تكريراً بل دون التكرير، فإن ذكر ذلك مفصلاً أبلغ من الدلالة عليه بما لا يفهم إلا بكلفة، وكذلك إذا قيل: إن علوه وعظمته مجرد كونه أعظم من مخلوقاته وأفضل منها، فهذا هضم عظيم لهاتين الصفتين العظيمنتين، وهذا لا يليق ولا يحسن أن يذكر ويخبر به عنه؛ إلا في معرض الرد لمن سوى بينه

وبين غيره في العبادة والتأله؛ كقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ﴾ [النمل: ٥٩] (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذا نفي في معنى النهي، أي لا تكرهوا أحداً على الدين، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام.

والصحيح: أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إما أن يدخلوا في الدين، وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ تبين له أنه لم يكره أحداً على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله ما دام مقيماً على هدنته لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم، فَمَنَّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم. وكذلك لما هادن قريشاً عشر سنين لم يبدأهم بالقتال، حتى بدأوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك، كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضاً هم جاؤوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم (٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].
فوحدهم ﴿وَلِيُّ﴾ الذين آمنوا وهو الله الواحد الأحد، وجمع ﴿وَلِيُّ﴾ الذين كفروا

(١) الصواعق المرسله (٤/١٣٧١، ١٣٧٢). (٢) هداية الحيارى (٣٧، ٣٨).

لتعددهم وكثرتهم. وجمع ﴿الظُّلْمَتِ﴾، وهي طرق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ووحيد ﴿النُّورِ﴾، وهو دينه الحق وطريقه المستقيم الذي لا طريق إليه سواه^(١). وهذا يتضمن إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال^(٢). فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿الَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فإن من تأمل موقع الاحتجاج، وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة، فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيي ويميت، أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة، وهو أنه يقتل من يريد ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا؛ فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة، أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها، إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقاً فليتصرف في الشمس تصرفاً تصح به دعواه. وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها، كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة^(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِم تَوَمَّنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لِّيَطْمِئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

طلب إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه، طلب أن يكون اليقين عياناً، والمعلوم مشاهداً.

- (١) بدائع الفوائد (١/١٢٠).
 (٢) أحكام أهل الذمة (٢/٥٣٢).
 (٣) اجتماع الجيوش (٥).
 (٤) الصواعق المرسله (٢/٤٩٠، ٤٩١).

وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي ﷺ بالشك في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»^(١)، حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

وهو ﷺ لم يشك، ولا إبراهيم، حاشاهما من ذلك، وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة.

هذا أحد الأقوال في الحديث.

وفيه قول ثان: أنه على وجه النفي، أي لم يشك إبراهيم حيث قال ما قال، ولم نشك نحن.

وهذا القول صحيح أيضاً، أي: لو كان ما طلبه للشك لكننا نحن أحق به منه، لكن لم يطلب ما طلب شكاً، وإنما طلب ما طلبه طمأنينة.

فالمراتب ثلاث: علم يقين يحصل عن الخبر، ثم تتجلى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر، حتى يصير العلم به عين يقين، ثم يباشره ويلاسه فيصير حق يقين. فعلمنا بالجنة والنار الآن، علم يقين.

فإذا أزلت الجنة للمتقين في الموقف، وبرزت الجحيم للغاوين وشاهدوهما عياناً، كان ذلك عين يقين كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦ - ٧].

فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فذلك حق اليقين^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

هذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض، ومثله سبحانه بهذا المثل؛ إحضاراً لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غيبت في الأرض، فأنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته، كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة، فينضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني؛ فيقوى إيمان المنفق، وتسخو نفسه بالإنفاق.

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١). (٢) مدارج السالكين (١/ ٤٧١ - ٤٧٢).

وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل؛ وهي من جموع الكثرة، إذ المقام مقام تكثير وتضعيف، وجمعها على سنبلات في قوله تعالى: ﴿وَسَبَّحَ سُبُلَاتٍ حُضِرٍ وَأَخْرَجَ يَأْسِتًا﴾ [يوسف: ٤٣]. فجاء بها على جمع القلة؛ لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، قيل: المعنى: والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق، بل يختص برحمته من يشاء، وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه لصفات المنفق وأحواله وفي شدة الحاجة، وعظيم النفع وحسن الموقع. وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك فلا يقتصر به على السبعمئة بل يجاوز المضاعفة في هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة.

واختلف في تقدير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة، وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة ليطابق الممثل للممثل به؛ فههنا أربعة أمور: منفق، ونفقة، وباذر، وبذر، فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه؛ فذكر من شق الممثل المنفق، إذ المقصود ذكر حاله وشأنه، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها، وذكر من شق الممثل به البذر، إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة، وترك ذكر الباذر لأن القرض لا يتعلق بذكره، فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان.

وهذا كثير في أمثال القرآن؛ بل عامتها ترد على هذا النمط.

ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنی مطابقين لسياقها؛ وهما «الواسع العليم»، فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة، ولا يضيق عنها عطاؤه فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه؛ تقتضي حصولها لكل منفق، فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها؛ فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته؛ بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه.

* * *

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]. هذا بيان للقرض الحسن ما هو؟ وهو أن يكون في سبيله؛ أي: في مرضاته، والطريق الموصلة إليه، ومن أنفعها سبيل الجهاد.

وسبيل الله خاص وعام، والخاص جزء من السبيل العام.

وأن لا يتبع صدقته بمنّ ولا أذى، فالمنّ نوعان:

أحدهما: مَنْ بقلبه من غير أن يصرح له بلسانه، وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه في عطائه المال، وحرمان غيره وتوفيقه للبدل ومنع غيره منه، فلله المنّة عليه من كل وجه. فكيف يشهد قلبه منّة لغيره؟.

والنوع الثاني: أن يُمَنَّ عليه بلسانه، فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقاً وطوقه منّة في عنقه، فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا؟ ويعدد أياديه عنده. قال سفيان: يقول: أعطيتك فما شكرت. وقال عبد الرحمن بن زياد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيت أن سلامك يثقل عليه، فكُنْ سلامك عنه. وكانوا يقولون: إذا اصطنعت صنيعة فانسوها، وإذا أسدي إليكم صنيعة فلا تنسوها، وفي ذلك قيل:

وإنَّ امرءاً أهدي إلي صنيعة وذكرنيها مرة لبخيل

وقيل: صنوان: من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضمن، وحظر الله على عباده المنّ بالصنيعة، واختص به صفة لنفسه؛ لأنه من العباد تكدير وتعبير، ومن الله ﷻ إفضال وتذكير.

وأيضاً فإنه هو المنعم في نفس الأمر، والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة، وأيضاً فالامتنان استعباد، وكسر، وإذلال لمن يمن عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

وأيضاً فالمنة أن يشهد المعطي أنه هو رب الفضل، والإنعام، وأنه ولي النعمة، ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا لله، وأيضاً فالمانُّ بعبائه يشهد نفسه مترفعاً على الآخذ، مستعلياً عليه غنياً عنه عزيزاً، ويشهد ذل الآخذ وحاجته إليه وفاقة ولا ينبغي ذلك للعبد، وأيضاً فإن المعطي قد تولى الله ثوابه ورد عليه أضعاف ما أعطى، فبقي عوض ما أعطى عند الله. فأى حق بقي له قبل الآخذ؟ فإذا امتن عليه فقد ظلمه ظلماً بيناً، وادعى أن حقه في قلبه.

ومن هنا - والله أعلم - بطلت صدقته بالمن، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوض تلك الصدقة عنده فلم يرض به، ولاحظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنّ عليه بما أعطاه، بطلت معاوضته مع الله ومعاملته له.

فتأمل هذه النصائح من الله لعباده ودلالته على ربوبيته، وإلهيته وحده، وأنه

يبتل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته، وإلهيته، لا إله غيره، ولا رب سواه. ونبه بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِّنَّا وَلَا أَدَىٰ﴾ على أن المن والأذى، ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه، ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق، ولو أتى بالواو، وقال: (ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذى المتراخي مبطلاً لأثر الإنفاق مانعاً من الثواب، فالمقارن أولى وأحرى.

وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء، فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقرنه بالفاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشرط والجزاء، وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره جرد الخبر عن الفاء؛ فإن المعنى أن الذي ينفق ماله لله، ولا يمن ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله، ويمن ويؤذي بنفقته؛ فليس المقام مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرّاً وعلانية. فذكر عموم الأوقات، وعموم الأحوال فأتى بالفاء في الخير ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار، وعلى أي حالة وجد من سر وعلانية. فإنه سبب للجزاء على كل حال فليبادر إليه العبد، ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه.

فتدبر هذه الأسرار في القرآن؛ فلعلك تظفر بها إذ تمر بك في التفاسير. والمنة والفضل لله وحده لا شريك له.

* * *

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

فأخبر أن القول المعروف وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره. والمغفرة وهي العفو عن أساء إليك، خير من الصدقة بالأذى، فالقول المعروف إحسان وصدقة

بالقول، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذه والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة. ويدخل في المغفرة مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى لك بسبب رده، فيكون عفو عنه خيراً من أن يتصدق عليه ويؤذيه. هذا على المشهور من القولين في الآية.

والقول الثاني: إن المغفرة من الله؛ أي: مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرد الجميل، خير من صدقة يتبعها أذى.

وفيها قول ثالث: أي: مغفرة وعفو من السائل إذ رُدَّ وتعذر المسؤول خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى.

وأوضح الأقوال هو الأول، ويليه الثاني، والثالث ضعيف جداً؛ لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسؤول لا للسائل الآخذ.

والمعنى: أن قول المعروف له، والتجاوز والعفو خير لك من أن تصدق عليه وتؤذيه.

ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته، فقال: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة، فنفعها عائد عليكم لا إليه ﷻ، فكيف يمتن بنفقاته ويؤذي مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه؟ ومع هذا فهو حلِيم؛ إذ لم يعاجل المانَّ بالعقوبة. وفي ضمن هذا: الوعيد والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه ﷻ مع غناه التام من كل وجه، فهو الموصوف بالحلم والتجاوز، والصفح مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة، فكيف يؤذي أحدكم بمنه وأذاه مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره؟! *

* * *

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فتضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة، وهذا دليل على أن

الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وقد يقال: إن المن والأذى المقارن للصدقة هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقييد، والسياق يدل على إبطالها به مطلقاً.

وقد يقال: تمثيله بالمرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر، يدل على أن المن والأذى المبطل هو المقارن، كالرياء وعدم الإيمان، فإن الرياء لو تأخر عن العمل لم يبطله، ويجاب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن التشبيه وقع في الحال التي يحبط بها العمل، وهي حال المرائي والمان المؤذي في أن كل واحد منهما يحبط العمل.

الثاني: أن الرياء لا يكون إلا مقارناً للعمل؛ لأنه فعال من الرؤيا التي صاحبها يعمل ليرى الناس عمله، فلا يكون متراخياً؛ وهذا بخلاف المن والأذى؛ فإنه يكون مقارناً ومتراخياً؛ وتراخيه أكثر من مقارنته.

وقوله: ﴿كَأَلَّذِي يُنْفِقُ﴾؛ إما أن يكون المعنى: كإبطال الذي ينفق، فيكون قد شبه الإبطال بالإبطال؛ أو المعنى: لا تكونوا كالذي ينفق ماله رثاء الناس، فيكون تشبيهاً للمنفق بالمنفق.

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾؛ أي: مثل هذا المنفق الذي قد بطل ثواب نفقته كمثل صفوان وهو الحجر الأملس، وفيه قولان: أحدهما: أنه واحد. والثاني: جمع صفوة ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَاَصَابُهُ وَابِلٌ﴾، وهو المطر الشديد، فتركه صلدأ وهو الأملس الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره.

وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها؛ فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر بالحجر، لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به، وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذي علق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر، فأذهب بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها، كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر، فيتركه صلدأ، فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله.

وفيه معنى آخر: وهو أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملاً يرتب عليه

الأجر، ويزكو له كما تزكو الحبة التي إذا بذرت في التراب الطيب، أنبتت سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة؛ ولكن وراء هذا الإنفاق مانعاً يمنع من نموه وزكاته، كما أن تحت التراب حجراً يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه، فلا ينبت ولا يخرج شيئاً.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَكَرِهَاتٍ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأَنَّتْ أَكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق؛ فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص. والتثبيت من النفس وهو الصدق في البذل؛ فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إن نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية.

إحداهما: طلبه بنفقته محمداً أو ثناء أو غرضاً من أغراضه الدنيوية. وهذا حال أكثر المنفقين.

الآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددها. هل يفعل أم لا؟.

فالآفة الأولى: تزول بابتغاء مرضاة الله.

والآفة الثانية: تزول بالتثبيت، فإن تثبيت النفس تشجعها وتقويتها والإقدام بها على البذل. وهذا هو صدقها، وطلب مرضاة الله، إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها.

فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك كان مثله كجنة - وهي البستان الكثير الأشجار - فهو مجتنبٌ بها؛ أي: مستتر ليس قاعاً فارغاً. والجنة بريرة وهو المكان المرتفع، لأنها أكمل من الجنة التي بالوهاد والحضيض، لأنها إذا ارتفعت كانت بمدرجة الأهوية والرياح. وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها. فكانت أنضج ثمرأ وأطيبه وأحسنه وأكثره، فإن الثمار تزداد طيباً وزكاء بالرياح والشمس، بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال، وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يخش عليها إلا من قلة الماء والشراب، فقال تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾، وهو المطر الشديد العظيم القدر، فأدت ثمرتها وأعطت بركتها، فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يثمر غيرها، أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل. فهذا حال السابقين المقربين ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ﴾، فهو دون الوابل. فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب

مغرسها تكتفي في إخراج بركتها بالطل، وهذا حال الأبرار والمقتصدین في النفقة، وهم درجات عند الله؛ فأصحاب الوابل أعلاهم درجة، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأصحاب الطل مقتصدوهم.

فمثل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة، بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم، فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة.

واختلف في الضعفين. فقيل: ضعف الشيء مثله زائداً عليه، وضعفه مثله، وقيل: ضعفه مثله وضعفاه ثلاثة أمثاله، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله، كلما زاد ضعفاً زاد مثلاً، والذي حمل هذا القائل على ذلك فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية، فإنه رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه، فإذا زاد إلى المثل صار مثلين، وهما الضعف. فلو قيل: لها ضعفان، لم يكن فرق بين المفرد والمثنى. فالضعفان عنده مثلان مضافان إلى الأصل، ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعافه ثلاثة أمثاله مضافة إلى الأصل. وهكذا أبداً.

والصواب: أن الضعفين هما المثلان فقط، الأصل ومثله. وعليه يدل قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾؛ أي مثلين، وقوله تعالى: ﴿يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. أي مثلين. ولهذا قال في الحسنات: (نؤتها أجزاها مرتين).

وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية، فوهم منشؤه ظن أن الضعف هو المثل مع الأصل، وليس كذلك، بل المثل له اعتباران: إن اعتبر وحده فهو ضعف، وإن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان، والله أعلم.

واختلف في رفع قوله: ﴿فَطَلَّ﴾.

فقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، أي: وطله يكفيها.

وقيل: خبر مبتدؤه محذوف تقديره: فالذي يرويها ويصيبها طل، والضمير في ﴿أَصَابَهَا﴾ إما أن يرجع إلى الجنة، أو إلى الربوة، وهما متلازمان.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَيُّودٌ أَمْذَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

أَلَا نَهْرٌ لَّهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿البقرة: ٢٦٦﴾.

قال الحسن: هذا مثل، قلَّ والله من يعقله من الناس: شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته. وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

وفي صحيح البخاري عن عبيد بن عمير قال: قال عمر يوماً لأصحاب النبي ﷺ: «فيم هم يرون هذه الآية نزلت: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ﴾ الآية؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: قل: يا ابن أخي، ولا تحقر بنفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غني عمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله»^(١).

فقوله تعالى: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ﴾ أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي وألطف موقعاً، كما ترى غيرك يفعل فعلاً قبيحاً، فتقول له: لا يفعل هذا عاقل، أي فعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة؟.

وقال تعالى: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ﴾ بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام، كما تقول: أي فعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول: أيودون. وقوله: ﴿أَيُّدُ﴾ أبلغ في الإنكار مما لو قيل: أيريد، لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها أقيح وأنكر من مجرد إرادتها.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، خص هذين النوعين من الثمار بالذكر؛ لأنهما أشرف أنواع الثمار، وأكثرها نفعاً فإن منهما القوت والغذاء، والدواء والشراب والفاكهة، والحلو والحامض، ويؤكلان رطباً، ويابساً، ومنافعهما كثيرة جداً.

وقد اختلف في الأنفع والأفضل منهما.

فرجحت طائفة النخيل، ورجحت طائفة العنب، وذكرت كل طائفة حججاً لقولها، فذكرناها في غير هذا الموضوع.

وفصل الخطاب: أن هذا يختلف باختلاف البلاد؛ فإن الله ﷻ أجرى العادة بأن سلطان أحدهما لا يحل حيث يحل سلطان الآخر؛ فالأرض التي يكون فيها سلطان النخيل لا يكون العنب بها طائلاً ولا كثيراً. لأنه إنما يخرج في الأرض الرخوة المعتدلة غير السبخة، فينمو فيها فيكثر، وأما النخيل فنموه وكثرته في الأرض الحارة السبخة، وهي لا تناسب العنب. فالنخل في أرضه وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها، والعنب في أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها، والله أعلم.

والمقصود: أن هذين النوعين هما أفضل أنواع الثمار وأكرمها. فالجنة المشتملة عليهما من أفضل الجنان، ومع هذا فالأنهار تجري تحت هذه الجنة، وذلك أكمل لها وأعظم في قدرها، ومع ذلك فلم يعدم شيئاً من أنواع الثمار المشتهية، بل فيها من كل الثمرات، ولكن معظمها ومقصودها النخيل والأعناب. فلا تنافي بين كونها من نخيل وأعناب، و﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَأَصْرَبُ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّةً مِّنْ أَعْنَابٍ وَحَفَقْنَاهَا نَخْلًا وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّا الْجَنَّةَيْنِ أَأْنَتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَمْ نَمُرْ﴾ [الكهف: ٣٢ - ٣٤].

وقد قيل: إن الثمار في آية الكهف وفي آية البقرة المراد بها المنافع والأموال، والسياق يدل على أنها الثمار المعروفة لا غيرها؛ لقوله في البقرة: ﴿لَوْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا﴾ أي الجنة ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾، وفي الكهف: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢] وما ذلك إلا ثمار الجنة، ثم قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبْرُ﴾، هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته، وتعلق قلبه بها من وجوه:

أحدها: أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها.

الثاني: أن ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه.

الثالث: أن له ذرية، فهو حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته.

الرابع: أنهم ضعفاء، فهم كلُّ عليه، لا ينفعونهم بقوتهم وتصرفهم.

الخامس: أن نفقتهم عليه، لضعفهم وعجزهم.

وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة، لخطرها في نفسها، وشدة حاجته وذريته إليها. فإذا تصورت هذا الحال وهذه الحاجة، فكيف تكون مصيبة

هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار، وهو الريح التي تستدير في الأرض، ثم ترتفع في طبقات الجو كالعمود وفيها نار، مرت بتلك الجنة فأحرقتها، وصيرتها رماداً. فصدق والله الحسن - هذا مثل قل من يعقله من الناس - ولهذا نبه الله ﷻ على عظم هذا المثل، وحدا القلوب إلى التفكير فيه لشدة حاجتها إليه، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَمَّا كُنْتُمْ تَنفَكُونَ﴾.

فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه لكفاه وشفاه، فكذلك العبد إذا عمل بطاعة الله، ثم أتبعها بما يبطلها ويحرقها من معاصي الله، كان كالإعصار ذي النار المحرق للجنة التي غرسها بطاعته وعمله الصالح.

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره، وتأمله كما ينبغي، لما سولت له نفسه - والله - إحراق أعماله الصالحة وإضاعته، ولكن لا بد أن يغيب عنه علمه عند المعصية. ولهذا استحق اسم الجهل، فكل من عصى الله فهو جاهل.

فإن قيل: الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ واو الحال أم واو العطف؟ وإذا كانت للعطف، فعلام عطف ما بعدها؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أنها واو الحال، اختاره الزمخشري^(١)، والمعنى: أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا في حال كبره وضعف ذريته؟

والثاني: أن تكون للعطف على المعنى. فإن فعل التمني وهو قوله: ﴿أَيُودُ أَحَدِكُمْ﴾ لطلب الماضي كثيراً. فكان المعنى: أيود لو كانت له جنة من نخيل وأعنان، وأصابه الكبر فجرى عليها ما ذكر؟

وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان: بالصفوان الذي عليه التراب، فإنه لم ينبت شيئاً أصلاً، بل ذهب بذره ضائعاً لعدم إيمانه وإخلاصه. ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصاً بينته لله، ثم عرض له ما أبطل ثوابه، بالجنة التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها، ثم سلط عليها الإعصار الناري فأحرقها. فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله، ثم أحرقه، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق.

فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

* * *

(١) الكشاف للزمخشري (١/١٦٢).

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ ﴿٢٠٤﴾ [البقرة: ٢٠٤].

أضاف سبحانه الكسب إليهم، وإن كان هو الخالق لأفعالهم، لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه لأنه ليس فعلاً لهم، ولا هو مقدوراً لهم، فأضاف مقدورهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه. ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنه بالكلية.

وخص سبحانه هذين النوعين، وهما: الخارج من الأرض والحاصل بكسب التجارة دون غيرها من المواشي: إما بحسب الواقع فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك، فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب، والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم إلى بيان حكمهما وعموم وجودهما، وإما لأنهما أصول الأموال وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ. فإن الكسب يدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها؛ من الملابس والمطاعم والرفيق والحيوانات والآلات والأمتعة وسائر ما تتعلق به التجارة، والخارج من الأرض يتناول حبيها وثمارها وركازها ومعدنها، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض، فكان ذكرهما أهم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾، فنهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء، كما هو عادة أكثر النفوس: تمسك الجيد لها وتخرج الرديء للفقير.

ونهى سبحانه عن قصد ذلك وتيممه فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك لا عن قصد وتيمم، بل عن اتفاق إذ كان هو الحاضر إذ ذاك، أو كان ماله من جنسه، فإن هذا لم يتيمم الخبيث، بل يتيمم إخراج بعض ما من الله به عليه.

وموقع قوله: ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ موقع الحال، أي: لا تقصدوه منفقين منه.

ثم قال: ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾؛ أي: لو كنتم أنتم المستحقين له وبُذِل لكم؛ لم تأخذوه في حقوقكم، إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه، من قولهم: أغمض فلان عن بعض حقه. ويقال للبائع: أغمض، أي: لا تستقص، كأنك لا تبصر. وحقيقته: من إغماض الجفن، فكأن الرائي لكرهته له لا يملأ عينه منه، بل يغمض من بصره، ويغمض عنه بعض نظره بغضاً، ومنه قول الشاعر:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضميم رجال يرضون بالإغماض

وفيه معنيان:

أحدهما: كيف تبدلون الله وتهدون له ما لا ترضون ببذله لكم، ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له؟ والله أحق من يختار له خيار الأشياء وأنفسها.

والثاني: كيف تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم، وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيباً؟.

ثم ختم الآيتين بصفيتين يقتضيهما سياقهما، فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَكِيمٌ﴾، فغناه وحمده يأبيان قبوله الرديء، فإن قابل الرديء الخبيث؛ إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغني عنه، الشريف القدر الكامل الأوصاف فإنه لا يقبله.

* * *

قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

هذه الآية تتضمن الحرض على الإنفاق، والحث عليه بأبلغ الألفاظ، وأحسن المعاني. فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعو إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين.

فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح: هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم. وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإن أحدهم يهتم بالصدقة والبذل؛ فيجد في قلبه داعياً يقول له: متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه، وافترقت إليه بعد إخراجها، وإمساكه خير لك، حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه. فإذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل، الذي هو من أقبح الفواحش. وهذا إجماع من المفسرين: أن الفحشاء، هنا البخل^(١). فهذا وعده، وهذا أمره، وهو الكاذب في

(١) يذكر عن مقاتل والكلبي: «كل فحشاء في القرآن فهي الزنا، إلا في هذا الموضع فإنها البخل»، والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة للعموم، أي بالفعلثة الفحشاء، والخلة الفحشاء ومن جملتها البخل. [إغاثة اللهفان (١/١٠٧)].

وعده، الغادر الفاجر في أمره. فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلي من يدعو به غروره، ثم يورده شر الموارد. كما قيل:

دلاهمُ بغرور ثم أوردهم إن الخبيث لمن والاه غرار

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه، ولا نصيحة له، كما ينصح الرجل أخاه، ولا محبة في بقائه غنياً، بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته. وإنما وعده له بالفقر، وأمره إياه بالبخل؛ لسيء ظنه بربه، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه؛ فيستوجب منه الحرمان.

وأما الله سبحانه فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه، وفضلاً بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه إما في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة.

فهذا وعد الله، وذاك وعد الشيطان. فلينظر البخيل والمنفق أيّ الوعدين هو أوثق؟ وإلى أيهما يطمئن قلبه، وتسكن نفسه؟ والله يوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، وهو الواسع العليم.

وفي الحديث المشهور^(١): «إن للملك بقلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد»، ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ الآية.

فالمملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله، وآخر بضده، نستعيد بالله تعالى من شر الشيطان^(٢).

وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ كُلِّشَيْءٍ﴾، فإنه واسع العطاء، عليم بمن يستحق فضله، ومن يستحق عدله؛ فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو بكل شيء عليم.

فتأمل هذه الآيات، ولا تستطل بسط الكلام فيها، فإن لها شأنًا لا يعقله إلا من عقل عن الله خطابه، وفهم مراده: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٩٨٨).

(٢) الحديث وما بعده من إغاثة اللهفان (١/١٠٧، ١٠٨).

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٦٦﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٦٧﴾ إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٦٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ كَفَرُوا وَإِن تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢٦٩ - ٢٧٢﴾.

وتأمل ختم هذه السورة، التي هي سنام القرآن بأحكام الأموال، وأقسام الأغنياء وأحوالهم، وكيف قسمهم إلى ثلاثة أقسام: محسن، وهم المتصدقون. فذكر جزاءهم ومضاعفته، وما لهم في قرض أموالهم للمليء الوفي سبحانه، ثم حذرهم مما يبطل ثواب صدقاتهم، ويحرقها بعد استوائها وكمالها من المن والأذى، وحذرهم مما يمنع ترتب أثرها عليها ابتداء من الرياء، ثم أمرهم أن يتقربوا إليه بأطيبها، ولا يتيمموا أردأها وخبيثها، ثم حذرهم من الاستجابة لداعي البخل والفحش، وأخبر أن استجابتهم لدعوته سبحانه، وثقتهم بوعده أولى بهم. وأخبر أن هذا من حكمته التي يؤتيها من يشاء من عباده، وأن من أوتيتها؛ فقد أوتي خيراً كثيراً: أوتي ما هو خير، وأفضل من الدنيا كلها؛ لأنه سبحانه وصف الدنيا بالقلّة، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَى الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فدل على أن ما يؤتيه الله عبده من حكمته خير له من الدنيا وما عليها، ولا يعقل هذا كل أحد، بل لا يعقله إلا من له لب، وعقل زكي. فقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

ثم أخبر أن كل ما أنفقوه من نفقة أو تقربوا به إليه من نذر، فإنه يعلمه، فلا يضيع لديه، بل يعلم ما كان منه لوجهه؛ فيتولى هو سبحانه مجازاته من واسع فضله، ويكل جزاء من عمل لغيره إلى من عمل له، فإنه ظالم لنفسه، وما له من نصير.

ثم أخبر سبحانه عن أحوال المتصدقين لوجهه في صدقاتهم، وأنه يشيهم عليها إن أبدوها أو كتموها، بعد أن تكون خالصة لوجهه، فقال: ﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾؛ أي: فنعمة شيء هي، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية، فلا يتوهم مبدئها بطلان أثره وثوابه؛ فيمنعه ذلك من إخراجها، وينتظر بها الإخفاء، فتفوت أو تعترضه الموانع، ويحال بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها، فلا يؤخر

صدقته العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر، وهذه كانت حال الصحابة.
ثم قال: ﴿وَلِيْنَ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية خير للمنفق من إظهارها وإعلانها.

وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: وإن تخفوها فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لم يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر، أو غير ذلك، وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه، وعدم تخجيله بين الناس، وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن هذه هي اليد السفلى، وأنه لا شيء له فيزهدون في معاملته ومعاوضته، وهذا قدر زائد عن الإحسان إليه بمجرد الصدقة، مع تضمنه الإخلاص، وعدم المراءاة وطلب المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها للفقير خيراً من إظهارها بين الناس، ومن هذا مدح النبي ﷺ صدقة السر، وأثنى على فاعلها، وأخبر أنه أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة، ولهذا جعله سبحانه خيراً للمنفق، وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته، ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم؛ فإنه بما تعملون خبير.

ثم أخبر أن هذا الإنفاق إنما نفعه لأنفسهم، يعود عليهم أحوج ما كانوا إليه؛ فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد إليها؟ وإن نفقة المؤمنين إنما تكون ابتغاء وجهه خالصاً؛ لأنها صادرة عن إيمانهم، وإن نفقتهم ترجع إليهم وافية كاملة، ولا يظلم منها مثقال ذرة.

وصدر هذا الكلام بأن الله هو الهادي الموفق لمعاملته، وإيثار مرضاته، وأنه ليس على رسوله هداهم؛ بل عليه إبلاغهم، وهو سبحانه الذي يوفق من يشاء لمرضاته.

* * *

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

ثم ذكر المصرف الذي توضع فيه الصدقة، فوصفهم بست صفات:
إحداها: الفقر.

الثانية: حبسهم أنفسهم في سبيله تعالى وجهاد أعدائه، ونصر دينه، وأصل الحصر: المنع، فمنعوا أنفسهم من تصرفها في أشغال الدنيا، وقصروها على بذلها لله، وفي سبيله.

الثالثة: عجزهم عن الأسفار للتكسب، والضرب في الأرض: هو السفر. قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجِيًّا وَآخَرُونَ يَصِيرُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١].

الرابعة: شدة تعففهم: وهو حسن صبرهم، وإظهارهم الغنى. يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم، وعدم تعرضهم، وكتمانهم حاجتهم.

الخامسة: أنهم يعرفون بسيماهم: وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وهذا لا ينافي حسابان الجاهل أنهم أغنياء، لأن الجاهل له ظاهر الأمر، والعارف: هو المتوسم المتفرس الذي يعرف الناس بسيماهم. فالمتوسمون خواص المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

السادسة: تركهم مسألة الناس، فلا يسألونهم إلحافاً، والإلحاف: هو الإلحاح. والنفي متسلط عليهما معاً، أي: لا يسألون ولا يلحفون، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف. وهذا كقوله:

على لاحب لا يهتدى لمناره

أي: ليس فيه منار فيهتدى به.

وفيه كالتنبية على أن المذموم من السؤال: هو سؤال الإلحاف. فأما السؤال بقدر الضرورة - من غير إلحاف - فالأفضل تركه ولا يحرم.

فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة^(١)، فألغاها أكثر الناس، ولحظوا منها ظاهر الفقر، وزيه من غير حقيقته. وأما سائر الصفات المذكورة فعزیز أهلها، ومن يعرفهم أعز. والله يختص بتوفيقه من يشاء، فهؤلاء هم المحسنون في أموالهم.

* * *

(١) جاء في مدارج السالكين (٤٣٨/١) قوله تعالى: لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا [البقرة: ٢٧٣]، أي: الصدقات لهؤلاء. كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة، لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله. فكانوا وقفاً على كل سرية يعينها رسول الله ﷺ، وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله. وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله.

وقيل: حبسهم الفقر والعُدم عن الجهاد في سبيل الله.

وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش، فلا يستطيعون ضرباً في الأرض. والصحيح: أنهم - لفقرهم وعجزهم وضعفهم - لا يستطيعون ضرباً في الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من يعرف حالهم أغنياء.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

صدر الآية بالأمر بتقواه المضادة للربا، وأمر بترك ما بقي من الربا بعد نزول الآية، وعفا لهم عما قبضوه به قبل التحريم، ولولا ذلك لردوا ما قبضوه به قبل التحريم، وعلق هذا الامتثال على وجود الإيمان منهم، والمعلق على شرط منتف عند انتفائه.

ثم أكد عليهم التحريم بأغلظ شيء، وأشدّه وهي محاربة المرابي لله ورسوله، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. ففي ضمن هذا الوعيد: أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجئ هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا، وقطع الطريق، والسعي في الأرض بالفساد؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض، قاطع الطريق على الناس: هذا بقهره وتسلطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها. فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله، وأذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله.

ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتِغُوا فَالْكُم رُؤُوسَ ءَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، يعني: إن تركتم الربا، وتبتم إلى الله منه، وقد عاقدتم عليه، فإنما لكم رؤوس أموالكم، لا تزدادون عليها فتظلمون الآخذ، ولا تنقصون منها؛ فيظلمكم من أخذها. فإن كان هذا القابض معسراً؛ فالواجب إنظاره إلى ميسرة، وإن تصدقتم عليه، وأبرأتموه، فهو أفضل لكم وخير لكم، فإن أبت نفوسكم، وشحت بالعدل الواجب، أو الفضل المندوب فذكروها يوماً ترجعون فيه إلى الله، وتلقون ربكم؛ فيوفيكم جزاء أعمالكم أحوج ما أنتم إليه.

فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق، ثم عقبه بالظالم وهو المرابي، ثم ذكر العادل: في آية التداين، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ولولا أن هذه تستدعي سफراً وحدها، لذكرت بعض تفسيرها.

والغرض إنما هو التنبيه والإشارة، وقد ذكر أيضاً العادل، وهو أخذ رأس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان، ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة التي هي من كنز تحت عرشه، والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام، وأصول الإيمان، ومقامات الإحسان ما يستدعي بيانه كتاباً مفرداً^(١).

□ □ □

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِيَدَيْنِ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكْتُوبُهُ
وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ
وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ
الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا
شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ
أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
أَنْ تَكْتُوبَهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ
أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا
تَكْتُوبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ
فُسُوقٌ بِيَكُمْ وَأْتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فإن الله سبحانه قسم البياعات المقصودة التي شرعها لعباده، ونصبها لمصالحهم
في معاشهم ومعادهم إلى بيوع مؤجلة وبيوع حالة، ثم أمرهم أن يستوثقوا في البيوع
المؤجلة بالكتاب والشهود، وإن عدموا ذلك في السفر استوثقوا بالرهن، حفظاً
لأموالهم، وتخلصاً من بطلان الحقوق بجحود أو نسيان، ثم أخبرهم أنه لا حرج
عليهم في ترك ذلك في البيوع الحالة، لأنهم فيها مفسدة التجاحد والنسيان.

فالمراد بالتجارة الدائرة: البيعات التي تقع غالباً بين الناس.

ولم يفهم أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا من التابعين ولا تابعيهم، ولا
أهل التفسير، ولا أئمة الفقهاء منها: المعاملة الدائرة بالربا بين المترابين، بل
فهموا تحريمها من نصوص تحريم الربا، ولا ريب أن دخولها في تلك النصوص
أظهر من دخولها في هذه الآية.

ومما يدل عليه: أن هذه المعاملة الدائرة بينهما بالربا، لا تكون في الغالب إلا
مع أجل، بأن يبتاع منه سلعة بثمن حال، ثم يبيعها إياه بأكثر منه إلى أجل، وذلك
في الغالب مما يطلب عليه الشهود، والكتاب؛ خشية الجحود.

قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا
تَكْتُوبُوهَا﴾، فاستثنى هذا من قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِيَدَيْنِ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى فَآكْتُوبُهُ﴾، وهذه المعاملة الربوية قد اتفقا فيها على التداين إلى أجل
مسمى، واتفقا فيها على المائة بمائة وثلاثين ونحو ذلك، فأين هي من التجارة
الحاضرة، التي يعرف فيها الفرق بين التجارة والربا؟.

فالتجارة في كلام الله ورسوله، ولغة العرب، وعرف الناس: إنما تنصرف إلى البياعات المقصودة التي يقصد فيها الثمن والمثمن.

وأما ما تواطأ فيه على الربا محض، ثم أظهرها بيعاً غير مقصودة لهما البتة، يتوسلان به إلى أن يعطيه مائة حالة بمائة وعشرين مؤجلة، فهذا ليس من التجارة المأذون فيها، بل من الربا المنهي عنه، والله أعلم^(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.

فإن قيل: فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين بدل عن الشاهدين، وأنه لا يقضى بهما إلا عند عدم الشاهدين.

قيل: القرآن لا يدل على ذلك، فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم، فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق، فإن لم يقدرُوا على أقواها انتقلوا إلى ما دونها، فإن شهادة الرجل الواحد أقوى من شهادة المرأتين، لأن النساء يتعذر غالباً حضورهن مجالس الحكام، وحفظهن وضبطهن دون حفظ الرجال وضبطهم، ولم يقل سبحانه: احكموا بشهادة رجلين، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان، وقد جعل سبحانه المرأة على النصف من الرجل في عدة أحكام.

أحدها: هذا.

والثاني: في الميراث.

والثالث: في الدية.

والرابع: في العقيقة.

والخامس: في العتق.

كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «من أعتق امرأً مسلماً أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار، ومن أعتق امرأتين مسلمتين أعتق الله بكل عضو منهما عضواً من النار»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، فيها أن الشاهد إذا

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٠٤، ١٠٥).

(٢) المقطع الأول من الحديث رواه البخاري (٦٧١٥)، والثاني رواه الترمذي (١٥٤٥).

نسي شهادته فذكره بها غيره: لم يرجع إلى قوله حتى يذكرها، وليس له أن يقلده، فإنه سبحانه قال: ﴿فَتَذَكَّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾، ولم يقل: فتخبرها، وفيها قراءتان: التثقيل والتخفيف، والصحيح أنهما بمعنى واحد من «الذكر» وأبعد من قال: فيجعلها ذكراً لفظاً ومعنى، فإنه سبحانه جعل ذلك علة للضلال الذي هو ضد الذكر، فإذا ضلت أو نسيت ذكرتها الأخرى فذكرت، وقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾، تقديره عند الكوفيين: لثلاث تضل إحداهما، ويطردون ذلك في كل ما جاء من هذا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦].

ويرد عليهم نصب قوله: ﴿فَتَذَكَّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾؛ إذ يكون تقديره لثلاث تضل، ولثلاث تذكر.

وقدره البصريون بمصدر محذوف، وهو الإرادة والكراهة والحذر ونحوها، فقالوا: يبين الله لكم أن تضلوا، أي: حذر أن تضلوا، وكراهة أن تضلوا ونحوه، ويشكل عليهم هذا التقدير في قوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَهُمَا﴾؛ فإنهم إن قدروه كراهة أن تضل إحداهما: كان حكم المعطوف عليه - وهو فتذكر - حكمه، فيكون مكروهاً، وإن قدروها: وإرادة أن تضل إحداهما كان الضلال مراداً. والجواب عن هذا: أنه كلام محمول على معناه.

والتقدير: أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، وهذا مراد قطعاً، والله أعلم.

وقال شيخنا ابن تيمية رحمه الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأُمْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدُهُمَا الْأُخْرَى﴾

فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل، هو لإذكار إحداهما الأخرى إذا ضلت. وهذا إنما يكون فيما يكون فيه الضلال في العادة، وهو النسيان وعدم الضبط. وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ حيث قال: «أما نقصان عقلهن: شهادة امرأتين بشهادة رجل»؛ فبين أن شطر شهادتهن إنما هو لضعف العقل، لا لضعف الدين. فعلم بذلك أن عدل النساء بمنزلة عدل الرجال؛ وإنما عقلها ينقص عنه. فما كان من الشهادة لا يخاف فيه الضلال في العادة لم تكن فيه على نصف الرجل، وما يقبل فيه شهادتهن منفردات إنما هو في أشياء تراها بعينها، أو تلمسها بيدها، أو تسمعها بأذنها، من غير توقف على عقل، كالولادة والاستهلال والارتضاع والحيض، والنفاس، والعيوب تحت الثياب. فإن مثل هذا لا ينسى في العادة، ولا

تحتاج معرفته إلى كمال عقل، كمعاني الأقوال التي تسمعها من الإقرار بالدين وغيره؛ فإن هذه معان معقولة، ويطول العهد بها في الجملة^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٨٣]. وقاست الأمة الرهن في الحضر على الرهن في السفر، والرهن مع وجود الكاتب على الرهن مع عدمه، فإن استدل على ذلك بأن النبي ﷺ رهن درعه في الحضر^(٢)، فلا عموم في ذلك، فإنما رهنها على شعير استقرضه من يهودي، فلا بد من القياس، إما على الآية، وإما على السنة^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِيْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد أثنى الله عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذي سأله فيه أن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به، وقد فسر ذلك بالعشق، وليس المراد اختصاصه به؛ بل المراد أن العشق مما لا طاقة للعبد به.

وقال مكحول: هو شدة الغلطة.

وقال النبي ﷺ: «لا ينبغي للمرء أن يذل نفسه»^(٤).

قال الإمام أحمد: تفسيره أن يتعرض من البلاء ما لا يطيق، وهذا مطابقة لحال العاشق، فإنه أذل الناس لمعشوقه ولما يحصل به رضاه. والحب مبناه على الذل والخضوع للمحجوب^{(٥)(٦)}.



(١) الطرق الحكمية (١٦٠، ١٦١). (٢) رواه البخاري (٢٠٦٩).

(٣) إعلام الموقعين (١/٢٦٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦).

(٥) روضة المحبين (١٨١).

(٦) من الواضح أن الإمام ابن القيم لم يقصد تفسير الآية الكريمة.. فهي أعم وأشمل مما تناوله، وإنما استشهد بها في باب «الحب»، فجاء كلامه عنها في هذا المجال. [الشامي].

سورة آل عمران

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الْعَمَّ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَمَّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ١ - ٣].

وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]. أفلا ترى كيف اطرء في القرآن وصف الكتاب بأنه مصدق لما بين يديه.

وباتفاق الناس أن المراد: مصدق لما تقدمه من الكتب، وبهذه الطريق يكون مصدقاً للنبي ﷺ، ويكون أبلغ في الدليل على صدقه من أن يقال: هذا كتاب مصدق لك.

فإنه إذا طابق الكتب المتقدمة وصدقها وشهد بصحة ما فيها، مما أنزله الله من غير مواطأة ولا اقتباس منها، دلّ على أن الذي جاء به رسول الله ﷺ صادق، كما أن الذي جاء بها كذلك، وأن مخرجهما من مشكاة واحدة.

ولهذا قال النجاشي حين قرئ عليه القرآن: إن هذا والذي جاء به موسى يخرج من مشكاة واحدة، يعني: فإذا كان موسى صادقاً وكتابه حق، فهذا حق كذلك، إذ من المحال أن يخرج شيئان من مشكاة واحدة، ويكون أحدهما باطلاً محضاً، والآخر حقاً محضاً، فإن هذا لا يكون إلا مع غاية التباين والتنافر.

فالقرآن صدق الكتب المتقدمة، وهي بشرت به، وبمن جاء به، فقام الدليل على صدقه من الوجهين معاً.

من جهة بشارة من تقدمه به.

ومن جهة تصديقه ومطابقته له، فتأمله^(١).

* * *

(١) بدائع الفوائد (١١٤/٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۗ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ [آل عمران: ٥، ٦].
لقد دل سبحانه على نفسه أوضح دلالة بما أشهده كل عبد على نفسه في حاله وحدوثه وإتقان صنعه، وعجائب خلقه، وآيات قدرته، وشواهد حكمته فيه ^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِيُذِينَ اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَانَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّكِرِينَ وَالصَّكِرِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ [آل عمران: ١٤ - ١٧].

أخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أمانى طلابها ومؤثرها على الآخرة، وهو سبعة أشياء: النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة، والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه، والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها، والخيال المسومة التي هي عز أصحابها وفخرهم وحصونهم، وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم، والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم... وغير ذلك من مصالحهم، والحرث الذي هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم، وغير ذلك.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة، وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِيُذِينَ اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ [آل عمران: ١٥].

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع، ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَانَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّكِرِينَ وَالصَّكِرِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ [آل عمران: ١٦، ١٧].

فأخبر سبحانه أن ما أعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا،

وهو نوعان: ثواب يتمتعون به، وأكبر منه؛ وهو رضوانه عليهم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].
تضمنت هذه الآية الكريمة: إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف - التي فصل عقائدها الباطلة قبل هذا - والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم، وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية، ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية.
فتضمنت هذه الآية: أجل شهادة وأعظمها، وأعدلها وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود.

وعبارات السلف في «شهد» تدور على: الحكم والقضاء، والإعلام والبيان والإخبار.

قال مجاهد: حكم وقضى. وقال الزجاج: بين. وقالت طائفة: أعلم وأخبر.
وهذه الأقوال كلها حق، لا تنافي بينها، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد، وخبره وقوله، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب:
فأول مراتبها: علم ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.
وثانيها: تكلمه بذلك ونطقه به. وإن لم يُعلم به غيره، بل يتكلم هو به مع نفسه، ويذكرها وينطق بها، أو يكتبها.

وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها، ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط: تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره خلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

١ - أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]. وقال النبي ﷺ: «على مثلها فاشهد» وأشار إلى الشمس.

٢ - وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْمْ شَهِدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا

(١) عدة الصابرين (١٦٧، ١٦٨).

تَشْهَدُ مَعَهُمْ ﴿١٥٠﴾ [الأنعام: ١٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّتًا آشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَخَّكُنَّ شَهْدَتُهُمْ وَيسْتَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]. فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم. قال النبي ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراف بالله». وشهادة الزور: هي قول الزور، كما قال تعالى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُتْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١]، وعند هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراف بالله». فسمى قول الزور شهادة.

وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوثًا قَوْمِينَ بِالْأَقْسَطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]. فشهادة المرء على نفسه: هي إقرار المرء على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز: «فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ». وقال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا وأضعافه يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره، لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة، كما هو مذهب مالك وأهل المدينة، وظاهر كلام أحمد، ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك. وقد قال ابن عباس: «شهد عندي رجال مَرَضِيُونَ - وأرضاهم عندي عمر - أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس»^(١)؛ ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، والعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة: لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة، بل قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، والحديث»^(٢).

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام، وشهد شهادة الحق، ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة. وقد دخل في قوله ﷺ: «حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله»، وفي اللفظ الآخر: «حتى يقولوا: لا إله إلا الله» فدل على أن قولهم: «لا إله إلا الله» شهادة منهم، وهذا أكثر من أن تذكر شواهد في الكتاب والسنة، فليس مع من اشترط لفظ الشهادة دليل يعتمد عليه، والله أعلم.

٣ - وأما مرتبة الإعلام والإخبار: فنوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل، وهذا شأن كل مسلم معلّم لغيره بأمر؛ تارة يعلمه بقوله، وتارة بفعله، ولهذا كان من جعل

(١) رواه البخاري (٥٨١)، ومسلم (٨٢٦). (٢) رواه الترمذي (٣٧٤٧).

داراً مسجداً وفتح بابها لكل من دخل إليها، وأذن بالصلاة فيها؛ معلماً أنها وقف، وإن لم يتلفظ به. وكذلك من وجد متقرباً إلى غيره بأنواع المسار - معلماً له ولغيره: أنه يحبه، وإن لم يتلفظ بقوله، وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه: يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرى.

فالقول: هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، مما قد علم بالاضطرار: أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو، وأخبر بذلك، وأمر عباده أن يشهدوا به.

وشهادته سبحانه: ﴿أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه. وأما بيانه وإعلامه بفعله: فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة.

وهذا أيضاً يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة والإرشاد والبيان، فإن الدليل بين المدلول عليه ويظهره، كما بينه الشاهد والمخبر، بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ، وقد يسمى شاهد الحال نطقاً وقولاً له وكلاماً، لقيامه مقامه، وأدائه مؤداه. كما قيل:

وقالت العينان سمعاً وطاعة وحَدَرْنَا بِالذُّرِّ لَمَّا يُثَقَّبُ
ويسمى هذا شهادة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]. فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله، فهي شهادة بكفرهم، وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت بها عليهم.

والمقصود: أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه. فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله، ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية، فتطابقت شهادة القول وشهادة الفعل، كما قال تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ أَئِنَّا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. أي: أن القرآن هو الحق، فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية.

وهذه الشهادة الفعلية: قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير. قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

٤ - وأما المرتبة الرابعة: وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه، وتتضمنه، فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَوَجِدْ﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد: «أنه لا إله إلا هو»، فقد أخبر وبيّن وأعلم وحكم وقضى: أن ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره. وذلك يستلزم الأمر باتخاذ وحده إلهاً، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي، أو يستشهد، أو يستطب من ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل، فتقول له: هذا ليس بمفت، ولا شاهد، ولا طبيب، المفتي فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان، فإن هذا أمر منك ونهي.

وأيضاً: فإن الآية دلت أنه وحده هو المستحق للعبادة، فإذا أخبر أنه وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبار أمر العباد، والإزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم، فإذا شهد سبحانه أنه لا إله إلا هو تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضاً: فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية، ويقال للجمل الخبرية: قضية وحكم، وقد حكم فيها بكيت وكيت. قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصفافات: ١٥١ - ١٥٤]، لكن هذا حكم لا إلزام معه، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو: متضمن للإلزام، والله سبحانه أعلم.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾.

«القسط» هو: العدل. فشهد سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده، وبالوحدانية في عدله، والتوحيد والعدل: هما جماع صفات الكمال. فإن التوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال، والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه. والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب، وموافقة الحكمة.

فهذا توحيد الرسل وعدلهم: إثبات حقائق الأسماء والصفات على ما يليق بالرب سبحانه، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإثبات القدر، والحكم والغايات المحمودة بفعله وأمره، لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية، الذي هو إنكار الصفات، وحقائق الأسماء الحسنى، وعدلهم، الذي هو التكذيب بالقدر، أو نفي الحكم والغايات، والعواقب الحميدة التي يفعل الرب لأجلها ويأمر. وقيامه سبحانه بالقسط في شهادته: يتضمن أموراً:

أحدها: أنه قائم بالقسط في هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق، وإنكارها وجحودها أظلم الظلم على الإطلاق، فلا أعدل من توحيد الرسل، ولا أظلم من الشرك. فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولاً وفعلًا، حيث شهد بها وأخبر، وأعلم عباده ويبيّن لهم تحقيقها وصحتها، وألزمهم بمقتضاها، وحكم به، وجعل الثواب والعقاب عليها، وجعل الأمر والنهي من حقوقها وواجباتها. فالدين كله من حقوقها، والثواب كله عليها، والعقاب كله على تركها. وهذا هو العدل الذي قام به الرب تعالى في هذه الشهادة.

فأوامره كلها تكميل لها، وأمر بأداء حقوقها، ونواهيها كلها صيانة لها عما يهدمها ويضادها، وثوابه كله عليها، وعقابه كله على تركها، وترك حقوقها، وخلقه السماوات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها.

وهي الحق الذي خلقت به المخلوقات، وضدها هو الباطل والعبث الذي نزه الله نفسه عنه، وأخبر أنه لم يخلق به السماوات والأرض.

قال تعالى رداً على المشركين المنكرين لهذه الشهادة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ١-٣]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، وهذا كثير في القرآن.

والحق الذي خلقت به السماوات والأرض، ولأجله: هو التوحيد وحقوقه؛ من الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والشرع والقدر، والخلق. والثواب والعقاب: قائم بالعدل، والتوحيد صادر عنهما، وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه الرب ﷻ: قال تعالى حكاية عن نبيه هود أنه قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا

مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ؕ أَخِذْ بِبِصِيرَتِكَ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [هود: ٥٦]. فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله. فهو يقول الحق ويفعل العدل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥]. ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فالصراط المستقيم الذي عليه ربنا تبارك وتعالى: هو مقتضى التوحيد والعدل. والمقصود: أن قوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، هو كقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ نصب على الحال، وفيه وجهان: أحدهما: أنه حال من الفاعل في ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾، والعامِل فيه معنى الفعل، والمعنى على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط: أنه لا إله إلا هو. والثاني: أنه حال من قوله: «هو»، والعامِل فيها معنى النفي، أي: لا إله إلا هو حال كونه قائماً بالقسط. وبين التقديرين فرق ظاهر:

فإن التقدير الأول يتضمن أن المعنى: شهد الله متكلماً بالعدل به، أمراً به، فاعلاً له، مجازياً عليه: أنه لا إله إلا هو. فإن العدل يكون في القول والفعل، و«المقسط» هو العادل في قوله وفعله. فشهد الله قائماً بالعدل قولاً وفعلًا: أنه لا إله إلا هو. وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط.

وأما التقدير الثاني: - وهو أن يكون قوله: ﴿قَائِمًا﴾ حالاً مما بعد ﴿إِلَّا﴾؛ فالمعنى: أنه لا إله إلا هو قائماً بالعدل، فهو وحده المستحق الإلهية، مع كونه قائماً بالقسط. قال شيخنا: وهذا التقدير أرجح. فإنه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم، يشهدون له بأنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط.

قلت: مراده: أنه إذا كان قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ حالاً من المشهود به، فهو كالصفة له؛ فإن الحال صفة في المعنى لصاحبها. فإذا وقعت الشهادة على ذي الحال وصاحبها، كان كلاهما مشهوداً به. فيكون الملائكة وأولو العلم قد شهدوا بأنه قائم بالقسط، كما شهدوا بأنه لا إله إلا هو.

والتقدير الأول لا يتضمن ذلك. فإنه إذا كان التقدير: شهد الله قائماً بالقسط: أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو، كان القيام بالقسط حالاً من اسم الله وحده.

وأيضاً: فكونه قائماً بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالاً من مجرد الشهادة. فإن قيل: فإذا كان حالاً من ﴿هُوَ﴾ فهلا اقترن به؟ ولمْ فُصِّل بين صاحب الحال وبينها بالمعطوف، فجاء متوسطاً بين صاحب الحال وبينها؟ قلت: فائدته ظاهرة، فإنه لو قال: شهد الله أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط والملائكة وأولو العلم. أو هم عطف الملائكة وأولي العلم على الضمير في قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، ويحسن العطف لأجل الفصل... وليس المعنى على ذلك قطعاً. وإنما المعنى على خلافه، وهو أن قيامه بالقسط مختص به كما أنه مختص بالإلهية. فهو وحده الإله المعبود المستحق للعبادة، وهو وحده المجازي الميثب المعاقب بالعدل.

□ □ □

قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ذكر محمد بن جرير الطبري أنه قال: الأولى وصف وتوحيد. والثانية: رسم وتعليم، أي قولوا: لا إله إلا هو^(١).

ومعنى هذا: أن الأولى تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها. والتالي للقرآن إنما يخبر عن شهادة الله، لا عن شهادته هو؛ وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه، فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولها التالي؛ فيكون شاهداً هو بها أيضاً.

وأيضاً: فالأولى خبر عن الشهادة بالتوحيد، والثانية خبر عن نفس التوحيد. وختم بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فتضمنت الآيات توحيداً وعدله، وعزته وحكمته. فالتوحيد يتضمن ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المماثل له فيها، وعبادته وحده لا شريك له.

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك، وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة، ولا يمنع من يستحق العطاء، وإن كان هو الذي جعله مستحقاً.

والعزة تتضمن كمال قدرته، وقوته وقهره.

والحكمة تتضمن كمال علمه وخبرته، وأنه أمر ونهى، وخلق وقدر، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد.

(١) لم أجد هذا القول لابن جرير في تفسيره في النسختين اللتين بين يدي (٣/٢٠٩، ٢١٠) ط الحلبي، و(٦/٢٦٨ - ٢٧١) ط المعارف، تحقيق: محمود وأحمد شاکر.

فاسمه «العزیز» يتضمن الملك، واسمه «الحكيم» يتضمن الحمد، وأول الآية يتضمن التوحيد، وذلك حقيقة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وذلك أفضل ما قاله رسول الله ﷺ والنيون من قبله^(١).

و«الحكيم» الذي إذا أمر بأمر كان المأمور به حسناً في نفسه، وإذا نهى عن شيء كان المنهي عنه قبيحاً في نفسه، وإذا أخبر بخير كان صدقاً، وإذا فعل فعلاً كان صواباً؛ وإذا أراد شيئاً كان أولى بالإرادة من غيره.

وهذا الوصف على الكمال: لا يكون إلا لله وحده.

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة: وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم، وعزته المنافية للعجز، وحكمته المنافية للجهل والعيب.

ففيها: الشهادة له بالتوحيد والعدل والقوة، والعلم والحكمة، ولهذا كانت أعظم شهادة.

ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف؛ إلا أهل السنة، وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها.

□ □ □

قد فسرت شهادة أولي العلم: بالإقرار، وفسرت بالتبيين والإظهار. والصحيح أنها تضمن الأمرين. فشهادتهم إقرار وإظهار وإعلام، وهم شهداء لله على الناس يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]^(٢).

استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه، وهو توحيديه فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ﴾، وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته.

(١) رواه الإمام أحمد (٦٩٦١)، والترمذي (٣٥٨٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/٤٥٠ - ٤٧٤).

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»^{(١)(٢)}.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

اختلف المفسرون: هل هو كلام مستأنف، أو داخل في مضمون هذه الشهادة، فهو بعض المشهود به.

وهذا الاختلاف مبني على القراءتين في كسر «إن» وفتحها. فالأكثر على كسرها على الاستئناف، وفتحها الكسائي وحده.

والوجه: هو الكسر؛ لأن الكلام الذي قبله قد تم. فالجملة الثانية: مقررة مؤكدة لمضمون ما قبلها. وهذا أبلغ في التقرير، وأدخل في المدح والثناء، ولهذا كان كسر «إن» من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، أحسن من الفتح. وكان الكسر في قول الملبى: «لبيك إن الحمد والنعمة لك» أحسن من الفتح^(٣).

(١) حديث صحيح أخرجه جمع من الحفاظ وصححه الإمام أحمد ﷺ، كما ذكر الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ فِي (شرف أصحاب الحديث). حديث رقم (٢٨).
(٢) مفتاح درا السعادة (٥٢، ٥٣).

(٣) وقد ذكر في توجيه قراءة الكسائي ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين. فهي واقعة على: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ وهو المشهود به. ويكون فتح «أنه» من قوله: ﴿أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على إسقاط حرف الجر، أي: بأنه لا إله إلا هو، وهذا توجيه الفراء، وهو ضعيف جداً. فإن المعنى على خلافه، وأن المشهود به هو نفس قوله: «إنه لا إله إلا هو»، فالمشهود به «إن» وما في حيزها. والعناية إلى هذا صرفت، وبه حصلت.

ولكن لهذا القول - مع ضعفه - وجهاً، وهو أن يكون المعنى: شهد الله بتوحيده: أن الدين عند الله الإسلام، والإسلام: هو توحيده سبحانه. فتضمنت الشهادة توحيده وتحقيق دينه: أنه الإسلام لا غيره.

الوجه الثاني: أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين معاً، كلاهما مشهود به على تقدير حذف الواو وإرادتها. والتقدير: وأن الدين عنده الإسلام. فتكون جملة استغنى فيها عن حرف العطف بما تضمنت من ذكر المعطوف عليه، كما وقع الاستغناء عنها في قوله: ﴿يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَنَامَتُ مِنْهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، فيحسن ذكر الواو وحذفها، كما =

قال ابن عباس: افتخر المشركون بأبائهم، فقال كل فريق: لا دين إلا دين آبائنا وما كانوا عليه. فأكذبهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾، يعني: الذي جاء به محمد، وهو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ليس لله دين سواه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عِزَّ الْأَسْلَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد دل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾ على أنه دين أنبيائه ورسوله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط، ولا يكون له دين سواه. قال أول الرسل نوح: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

وقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن دُرِّيْنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال يعقوب لبنيه عند الموت: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ - إلى قوله - وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال موسى لقومه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ سَلْمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وقالت ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

= حذف هنا، وذكرت في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةَ وَفَاتِمُهُمْ كَلْبَهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

الوجه الثالث: وهو مذهب البصريين - أن يجعل «إن» الثانية بدلاً من الأولى. والتقدير: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام. وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ توطئة للثانية وتمهيد، ويكون هذا من البديل الذي الثاني فيه نفس الأول، فإن الدين الذي هو نفس الإسلام عند الله، هو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها، ولكن أن تجعله على هذا الوجه؛ من باب بدل الاشتمال، لأن الإسلام يشتمل على التوحيد.

فإن قيل: فكان ينبغي - على هذه القراءة - أن يقول: إن الدين عند الله الإسلام؛ لأن المعنى: شهد الله أن الدين عنده الإسلام. فلم عدل إلى لفظ الظاهر؟

قيل: هذا يرجح قراءة الجمهور، وأنها أفصح وأحسن. ولكن يجوز إقامة الظاهر مقام المضمّر. وقد ورد في القرآن، وكلام العرب كثيراً.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وقال: ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد ديناً سواه. فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن وخمسة للشيطان. فدين الرحمن هو الإسلام، والتي للشيطان: اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة ودين المشركين.

فهذا بعض ما تضمنته هذه الآيات العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف، ولا تستطل الكلام فيها^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].
﴿اللَّهُمَّ﴾ لا خلاف أن لفظ «اللهم» معناها: يا الله؛ ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب. فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اللهم اغفر لي وارحمني. واختلف النحاة في الميم المشددة من آخر الاسم:

فقال سيبويه: زيدت عوضاً من حرف النداء. ولذلك لا يجوز عنده الجمع بينهما في اختيار الكلام، فلا يقال: «يا اللهم» إلا فيما ندر، كقول الشاعر:
إِنِّي إِذَا مَا حَدَّثُ الْمَا أَقُولُ يَا اللَّهُمَّ يَا اللَّهُمَّ
ويسمى ما كان من هذا الضرب عوضاً؛ إذ هو في غير محل المحذوف. فإن كان في محله سمي بدلاً، كالألف في «قام وباع» فإنها بدل عن الواو والياء. ولا يجوز عنده أن يوصف هذا الاسم أيضاً: فلا يقال: «يا اللهم الرحيم ارحمني»، ولا يبدل منه.

والضمة التي على الهاء ضمة الاسم المنادى المفرد، وفتحت الميم لسكونها وسكون الميم التي قبلها، وهذا من خصائص هذا الاسم، كما اختص بالثناء في القسم، ويدخول حرف النداء عليه مع لام التعريف، ويقطع همزة وصله في النداء، وتفخيم لاه وجوباً غير مسبوقه بحرف إطباق، هذا ملخص مذهب الخليل وسيبويه. وقيل: الميم عوض عن جملة محذوفة، والتقدير: «يا الله أمنا بخير»، أي: اقصدنا، ثم حذف الجار والمجرور، وحذف المفعول، فبقي في التقدير: «يا الله أمم»، ثم حذفت الهمزة، لكثرة دوران هذا الاسم في الدعاء على ألسنتهم، فبقي «يا اللهم»، وهذا قول الفراء.

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٧٤ - ٤٧٦).

وقيل: زيدت الميم للتعظيم والتفخيم. (١)

□ □ □

فصدر الآية سبحانه بتفرد بالملك كله، وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتیه من يشاء، وينزعه ممن يشاء لا غيره.

فالأول: تفرد بالملك.

والثاني: تفرد بالتصرف فيه.

وأنه، سبحانه هو الذي يعز من يشاء بما يشاء من أنواع العز، ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه، وأن الخير كله بيديه وليس لأحد معه منه شيء، ثم ختمها بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فتناولت الآية ملكه وحده وتصرفه، وعموم قدرته، وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيديه وأنها كلها خير. فسلبه الملك عمن يشاء، وإذلاله من يشاء خير وإن كان شراً بالنسبة إلى المسلوب الذليل.

فإن هذا التصرف دائر بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويشئ عليه به، كما يحمد ويشئ عليه بتنزيهه عن الشر، وأنه ليس إليه، كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يشئ على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله: «البيك وسعديك والخير بين يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت» (٢)؛ فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بل كل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه لم يكن شراً كما سيأتي بيانه.

وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلق وفعله وقضاؤه وقدره خير كله، ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه كما تقدم، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله فإذا وضع في محله؛ لم يكن شراً فعلم أن الشر ليس إليه، وأسماءه الحسنی تشهد بذلك، فإن منها القدوس السلام العزيز الجبار المتكبر. فالقدوس المنزه من كل شر ونقص وعيب (٣).

* * *

(٢) رواه الترمذي (٣٤٢٢).

(١) جلاء الأفهام (٧٢ - ٧٣).

(٣) شفاء العليل (١٧٨، ١٧٩).

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيَحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ومعلوم أن التقاة ليست بموالاة، ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم، والبراءة منهم، ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال، إلا إذا خافوا من شرهم فأباح لهم التقية، وليست التقية موالاة لهم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لمحبتهم له، وكون العبد محبوباً لله أعلى من كونه محباً لله، فليس الشأن أن تحب الله، ولكن الشأن أن يحبك الله. فالطاعة للمحجوب عنوان محبته، كما قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع^(٢)

وقد قال غير واحد من السلف: «ادعى قوم محبة الله تعالى، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾»^(٣).

فلم يقل: فارقصوا وغنوا واطربوا على صوت المزامير والشبابات والألحان المطربات بالتوقعات والنغمات، فمن أضل سبيلاً ممن يدعي محبة الله، ويزعم أنه يتقرب إليه بهذا السماع الشيطاني الذي هو حظ النفس والشيطان^(٤).

وقوله: ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها. فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها: محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة، فليست محبتكم حاصلة، ومحبته لكم منتفية^(٥).

فالمحبون ثلاثة أقسام: منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلى أقسام المحبين^(٦).

* * *

(٢) روضة المحبين (٢٥١).

(١) بدائع الفوائد (٦٩/٣).

(٤) الكلام عن مسألة السماع (١٤٧).

(٣) الطبري (٢٣٢/٣).

(٦) روضة المحبين (ص ٢٨٤).

(٥) مدارج السالكين (٢٢/٣).

قوله تعالى: ﴿يَمْرِيئُ أَقْنِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].
قال [بعضهم]: السجود كان في دينهم قبل الركوع، وهذا قائل ما لا علم له به.
والذي يظهر في الآية، والله أعلم بمراده من كلامه: أنها اشتملت على مطلق
العبادة وتفصيلها، فذكر الأعم، ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص
فذكر القنوت أولاً، وهو الطاعة الدائمة فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع
الطاعة، ثم ذكر ما هو أخص منه، وهو السجود الذي يشرع وحده كسجود الشكر،
والتلاوة ويشرع في الصلاة، فهو أخص من مطلق القنوت، ثم ذكر الركوع الذي لا
يشرع إلا في الصلاة فلا يسن الإتيان به منفرداً فهو أخص مما قبله، ففائدة الترتيب
النزول من الأعم إلى الأخص إلى أخص منه، وهما طريقتان معروفتان في الكلام
النزول من الأعم إلى الأخص وعكسها، وهو الترتيب من الأخص إلى ما هو أعم
منه إلى ما هو أعم، ونظيرها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَأَسْجُدُوا وَعَبَدُوا
رَبَّكُمْ وَأَقْعُوا الْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧]، فذكر أربعة أشياء أخصها الركوع ثم السجود
أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ
أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].
قال قتادة: «كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم فتشاح عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا
عليها بسهامهم، أيهم يكفلها، ففرغ زكريا، وكان زوج أختها، فضمها إليه»^(٢).
وروي نحوه عن مجاهد، وقال ابن عباس: «لما وضعت مريم في المسجد اقترع
عليها أهل المصلى، وهم يكتبون الوحي، فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها»^(٣)،
وهذا متفق عليه بين أهل التفسير^(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كَفَرُوا وَرَافِعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهَّرَكَ مِنْ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

(١) بدائع الفوائد (١/٨٠، ٨١).

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣/٢٦٧، ٢٦٨).

(٣) الطبري (٣/٢٦٨). (٤) الطرق الحكمية (٢٩٤).

لما كان للنصارى نصيب ما من اتباعه كانوا فوق اليهود إلى يوم القيامة، ولما كان المسلمون أتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى إلى يوم القيامة^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين بمجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعاً لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم، ووجود حواء من غير أم؟ فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَتَاهَلُ الْكُتُبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ يَتَاهَلُ الْكُتُبِ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١].
يعني: تكفرون بالقرآن وبمن جاء به، وأنتم تشهدون بصحته، وبأنه الحق فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧].
في صحيح البخاري، من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله تعالى إليهم يوم القيامة، ولا يزيهم، ولهم عذاب أليم: رجل كان على فضل ماء بالطريق فمنعه ابن السبيل، ورجل بايع إمامه، لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعة بعد العصر، فقال: والذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا فصدقه رجل»، ثم قرأ هذه الآية^{(٤)(٥)}.

* * *

(٢) إعلام الموقعين (١/١٨١).

(٤) رواه البخاري (٢٣٥٨).

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٨٥).

(٣) مفتاح دار السعادة (٩٩).

(٥) زاد المعاد (٤/٤٩٨).

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

قال ابن عباس رضي الله عنه^(١): هم قريظة والنضير ومن دان بدينهم، كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به، وشهدوا له بالنبوة وإنما كفروا بغياً وحسداً. قال الزجاج: أعلم الله ﷻ أنه لا جهة لهدايتهم لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم؛ لأنهم كفروا بعد البينات، ومعنى كيف يهديهم أي: أنه لا يهديهم لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمداً. فمن أين تأتيهم الهداية فإن الذي ترتجى هدايته من كان ضالاً ولا يدري أنه ضال، بل يظن أنه على الهدى فإذا عرف الهدى اهتدى، وأما من عرف الحق وتيقنه، وشهد به قلبه، ثم اختار الكفر والضلال عليه، فكيف يهدي الله مثل هذا^(٢)؟

* * *

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٣) ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٤) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣ - ٩٥].

تضمنت هذه الآيات بيان كذبهم^(٣) صريحاً في إبطال النسخ؛ فإنه ﷺ أخبر أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل، قبل نزول التوراة، سوى ما حرم إسرائيل على نفسه منه.

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما هو بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم، التي كانت حلالاً لبني إسرائيل، وهذا محض النسخ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾؛ أي: كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة، وهم يعلمون ذلك. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، هل تجدون فيها أن إسرائيل حرم على نفسه ما حرّمته التوراة عليكم؟

(١) في الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه: «أنها نزلت في رجل من الأنصار»، وله قول آخر: «إنها نزلت في أهل الكتاب». الطبري (٣/ ٣٤٠، ٣٤١). أسباب النزول للواحدى (٨٣).

(٢) مفتاح دار السعادة (٩٩، ١٠٠). (٣) أي: اليهود.

أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة، وإذا كان إنما حرم هذا وحده، وكان سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيراً منه، ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع والحجر على الله تعالى في نسخها، فتأمل هذا الموضوع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين، وما وردوه.

وهذا أولى من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم، بأن التوراة حرمت أشياء كثيرة من المناكح والذبائح والأفعال والأقوال، وذلك نسخ لحكم البراءة الأصلية، فإن هذه المناظرة ضعيفة جداً، فإن القوم لم ينكروا دفع البراءة الأصلية بالتحريم والإيجاب؛ إذ هذا شأن كل الشرائع، وإنما أنكروا تحريم ما أباحه الله تعالى فيجعله حراماً، أو تحليل ما كان حرمه فيجعله مباحاً، وأما رفع البراءة والاستصحاب فلم ينكره أحد من أهل الملل^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

«حج البيت» مبتدأ، وخبره في أحد المجرورين قبله.

والذي يقتضيه المعنى: أن يكون في قوله على الناس؛ لأنه وجوب، والوجوب يقتضي «على».

ويجوز أن يكون في قوله: «ولله»؛ لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق.

ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في

نية التأخير، وكان الأحق أن يكون «ولله»، ويرجح الوجه الأول بأن يقال: قوله:

«حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج

البيت لله» أي: حق واجب لله، فتأمل.

وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول، وليس بخبر، فائدتان:

إحدهما: أنه اسم للموجب للحج؛ فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب؛

فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع. أحدها: الموجب لهذا الغرض

فبدئ بذكره. والثاني: مؤدي الواجب، وهو المفترض عليه وهم الناس. والثالث:

النسبة والحق المتعلق به إيجاباً، وبهم وجوباً وأداءً وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان لله اسماً سبحانه؛ وجب

(١) إغائة اللهفان (٣٢١، ٣٢٢).

الاهتمام بتقدمه تعظيماً لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفاً من تضييعه إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما أوجبه غيره.

□ □ □

وأما قوله: «من» فهي بدل:

وقد استهوى طائفة من الناس القول: بأنها فاعل المصدر كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهذا القول يضعف من وجوه:

منها: أن الحج فرض عين ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية؛ لأنه إذا حج المستطيعون؛ برئت ذمم غيرهم لأن المعنى يؤول إلى: والله على الناس أن يحج البيت مستطيعهم فإذا أدى المستطيعون الواجب؛ لم يبق واجباً على غير المستطيعين. وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب فلا يؤاخذ به، ولا يطالبه بأدائه. فإذا حج أسقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط للفرض عن العاجزين.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان «من» هو الفاعل لأضيف المصدر إليه، وكان يقال: والله على الناس حج من استطاع، وحمله على باب: يعجبني ضرب زيدا عمرو؛ مما يفصل به بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول، والظرف حمل على المكثور - المرجوح، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم)، بفتح الدال ﴿شُرَكَاءُ لَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، فلا يصار إليه.

وإذا ثبت أن «من» بدل بعض من كل؛ وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى الناس، كأنه قيل: من استطاع منهم، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه ها هنا أمور:

منها: أن «من» واقعة على من يعقل كالاسم المبدل منه فارتبطت به.

ومنها: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد، ومثال ذلك (إذا قلت): رأيت إخوتك من ذهب إلى السوق. تريد من ذهب منهم لكان قبيحاً، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة، وكذلك لو قلت: ألبس الثياب ما حسن وجمل، تريد (منها)، ولم تذكر الضمير لكن أبعد في الجواز؛ لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب.

وباب بدل البعض من الكل: أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيدته بضمير يعود إلى الأول؛ ارتفع العموم وبقي الخصوص، ومما حسن حذف الضمير في هذه الآية أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول.

□ □ □

وأما المجرور من قوله: «إليه» فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون في موضع حال من سبيل، كأنه نعت نكرة قدم عليها لأنه لو تأخر؛ لكان في موضع النعت لسبيل.

الثاني: أن يكون متعلقاً بسبيل (فإن قيل): كيف يتعلق به، وليس فيه معنى الفعل؟ قيل: لما السبيل كان ها هنا عبارة عن الموصل إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصلح تعلق المجرور به، واقتضى حسن النظم، وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير؛ لأنه ضمير يعود على البيت، والبيت هو المقصود به الاعتناء، وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وبيانه أعنى، هذا تعبير السهيلي، وهو بعيد جداً. بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين، ولا يليق بالآية سواه: وهو الوجوب المفهوم من قوله: (على الناس)؛ أي: يجب على الناس الحج فهو حق واجب، وأما تعليقه بالسبيل أو جعله حالاً منها ففي غاية البعد؛ فتأمل، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما يقول: الله عليك الحج، والله عليك الصلاة والزكاة.

ومن فوائد الآية وأسرارها: أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي وهو الأكثر، أو بلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفْرًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي الحج أتى بهذا النظم الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه:

أحدها: أنه قدم اسمه تعالى.

وأدخل عليه لام الاستحقاق، والاختصاص.

ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف (على).

ثم أبدل منه أهل الاستطاعة.

ثم نكر السبيل في سياق الشرط؛ إيذاناً بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت

من قوت أو مال فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: بعدم التزام هذا الواجب وتركه.

ثم عظم الشأن، وأكد الوعيد بإخباره باستغناؤه عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد.

وإنما في ذكر استغناؤه عنه هنا من الإعلام بمقتته له، وسخطه عليه، وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم التهديد وأبلغه.

ثم أكد ذلك بذكر اسم رب العالمين عموماً، ولم يقل: فإن الله غني عنه؛ لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد بكل اعتبار، وكان أدل على عظم مقتته لتارك حقه الذي أوجهه عليه.

ثم أكد هذا المعنى بأداة (إن) الدالة على التوكيد.

فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكيد هذا الفرض العظيم.

وتأمل سر البديل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين: مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البديل: تقوية المعنى، وتأكيد به بتكرار الإسناد، ولهذا كان في نية تكرار العامل وإرادته.

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وحلتين اعتناء به، وتأكيداً لشأنه.

□ □ □

ثم تأمل، كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه، بما يدعو النفوس إلى قصده وحجه، وإن لم يطلب ذلك، منها: فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَقَّامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. فوصفه بخمس صفات.

أحدها: أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض.

الثاني: أنه مبارك والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه، ولا أكثر خيراً ولا أودم وأنفع للخلائق.

الثالث: أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه هو نفس الهدى.

الرابع: ما تضمنه من الآيات البيّنات التي تزيد على أربعين آية.

الخامس: الأمن لداخله.

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده، ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار، وتناوت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدل على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره.

ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً. وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباً له، وشوقاً إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطراً أبداً، كلما ازدادوا له زيارة؛ ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً فلا الوصال يشفيهم، ولا البعاد يسليهم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].
وقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].
والاعتصام: افتعال من العصمة وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية، والاعتصام: الاحتماء. ومنه سميت القلاع: العواصم لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به: يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها؛ فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيلاً بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتهما.

فالاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية، واتباع الدليل والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يسلم بها في طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.
فالاعتصام به نوعان:

(١) بدائع الفوائد (٢/٤٢ - ٤٦).

اعتصام توكل واستعانة وتفويض ولجأ وعباد، وإسلام النفس إليه، والاستسلام له سبحانه.

والثاني: اعتصام بوحيه، وهو تحكيمة دون آراء الرجال ومقاييسهم..
فالدين كله في الاعتصام به وبحبله، علماً وعملاً، وإخلاًصاً واستعانة ومتابعة، واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة^(١).
فقال ابن عباس: تمسكوا بدِين الله.

وقال ابن مسعود: هو الجماعة. وقال: عليكم بالجماعة. فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة.
وقال مجاهد وعطاء: «بعهد الله»، وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: «هو القرآن». قال ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذا القرآن هو حبل الله، ونوره المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه»^(٢)، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن: «هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء. ولا تختلف به الألسن، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء»^(٣). وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

وفي الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً. يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»^(٤)، رواه مسلم في الصحيح^(٥).

* * *

(١) مدارج السالكين (٣/٣٢٣).

(٢) ضعيف. رواه الدارمي (٣٣١٨) في فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن، وعبد الرزاق (٣/٣٧٥) برقم (٦٠١٧)، والطبراني في الكبير (٩/١٣٩) رقم (٨٦٤٦)، وفي جميعها «مسلم بن إبراهيم الهجري»: «متروك». انظر: التهذيب (١/١٦٤)، والمجروحين (١/١٠٠)، وميزان الاعتدال (١/٦٥).

(٣) ضعيف، رواه الترمذي (٢٩٠٦). (٤) رواه مسلم (١٧١٥)، والموطأ (٩٩٠).

(٥) مدارج السالكين (١/٤٦٠، ٤٦١).

قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فخص هؤلاء بالفلاح دون من عداهم، والداعون إلى الخير هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا الداعون إلى رأي فلان وفلان^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١].

المعنى: لن ينالوا منكم إلا أذى، وأما الضرر فإنهم لن ينالوه منكم، ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضُرُّكُمْ كَيْدَهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فنفى لحوق ضرر كيدهم بهم مع أنهم لا يسلمون من أذى يلحقهم بكيدهم، ولو أنه بالإرهاب والكلام والجائهم إلى محاربتهم وما ينالهم بها من الأذى، والتعب ولكن ليس ذلك بضارهم. ففرق بين الأذى والضرر^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُعْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦، ١١٧].

هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته، فشبّه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر، وكسب الثناء وحسن الذكر، لا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره، فأصابته ريح شديدة البرد جداً يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرع وأبيسته.

واختلف في الصرّ، فقيل: البرد الشديد، وقيل: النار، قاله ابن عباس.

قال ابن الأنباري: وإنما وصفت النار بأنها صرّ لتعديتها عند الالتهاب.

وقيل: الصرّ: الصوت الذي يصحب الريح من شدة هبوبها، والأقوال الثلاثة

متلازمة، فهو برد شديد محرق يبسه للحرث كما تحرقه النار، وفيه صوت شديد.

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٢٢٤).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٧٢).

وفي قوله: ﴿أَصَابَتْ حَرَّتَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، تنبيه على أن سبب إصابته لحرثهم هو ظلمهم، فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة، حتى أهلكت زرعهم وأبيسته، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

في الصحيحين عن أبي حازم أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: والله إنني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكب الماء.. كانت فاطمة ابنته تغسله وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، فألصقتها، فاستمسك الدم^(٢).

وفي الصحيح أنه كسرت رباعيته، وشج رأسه وجعل يسלט الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعو إلى الله؟»^(٣).
فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية^(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَطِيبِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مَّغْفِرَةٍ إِلَّا أَلا اللَّهُ وَلَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَآ فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

فأخبر أنه أعد الجنة للمتقين دون غيرهم، ثم ذكر أوصاف المتقين فذكر بذلهم للإحسان في حالة العسر واليسر، والشدة والرخاء. فإن من الناس من يبذل في حال اليسر والرخاء، ولا يبذل في حال العسر والشدة. ثم ذكر كفاذاهم عن

(١) إلام الموقعين (١/٢٤١، ٢٤٢).

(٢) رواه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠).

(٣) رواه مسلم (١٧٩١).

(٤) زاد المعاد (٣/٢٠٥ - ٢٠٦).

الناس بحبس الغيظ بالكظم، وحبس الانتقام بالعفو، ثم ذكر حالهم بينهم وبين ربهم في ذنوبهم، وأنها إذا صدرت منهم قابلوها بذكر الله والتوبة والاستغفار وترك الإصرار، فهذا حالهم مع الله وذاك حالهم مع خلقه^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

أي: قد كان من قبلكم أمم أمثالكم فانظروا إلى عواقبهم السيئة، واعلموا أن سبب ذلك ما كان من تكذيبهم بآيات الله ورسله، وهم الأصل وأنتم الفرع، والعلة الجامعة للتكذيب، والحكم الهلاك^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦) **إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَجٌ مَسَّ الْقَوْمَ فَارْحُ مِثْلَهُ** وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٣٧) **وَلِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكٰفِرِينَ** (١٣٨) **أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** (١٣٩) **وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نٰظِرُونَ** ﴿ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤٣].

إن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم، وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم. فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم. وقد ذكر ﷻ ذلك في [هذه الآية]:

فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكمة الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَارْحُ مِثْلَهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فقد استويتم في القرع والألم، وتباينت في الرجاء والثواب. كما قال: ﴿إِنْ تَكُونُوا

(١) حادي الأرواح (١٠٢، ١٠٣). (٢) إعلام الموقعين (١/١٨١).

تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴿١٠٤﴾ [النساء: ١٠٤].
فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرع والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان،
وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يُدَوِّلُ أيامَ هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عَرَضٌ حَاضِرٌ.
يقسمها دُولاً بين أوليائه وأعدائه بخلاف الآخرة، فإن عَزَّها ونصرها ورجاءها
خالصٌ للذين آمنوا.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم عِلْمَ رُؤْيَةٍ
ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثوابٌ
ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في
الحس.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي اتخاذها سبحانه منهم شهداء، فإنه يُحِبُّ الشهداء من
عباده، وقد أعدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بدَّ أن ينيلهم
درجة الشهادة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. تنبيه لطيف الموقع جداً على
كراهته وبغضه للمنافقين الذين انحَدَلُوا عن نبيه يومَ أحد، فلم يشهدوه، ولم يَتَّخِذُوا
منهم شهداء، لأنه لم يُحِبَّهُمْ، فأركَسَهُمْ، وردَّهم لِيَحْرِمَهُمْ ما خص به المؤمنين في
ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي
وفق لها أوليائه وحزبه.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو
تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، وأيضاً فإنه خلَّصهم ومَحَّصَهُمْ
من المنافقين، فَتَمَيَّزُوا مِنْهُمْ، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم،
وتمحيص ممن كان يُظهِرُ أنه منهم، وهو عدوُّهم.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي محقُّ الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعدوانهم، ثم
أنكر عليهم حُسابانهم، وظنَّهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله، والصبر
على أذى أعدائه، وأن هذا ممتنع بحيث يُنْكَرُ على من ظنه وحسبه. فقال: ﴿أَمْ
حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الْقَادِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].
أي: ولما يَقَعُ ذَلِكَ منكم، فيعلمه، فإنه لو وقع، لعلمه، فجازاكم عليه
بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزي

العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه، ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾.

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، تمنوا قتالاً يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد، وسببه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَصَرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأٌ مُّوجِبٌ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿آل عمران: ١٤٤ - ١٤٦﴾.

إنَّ وقعة أحدٍ كانت مُقدِّمةً وإرهاصاً بين يدي موتِ رسولِ الله ﷺ، فبئسَ لهم، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم أن مات رسول الله ﷺ، أو قُتِلَ، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدون ربَّ محمد، وهو حيٌّ لا يموت، فلو مات محمد أو قُتِلَ؛ لا ينبغي لهم أن يصرَفَهُمْ ذلك عن دينه. وما جاء به، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، وما بُعثَ محمد ﷺ ليُخلدَ لا هوَ ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتَّوحيد، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي، ولهذا وبَّخَهُم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيطان: إنَّ محمداً قد قُتِلَ.

والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قُتِلوا.

فظهر أثرُ هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتدَّ من ارتدَّ على عقبه، وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزَّهم ووظَّفرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لا بُدَّ أن تستوفيه، ثم تلحق به، فيردُّ

الناس كُلُّهُمْ حَوْضَ الْمَنِيَا مَوْرِدًا وَاحِدًا، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ أَسْبَابُهُ، وَيَصْدُرُونَ عَنْ مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ مَصَادِرَ شَتَّى، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ.

ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قُتِلُوا وَقُتِلَ مَعَهُمْ أَتْبَاعٌ لَهُمْ كَثِيرُونَ، فَمَا وَهَنَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِهِ، وَمَا ضَعُفُوا، وَمَا اسْتَكَانُوا، وَمَا وَهَنُوا عِنْدَ الْقَتْلِ، وَلَا ضَعُفُوا، وَلَا اسْتَكَانُوا، بَلْ تَلَقَّوْا الشَّهَادَةَ بِالْقُوَّةِ، وَالْعَزِيمَةِ، وَالْإِقْدَامِ، فَلَمْ يُسْتَشْهِدُوا مُدْبِرِينَ مُسْتَكِينِينَ أَذْلَةَ، بَلْ اسْتَشْهِدُوا أَعَزَّةً كِرَامًا مُقْبِلِينَ غَيْرِ مُدْبِرِينَ.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَوَابٌ أَلَدِيًّا وَحَسَنَ تَوَابٍ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مُوَلِّدُكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧ - ١٥٠].

أخبر سبحانه عما استنصرت به الأنبياء وأمهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم، أن يُثَبِّتَ أَقْدَامَهُمْ، وَأَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ.

ولما علم القوم أن العدو إنما يُدَالُ عَلَيْهِمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يَسْتَزِلُّهُمْ وَيَهْزِمُهُمْ بِهَا، وَأَنَّهَا نَوْعَانِ: تَقْصِيرٌ فِي حَقِّ أَوْ تَجَاوُزٌ لِحَدِّ، وَأَنَّ النَّصْرَةَ مَنْوُطَةٌ بِالطَّاعَةِ، قَالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّ رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنْ لَمْ يُثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ وَيَنْصُرَهُمْ؛ لَمْ يَقْدِرُوا هُمْ عَلَى ثَبَاتِ أَقْدَامِ أَنْفُسِهِمْ، وَنَصْرَهَا عَلَى أَعْدَائِهِمْ، فَسَأَلُوهُ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بِيَدِهِ دُونَهُمْ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يُثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ وَيَنْصُرَهُمْ لَمْ يَثْبُتُوا وَلَمْ يَنْصُرُوا، فَوَفَا الْمَقَامَيْنِ حَقَّهُمَا: مَقَامَ الْمُقْتَضِيِّ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالِالْتِجَاءُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ. وَمَقَامَ إِزَالَةِ الْمَانِعِ مِنَ النَّصْرَةِ، وَهُوَ الذُّنُوبُ وَالْإِسْرَافُ، ثُمَّ حَذَّرَهُمْ سُبْحَانَهُ مِنْ طَاعَةِ عَدُوِّهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِنْ أَطَاعُوهُمْ خَسِرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَفِي ذَلِكَ تَعْرِيفٌ بِالْمَنَافِقِينَ الَّذِينَ أَطَاعُوا الْمُشْرِكِينَ لَمَّا انْتَصَرُوا وَظَفَرُوا يَوْمَ أَحُدٍ.

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمن والاه فهو المنصور.

* * *

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ

صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعَدَّهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ [آل عمران: ١٥١، ١٥٢].

أخبرهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهجوم عليهم، والإقدام على حربهم، وأنه يؤيد حزبه بجند من الرعب ينتصرون به على أعدائهم، وذلك الرعب بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله. وعلى قدر الشرك يكون الرعب؛ فالمشرك بالله أشد شيء خوفاً ورعباً، والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بالشرك، لهم الأمن والهدى والفلاح، والمشرك له الخوف والضلال والشقاء.

ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده في نصرتهم على عدوهم، وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة، ولزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقوا مركزهم؛ فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصرة؛ فصرفهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاءً، وتعريفاً لهم بسوء عواقب المعصية، وحسن عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذو فضل على عباده المؤمنين.

قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلط عليهم أعداءهم حتى قتلوا منهم من قتلوا، ومثلوا بهم، ونالوا منهم ما نالوه؟ فقال: لولا عفوهم عنهم، لاستأصلهم، ولكن بعفوه عنهم دفع عنهم عدوهم بعد أن كانوا مجتمعين على استئصالهم.

وقال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾. وهذا خطاب للذين شهدوا معه الواقعة ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا، حتى كان يوم أحد، ونزلت هذه الآية»، والذين أريدوا بهذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز، والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون^(١).

* * *

(١) عدة الصابرين (١٦٦، ١٦٧).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصَوِّرُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي
أُخْرَانِكُمْ فَأَثَابِكُمْ غَمًّا يَغْمِرُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا
أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

ثم ذكّرهم بحالهم وقت الفرارِ مصعدين، أي: جادين في الهربِ، والذهابِ في
الأرضِ، أو صاعدين في الجبلِ لا يَلْوُونَ على أحد من نبيهم ولا أصحابهم،
والرسولُ يدعوهم في أخراهم: إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، أنا رسولُ الله، فأثابهم بهذا الهربِ
والفرارِ، غمًّا بعدَ غَمٍّ: غَمُّ الهزيمة والكسرة، وغَمٌّ صرخةُ الشيطانِ فيهم: بأن
محمدًا قد قتل.

وقيل: جازاكم غمًّا بما غمّتم رسولَه بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوّه،
فالغَمُّ الذي حصل لكم جزاءً على الغم الذي أوقعتموه بنبيه، والقولُ الأوّلُ أظهر
لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ تنبيهٌ
على حكمة هذا الغم بعد الغمِّ، وهو أن يُنسيهم الحزنَ على ما فاتهم من الظفرِ،
وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراحِ، فنسوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصلُ
بالغمِّ الذي يعقبُه غمٌ آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنه حصلَ لهم غمُّ فوات الغنيمة، ثم أعقبه غمُّ
الهزيمة، ثم غمُّ الجراح التي أصابتهم، ثم غمُّ القتلِ، ثم غمُّ سماعهم أن
رسول الله ﷺ قد قُتِلَ، ثم غمُّ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد
غمّين اثنين خاصة، بل غمًّا متتابعًا لتمام الابتلاء والامتحان.

الثالث: أن قوله: «بغم» من تمام الثوابِ، لا أنه سببُ جزاء الثواب. والمعنى:
أثابكم غمًّا متّصلاً بغم، جزاءً على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيهم ﷺ
وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم،
وتنازعتهم في الأمر وفشلهم، وكلُّ واحد من هذه الأمور يُوجب غمًّا يخصُّه،
فترادفت عليهم الغمومُ، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها، ولولا أن تداركهم
بعفوه؛ لكان أمرًا آخرَ ومن لطفه بهم، ورأفته، ورحمته، أن هذه الأمور التي
صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من
النصرة المستقرة؛ فقيضَ لهم بلطفه أسباباً أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتّب
عليها آثارها المكروهة؛ فعملوا حينئذٍ أن التوبة منها والاحترازُ من أمثالها، ودفعها

بأضدادها أمرٌ متعينٌ، لا يتم لهم الفلاحُ والنصرة الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشدَّ حذراً بعدها، ومعرفةً بالأبواب التي دخل عليهم منها، وربما صحَّت الأجسامُ بالعللِ.

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته، وخفف عنهم ذلك الغم، وغيبه عنهم بالنعاس الذي أنزله عليهم أمناً منه ورحمة، والنعاسُ في الحرب علامةُ النصر والأمين، كما أنزله عليهم يوم بدر، وأخبر أن من لم يُصبه ذلك النعاسُ، فهو ممن أهمته نفسه لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه، وأنهم يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ الجاهلية.

وقد فسَّرَ هذا الظنُّ الذي لا يليقُ بالله: بأنه سبحانه لا ينصُرُ رسوله، وأن أمره سيضمحلُّ، وأنه يُسلمه للقتل، وقد فسَّرَ بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ويظهره على الدين كله، وهذا هو ظنُّ السوء الذي ظنَّه المنافقون والمشركون به ﷺ في (سورة الفتح)؛ حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وإنما كان هذا ظنُّ السوء، وظنُّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنُّ غير الحق، لأنه ظنُّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلَيَا، وذاته المبرأة من كلِّ عيبٍ وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفردِهِ بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يُخلفُهُ وبكلمته التي سبقت لرسوله أنه ينصُرهم ولا يخذلهم، ولجندِه بأنهم همُّ الغالبين، فمن ظنَّ بأنه لا ينصُرُ رسوله، ولا يتمُّ أمره، ولا يؤيده، ويؤيد حزيه، ويُعليهم، ويظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصُرُ

دينه وكتابه، وأنه يُدِيلُ الشَّرْكَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقْرَةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا التَّوْحِيدَ وَالْحَقَّ اضْمَحْلَالاً لَا يَقُومُ بَعْدَهُ أَبَداً؛ فَقَدْ ظَنَّ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّءِ، وَنَسَبَهُ إِلَى خِلَافِ مَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ، وَصِفَاتِهِ وَنَعْوَتِهِ، فَإِنَّ حَمْدَهُ وَعِزَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَالْهِيبَةَ تَأْبَى ذَلِكَ، وَتَأْبَى أَنْ يَذِلَّ حِزْبُهُ وَجُنْدُهُ، وَأَنْ تَكُونَ النِّصْرَةُ الْمُسْتَقْرَةَ، وَالظُّفْرُ الدَّائِمُ لِأَعْدَائِهِ الْمَشْرِكِينَ بِهِ، الْعَادِلِينَ بِهِ.

فَمَنْ ظَنَّ بِهِ ذَلِكَ، فَمَا عَرَفَهُ، وَلَا عَرَفَ أَسْمَاءَهُ، وَلَا عَرَفَ صِفَاتِهِ وَكَمَالَهُ، وَكَذَلِكَ مِنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، فَمَا عَرَفَهُ، وَلَا عَرَفَ رُبُوبِيَّتَهُ، وَمَلَكَهُ وَعَظَمَتَهُ، وَكَذَلِكَ مِنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدْرًا مَا قَدَّرَهُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ لِحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَغَايَةِ مَحْمُودَةٍ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ عَلَيْهَا، وَأَنْ ذَلِكَ إِنَّمَا صَدَرَ عَنْ مَشِيئَةٍ مُجْرَدَةٍ عَنْ حِكْمَةٍ، وَغَايَةِ مَطْلُوبَةٍ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ فَوْتِهَا، وَأَنْ تِلْكَ الْأَسْبَابُ الْمَكْرُوهَةُ الْمَفْضِيَّةُ إِلَيْهَا لَا يَخْرُجُ تَقْدِيرُهَا عَنِ الْحِكْمَةِ لِإِفْضَائِهَا إِلَى مَا يُحِبُّ، وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُوهَةً لَهُ، فَمَا قَدَّرَهَا سُدَى، وَلَا أَنْشَأَهَا عَيْثًا، وَلَا خَلَقَهَا بِاطْلًا. ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنُّ السَّوِّءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ، وَعَرَفَ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَعَرَفَ مُوجِبَ حَمْدِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَمَنْ قَنِطَ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَيْسَرَ مِنْ رُوحِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنُّ السَّوِّءِ^(١).

(١) قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ فِي تِمَّةِ كَلَامِهِ السَّابِقِ: وَمَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْذَبَ أَوْلِيَاءَهُ مَعَ إِحْسَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ، وَيَسُوِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنُّ السَّوِّءِ. وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنْ يَتْرَكَ سُدَى، مَعْظَلِينَ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَلَا يُرْسَلُ إِلَيْهِمْ رِسْلُهُ، وَلَا يَنْزَلُ عَلَيْهِمْ كِتَابُهُ، بَلْ يَتْرَكُهُمْ هَمَلًا كَالْأَنْعَامِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنُّ السَّوِّءِ. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَجْمَعَ عَيْبَتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي دَارِ يُجَازِي الْمَحْسَنَ فِيهَا بِإِحْسَانِهِ، وَالْمَسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَيَبِينُ لَخَلْقِهِ حَقِيقَةَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَيُظَهِّرُ لِلْعَالَمِينَ كُلَّهُمْ صِدْقَهُ وَصِدْقَ رِسْلِهِ، وَأَنْ أَعْدَاءَهُ كَانُوا هُمُ الْكَاذِبِينَ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنُّ السَّوِّءِ. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُضَيِّعُ عَلَيْهِ عَمَلَهُ الصَّالِحَ الَّذِي عَمَلَهُ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَيُطْلَعُهُ عَلَيْهِ بِسَبَبِ مِنَ الْعَبْدِ، أَوْ أَنَّهُ يُعَاقِبُهُ بِمَا لَا صُنْعَ فِيهِ، وَلَا اخْتِيَارَ لَهُ، وَلَا قُدْرَةَ، وَلَا إِرَادَةَ فِي حَصُولِهِ، بَلْ يُعَاقِبُهُ عَلَى فِعْلِهِ هُوَ سَبْحَانَهُ بِهِ، أَوْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَيِّدَ أَعْدَاءَهُ الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ بِالْمَعْجَزَاتِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا أَنْبِيََاءَهُ وَرِسْلَهُ، وَيُجْرِيهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ يُضِلُّونَ بِهَا عِبَادَهُ، وَأَنَّهُ يَحْسُنُ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى تَعْذِيبَ مِنْ أَفْنَى عَمْرِهِ فِي طَاعَتِهِ، فَيُخَلِّدَهُ فِي الْجَحِيمِ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ، وَيُنْعِمُ مِنْ اسْتِنْفَادِ عُمُرِهِ فِي عِدَاوَتِهِ وَعِدَاوَةِ رِسْلِهِ وَدِينِهِ، فَيَرْفَعُهُ إِلَى =

أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبْح أحدهما وحسن الآخر؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ .

ومن ظنَّ به أنه أخبرَ عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيهه، وتمثيل، وترك الحقِّ، لم يخبر به، وإنما رَمَزَ إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشاراتٍ مُلغِزةً لم يُصرِّح به، وصرَّح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريفِ كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يُصرِّح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويربيحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل . بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ، فإنه إن قال: إنه غيرُ قادرٍ على التعبير عن الحقِّ باللفظ الصريح الذي عبَّرَ به هو وسلفه، فقد ظنَّ بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادرٌ ولم يُبين، وعدَّلَ عن البيان، وعن التصريح بالحقِّ إلى ما يُوهم، بل يُوقِعُ في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظنَّ بحكمته ورحمته ظنَّ السَّوءِ، وظنَّ أنه، هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه ذونَ الله ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله، فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهر كلام المتهوِّكين الحيارى، هو الهدى والحق، وهذا من أسوأ الظن بالله، فكلُّ هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية .

ومن ظنَّ به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يَقْدِرُ على إيجاده وتكوينه، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء .

ومن ظنَّ به أنه كان مُعْظَلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يُوصَفُ حينئذٍ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ .

ومن ظنَّ به أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السموات والأرض، ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ .

ومن ظنَّ أنه لا سمع له، ولا بصر، ولا علم له، ولا إرادة، ولا كلام يقول به، وأنه لم يكلم أحداً من الخلق، ولا يتكلَّم أبداً، ولا قال ولا يقول، ولا له أمرٌ ولا نهي يقوم به، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ .

ومن ظنَّ به أنه فوق سماواته على عرشه بائناً من خلقه، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين، وإلى الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفل، كما أنه أعلى، فقد ظنَّ به أقبِح الظنِّ وأسوأه .

ومن ظنَّ به أنه يُحبُّ الكفر، والفسوق، والعصيان، ويحبُّ الفساد كما يُحبُّ الإيمان، والبر، والطاعة، والإصلاح، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ .

ومن ظَنَّ به أنه لا يُحِبُّ ولا يَرْضَى، ولا يَعْضِب ولا يَسْخَط، ولا يُؤَالِي ولا يُعَادِي، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين، فقد ظَنَّ به ظَنُّ السَّوءِ.

ومن ظَنَّ أنه يُسوي بين المتضادِّين، أو يفرِّق بين المتساويين من كل وجه، أو يُحِبِّط طاعاتِ العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويُحِبِّط بها جميع طاعاته ويُحَلِّدُها في العذاب، كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظَنَّ به ظَنُّ السَّوءِ.

وبالجملة فمن ظَنَّ به خِلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفته به رُسله، فقد ظَنَّ به ظن السَّوءِ.

ومن ظن أن له ولداً، أو شريكاً، أو أن أحداً يشفعُ عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصَّبَ لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم، ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم فقد ظَنَّ به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقرب إليه، فقد ظَنَّ به خلاف حِكْمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السَّوءِ.

ومن ظَنَّ به أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يُعَوِّضه خيراً منه، أو من فعل لأجله شيئاً لم يُعْطِه أفضل منه؛ فقد ظَنَّ به ظن السَّوءِ.

ومن ظَنَّ به أنه يغضب على بعده، ويُعاقبه ويحرمه بغير جرم؛ ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة، ومحض الإرادة، فقد ظَنَّ به ظن السَّوءِ.

ومن ظَنَّ به أنه إذا صدقه في الرغبة والرغبة، وتضرَّع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكل عليه أنه يُحْيِيهِ ولا يُعْطِيهِ ما سأله؛ فقد ظَنَّ به ظن السَّوءِ، وظَنَّ به خلاف ما هو أهله.

ومن ظَنَّ به أنه يُثْبِتُه إذا عصاه بما يُثْبِتُه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه، فقد ظَنَّ به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبته، وأسخطه، وأوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه ولياً، ودعا من دونه ملكاً، أو بشراً حياً، أو ميتاً، يرجو بذلك أن ينفعه عند ربِّه، ويُخَلِّصَه من عذابه، فقد ظَنَّ به ظن السَّوءِ، وذلك زيادة في بعده من الله، وفي عذابه.

ومن ظَنَّ به أنه يُسَلِّطُ على رسوله محمد ﷺ أعداءهُ تسليطاً مستقراً دائماً في حياته وفي مماته وابتلاه بهم لا يُفارقونه، فلما مات استبدُّوا بالأمر دون وصية، وظلموا أهل بيته، وسلَّبُوهم حقَّهم، وأذلَّوهم، وكانت العزَّة والغلبة والقهر لأعدائِهِ وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأوليائه، وأهل الحق، وهو يرى قهرهم لهم، وغضبهم إياهم حقَّهم، وتبدلهم دينَ نبيهم، وهو يقدر على نصرته وأوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصُرهم ولا يُبدلهم، بل يُبدل أعداءهم عليهم أبداً، أو أنه لا يقدرُ على ذلك، بل حصل هذا بغير قُدْرته ولا

فليعتن اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضع، وليتُبَّ إلى الله تعالى وليستغفره كلَّ وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوءَ بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبُع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدلِ العادلين، وأرحمِ الراحمين، الغنيِّ الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزَّه عن كل سوء في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه، والمقصود ما ساقنا إلي هذا الكلام من قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنِ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾. وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا﴾. فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر، ورد الأمر كُلِّه إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى، لما ذموا عليه، ولما حَسُنَ الرَّدُّ عليه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، ولا كان مصدرُ هذا الكلام ظَنَّ الجاهلية.

ولهذا قال غيرُ واحد من المفسرين: إن ظَنَّهُم الباطل ها هنا: هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعاً لهم

= مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجيعه في حفرته، تُسَلِّمُ أَمَّتَهُ عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الراضئة، فقد ظنَّ به أقبح الظنِّ وأسوأه، سواء قالوا: إنه قادرٌ على أن ينصرهم، ويجعل لهم الدولة والظفرَ، أو أنه غيرُ قادرٍ على ذلك، فهم قادِحون في قدرته، أو في حِكْمَتِهِ وحمده، وذلك مِن ظَنِّ السوءِ به، ولا ريب أن الربَّ الذي فعل هذا بغِيضٍ إلى من ظن به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجبُ أن يفعل خلاف ذلك، لكن رَفَوْا هذا الظنَّ الفاسدَ بخرقِ أعظم منه، واستجاروا من الرَّمْضاءِ بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرةٌ على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يَقْدِرُ على أفعال عباده، ولا هي داخلَةٌ تحت قدرته، فظنُّوا به ظنَّ إخوانهم المجوسِ والشنويةِ بربهم، وكل مبطل، وكافر، ومبتدع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، وأنه أولى بالنصر والظفر، والعلو من خصومه، فأكثر الخلق، بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ السوء، فإن غالب بني إدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقضُ الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاهُ الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربِّي، ومنعني ما أستحقُّه، ونفسه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به، ومن فَتَشَ نفسه، وتغلغل في معرفة دفاتنها وطواياها، رأى ذلك فيها كاميناً كُمونَ النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت يُنبئك شرَّاره عما في زناده، ولو فَتَشْتَ من فتشته، لرأيت عنده تعبُّباً على القدر وملامة له، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستَقِلٌّ ومستَكْبِرٌ، وفتشَ نفسك، هل أنت سالم من ذلك؟

يسمعون منهم، لما أصابهم القتل، ولكان النصر والظفر لهم، فأكذبهم الله ﷻ في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بُد من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم، لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرى به علمه وكتابه السابق، وما شاء الله كان ولا بُد، شاء الناس أم أبوا، وما لم يشأ لم يكن، شاءه الناس أم لم يشأوه، وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل، فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلى دفعه، سواء كان لكم من الأمر شيء، أو لم يكن لكم، وأنكم لو كنتم في بيوتكم، وقد كتب القتل، على بعضكم لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بُد، سواء كان لهم من الأمر شيء، أو لم يكن، وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدرية النفاة، الذين يجوزون أن يقع ما لا يشأه الله، وأن يشاء ما لا يقع.

ثم أخبر سبحانه عن حكمة أخرى في هذا التقدير، هي ابتلاء ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمان والنفاق، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيماناً وتسليماً والمنافق ومن في قلبه مرض، لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

ثم ذكر حكمة أخرى: وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه، فإن القلوب يُخالطها بغلبات الطائع، وميل النفوس، وحكم العادة، وتزيين الشيطان، واستيلاء الغفلة ما يضاؤ ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة، لم تتخلص من هذه المخالطة، ولم تتمحص منه، فاقترضت حكمة العزيز أن قيض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك، فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل من قتل منهم، تُعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأبيدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا

مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخِيءُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٥﴾ [آل عمران: ١٥٥، ١٥٦].

ثم أخبر ﷺ عن تَوَلَّى مَنْ تَوَلَّى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَأَنَّهُ بِسَبَبِ كَسْبِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، فَاسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ حَتَّى تَوَلَّوْا، فَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ جَنْدًا عَلَيْهِمْ، أَزْدَادَ بِهَا عَدُوَّهُمْ قُوَّةً.

فَإِنَّ الْأَعْمَالَ جَنْدَ لِلْعَبْدِ وَجَنْدٌ عَلَيْهِ، وَلَا بُدَّ. فَلِلْعَبْدِ كُلِّ وَقْتٍ سَرِيَّةٌ مِنْ نَفْسِهِ تَهْزُمُهُ، أَوْ تَنْصُرُهُ، فَهُوَ يُمَدُّ عَدُوَّهُ بِأَعْمَالِهِ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ أَنَّهُ يِقَاتِلُهُ بِهَا، وَيَبْعَثُ إِلَيْهِ سَرِيَّةً تَغْزُوهُ مَعَ عَدُوِّهِ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ أَنَّهُ يَغْزُو عَدُوَّهُ؛ فَأَعْمَالُ الْعَبْدِ تَسْوِقُهُ قَسْرًا إِلَى مَقْتَضَائِهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْعَبْدُ لَا يَشْعُرُ أَوْ يَشْعُرُ وَيَتَعَامَى، فَفِرَارُ الْإِنْسَانِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَهُوَ يُطِيقُهُ إِنَّمَا هُوَ جَنْدٌ مِنْ عَمَلِهِ، بَعَثَهُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَاسْتَزَلَّهُ بِهِ.

ثم أخبر سبحانه: أَنَّهُ عَفَا عَنْهُمْ، لِأَنَّ هَذَا الْفِرَارَ لَمْ يَكُنْ عَنْ نِفَاقٍ وَلَا شَكٍّ، وَإِنَّمَا كَانَ عَارِضًا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، فَعَادَتْ شَجَاعَةُ الْإِيمَانِ وَثَبَاتُهُ إِلَى مَرْكَزِهَا وَنَصَابِهَا، ثُمَّ كَرَّرَ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ: أَنَّ هَذَا الَّذِي أَصَابَهُمْ إِنَّمَا أَتَوْا فِيهِ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ، وَبِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ، فَقَالَ: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وَذَكَرَ هَذَا بَعِينَهُ فِيمَا هُوَ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ فِي السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسْرَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيْئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

فَالْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ هَاهُنَا: النِّعْمَةُ وَالْمُصِيبَةُ، فَالنِّعْمَةُ مِنَ اللَّهِ مَنْ بِهَا عَلَيْكَ، وَالْمُصِيبَةُ إِنَّمَا نَشَأَتْ مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ وَعَمَلِكَ، فَالْأَوَّلُ فَضْلُهُ، وَالثَّانِي عَدْلُهُ، وَالْعَبْدُ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ، جَارٍ عَلَيْهِ فَضْلُهُ، مَاضٍ فِيهِ حُكْمُهُ، عَدْلٌ فِيهِ قَضَاؤُهُ. وَخَتَمَ الْآيَةَ الْأُولَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ إِعْلَامًا لَهُمْ بِعُمُومِ قُدْرَتِهِ مَعَ عَدْلِهِ، وَأَنَّهُ عَادِلٌ قَادِرٌ، وَفِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ الْقَدْرِ وَالسَّبَبِ، فَذَكَرَ السَّبَبَ، وَأَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِمْ، وَذَكَرَ عُمُومَ الْقُدْرَةِ وَأَضَافَهَا إِلَى نَفْسِهِ، فَالْأَوَّلُ يَنْفِي الْجَبْرَ، وَالثَّانِي يَنْفِي الْقَوْلَ: بِإِبْطَالِ الْقَدْرِ، فَهُوَ يَشَاكِلُ قَوْلَهُ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية، يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تمييزاً ظاهراً، وكان من حكمة هذا التقدير

تَكَلَّمُ المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا ردَّ الله عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدَّى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يُحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة، فيعودُ عليه بفساد الدنيا والآخرة، فله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة، ونعمة، على المؤمنين سابعة، وكم فيها من تحذيرٍ وتخويفٍ وإرشادٍ وتنبية، وتعريفٍ بأسباب الخير والشر وما لهما وعاقبتهما!

* * *

قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق، فإنهم إما يسيئوا في حق الله أو في حق رسوله؛ فإن أساؤوا في حقك، فقابل ذلك بعفوك عنهم، وإن أساءوا في حقِّي فاسألني أغفر لهم، واستجلب قلوبهم، واستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم، فإن ذلك أحرى في استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة، فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك، بل توكل وامض لما عزمته عليه من أمرك، فإن الله يحب المتوكلين^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وأصل الخذلان: الترك والتخلية، ويقال للبقرة والشاة إذا تخلفت مع ولدها في المرعى وتركت صواحباتها: خذول.

قال محمد بن إسحاق في هذه الآية: إن ينصرك الله فلا غالب لك من الناس، ولن يضرك خذلان من خذلك، وإن يخذلك فلن ينصرك الناس، أي: لا تترك أمري للناس، وارفض الناس لأمري.

والخذلان: أن يخلي الله تعالى بين العبد وبين نفسه ويكفه إليها. والتوفيق ضده: أن لا يدعه ونفسه، ولا يكفه إليها، بل يصنع له ويلطف به ويعينه، ويدفع عنه، ويكلؤه كلاءة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه. فمن خلى بينه وبين نفسه فقد هلك كل الهلاك. ولهذا كان من دعائه ﷺ: «يا حي يا قيوم يا بديع السموات

(١) تفسير هذه الآية جاء في الرسالة التبوكية (٨٦).

والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك»^(١).

فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس. فإن تولاه الله لم يظفر به عدوه، وإن خذله وأعرض عنه افترسه الشيطان، كما يفترس الذئب الشاة^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَسَيُشْرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

ثم عزى نبيه وأولياءه عمن قتل منهم في سبيله أحسن تعزية، وألطفها وأدعاها إلى الرضى بما قضاه لها، فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضى، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم، واستبشارهم بما يُجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته، وذكرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو من أعظم منته ونعمه عليهم، التي إن قابلوا بها كل محنة تناولهم وبليّة، تلاشت في جنب هذه المنّة والنعمّة، ولم يبق لها أثر البتة، وهي منته عليهم بإرسال رسولٍ من أنفسهم إليهم، يتلو عليهم آياته، ويُزكّيهم، ويُعلمهم الكتاب والحكمة، ويُنقذهم من الضلال - الذي كانوا فيه قبل إرساله - إلى الهدى، ومن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم. فكلُّ بليّةٍ ومحنةٍ تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له، أمرٌ يسيرٌ جداً في جنب الخير الكثير، كما ينال الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير.

فأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره ليؤحذوا ويتكلموا، ولا يخافوا غيره. وأخبرهم بما لهم فيها من الحكم لثلاثتهم في قضائه وقدره، وليتعرف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته، وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدراً، وأعظم خطراً مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعزّاهم عن قتلاهم

(١) رواه الترمذي - الصحيح - (١٧٢/٣) في الدعوات، باب: (٩٩)، وحسنه الألباني.

(٢) جاء تفسير هذه الآية في شفاء العليل (١٠٠، ١٠١).

بما نألوه من ثوابه وكرامته، لينافسوهم فيه، ولا يحزنوا عليهم. فله الحمد كما هو أهله، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزّ جلاله^(١).

□ □ □

وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم، فما الظن بحياء الرسل في البرزخ؟ ولقد أحسن القائل:

فالعيش نوم، والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري
فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة - التي هي يقظة من نوم الدنيا -
أكملها وأتمها، وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم، يكون شوقه إلى هذه الحياة،
وسعيه وحرصه على الظفر بها، والله المستعان^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢، ١٧٣].

ولما انقضت الحرب انكفاً المشركون، فظنّ المسلمون أنهم قَصَدُوا المدينة لإحراز الدراري والأموال، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «أَخْرُجْ فِي آثَارِ الْقَوْمِ فَانظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ وَمَاذَا يُرِيدُونَ، فَإِنْ هُمْ جَنَّبُوا الْخَيْلَ وَامْتَطَوْا الْإِبِلَ، فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ، وَإِنْ رَكِبُوا الْخَيْلَ وَسَاقُوا الْإِبِلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْمَدِينَةَ. فوالذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ أَرَادُواهَا لِأَسِيرَنَّ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ لَأَنَاجِرَنَّهُمْ فِيهَا».

قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة. ولما عزموا على الرجوع إلى مكة أشرف على المسلمين أبو سفيان، ثم ناداهم: مَوْعِدُكُمْ الْمَوْسِمُ بَبَدْرٍ، فقال النبي ﷺ: «قولوا: نَعَمْ قَدْ فَعَلْنَا»، قال أبو سفيان: «فَذَلِكُمْ الْمَوْعِدُ»، ثم انصرف هو وأصحابه. فلما كان في بعض الطريق تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال: «لَا يَخْرُجُ مَعَنَا إِلَّا مَنْ شَهِدَ الْقِتَالَ»، فقال له

(٢) مدارج السالكين (٣/٢٨٢).

(١) زاد المعاد (٣/٢١٨).

عبد الله بن أبي: أركب معك؟ قال: «لا». فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف، وقالوا: سمعاً وطاعةً. واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال: يا رسول الله، إني أحب ألا تشهد مشهداً إلا كنت معك، وإنما خلفني أبي على بنايتي، فأذن لي أسير معك، فأذن له، فسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد^(١)، وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ، فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه، قد تحرقوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة. فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكفرة عليهم لنستأصلهم، قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح، فرجعوا على أعقابهم إلى مكة، ولقي أبو سفيان بعض المشركين يريد المدينة، فقال: هل لك أن تبلي محمدًا رسالة، وأوقر لك راحلتك زيباً إذا أتيت إلى مكة؟ قال: نعم. قال: أبلغ محمدًا أنا قد أجمعنا الكفرة لنستأصله ونستأصل أصحابه. فلما بلغهم قوله قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

من كيد عدو الله تعالى: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر. وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة: «يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فكلما قوي إيمان

(١) حمراء الأسد: الأسد مفرد الأسد بالمد والإضافة، وهي موضع على ثمانية أميال من المدينة. معجم البلدان (٣٠١/٢). وانظر: سيرة ابن هشام (٨٥/٣)، وتفسير الطبري (٤/١٧٦)، وتفسير ابن كثير (١/٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) زاد المعاد (٣/٢١٨، ٢٤٤).

العبد؛ زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم»^(١).

وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فجعل الخوف منه شرطاً في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلياً في الصيغة على الإيمان فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقيق السبب، كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه، فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه، وانتفاء الخوف عند انتفاء الإيمان انتفاء للمعلول عند انتفاء علته. فتدبره.

والمعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني. والجزاء محذوف مدلول عليه بالأول عند سيبويه وأصحابه، أو هو المتقدم نفسه، وهو جزاء وإن تقدم، كما هو مذهب الكوفيين. وعلى التقديرين فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان، كل منهما مستلزم للآخر. لكن الاستلزام مختلف، وكل منهما منتف عند انتفاء الآخر، لكن جهة الانتفاء مختلفة كما تقدم.

والمقصود: أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطَّلِعَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

هذه الآية من كنوز القرآن. نبه فيها على حكمته تعالى المقتضية تمييز الخبيث من الطيب، وأن ذلك التمييز لا يقع إلا برسله، فاجتبي منهم من شاء وأرسله إلى عباده فيتميز برسالتهم الخبيث من الطيب، والولي من العدو، ومن يصلح لمجاورته وقربه وكرامته ممن لا يصلح إلا للوقود.

وفي هذا تنبيه على الحكمة في إرسال الرسل وأنه لا بد منه، وأن الله تعالى لا يليق به الإخلال به، وأن من جحد رسالة رسله فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ونسبه إلى ما لا يليق به كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

(٢) طريق الهجرتين (٢٦٣).

(١) إغاثة اللهفان (١/١١٠).

فتأمل هذا الموضوع حق التأمل، وأعطه حظه من الفكر؛ فلو لم يكن في هذا الكتاب سواه لكان من أجل ما يستفاد، والله الهادي إلى سبيل الرشاد^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

يفرحون بما آتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٥﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

أثنى تعالى على عباده المتفكرين في مخلوقاته؛ بأنهم أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم بأنه تعالى لم يخلقها باطلاً، وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به، علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وذكروا في دعائهم هذين الأمرين، فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٥﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢]، فلما علموا أن خلق السموات والأرض يستلزم الثواب والعقاب تعودوا بالله من عقابه، ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السموات والأرض، فقالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]. فكانت ثمرة فكرهم في خلق السموات والأرض، والإقرار به تعالى وبوحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم، إلى مغفرة ذنوبهم، وتكفير سيئاتهم وإدخالهم مع الأبرار إلى جنته التي وعدهموها؛ وذلك تمام نعمته عليهم، فتوسلوا بإنعامه عليهم أولاً إلى إنعامه عليهم آخراً، وتلك وسيلة بطاعته إلى كرامته، وهي إحدى الوسائل إليه^(٣).

وتأمل كيف أخبر سبحانه عنه بنفي الباطلية عن خلقه، دون إثبات الحكمة، لأن

(٢) مدارج السالكين (١/٨٤).

(١) مفتاح دار السعادة (٤١٤).

(٣) بدائع الفوائد (٤/١٦٦).

بيان نفي الباطل على سبيل العموم، والاستغراق أو غل في المعنى المقصود وأبلغ من إثبات الحكم. لأن بيان جميعها لا يفي به أفهام الخليقة، وبيان البعض يؤذن بتناهي الحكمة.

ونفي البطلان، والخلو عن الحكمة والفائدة تفيد أن كل جزء من أجزاء العالم، علويه وسفليه متضمن لحكم جمّة وآيات باهرة.

ثم أخبر سبحانه عنهم بتنزيهه عن الخلق باطلاً خلواً عن الحكمة.

ولا معنى لهذا التنزيه عند النفاة فإن الباطل عندهم هو المحال لذاته. فعلى قولهم نزوهه عن المحال لذاته، الذي ليس بشيء كالجمع بين النقيضين، وكون الجسم الواحد لا يكون في مكانين، ومعلوم قطعاً أن هذا ليس مراد الرب تعالى؛ مما نزه نفسه عنه وأنه لا يُمدح أحد بتنزيهه عن هذا، ولا يكون المنزه به مثلياً ولا حامداً، ولم يخطر هذا بقلب بشر، حتى ينكره الله على من زعمه ونسبه إليه^(١).

قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، فعمّ بذكره أحوال العباد كلها، لأن العبد إما أن يكون قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً، فأراد منه ذكره في هذه الأحوال كلها^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾، ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود الصانع؛ لأن هذا القدر حاصل في تركيب البقعة والبعوضة، وفي حصول الحياة في بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى دلالة من تركيب الأجرام الفلكية على وجود الصانع؛ لأن الحياة لا يقدر عليها إلا الله. أما تركيب الأجسام وتأليفها فقد يقدر على جنسه غير الله. فلما كان هذا النوع من الحكمة حاصلًا في غير الأفلاك ثم إنه تعالى خصها بهذا التشریف، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾، علمنا أن له تعالى في تخليقها أسراراً عالية، وحكماً بالغة تتقاصر عقول البشر عن إدراكها^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٤٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا

(١) مفتاح دار السعادة (٤١٩، ٤٢٠).

(٢) الصواعق المرسلّة (٤/١٤٨٠).

(٣) مفتاح دار السعادة (٥٢٩).

وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٣﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤].
والمعنى: وآتانا ما وعدتنا على السنة رسلك من دخول الجنة.

وقالت طائفة: معناه: وآتانا ما وعدتنا على الإيمان برسلك، وليس بسهل حذف الاسم والحرف معاً، إلا أن يقدر: على تصديق رسلك وطاعة رسلك. وحينئذ فيتكافأ التقديران، ويترجح الأول بأنه قد تقدم قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾، وهذا صريح في الإيمان بالرسول والمرسل، ثم توسلوا إليه بإيمانهم أن يؤتيهم ما وعدهم على السنة الرسل؛ فإنهم إنما سمعوا بوعدهم لهم بذلك من الرسل، وذلك أيضاً يتضمن التصديق بهم، وأنهم بلغوهم وعده فصدقوا به، وسألوه أن يؤتيهم إياه، وهذا هو الذي ذكره السلف والخلف في الآية^(١).

وقيل: المعنى آتانا ما وعدتنا من النصر والظفر على السنة الرسل. والأول أعم وأكمل.

وتأمل كيف تضمن إيمانهم به الإيمان بأمره ونهيه، ورسله ووعدته ووعدته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وصدق وعده، والخوف من وعيده، واستجابتهم لأمره، فمجموع ذلك صاروا مؤمنين بربهم. فبذلك صح لهم التوسل إلى سؤال ما وعدهم به والنجاة من عذابه.

وقد أشكل على بعض الناس سؤالهم أن ينجز لهم وعده، مع أنه فاعل لذلك ولا بد.

وأجاب: بأن هذا تعبد محض، كقوله: ﴿رَبِّ أَحْكُرْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وقول الملائكة: ﴿فَاعِظِرْ لِّلَّذِينَ تَأْبُوا وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

وخفي على هؤلاء أن الوعد معلق بشروط منها: الرغبة إليه سبحانه وتعالى، وسؤاله أن ينجزه لهم؛ كما أنه معلق بالإيمان وموافاتهم به، وأن لا يلحقه ما يحبطه. فإذا سألوه سبحانه أن ينجز لهم ما وعدهم تضمن ذلك توفيقهم وتشيتهم، وإعانتهم على الأسباب التي ينجز لهم بها وعده، فكان هذا الدعاء من أهم الأدعية وأنفعها، وهم أحوج إليه من كثير من الأدعية^(٢).

[وانظر في تفسيرها أيضاً (٣/٣٩٧)].

* * *

(١) تفسير الطبري (٤/٢١٢، ٢١٣). (٢) حادي الأرواح (٨٠، ٨١).

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه.

والمصابرة هي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين، كالمشامة والمضاربة.

والمصابرة هي حالة في الصبر مع خصمه.

والمرابطة: وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة. فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يربط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى.

فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لثلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته^(١).

وقال: وقيل في قوله تعالى: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾: إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى. «فالصبر» دون «المصابرة»، و«المصابرة» دون «المرابطة»، و«المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد.

وسمي المرابط مرابطاً: لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع، ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرهم: مرابط. ومنه قول النبي ﷺ: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(٢).

وقال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»^(٣).

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله، وربطوا بأسراركم على الشوق إلى الله.

وقيل: اصبروا في الله وصابروا بالله وربطوا مع الله.

وقيل: اصبروا على النعماء وصابروا على البأساء والضراء، وربطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء، لعلكم تفلحون في دار البقاء.

(١) عدة الصابرين (٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٥١).

(٣) رواه البخاري (٢٨٩٢)، ومسلم (١٨٨١).

وقيل: تجرع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيداً، وإن أحياك أحياك عزيزاً.
وقيل: الصبر لله غناء، وبالله تعالى بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وقاء، وعن الله جفاء. والصبر على الطلب عنوان الظفر، وفي المحن عنوان الفرج^(١).

وعلم سبحانه عباده كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة. فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو وهي مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المرابطة، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل معه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل.

فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه. فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلي مكانها فيصادف العدو الثغر خالياً فيدخل منه.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أدخلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدو فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر^(٢).



(١) مدارج السالكين (٢/١٥٩، ١٦٠). (٢) الجواب الكافي (١٣٩، ١٤٠).

سورة النساء

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنَةِ فَاذْكُرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنًا وَتِلْكَ وَرُبْعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].
قال الشافعي^(١): «أن لا تكثر عيالكم. فدل على أن قلة العيال أولى».

قيل: قد قال الشافعي ذلك، وخالف جمهور المفسرين من السلف والخلف، وقالوا: معنى الآية: ذلك أدنى أن لا تجوروا ولا تميلوا. فإنه يقال: عال الرجل يعول عولاً إذا مال وجار. ومنه: عول الفرائض؛ لأن سهامها زادت. ويقال: عال يعيل عيلة إذا احتاج. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال الشاعر^(٢):

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل

أي: متى يحتاج ويفتقر. وأما كثرة العيال فليس من هذا، ولا من هذا، ولكنه من أفعل. يقال: أعال الرجل يعيل، إذا كثر عياله؛ مثل ألبن وأتمر إذا صار ذا لبن وتمر، هذا قول أهل اللغة. قال الواحدي في بسيطه^(٣): ومعنى تعولوا: تميلوا وتجوروا، عن جميع أهل التفسير واللغة. وروي ذلك مرفوعاً. روت عائشة رضي الله عنها

(١) انظر: توجيه هذا القول عن الشافعي رحمه الله تعالى في فتح القدير للشوكاني (١/٤٢١)، والزمخشري (١/٢٤٥).

(٢) قائله هو «أحيحة بن الجلاح»، انظر: هامش (١، ٢) من تفسير الطبري (٧/٥٤٩) تحقيق: آل شاكر.

(٣) الإمام العلامة، الأستاذ علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، الشافعي، صاحب التفسير، وإمام علماء التأويل، صنّف التفاسير الثلاثة «البسيط» و«الوسيط» و«الوجيز»... وغيرها من الكتب النافعة. سير أعلام النبلاء (١٨/٣٣٩).

عن النبي ﷺ^(١): «أن لا تعولوا»، قال: «لا تجوروا»، وروي: «أن لا تميلوا» قال: وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة والربيع والسدي وابن مالك وعكرمة والفراء والزجاج وابن قتيبة وابن الأنباري.

قلت: ويدل على تعيين هذا المعنى من الآية، وإن كان ما ذكره الشافعي لغة حكاة الفراء عن الكسائي، قال: ومن الصحابة من يقول: عال يعول إذا كثر عياله. قال الكسائي: وهي لغة فصيحة سمعتها من العرب، لكن يتعين الأول لوجوه:

أحدها: أنه المعروف في اللغة الذي لا يكاد يعرف سواه، ولا يعرف: عال يعول، إذا كثر عياله، إلا في حكاية الكسائي، وسائر أهل اللغة على خلافه.

الثاني: أن هذا مروى عن النبي ﷺ، ولو كان من الغرائب، فإنه يصلح للترجيح.

الثالث: أنه مروى عن عائشة وابن عباس، ولم يعلم لهما مخالف من المفسرين، وقد قال الحاكم أبو عبد الله: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع.

الرابع: أن الأدلة التي ذكرناها على استحباب تزوج الولود، وإخبار النبي ﷺ^(٢) أنه يكثر بأمة الأمم يوم القيامة يرد هذا التفسير.

الخامس: أن سياق الآية إنما هو في نقلهم مما يخافون من الظلم والجور فيه إلى غيره. فإنه قال في أولها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَلْتَنَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ﴾، فدلهم سبحانه على ما يتخلصون به من ظلم اليتامى، وهو نكاح ما طاب لهم من النساء البوالغ، وأباح لهم منهن أربعاً، ثم دلهم على ما يتخلصون به من الجور والظلم في عدم التسوية بينهن. فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاجِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، ثم أخبر سبحانه أن الواحدة وملك اليمين أدنى إلى عدم الميل والجور. وهذا صريح في المقصود.

(١) رواه ابن حبان (١٣٤/٦). وقال الحافظ ابن حجر: «رواه ابن حبان، وإبراهيم الحربي، والطبري، وابن أبي حاتم، وغيرهم... عن عائشة، قال ابن أبي حاتم: والصواب موقوف». انظر: الكافي الشاف في تخريج الكشاف (٣٨) رقم (٣١٧)، وتفسير ابن كثير (٤٧٦/١)، والدر المنثور (٤٣٠/٢).

(٢) عن معقل بن يسار قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات جمال وحسب وأنها لا تلد أفأتزوجها؟ قال: لا، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم». رواه أبو داود (٢٠٥٠).

السادس: أنه لا يلتئم قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا﴾ في الأربع فانكحوا واحدة أو تسروا بما شئتم بملك اليمين. فإن ذلك أقرب إلى أن تكثر عيالكم، بل هذا أجنبي من الأول. فتأمله.

السابع: أنه من الممتنع أن يقال لهم: إن خفتم ألا تعدلوا بين الأربع فلکم أن تسروا بمائة سرية أو أكثر، فإنه أدنى ألا تكثر عيالكم.

الثامن: أن قوله: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلُوا﴾ تعليل لكل واحد من الحكّمين المتقدمين، وهما نقلهم من نكاح اليتامى إلى نكاح النساء البوالغ، ومن نكاح الأربع إلى نكاح الواحدة أو ملك اليمين، ولا يليق تعليل ذلك بقلة العيال.

التاسع: أنه سبحانه قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلُوا﴾، ولم يقل: وإن خفتم أن تفتقروا أو تحتاجوا، ولو كان المراد قلة العيال لكان الأنسب أن يقول ذلك.

العاشر: أنه تعالى إذا ذكر حكماً منهياً عنه وعلل النهي بعلّة، أو أباح شيئاً وعلل عدمه بعلّة، فلا بد أن تكون العلة مضادة لصد الحكم المعلل، وقد علل ﷺ بإباحة نكاح غير اليتامى والاقتصار على الواحدة أو ملك اليمين؛ بأنه أقرب إلى عدم الجور، ومعلوم أن كثرة العيال لا تضاد عدم الحكم المعلل فلا يحسن التعليل به^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥].

قال ابن عباس: لا تعتمد إلى مالك الذي خولك الله وجعله لك معيشة، فتعطيه امرأتك وبنيك، فيكونوا هم الذين يقومون عليك في كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم. فالسفهاء هم النساء والصبيان، وقد جعل الله سبحانه الأزواج قوامين عليهم، كما جعل ولي الطفل قواماً عليه. والقوام على غيره أمير عليه^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعَدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢]. فإنه ﷺ إنما قدم على الميراث وصية من لم يضار الورثة، فإذا كانت الوصية وصية ضرار كانت حراماً، وكان للورثة إبطالها، وحرّم على الموصى له أخذ ذلك بدون رضا الورثة، وأكد ﷺ ذلك بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾.

(٢) إغاثة اللهفان (٢/٥٩).

(١) تحفة الودود (١٩ - ٢١).

وتأمل كيف ذكر ﷺ الضرار في هذه الآية دون التي قبلها؛ لأن الأولى تضمنت ميراث العمودين، والثانية تضمنت ميراث الأطراف من الزوجين، والإخوة. والعادة أن الميت قد يضار زوجته وإخوته، ولا يكاد يضار والديه وولده. والضرار نوعان: جنف، وإثم، فإنه قد يقصد الضرار، وهو الإثم، وقد يضار من غير قصد، وهو الجنف، فمن أوصى بزيادة على الثلث فهو مضار، قصد أو لم يقصد، فللوارث رد هذه الوصية، وإن أوصى بالثلث فما دونه، ولم يعلم أنه قصد الضرار وجب إمضاؤها، فإن علم الموصي له أن الموصي إنما أوصى ضراراً؛ لم يحل له الأخذ، ولو اعترف الموصي إنه إنما أوصى ضراراً، لم تجز إعانته على إمضاء هذه الوصية.

وقد جوز الله ﷻ إبطال وصية الجنف والإثم، وأن يُصلح الوصي أو غيره بين الورثة والموصي له، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْرَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢]، وكذلك إذا ظهر للحاكم أو الوصي الجنف أو الإثم في الوقف ومصرفه، أو بعض شروطه فأبطل ذلك، كان مصلحاً لا مفسداً. وليس له أن يعين الواقف على إمضائه الجنف والإثم، ولا يصحح هذا الشرط، ولا يحكم به فإن الشارع قد رده وأبطله، فليس له أن يصحح ما رده الشارع وحرمه، فإن ذلك مضادة له ومناقضة^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد عن قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾؟ فقالوا^(٢): كل من عصى الله فهو جاهل. ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب. وقال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل.

وقال مجاهد: من شيخ أو شاب فهو بجهالة. وقال: من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن خطيئته. وقال هو وعطاء: الجهالة: العمد.

(١) إغاثة اللهفان (١/٣٧٧، ٣٧٨). (٢) تفسير الطبري (٤/٢٩٨).

وقال مجاهد: من عمل سوءاً خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع منه.

ذكر هذه الآثار «ابن أبي حاتم»، ثم قال: وروي عن قتادة وعمرو بن مرة والثوري نحو ذلك خطأ أو عمداً. وروي عن مجاهد والضحاك: ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً، ولكن من جهالته حين دخل فيه. وقال عكرمة: الدنيا كلها جهالة^(١).

و«الجهالة» هاهنا: جهالة العمل، وإن كان عالماً بالتحريم.

أما التوبة من قريب فجمهور المفسرين: على أنها التوبة قبل المعاينة. قال عكرمة: قبل الموت.

وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت.

وقال السدي والكلبي: أن يتوب في صحته قبل مرض موته.

وفي المسند^(٢) وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»، وفي نسخة دراج - أبي الهيثم - عن أبي سعيد مرفوعاً^(٣): «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم». فقال الرب ﷻ: «وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

فهذا شأن التائب من قريب. وأما إذا وقع في السياق^(٤) فقال: إني تبت الآن لم تقبل توبته. ذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله^(٥).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾ [النساء: ١٩].

(١) شفاء العليل (١٧١، ١٧٢).

(٢) رواه الإمام أحمد بسند صحيح برقم (٦١٦٠) طبعة المعارف، والترمذي وحسنه (٥١١/٥) في الدعوات، باب: فضل التوبة والاستغفار، وابن حبان (٢٤٤٩) الموارد، وابن ماجه برقم (٤٢٥٣)، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي (٢/٢٥٧).

(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢٩/٣)، وأبو يعلى (٤٥٨/٢)، والحاكم (٤/٢٦١)، وصححه ووافقه الذهبي. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٠٤).

(٤) السياق: النزاع الذي يسبق الموت. (٥) مدارج السالكين (١/٢٨٣، ٢٨٤).

وقد استشكل بعض المفسرين معنى وراثتهم النساء المنهي عنها، حتى قال: المعنى: لا يحل لكم أن تراثوا نكاحهن، لترثوا أموالهن كرهاً.

قال: وفي المراد بميراثهن وجهان:

أحدهما: ما يصل إلى الأزواج من أموالهن بالموت دون الحياة على ما يقتضيه الظاهر من لفظ الميراث.

الثاني: الوصول إلى أموالهن في الحياة وبعدها، وقد يسمى ما وصل في الحياة ميراثاً، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ أَفْرَادًا﴾ [المؤمنون: ١١].

وهذا تكلف وخروج عن مقتضى الآية. بل الذين مُنعوا من أن يجعلوا حق الزوجية حقاً موروثاً ينتقل إلى الوارث كسائر حقوقه، وهذه كانت شبهتهم، أن حق الزوجية انتقل إليهم من مورثهم، فأبطل الله ذلك وحكم بأن الزوجية لا تنتقل بالميراث إلى الوارث، بل إذا مات الزوج كانت الزوجة أحق بنفسها، ولم يرث بضعها أحد، وليس البضع كالمال، فينتقل بالميراث.

واستنبط بعضهم من الآية أنه لا يحل للرجل أن يمسك امرأته ولا أرب له فيها، طمعاً أن تموت فيرث مالها، وفيه نظر. والله أعلم^(١).

وهذا دليل على أنه إذا عضلها لتفتدي نفسها منه، وهو ظالم لها بذلك، لم يحل له أخذ ما بذلته له ولا يملكه هو^(٢).

فحرم ﴿يُضِلُّ﴾ أن يأخذ منها شيئاً مما آتاها، إذا كان قد توسل إليه بالعضل^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾

[النساء: ٢٢].

فهذا من الاستثناء السابق زمان المستثنى فيه زمان المستثنى منه، فهو غير داخل فيه، فمن لم يشترط الدخول فلا يقدر شيئاً، ومن قال: لا بد من دخوله قدر دخوله في مضمون الجملة الطلبية بالنهي؛ لأن مضمون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ الإثم والمؤاخذه؛ أي: أن الناكح ما نكح أبوه آثم مؤاخذه، إلا ما قد سلف قبل النهي وإقامة الحجة، فإنه لا تتعلق به المؤاخذه.

(١) تهذيب سنن أبي داود (٣/٣٥، ٣٦). (٢) إغاثة اللهفان (١/٣٧٨).

(٣) إغاثة اللهفان (١/٣٧٨).

وأحسن من هذا عندي أن يقال: لما نهى سبحانه عن نكاح منكوحات الآباء؛ أفاد ذلك أن وطأهن بعد التحريم لا يكون نكاحاً البتة، بل لا يكون إلا سفاحاً فلا يترتب عليه أحكام النكاح من ثبوت الفراش ولحوق النسب، بل الولد فيه يكون ولد زنية، وليس هذا حكم ما سلف قبل التحريم، فإن الفراش كان ثابتاً فيه والنسب لاحق، فأفاد الاستثناء فائدة جليلة عظيمة، وهي أن ولد من نكح ما نكح أبوه قبل التحريم ثابت النسب وليس ولد زنا، والله أعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

وهذا من أشكل مواضع الاستثناء، لأن مملوكته إذا كانت محصنة إحصان التزويج فهي حرام عليه. والإحصان هاهنا إحصان التزويج بلا ريب، إذ لا يصح أن يراد به إحصان العفة ولا إحصان الحرية ولا إحصان الإسلام فهو إحصان التزويج قطعاً، فكيف يستثنى من المحرمات به المملوكة؟

فقال كثير من الناس: الاستثناء هاهنا منقطع، والمعنى: لكن ما ملكت أيمانكم فهن لكم حلال.

ورد هذا بأنه استثناء من موجب والانقطاع إنما يقع حيث يقع التفرغ.

ورد هذا الرد بأن الانقطاع يقع في الموجب وغيره. قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِكَذَابِ آلِ إِمْرٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥].

وقالت طائفة: الاستثناء على بابه متصل وما ملكت أيمانكم مستثنى من المزوجات، ثم اختلفوا فقالت طائفة من الصحابة منهم ابن عباس وغيره من التابعين: إنه إذا زوج أمته ثم باعها كان بيعها طلاقاً، وتحل للسيد؛ لأنها ملك يمينه واحتج لهم بالآية.

ورد هذا المذهب بأمر: أحدها: أنه لو كان صحيحاً لكان وطؤها حلالاً لسيدها إذا زوجها؛ لأنها ملك يمينه، فكما اجتمع ملك سيدها لها وحلها للزوج، فكذلك يجتمع ملك مشتريها لها وحلها للزوج، وتناول اللفظ لهما واحد. الثاني: أن المشتري خليفة البائع فانقل إليه بعقد الشراء ما كان يملكه بائعها، وهو كان يملك رقبته مسلوبة منفعة البضع ما دامت مزوجة، وينتقل إلى المشتري ما كان

(١) بدائع الفوائد (٣/٦٨، ٦٩).

يملكه فملكها المشتري مسلوبة منفعة البضع، فإذا فارقها زوجها رجع إليه البضع كما كان يرجع إلى بائعها كذلك، فهذا محض الفقه والقياس. الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين^(١) أن عائشة رضي الله عنها اشترت بريرة وكانت مزوجة فعتقتها وخيرها النبي ﷺ، ولو بطل النكاح بالشراء لم يخيرها، وهذا مما أخذ الأئمة الأربعة وغيرهم فيه برواية ابن عباس وتركوا رأيه، فإنه راوي الحديث وهو ممن يقول: بيع الأمة طلاقها.

وقالت طائفة أخرى: الآية مختصة بالسبايا. قال أبو سعيد الخدري: نزلت في سبايا أوطاس، قالوا: فأباح الله تعالى للمسلمين وطء ما ملكوه من السبي وإن كن محصنات، ثم اختلف هؤلاء متى يباح وطء المسبية، فقال الشافعي وأبو الخطاب وغيرهما: يباح وطؤها إذا تم استبرأؤها؛ سواء كان زوجها موجوداً أو مفقوداً، واحتجوا بثلاث حجج: إحداها: أن الله سبحانه أباح وطء المسبيات بملك اليمين مستثنياً لهن من المحصنات. الثانية: ما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ^(٢) يوم حنين بعث جيشاً إلى أوطاس فلقي عدواً فقاتلوه، فظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا، فكأن ناساً من أصحاب النبي ﷺ تخرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أي: فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن. وفي الترمذي^(٣) عن أبي سعيد: أصبنا سبايا يوم أوطاس لهن أزواج في قومهن، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، وهذا صريح في إباحتهن وإن كن ذوات أزواج، وفي الترمذي ومسند أحمد من حديث العرباض بن سارية: «أن النبي ﷺ^(٤) حرم وطء السبايا حتى يضعن ما في بطونهن»؛ فهذا التحريم إلى غاية وهي وضع الحمل، فلا بد أن يحصل الحل بعد الغاية، ولو كان وجود أزواجهن مانعاً من الوطء لكان له غايتان: إحداها: عدم الزوج، والثاني: وضع الحمل وهو خلاصة ظاهر الحديث. قالوا: ولأن ملك الكافر الحربي البضع لم يبق له حرمة ولا عصمة؛ إذ قد ملك المسلمون عليه ما كان يملكه فملكوا رقبة زوجته، فكيف يقال: بقاء العصمة في ملك البضع

(١) رواه البخاري في مواضع منها: (٢٥٣٦)، ومسلم (١٥٠٤).

(٢) رواه مسلم (١٤٥٦). (٣) رواه الترمذي (١١٣٢).

(٤) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (١٢٧/٤)، رواه الترمذي (١٤٧٤، ١٥٦٤).

لا سيما والمسلمون يستحقون ملك رقبته وأولاده وسائر أملاكه، فما بال ملك البضع وحده باقياً على العصمة؟ فهذا لا نص ولا قياس ولا معنى، قالوا: فقد أذن النبي ﷺ في وطء السبايا بعد انقضاء عدتهن مطلقاً؛ ولو كان بقاء الزوج مانعاً لم يأذن في وطئهن إلا بعد العلم بموته، وهذا المذهب كما تراه قوة وصحة.

وقال أصحابنا القاضي وغيره: إنما يباح وطؤها. قالوا: لأنها إذا سببت وحدها بقاء الزوج مجهول والمجهول كالمعدوم فنزلت منزلة من لا زوج لها فحل وطؤها، ولا كذلك إذا كان زوجها معها، ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً وهو: إذا سببت وحدها وعلم بقاء زوجها في دار الحرب؟ وهذا سؤال لا محيد لهم عنه، ولا ينجيهم منه إلا قولهم: بالحل، وإن علم بقاء الزوج استناداً إلى زوال عصمة النكاح بالسبي، فإنهم إذا أجابوا بالتزام التحريم خالفوا النصوص خلافاً بيناً، وإن أجابوا بالحل مع تحقيق بقاء الزوج نقضوا أصلهم؛ حيث أسندوا الحل إلى كون المسبية خالية من الزوج تنزيلاً للمجهول منزلة المعدوم.

فقول أبي الخطاب أفقه وأصح، وعليه تنزل الآية والأحاديث، ويظهر به أن الاستثناء متصل، وأن الله تعالى أباح من المحصنات من سبها المسلمون. (فإن قيل): فعلى ما قررتومه يزول الإحصان بالسبي فلا تدخل في المحصنات، فيجىء الانقطاع في الاستثناء، (قيل): لما كانت محصنة قبل السبي صح شمول الاسم لها فأخرجت بالاستثناء.

(فإن قيل): فما تقولون في الأمة المزوجة إذا بيعت فإنها محصنة قد ملكت نفسها، فهل هي مخصوصة من هذا العموم أو غير داخله فيه؟ (قيل): ها هنا مسلكان للناس أحدهما أنها خصت من العموم بالأدلة على أن البيع لا يفسخ النكاح، وأن الفرج لا يكون حلالاً لشخصين في وقت واحد، (والمسلك الثاني) أنها لم تدخل في المستثنى منه؛ لأن السيد إذا زوجها فقد أخرج منفعة البضع عن ملكه، فإذا باعها فقد انتقل إلى المشتري ما كان للبائع فملكها المشتري مسلوبة منفعة البضع، فلم تدخل هذه المنفعة في ملكه بعقد البيع فلم تتناولها الآية، وهذا المسلك أطف وأدق من الأول. والله أعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

قال طاوس ومقاتل وغيرهما^(١): لا يصبر عن النساء.

وقال الحسن: هو خلق من ماء مهين.

وقال الزجاج: ضعف عزمه على قهر الهوى.

والصواب: أن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أعظم من هذا وأكثر: فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدور، فبالاضطرار لا بد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه.

وخلقه على هذه الصفة هو من الأمور التي يحمد عليها الرب سبحانه ويشني عليه بها، وهو موجب حكمته وعزته، فكل ما يحدث من هذه الخلقة عن صفات كماله؛ من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته، وبالنسبة إلى العبد تنقسم إلى خير وشر وحسن وقبيح، كما تكون بالنسبة إليه طاعة ومعصية وبراً وفجوراً، بل أخص من ذلك، مثل كونها صلاة وصياماً وحجاً وزناً وسرقة وأكلأً وشرباً، إذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه، وموجب أمر الله له ونهيه، والله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ما خلق وأمر به، وعلى ما لم يخلقه مما لو شاء لخلقه. وعلى توفيقه الموجب لطاعته وعلى خذلانه الموقع في معصيته، وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، وأحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل ما صنع^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا

أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

فهذا استثناء منقطع، تضمن نفي الأكل بالباطل وإباحة الأكل بالتجارة الحق، ومن قدر دخوله في الأول، قدر مستثنى منه عاماً، أي: لا تأكلوا أموالكم بينكم بسبب من الأسباب إلا أن تكون تجارة، أو يقدر: بالباطل ولا بغيره إلا بالتجارة،

(١) تفسير الطبري (٢١٥/٨، ٢١٦) ط المعارف.

(٢) طريق الهجرتين (١٠١)، وروضة المحبين (٢٠١).

ولا يخفى التكلف على هذا التقدير بل هو فاسد، إذ المراد بالنهي الأكل بالباطل وحده، وقرئ برفع التجارة ونصبها، فالرفع على التمام والنصب على أنها خبر كان الناقصة، وفي اسمها على هذا وجهان:

أحدهما: التقدير إلا أن يكون سبب الأكل أو المعاملة تجارة.
والثاني: إلا أن تكون أموال الناس تجارة^(١).

□ □ □

قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ أباح التجارة التي تراضى بها المتبايعان، فإذا تراضيا على شرط لا يخالف حكم الله جاز لهما ذلك، ولا يجوز إلغاؤه وإلزامها بما لم يلتزمه، ولا ألزمهما الله ولا رسوله به، ولا يجوز إلزامهما بما لم يلزمهما الله ورسوله به، ولا هما التزمه، ولا إبطال ما شرطاه مما لم يحرم الله ورسوله عليها شرطه، ومحرم الحلال كمحلل الحرام^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

[النساء: ٣١].

[إذا تأملنا قوله تعالى] نجد نحن بألطف دلالة، وأدقها وأحسنها أنه من اجتنب الشرك جميعه كفرت عنه كبائره، وأن نسبة الكبائر إلى الشرك كنسبة الصغائر إلى الكبائر، فإذا وقعت الصغائر باجتناب الكبائر؛ فالكبائر تقع باجتناب الشرك. وتجد الحديث الصحيح كأنه مشتق من هذا المعنى، وهو قوله^(٣) ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «ابن آدم إنك لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة».

وقوله^(٤): «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»، بل محو التوحيد - الذي هو توحيد - الكبائر أعظم من محو اجتناب الكبائر للصغائر^(٥).

* * *

(١) بدائع الفوائد (٧٣/٣).

(٢) إعلام الموقعين (١/٣٤٩).

(٣) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (١٤٧/٥)، رواه مسلم (٢٦٨٧).

(٤) رواه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٢٦٣/٣٣) ماجه).

(٥) إعلام الموقعين (١/٢٩٠، ٢٩١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٣٥].
 قد اختلف السلف والخلف في الحكمين: هل هما حاكمان، أو وكيلان؟ على قولين:

أحدهما: أنهما وكيلان، وهو قول أبي حنيفة، والشافعي في قول، وأحمد في رواية.

والثاني: أنهما حاكمان، وهذا قول أهل المدينة، ومالك، وأحمد في الرواية الأخرى، والشافعي في القول الآخر، وهذا هو الصحيح.

والعجب كل العجب ممن يقول: هما وكيلان لا حاكمان، والله تعالى قد نصبهما حَكَمِينَ، وجعل نصبهما إلى غير الزوجين، ولو كانا وكيلين، لقال: فليبعث وكيلاً من أهله، ولتبعث وكيلاً من أهلها.

وأيضاً: فلو كانا وكيلين، ولم يختصاً بأن يكونا من الأهل. وأيضاً فإنه جعل الحكم إليهما، فقال: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، والوكيلان لا إرادة لهما، إنما يتصرفان بإرادة موكليهما.

وأيضاً: فالحَكَم من له ولاية الحكم والإلزام، وليس للوكيل شيء من ذلك.
 وأيضاً: فإن الحكم أبلغ حاكم، لأنه صفة مشبهة باسم الفاعل دالة على الثبوت، ولا خلاف بين أهل العربية في ذلك، فإذا كان اسم الحاكم لا يصدق على الوكيل المحض، فكيف بما هو أبلغ منه.

وأيضاً: فإنه سبحانه خاطب بذلك غير الزوجين، وكيف يصح أن يوكل عن الرجل والمرأة وغيرهما؟ وهذا يحوجُّ إلى تقدير الآية هكذا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾، فمروهما أن يوكلوا وكيلين: وكيلاً من أهله ووكيلاً من أهلها، ومعلوم بعد لفظ الآية ومعناها عن هذا التقدير، وأنها لا تدل عليه بوجه، بل هي دالة على خلافه، وهذا بحمد الله واضح.

وبعث عثمان بن عفان^(١) عبد الله بن عباس ومعاوية حكمين بين عقيل بن أبي طالب وامراته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة، فقيل لهما: إن رأيتما أن تفرقا ففرقتما.

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٥١٢/٦) برقم (١١٨٨٥)، والطبري (٣٢٧/٨، ٣٢٨) ط المعارف.

وصح عن علي بن أبي طالب أن قال للحكمين بين الزوجين^(١): عليكما إن رأيتما أن تفرقا، ففرقا، وإن رأيتما أن تجمعا، جمعتما.

فهذا عثمان، وعلي، وابن عباس، ومعاوية جعلوا الحكم إلى الحكمين، ولا يعرف لهم من الصحابة مخالف، وإنما يعرف الخلاف بين التابعين فمن بعدهم.

وإذا قلنا: إنهما وكيلان، فهل يُجبر الزوجان على توكيل الزوج في الفرقة بعوض وغيره؟ وتوكيل الزوجة في بذل العوض. أو لا يجبران؟ على روايتين، فإن قلنا: يجبران، فلم يوكلا، جعل الحاكم ذلك إلى الحكمين بغير رضى الزوجين، وإن قلنا: إنهما حكمان، لم يحتج إلى رضى الزوجين^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

فجعل الغاية التي يزول بها حكم السكر أن يعلم ما يقول، فمتى لم يعلم ما يقول فهو في السكر، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه، وهذا هو حد السكران عند جمهور أهل العلم. قيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: بماذا يعلم أنه سكران؟ فقال: إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره.

ويذكر عن الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال: إذا اختلط كلامه المنظوم، وأفشى سره المكتوم.

وقال محمد بن داود الأصفهاني^(٣): إذا عذبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم^(٤).

فلم يرتب على كلام السكران حكماً، حتى يكون عالماً بما يقول، ولذلك أمر النبي ﷺ رجلاً يشكك المقر بالزنا، ليعلم هل هو عالم بما يقول، أم غير عالم

(١) رواه عبد الرزاق (٥١٢/٦) برقم (١١٨٨٣)، والطبري (٣٢١/٨) ط المعارف، والشافعي في الأم (١٧٧/٥)، والبيهقي في السنن (٣٠٥/٧، ٣٠٦).

(٢) زاد المعاد (١٨٩/٥ - ١٩٢).

(٣) محمد بن داود بن علي الظاهري: العلامة البارع ذو الفنون، صاحب المذهب. سير أعلام النبلاء (١٠٩/١٣)، تاريخ بغداد (٢٥٩/٥)، وفيات الأعيان (٢٥٩/٤).

(٤) روضة المحبين (١٥١)، ومدارج السالكين (٣٠٦/٣).

(٥) روى البخاري عن ابن عباس ؓ: لما أتى ماعز بن مالك النبي ﷺ قال له: لعلك قبّلت =

بما يقول، ولم يؤخذ حمزة بقوله في حال سكره: هل أنتم إلا عبيد لأبي^(١)، ولم يكفر من قرأ في حال سكره في الصلاة: أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون^{(٢)(٣)}.

* * *

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن نُّنزَعُكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله.

وافتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر، بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به، كما يقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله، أحسن كما أحسن الله إليك: ويا أيها العالم علم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحاكم احكم بالحق، ونظائره.

ولهذا كثيراً ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع؛ كقوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ [الجمعة: ٩].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

ففي هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين، فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه.

ثم قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

= أو غمزت أو نظرت؟ قال: لا يا رسول الله... الحديث. (١٣٨/١٢) في الحدود،

باب: هل يقول الإمام للمقر: لعلك لمست أو غمزت؟

وانظر: صحيح مسلم (٢٧٥/٤) في الحدود، باب: حد الزنا، والترمذي (٢٨/٤) في

الحدود، باب: ما جاء في درء الحد...

(١) رواه البخاري (٣٦٧/٧) في المغازي، باب (١٢)، ومسلم (٦٥٨/٥) في الأشربة، باب:

بيان تحريم الخمر.

(٢) رواه أبو داود (١٠٤/١٠) في الأشربة، باب تحريم الخمر، والترمذي (٢٢٢/٥) في تفسير

القرآن، باب: من سورة النساء، الطبري (٣٧٦/٨) ط المعارف، ومسنَد عبد بن حميد برقم

(٨٢)، والحاكم (٣٠٧/٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) إعلام الموقعين (١٤٢/٣).

فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولي الأمر، وسلط عليهما عاملاً واحداً. وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضي عكس هذا، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله. ولكن الواقع هنا في الآية المناسب.

وتحتة سر لطيف وهو دلالة على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأموراً به بعينه في القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة.

فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن، وإلا فلا تجب طاعته فيه.

كما قال النبي ﷺ: «يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانُ مُتَكِبٌ عَلَيَّ أَرِيكَتَهُ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى مَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ اتَّبَعْنَاهُ، أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»^(١).

أما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول؛ لا طاعة مفردة مستقلة، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «عَلَى الْمَرْءِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى. فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»^(٢).

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ولم يقل: ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾؟ فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول؟ فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله. فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعني كتابه فقد رددتموه إلى رسوله. وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله، فقد رددتموه إلى الله، وهذا من أسرار القرآن.

□ □ □

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أولي الأمر، وعنه فيهم رحمه الله تعالى روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء.

والثانية: أنهم الأمراء.

والقولان: ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية، والصحيح أنها متناولة للصنفين

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٤).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

جميعاً، فإن العلماء والأمرء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله، فإن العلماء وولاته حفظاً وبياناً وذباً عنه ورداً على من أُلحِد فيه وزاغ عنه.

وقد وكلهم الله بذلك، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]؛ فيا لها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاة إلى أمرهم وكون الناس تبعاً لهم.

والأمرء وولاته قياماً وعناية وجهاداً وإلزاماً للناس به، وأخذهم على يد من خرج عنه.

وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبع لهما ورعية.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ نَنزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾.

وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله، ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية، فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وهذا مما ذكرنا آنفاً أنه شرط ينتفي المشروط بانتفائه، فدل على أن من حَكَمَ غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع كان خارجاً من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بياناً وشفاء، فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها، عاصمة للمتمسكين بها، الممثلين ما أمرت به.

قال الله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته.

□ □ □

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولياء الأمر، ورد ما تنازعتكم فيه إليّ وإلى رسولي خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خير لكم وأحسن عاقبة.

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله، هو سبب السعادة عاجلاً وآجلاً. ومن تدبر العالم والشُرور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول. وكذلك شرور الآخرة والآمها وعذابها، إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط.

وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول، ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين.

فعلم أن شرور الدنيا والآخرة، إنما هو الجهل بما جاء به الرسول ﷺ والخروج عنه. وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة، إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً والقيام به عملاً.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

أقسم الله سبحانه بنفسه المقدسة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم، ولا يكفي ذلك في حصول الإيمان حتى يزول الحرج من نفوسهم بما حكم به في ذلك أيضاً، حتى يحصل منهم الرضا والتسليم، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ...﴾ الآية.

فأكد ذلك بضروب من التأكيد:

أحدها: تصدير الجملة المقسم عليها بحرف النفي المتضمن لتأكيد النفي المقسم عليه، وهو ذلك كتصدير الجملة المثبتة بـ"إن".

الثاني: القسم بنفسه سبحانه.

الثالث: أنه أتى بالمقسم عليه بصيغة الفعل الدالة على الحدوث، أي لا يقع

منهم إيمان ما حتى يحكموك.

الرابع: أنه أتى في الغاية بـ"حتى" دون إلا، المشعرة بأنه لا يوجد الإيمان إلا بعد

حصول التحكيم، لأن ما بعد حتى يدخل فيما قبلها.

الخامس: أنه أتى المحكم فيه بصيغة الموصول الدالة على العموم، وهو قوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: في جميع ما تنازعا فيه من الدقيقة والجليلة.
السادس: أنه ضم إلى ذلك انتفاء الحرج، وهو الضيق من حكمه.
السابع: أنه أتى به نكرة في سياق النفي، أي لا يجدون نوعاً من أنواع الحرج البتة.

الثامن: أنه أتى بذكر ما قضى به بصيغة العموم، فإنها إما مصدرية، أي: من قضائك، أو موصولة، أي: من الذي قضيته، وهذا يتناول كل فرد من أفراد قضائه.
التاسع: أنه لم يكتف منهم بذلك حتى يضيفوا إليه التسليم، وهو قدر زائد على التحكيم وانتفاء الحرج، فما كل من حكم انتفى عنه الحرج، ولا كل من انتفى عنه الحرج يكون مسلماً منقاداً، فإن التسليم يتضمن الرضا بحكمه والانقياد له.
العاشر: أنه أكد فعل التسليم بالمصدر المؤكد^(١).

□ □ □

فأقسم سبحانه بأجلّ مقسم به - وهو نفسه ﷻ - على أن لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله، حتى يحكموا رسول الله ﷺ في جميع موارد النزاع في جميع أبواب الدين.

فإن لفظة «ما» من صيغ العموم، فإنها موصولة تقتضي نفي الإيمان أو يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم.

ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه، حيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً - وهو الضيق والحصر - من حكمه، بل يقبلوا حكمه بالانشراح: ويقابلوه بالتسليم لا أنهم يأخذونه على إغماض، ويشربونه على قذى، فإن هذا منافٍ للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر.

ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر في حاله، ويطالعه في قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلده فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها ﴿كُلِّ الْأَنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿وَلَوْ أَلْفٌ مَّعَاذِيرٌ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم أن لو لم ترد؟ وكم من حرارة في أكبادهم منها؟ وكم من شجى في حلوقهم

(١) الصواعق المرسله (٤/١٥٢٠، ١٥٢١).

منها ومن موردها؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء، ويخزي يوم تُبلى السرائر. ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾، فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم مقام ذكره مرتين، وهو الخضوع له والانقياد لما حكم به طوعاً ورضاً، وتسليماً لا قهراً ومصابرة، كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه، يعلم أن سعاده وفلاحه في تسليمه إليه، ويعلم بأنه أولى به من نفسه، وأبرُّ به منها وأرحم به منها وأنصح له منها وأعلم بمصالحه منها وأقدر على تخليصها.

فمتى علم العبد هذا من رسول الله ﷺ استسلم له، وسلم إليه وانقادت له كل علة في قلبه، ورأى أن لا سعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد.

وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة، بل هو أمر انشق القلب واستقر في سويدائه، لا تفي العبارة بمعناه، ولا مطمع في حصوله بالدعوى والأمانى.

وَكُلُّ يَدْعِي وَضَلًّا لِّلَيْلَىٰ وَلَيْلَىٰ لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَٰكَ
وفرق بين علم الحب وحال الحب. فكثيراً ما يشبهه على العبد علم الشيء بحاله ووجوده، وفرق بين المريض والعارف بالصحة والاعتدال، وهو مثخن بالمرض، وبين الصحيح السليم، وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها. وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة، وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول وأُمَّته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك^(١).

فأخبر أن مرافقة المنعم عليهم لا تحصل إلا لمن أطاعه وأطاع رسوله، وأن ذلك هو الفضل منه سبحانه، وهو عليم أين يجعله وعند من يضعه ويخص به^(٢).

فذكر مراتب السعداء وهي أربعة، وبدأ بأعلاهم مرتبة ثم الذين يلونهم إلى آخر

(٢) الكلام على مسألة السماع (٩٨).

(١) طريق الهجرتين (٣٢٨).

المراتب، وهؤلاء هم أهل الجنة الذين هم أهلها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه^(١).

□ □ □

قال الشعبي: جاء رجل من الأنصار وهو يبكي إلى النبي ﷺ، فقال: «ما يبكيك يا فلان؟»، فقال: يا نبي الله، والله الذي لا إله إلا هو، لأنت أحب إلي من أهلي ومالي، والله الذي لا إله إلا هو، لأنت أحب إلي من نفسي، وأنا أذكرك أنا وأهلي، فيأخذني كذا، حتى أراك، فذكرت موتك وموتي فعرفت أنني لن أجامعك إلا في الدنيا، وأنت ترفع مع النبيين، وعرفت أنني إن دخلت الجنة كنت في منزل أدنى من منزلك، فلم يردّ النبي ﷺ شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ إلى قوله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِمًا﴾^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

[النساء: ٧٧].

جمعت بين التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، والحض على فعل الخير والزجر عن فعل الشر؛ إذ قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يتضمن حثهم على كسب الخير وزجرهم عن كسب الشر^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩].

[محل البحث في هاتين الآيتين الكريمتين هو الآية الثانية، ومحل الإشكال هو قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ مع قوله قبل ذلك: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ والجواب على ذلك هو قوله:]

ومنشأ الغلط الظن أن الحسنات والسيئات في الآية المراد بها الطاعات والمعاصي التي هي فعل العبد الاختياري، وهذا وهم محض في الآية، وإنما المراد بها النعم والمصائب.

(٢) الروح (ص ١٩).

(١) مفتاح دار السعادة (٨٥).

(٣) بدائع الفوائد (٨/٤).

ولفظ الحسنات والسيئات في كتاب الله يراد به هذا تارة وهذا تارة .
 فقوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾
 [آل عمران: ١٢٠].

وقوله: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا
 أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٥٠].

وقوله: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]

وقوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ
 مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ .

المراد في هذا كله النعم والمصائب .

أما قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾
 [الأنعام: ١٦٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله:
 ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

والمراد به في هذا كله الأعمال المأمور بها والمنهي عنها .

وهو سبحانه إنما قال: ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ ولم يقل: ما أصبت وما كسبت، فما يفعله
 العبد يقال فيه: ما أصبت وكسبت وعملت، كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ
 مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢]، وكقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ﴿وَمَنْ
 يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾^(١) [النساء: ١١٢]، وقول المذنب التائب: «يا رسول الله
 أصبت ذنباً فأقم عليّ كتاب الله»، ولا يقال في هذا: أصابك ذنب وأصابتك سيئة .

وما يفعل به بغير اختياره يقال فيه: أصابك، كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ
 فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ
 أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٥٠].

وقوله: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فجمع الله

في الآية بين ما أصابوا بفعلهم وكسبهم وما أصابهم مما ليس فعلاً لهم .

وقوله: ﴿وَمَنْ نَرَبِّضْ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ [التوبة: ٥٢]،

(١) وردت الآيتان بالأصل كأنهما آية واحدة .

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١]، وقوله: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

فقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ هو من هذا القسم الذي يصيبه العبد لا باختياره، وهذا إجماع من السلف في تفسير هذه الآية.

فليس بين اللفظين تناقض لا في المعنى ولا في العبارة؛ فإنه ﷺ ذكر عن هؤلاء الناكليين عن الجهاد أنهم إن تصبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا لرسوله ﷺ هذه من عندك، أي: بسبب ما أمرتنا به من دينك وتركنا ما كنا عليه أصابتنا هذه السيئات؛ لأنك أمرتنا بما أوجبها.

فالسيئات هاهنا هي المصائب والأعمال التي ظنوا أنها سبب المصائب هي التي أمروا بها، وقولهم في السيئة التي تصيبهم: (هذه من عندك) تتناول مصائب الجهاد التي حصلت لهم من الهزيمة والجراح، وقتل من قتل منهم وتتناول مصائب الرزق على وجه التطير والتشاؤم، أي أصابنا هذا بسبب دينك، كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]؛ أي: إذا جاءهم ما يسرون به ويتنعمون به من النعم قالوا: نحن أهل ذلك ومستحقوه، وإن أصابهم ما يسوؤهم قالوا: هذا بسبب ما جاء به موسى. وقال أهل القرية للمرسلين: ﴿إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨]، وقال قوم صالح له عليه الصلاة والسلام: ﴿أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

وكانوا يقولون لما ينالهم من سبب الحرب: هذا منك؛ لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة له، وللمصائب الحاصلة من غير جهة العدو: وهذا أيضاً منك، أي: بسبب مفارقتنا لديننا ودين آبائنا والدخول في طاعتك.

وهذه حال كل من جعل طاعة الرسول ﷺ سبباً لشر أصابه من السماء أو من الأرض، وهؤلاء كثير في الناس، وهم الأقلون عند الله تعالى قدراً، الأردلون عنده.

ومعلوم أنهم لم يقولوا: هذه من عندك، بمعنى: أحدثتها، ومن فهم هذا تبين له أن قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ لا يناقض قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ بل هذا تحقيق له فإنه سبحانه بين أن النعم والمصائب كلها من عنده، فهو الخالق لها المقدر لها المبثلي خلقه بها، فهي من عنده، ليس بعضها من عنده وبعضها خلقاً لغيره، فكيف يضاف بعضها إلى

الرسول ﷺ وبعضها إلى الله تعالى؟ ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يحدثها، فلم يبق إلا ظنهم أنه سبب لحصولها؛ إما في الجملة كحال أهل التطير، وإما في الواقعة المعينة كحال اللائمين له في الجهاد.

فأبطل الله سبحانه ذلك الوهم الكاذب والظن الباطل، وبين أن ما جاء به لا يوجب الشر البتة، بل الخير كله فيما جاء ﷺ به، والشر بسبب أعمالهم وذنوبهم، كما قال الرسل ﷺ لأهل القرية: ﴿طَائِرِكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٩]، ولا يناقض هذا قول صالح ﷺ لقومه: ﴿طَائِرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧]، وقوله تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]؛ بل هاتان النسبتان نظير هاتين النسبتين في هذه الآية وهي نسبة السيئة إلى نفس العبد، ونسبة الحسنة والسيئة إلى أنهما من عند الله ﷻ.

فتأمل اتفاق القرآن وتصديق بعضه بعضاً. فحيث جعل الطائر معهم والسيئة من نفس العبد، فهو على جهة السبب والموجب، أي الشر والشؤم الذي أصابكم هو منكم ومعكم فإن أسبابه قائمة بكم، كما تقول: شرك منك وشؤمك فيك يراد به العمل وطائرک معك.

وحيث جعل ذلك كله من عنده، فهو لأنه الخالق له المجازي به عدلاً وحكمة، فالطائر يراد به العمل وجزاؤه، فالمضاف إلى العبد العمل، والمضاف إلى الرب الجزاء، فطائرکم معكم طائر العمل وطائرکم عند الله طائر الجزاء. فما جاءت به الرسل ليس سبباً لشيء من المصائب، ولا تكون طاعة الله ورسوله سبباً لمصيبة قط، بل طاعة الله ورسوله لا توجب إلا خيراً في الدنيا والآخرة.

ولكن قد يصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم وتقصيرهم في طاعة الله ورسوله، كما لحقهم يوم أحد ويوم حنين، وكذلك ما امتحنوا به من الضراء وأذى الكفار لهم، ليس هو بسبب نفس إيمانهم ولا هو موجب، وإنما امتحنوا به ليخلص ما فيهم من الشر، فامتحنوا بذلك كما يمتحن الذهب بالنار ليخلص من غشه.

والنفوس فيها ما هو من مقتضى طبعها، فالامتحان يمحص المؤمن من ذلك الذي هو من موجبات طبعه، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، وقال: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فطاعة الله ورسوله لا تجلب إلا خيراً ومعصيته لا تجلب إلا شراً.

ولهذا قال سبحانه: ﴿مَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]؛ فإنهم لو فقهوا الحديث لعلموا أنه ليس في الحديث الذي أنزله الله على رسوله ما يوجب شراً البتة، ولعلموا أنه سبب كل خير، ولو فقهوا لعلموا أن العقول والفطر تشهد بأن مصالح المعاش والمعاد متعلقة بما جاء به الرسول، فلو فقهوا القرآن علموا أنه أمرهم بكل خير ونهاهم عن كل شر.

وهذا مما يبين أن ما أمر الله به يعلم حسنه بالعقل، وأنه كله مصلحة ورحمة ومنفعة وإحسان، بخلاف ما يقوله كثير من أهل الكلام الباطل: إنه سبحانه يأمر العباد بما لا مصلحة لهم فيه، بل يأمرهم بما فيه مضرة لهم، وقول هؤلاء تصديق وتقرير لقول المتطيرين: بالرسول^(١).

□ □ □

وقد ذمَّ [الله سبحانه] من لم يفقه كلامه، والفقه أخص من الفهم، وهو فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة، وبحسب تفاوت مراتب الناس في هذا، تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم^(٢).

□ □ □

ومما يوضح الأمر في ذلك أنه سبحانه لما قال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾، عقب ذلك بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وذلك يتضمن أشياء:

منها: تنبيه أمته على أن رسوله الذي شهد له بالرسالة إذا أصابه ما يكره فمن نفسه فما الظن بغيره؟

ومنها: أن حجة الله قد قامت عليهم بإرساله، فإذا أصابهم سبحانه بما يسوؤهم لم يكن ظالماً لهم في ذلك، لأنه قد أرسل رسوله إليهم يعلمهم بما فيه مصالحهم وما يجلبها لهم، وما فيه مضرتهم وما يجلبها لهم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

ومنها: أنه سبحانه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات الدالة على صدقه، وأنه رسوله حقاً؛ فلا يضره جحد هؤلاء الجاهلين الظالمين المتطيرين به لرسالته، وهو من شهد له رب السماوات والأرض.

(١) شفاء العليل (١٥٩ - ١٧٢).

(٢) إعلام الموقعين (١/٢١٩).

ومنها: أنهم أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتها حجة على إبطال رسالته، فشهد له بالرسالة، وأخبر أن شهادته كافية؛ فكان في ضمن ذلك إبطال قولهم: إن المصائب من عند الرسول ﷺ، وإثبات أنها من عند أنفسهم بطريق الأولى.

ومنها: ذم من لم يتدبر القرآن، ولم يفقهه وأن إعراضه عن تدبره وفقهه يوجب له من الضلال والشقاء بحسب إعراضه.

ومنها: إثبات الأسباب وإبطال قول من ينفىها ولا يرى لها ارتباطاً بمسبباتها.

ومنها: أن الخير كله من الله، والشر كله من النفس؛ فإن الشر هو الذنوب وعقوبتها، والذنوب من النفس وعقوباتها مترتبة عليها؛ والله هو الذي قدر ذلك وقضاه، وكل من عنده قضاء وقدرًا وإن كانت نفس العبد سببه، بخلاف الخير والحسنات؛ فإن سببها مجرد فضل الله ومنه وتوفيقه كما تقدم تقريره.

ومنها: أنه سبحانه لما رد قولهم: إن الحسنه من الله والسيئة من رسوله، وأبطله بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] دفع وهم من توهم أن نفسه لا تأثير لها في السيئة، ولا هي منها أصلاً بقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾، وخاطبه بهذا تنبيهاً لغيره كما تقدم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَقَنْدِلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤].

فلما أمره بالقتال أخبره أنه لا يكلف بغيره، بل إنما كلف نفسه، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لثلاث يتوهم سامع له، وإن لم يكلف بهم، فإنه يهملهم ويتركهم^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

وكل من أعان غيره على أمر بقوله أو فعله فقد صار شافعاً له.

والشفاعة للمشفوع له، هذا أصلها، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة فيصير له شافعاً في قضائها؛ لعجزه عن الاستقلال بها، فدخل في حكم هذه الآية كل متعاونين على خير أو شر بقول أو عمل، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

(٢) الصواعق المرسله (١/٣٩٠، ٣٩١).

(١) شفاء العليل (١٥٩ - ١٧٢).

وفي صحيح البخاري^(١): أن بريرة لما عتقت اختارت نفسها، فكان زوجها يمشي خلفها ودموعه تسيل على لحيته، فقال لها النبي ﷺ: «لو راجعتيه فإنه أبو ولدك»؛ فقالت: أتأمرني؟ قال: «لا إنما أنا شافع»، قالت: فلا حاجة لي فيه. فهذه شفاعه من سيد الشفعاء لمحبه إلى محبوبه، وهي من أفضل الشفاعات وأعظمها أجراً عند الله، فإنها تتضمن اجتماع محبوبين على ما يحبه الله ورسوله، ولهذا كان أحب ما لإبليس وجنوده التفريق بين هذين المحبوبين. وتأمل قوله تعالى في الشفاعه الحسنه: (يكن له نصيب منها)، وفي السيئه: (يكن لها كفل منها). فإن لفظ «الكفل» يشعر بالحمل والثقل، ولفظ «النصيب» يشعر بالحظ الذي ينصب طالبه في تحصيله، وإن كان كل منهما يستعمل في الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب وحظ الشر بالكفل^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]. قال الفراء: «أركسهم» ردهم إلى الكفر، وقال أبو عبيدة: يقال: أركست الشيء وركسته - لغتان - إذا رددته. والركس: قلب الشيء على رأسه، أو ردُّ أوله على آخره. والارتكاس: الارتداد. قال أمية^(٣):

فَأَرْكَسُوا فِي حَمِيمِ النَّارِ إِنَّهُمْ كَانُوا عُصَاةَ وَقَالُوا الْإِفْكَ وَالزُّورَا
ومن هذا يقال للروث: الركس، لأنه رد إلى حال النجاسة، ولهذا المعنى سمي رجيعاً والركس والنكس، والمركوس والمنكوس: بمعنى واحد. قال الزجاج: أركسهم: نكسهم وردهم. والمعنى: أنه ردهم إلى حكم الكفار من الذل والصغار.

(١) البخاري (٣١٩/٩) في الطلاق، باب: شفاعه النبي ﷺ في زوج بريرة.

(٢) روضة المحبين (٣٤٥، ٣٤٦).

(٣) أمية بن أبي الصلت، وانظر: تفسير الطبري وتعليق الشيخ الأستاذ محمود شاكر حفظه الله تعالى، على هذا البيت (٧/٩)، المعارف.

وأخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله، وأن إركاسه لهم كان بسبب كسبهم وأعمالهم، كما قال: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤].

بعث [ﷺ] سرية إلى إضم، وكان منهم أبو قتادة الحارث بن ربيعي ومحلم بن جثامة بن قيس، في نفر من المسلمين، فمر بهم عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له، معه مئبغ له ووطب من لبن، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله، لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتبعه، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر، فنزلت هذه الآية.

فلما قدموا أخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أقتلته بعدما قال آمنت بالله» (٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

نفى سبحانه التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين، ثم أخبر سبحانه عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم أخبر أنه فضلهم عليهم درجات.

وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس، من جهة أن القاعدين الذين فُضِّلَ عليهم المجاهدون بدرجات، إن كانوا هم القاعدين الذين فُضِّلَ عليهم أو لولو الضرر، فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقاً. وعلى هذا فما وجه استثناء أولي الضرر من القاعدين، وهم لا يستوون والمجاهدون أصلاً؟ فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحداً.

(٢) زاد المعاد (٢/٣٦٣).

(١) شفاء العليل (١٠١).

فهذا وجه الإشكال.

ونحن نذكر ما يزيل الإشكال بحمد الله. فنقول:

اختلف القراء في إعراب «غير»؛ فقرأ رافعاً ونصباً وهما في السبعة، وقرأ بالجر في غير السبعة. وهي قراءة أبي حيو^(١).

١ - فأما قراءة النصب فعلى الاستثناء، لأن «غير» يعرب في الاستثناء إعراب الاسم الواقع بعد «إلا» وهو النصب. هذا هو الصحيح.

وقالت طائفة: إعرابها نصب على الحال، أي: لا يستوي القاعدون غير مضرورين، أي لا يستون في حال صحتهم هم والمجاهدون.

والاستثناء أصح، فإن «غير» لا تكاد تقع حالاً في كلامهم إلا مضافة إلى نكرة، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاعٍ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله ﷺ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةٌ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١]، وقوله ﷺ: «مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى»^(٢).

فإن أضيفت إلى معرفة كانت تابعة لما قبلها. كقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ولو قلت: مرحباً بالوفد غير الخزايا ولا الندامى لجررت «غير»، هذا هو المعروف من كلامهم.

والكلام في عدم تعريف «غير» بالإضافة، وحسن وقوعها إذ ذاك حالاً له مقام آخر.

٢ - وأما بالرفع: فعلى النعت للقاعدين. هذا هو الصحيح.

وقال أبو إسحاق وغيره: هو خبر مبتدأ محذوف تقديره: الذين هم غير أولي الضرر.

والذي حملة على هذا: ظنه أن «غير» لا يقبل التعريف بالإضافة، فلا تجري صفة للمعرفة. وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها، سوى أن «غير» توغلت في الإبهام، فلا تتعرف بما يضاف إليه.

وجواب هذا: أنها إذا دخلت بين متقابلين لم يكن فيها إبهام لتعيينها ما تضاف إليه.

٣ - وأما قراءة الجر: ففيها وجهان أيضاً.

(١) انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد (٢٣٧).

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما (١٥٧/١) في الإيمان، باب: أداء الخمس من الإيمان.

أحدهما: - وهو الصحيح - أنه نعت للمؤمنين.
والثاني: - وهو قول المبرد -: إنه بدل منه . بناء على أنه نكرة . فلا ينعت به المعرفة .
وعلى الأقوال كلها: فهو مفهوم معنى الاستثناء، وأن نفي التسوية غير مسلط على ما أضيف إليه «غير» .

وقوله: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو مبين لمعنى نفي المساواة .
قالوا: والمعنى: فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر درجة واحدة؛ لامتيازهم عنهم بالجهد بنفسهم ومالهم . ثم أخبر سبحانه أن الفريقين كليهما موعود بالحسن، فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أي المجاهد والقاعد المضرور لاشتراكهم في الإيمان .

قالوا: فهذا حكم القاعد من أولي الضرر والمجاهد .
وأما القاعد من غير أولي الضرر: فقال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ .
وقوله: ﴿دَرَجَاتٍ﴾، قيل: هو نصب على البدل من قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقيل: تأكيد له، وإن كان بغير لفظه؛ لأنه هو هو في المعنى .

قال قتادة: الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة .

وقال ابن زيد: الدرجات التي فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع: وهي التي ذكرها الله في براءة، إذ يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا أَكْتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] فهذه خمس .
ثم قال: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١] فهاتان اثنتان .

وقيل: الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين حُضِرَ الفرس الجواد المضمهر سبعين سنة .

والصحيح: أن الدرجات هي المذكورة في حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري^(١) في صحيحه عن النبي ﷺ: أنه قال: «من آمن بالله ورسوله، وأقام

(١) رواه البخاري في مواضع منها: (١٤/٦) . في الجهاد، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله .

الصلاة، وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيله أو جلس في أرضه التي ولد فيها. قالوا: يا رسول الله، أفلا تخبر الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة».

قالوا: وجعل ﷺ التفضيل الأول بدرجة فقط، وجعل هاهنا بدرجات، ومغفرة ورحمة. وهذا يدل على أنه يفضل على غير أولي الضرر. فهذا تقرير هذا القول وإيضاحه^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨].

أراد بالحيلة التحيل على التخلص من بين الكفار، وهذه حيلة محمودة يثاب عليها، وكذلك الحيلة على هزيمة الكفار، كما فعل نعيم بن مسعود يوم الخندق، أو على تخليص ماله منهم كما فعل الحجاج بن علاط بامرأته^(٢)، وكذلك الحيلة على قتل رأس من رؤوس أعداء الله، كما فعل الذين قتلوا ابن أبي الحقيق اليهودي^(٣)، وكعب بن الأشرف^(٤)، وأبا رافع^(٥) وغيرهم، فكل هذه حيل محمودة محبوبة لله ومرضية له^(٦).

* * *

- (١) طريق الهجرتين (٣٣٣ - ٣٣٦).
- (٢) رواه الإمام أحمد ﷺ (١٣٨/٣)، وعبد الرزاق في المصنف (٤٦٦/٥)، وأبو يعلى (٦/١٩٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢٠/٣)، وابن هشام في السيرة (٢٩٣/٣)، والبخاري (٣٤٠/٢). والحديث صححه الهيثمي كما في مجمع الزوائد (١٥٤/٦)، وانظر: الإصابة لابن حجر (٢/٢١٤).
- (٣) هو سلام بن أبي الحقيق، أبو رافع، وهو ممن حزّب الأحزاب على رسول الله ﷺ. الطبقات لابن سعد (٩١/٢)، وابن هشام في السيرة (٢١٨/٣ - ٢٢٠).
- (٤) هو كعب بن الأشرف، اليهودي، الذي أذى الله ورسوله ﷺ، فقال ﷺ: «من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد أذى الله ورسوله...» الحديث. رواه البخاري (٣٩٠، ٣٩١) في المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، ومسلم (٤٤٤/٤) في الجهاد، باب قتل كعب بن الأشرف، والطبقات لابن سعد (٣٢/٢)، والسيرة لابن هشام (٣/١٢).
- (٥) أبو رافع، هو ابن أبي الحقيق، انظر: هامش رقم (٣) في هذه الصفحة.
- (٦) إعلام الموقعين (٣/٣٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاضته.

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فمغاظة الكفار غاية محمودة للرب مطلوبة له. فموافقته فيها من كمال العبودية، وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال^(١): «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان»، وفي رواية: «ترغيماً للشيطان»، وسماها: «المرغمتين».

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه، وموالاته ومعاداته لعدوه، يكون نصيبه من هذه المراغمة. ولأجل هذه المراغمة حمد التبخر بين الصفين، والخيلاء والتبخر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله، لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله ﷻ.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأولى.

وبالله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح، فأحدث له هذه المراغمة عبودية أخرى^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

فقد أخبر أنه لا يرضى بما يبيتون من القول، المتضمن البهت، ورمي البريء،

(١) صحيح مسلم (٥٧١).

(٢) مدارج السالكين (١/٢٢٦، ٢٢٧).

وشهادة الزور، وبراءة الجاني، فإن الآية نزلت في قصة هذا شأنها، مع أن ذلك كله بمشيئته. إذ أجمع المسلمون على أن ما شاء الله كان وما لم يشأ فلا يكون. ولم يخالف في ذلك إلا القدرية المجوسية، الذين يقولون: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء.

وتأويل من تأول الآية على أنه لا يرضاه ديناً، مع محبته لوقوعه: مما ينبغي أن يسان كلام الله عنه. إذ المعنى عندهم: أنه محبوب له، ولكن لا يثاب فاعله عليه، فهو محبوب لمشيئته، غير مثاب عليه شرعاً. ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه مسخوط للرب، مكروه له قدرأً وشرعاً، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه؛ فإنه يخلق ما يحب وما يكره^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾

[النساء: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

[البقرة: ٢٦٩].

وقال عن المسيح ﷺ: ﴿وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران:

٤٨].

الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقترنة بالكتاب، فالمفردة فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن.

قال ابن عباس: هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله. وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه. قال مجاهد: هي القرآن، والعلم والفقه، وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والعمل.

وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع في دين الله، كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما الحكمة المقرونة بالكتاب فهي السنة، كذلك قال الشافعي، وغيره من

الأئمة. وقيل: هي القضاء بالوحي، وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان. «والحكمة» حكمتان: علمية وعملية.

فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقاً وأمراً، قدراً وشرعاً.

والعملية كما قال صاحب المنازل: «هي وضع الشيء في موضعه»، قال: وهي على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حده ولا تعجله عن وقته ولا تؤخره عنه.

لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعاً وقدراً، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر، كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث، بأن تعطي كل مرتبة حقه الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها، فتكون متعدياً مخالفاً للحكمة، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها، فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه فتفوتها.

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً. فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض. وتعدي الحق: كسقيها فوق حاجتها بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد. وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله. وكذلك ترك الغذاء والشراب واللباس: إخلال بالحكمة. وتعدي الحد المحتاج إليه: خروج عنها أيضاً. وتعجيل ذلك قبل وقته: إخلال بها. وتأخيرها عن وقته: إخلال بها.

فالحكمة إذاً: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي. والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه. فالرجل الكامل: من له إرث كامل من أبيه، ونصف الرجل كالمراة له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى.

وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأكملهم أولو العزم. وأكملهم محمد ﷺ، ولهذا امتن الله ﷻ عليه وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَرُزُقِكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]. فكل نظام الوجود

مرتبط بهذه الصفة، وكل خلل في الوجود وفي العبد فسيبه: الإخلال بها.
فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيباً، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال: أقلهم منهم
ميراثاً، ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة. وآفات وأضدادها: الجهل،
والطيش، والعجلة. فلا حكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول، والله أعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا أَضِلَّهُمْ وَلَا أُمَيِّنُهُمْ وَلَا أَمُرُهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا أَمُرُهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعْذِبُهُمْ وَيَمَيِّنُهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠].

قال الضحاك: «مفروضاً، أي: معلوماً».

وقال الزجاج: «أي: نصيباً افترضته على نفسي».

قال الفراء: «يعني: ما جعل له عليه السبيل من الناس، فهو كالمفروض».

قلت: حقيقة الفرض هو التقدير. والمعنى: أن من اتبع الشيطان وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظه المقسوم، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه، فالناس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه، وأولياء الله وحزبه وخاصته.

وقوله: ﴿وَلَا أَضِلَّهُمْ﴾، يعني: عن الحق ﴿وَلَا أُمَيِّنُهُمْ﴾، قال ابن عباس: «يريد تعويق التوبة وتأخيرها».

وقال الكلبي: «أميئتهم أنه لا جنة، ولا نار ولا بعث».

وقال الزجاج: «أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة».

وقيل: لأمنيهم ركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع.

وقيل: أمنيهم طول البقاء في نعيم الدنيا، فأطيل لهم الأمل ليؤثروا على الآخرة.

وقوله: ﴿وَلَا أَمُرُهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ﴾.

(١) مدارج السالكين (٢/٤٧٨ - ٤٨٠).

البتك: القطع، وهو في هذا الموضع: قطع أذان البحيرة عند جميع المفسرين، ومن ههنا كره جمهور أهل العلم تثقيب أذني الطفل للحلق، ورخص بعضهم في ذلك للأثني دون الذكر، لحاجتها إلى الحلية، واحتجوا بحديث أم زرع، وفيه: «أناس من حلي أذني».

وقال النبي ﷺ: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع»، ونص أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على جواز ذلك في حق البنت وكراهته في حق الصبي.

وقوله: ﴿وَلَا تُرِيهِمْ فليَغَيِّرُكَ خَلْقَ اللَّهِ﴾، قال ابن عباس: «يريد دين الله»، وهو قول إبراهيم، ومجاهد، والحسن، والضحاك، وقتادة، والسدي، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير.

ومعنى ذلك: هو أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة، وهي ملة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَيتُ الْقَدِيمُ وَلَكِن كَثُرَ الْنَكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَأَقْوَهُ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١].

ولهذا قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، فهل تحسون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟» ثم قرأ أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية. متفق عليه (١).

فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما: فطرة الله بالكفر، وهو تغير الخلقة التي خلقوا عليها، وغيَّر الصورة بالجدع والبتك، فغير الفطرة إلى الشرك، والخلقة إلى البتك والجدع، فهذا تغيير فطرة الروح وهذا تغيير خلقة الصورة.

ثم قال: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمَيِّنُهُمْ﴾، فوعده: ما يصل إلى قلب الإنسان، نحو: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك، وستعلو على أقرانك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دول وستكون لك كما كانت لغيرك، ويطوّل أمله، ويعده بالحسن على شركه ومعاصيه، ويمينه الأمانى الكاذبة على اختلاف وجوهها.

(١) رواه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

والفرق بين وعده وتمنيته أنه يعد الباطل، ويمني المحال، والنفس المهينة التي لا قَدْر لها تغتذي بوعده وتمنيته، كما قال القائل:

مَنِيَّ إِن تَكُن حَقًّا تَكُن أَحْسَنَ الْمَنَى وَإِلَّا فَفَقَد عَشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغْدًا

فالنفس المبطلّة الخسيسة تلتذ بالأمانى الباطلة والوعود الكاذبة، وتفرح بها، كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها، فالأقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان وتمنيته، فإن الشيطان يمني أصحابها الظفر بالحق وإدراكه، ويعدهم الوصول إليه من غير طريقه، فكل مبطل فله نصيب من قوله: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرْوًا﴾^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾

[النساء: ١٢٣].

قال زياد بن الربيع: قلت لأبي بن كعب: آية من كتاب الله قد أحزنتني، قال: وما هي؟ قلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال: ما كنت أراك إلا أفقه مما أرى، إن المؤمن لا يصيبه عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. وسئلت عائشة عن هذه الآية فقالت: سألت رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة، هذه معاقبة الله تعالى لعبده، بما يصيبه من الحمى والبلية، والشوكة، وانقطاع شسعه، حتى البضاعة يضعها في كفه فيفقدتها فيفزع لها فيجدها في أضبته، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير»^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام وأنه لا شيء أحسن منه، بأنه يتضمن إسلام الوجه لله، وهو إخلاص القصد والتوجه، والعمل له سبحانه. والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن لا مرتكب للقبح الذي يكرهه الله، بل هو مخلص لربه محسن في عبادته، بما يحبه ويرضاه، وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم في محبته لله وحده، وإخلاص الدين له وبذل النفس والمال في مرضاته ومحبته، وهذا احتجاج

(٢) عدة الصابرين (٩٧).

(١) إغاثة اللهفان (١/١٠٥ - ١٠٧).

منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان؛ بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر، وأنه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال، وهذا استدلال بغير الأمر المجرد، بل هو دليل على أن ما كان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواه^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية، وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد، عدواً كان أو ولياً، وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب، إذ هي متعلقة بأمر الله وخبره.

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مضاد لأمر الله، مُنافٍ لما بعث به رسوله. والقيام فيها بالقسط وظيفه خلفاء الرسول في أمته وأمنائه بين أتباعه، ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولعباده.

وأولئك هم الوارثون حقاً.

لا من يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه معياراً على الحق وميزاناً له، يعادي من خالفه، ويوالي من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته، فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرضه الله على كل أحد؟ وهو في هذا الباب أعظم فرضاً، وأكبر وجوباً؟.

ثم قال: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ الشاهد هو المخبر، فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور.

وأمر تعالى أن يكون شهيداً له مع القيام بالقسط، وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط، وأن تكون لله لا لغيره.

□ □ □

وقال في الآية الأخرى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]؛ فتضمنت الآياتان أموراً أربعة:

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٧).

أحدها: القيام بالقسط.

الثاني: أن يكون لله.

الثالث: الشهادة بالقسط.

الرابع: أن تكون لله.

واختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله، وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن، ليس هذا موضع ذكره.

□ □ □

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ أَوْ آلُؤَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، فأمر سبحانه أن يقام بالقسط ويشهد على كل أحد ولو كان أحب الناس إلى العبد، فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه اللذين هما أصله، وأقاربه الذين هم أخص به، والصديق من سائر الناس، فإن كان ما في العبد من محبة لنفسه ولوالديه وأقاربه يمنعه من القيام عليهم بالحق، ولا سيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم، فإنه لا يقوم به في هذا الحال إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما.

وهذا يمتحن به العبد إيمانه، فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحلّه منه، وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يجفوه، فإنه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم أن يحيف عليهم، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط، فلا يدخله ذلك البغض في باطل، ولا يقصر به هذا الحب عن الحق.

كما قال بعض السلف: «العادلُ هو الَّذي إذا غضب لم يُدخِلْهُ غَضَبُهُ في باطلٍ، وإذا رضي لم يُخرِجْهُ عن الحقِّ».

اشتملت الآيتان على هذين الحكمين: وهما القيام بالقسط، والشهادة به، على الأولياء والأعداء.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَأَلَّهِ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ منكم، هو ربهما ومولاهما وهما عبيده، كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنياً لغناه، ولا فقيراً لفقره، فإن الله أولى بهما منكم.

وقد يقال فيه معنى آخر أحسن من هذا، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط، وأداء الشهادة على الغني والفقير.

أما الغني فخوفاً على ماله، وأما الفقير فلإعدامه وأنه لا شيء له؛ فتساهل

النفوس في القيام عليه بالحق. فقيل لهم: الله أولى بالغني والفقير منكم، أعلم بهذا وأرحم بهذا، فلا تتركوا أداء الحق والشهادة على غني ولا فقير.
ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾.

نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل.
وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله، وتقديره عند البصريين كراهية أن تعدلوا، أو حذر أن تعدلوا، فيكون اتباعكم للهوى كراهية العدل أو فراراً منه. وعلى قول الكوفيين التقدير: أن لا تعدلوا، وقول البصريين أحسن وأظهر.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ نَعِصْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.
ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق، محذراً منهما ومتوعداً عليهما.
أحدهما: اللّي.
والآخر: الإعراض.

فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقاً إلى دفعها، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها، فكان شيطاناً أحرص، وتارة يلويها ويحرفها.
الليّ مثال الفتل وهو التحريف.

وهو نوعان: ليّ في اللفظ، وليّ في المعنى.
- فالليّ في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق، إما بزيادة لفظة، أو نقصانها، أو إبدالها بغيرها.

- ولي في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظاً وإرادة غيره، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي ﷺ، فهذا أحد نوعي الليّ.

- والنوع الثاني منه: ليّ المعنى وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم، وبجهالة ما لم يرده، أو يسقط منه لبعض المراد به، ونحو هذا من لي المعاني، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ نَعِصْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ولما كان الشاهد مطالباً بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرها، كان الإعراض نظير الكتمان.

والليّ نظير تغييرها وتبديلها.

فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم.

والمقصود: أن الواجب الذي لا يتم الإيمان - بل لا يحصل مسمى الإيمان - إلا

به . مقابلة النصوص بالتلقي والقبول والإظهار لها ودعوى الخلق إليها، ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللي أخرى .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

قيل: بالحجة والبرهان، فإن حجتهم داحضة عند ربهم، وقيل: هذا في الآخرة وأما في الدنيا فقد يتسلطون عليهم بالضرر لهم، والأذى، وقيل: لا يجعل لهم عليهم سبيلاً مستقرة، بل وإن نصرروا عليهم في وقت، فإن الدائرة تكون عليهم، ويستقر النصر لأتباع الرسول ﷺ^(١).

فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضاد الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تسببوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسببوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته، والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطاناً، حتى يجعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلطاً وقهراً، فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه^(٢).

وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الآخرة، ويجيب آخرون: بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الحجة. والتحقيق: أن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى.

فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور، مكفي، مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهراً وباطناً. وقد قال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهْتُوا وَلَا تَحْرَبُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَدَعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكُبَهُمُ آخِذًا بِكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

(١) الصواعق المرسلة (٤/١٣٩٣ - ١٣٩٤). (٢) إغاثة اللهفان (١/١٠١).

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم، التي هي جند من جنود الله، يحفظهم بها، ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم، فيبطلها عليهم، كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم، إذ كانت لغيره، ولم تكن موافقة لأمره^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

تجد ضمن هذا الخطاب: أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده بغير جرم، كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً، فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء. وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكذب والحسبان الباطل علواً كبيراً، فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة، فهو منزّه عن خلاف ذلك، كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بَيَّاتٍ اللَّهُ وَقَلْبُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: ١٥٥].

أخبر سبحانه أن كفرهم بالحق بعد ما علموه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ حتى صارت غلفاً.

والغلغلة: جمع أغلف وهو القلب الذي قد غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه، وكل شيء في غلافه فهو أغلف وجمعه: غلف، يقال: سيف أغلف وفرس غلفاء ورجل أغلف إذا لم يختن.

والمعنى: قلوبنا علينا غشاوة وغطاء؛ فلا تفقه ما تقول يا محمد ﷺ، ولم تع شيئاً^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَعَوْلِهِمْ عَلَى مَرِيءٍ مُّبِينًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٨٢، ١٨٣).

(٢) عدة الصابرين (٢٨٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (١٠٨).

الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿النساء: ١٥٦ - ١٥٨﴾.

وقد اختلف في معنى قوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، فقيل: المعنى: ولكن شبه للذين صلبوه بأن ألقى شبهه على غيره فصلبوا الشبه، وقيل: المعنى: ولكن شبه للنصارى؛ أي: حصلت لهم الشبهة في أمره، وليس لهم علم بأنه ما قتل وما صلب، ولكن لما قال أعداؤه: إنهم قتلوه وصلبوه واتفق رفعه من الأرض وقعت الشبهة في أمره، وصدقهم النصارى في صلبه لتتم الشناعة عليهم، وكيف ما كان، فالمسيح صلوات الله وسلامه عليه لم يُقتل ولم يصلب يقيناً لا شك فيه^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فِيظَلُّرٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾

[النساء: ١٦٠].

فأي شيء أصرح من هذا؟ حيث أخبر سبحانه أنه حرمه عليهم مع كونه طيباً في نفسه؛ فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يكن ليجمع الطيب والتحريم. وقد أخبر تعالى أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالاً عقوبة لهم؛ فهذا تحريم عقوبة بخلاف التحريم على هذه الأمة، فإنه تحريم صيانة وحماية^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ

وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

الآية صريحة في أن المراد بها تكليم أخص من الإيحاء، فإنه ذكر أنه أوحى إلى نوح والنبیین من بعده، وهذا الوحي هو التكليم العام المشترك، ثم خص موسى باسم خاص وفعل خاص وهو كلم تكليماً، ورفع توهم إرادة التكليم العام عن الفعل بتأكيده بالمصدر، وهذا يدل على اختصاص موسى بهذا التكليم، ولو كان المراد تكليماً ما، لكان مساوياً لما تقدم من الوحي أو دونه وهو باطل.

(٢) مفتاح دار السعادة (٣٣٧).

(١) هداية الحيارى (٢٥٢، ٢٥٣).

وأيضاً فإن التأكيد في مثل هذا السياق صريح في التعظيم وتثبيت حقيقة الكلام والتكليم؛ فعلاً ومصدراً، ووصفه بما يشعر بالتقليل مضاد للسياق، فتأمله.
وأيضاً فإن الله سبحانه قال لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]؛ فلو كان التكليم الذي حصل له تكليماً ما، كان مشاركاً لسائر الأنبياء فيه، فلم يكن لتخصيصه بالكلام معنى.

وأيضاً فإن وصف المصدر ههنا مؤذن بقلته، وإن نوعاً من أنواع التكليم حصل له؛ وهذا محال ههنا فإن الإلهام تكليم ما، ولهذا سمّاه الله تعالى وحياً، والوحي تكليم ما فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمْرًا مِّن مَّوَسَىٰ أَن أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١] ونظائره.

وقال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه.
فكل هذه الأنواع تسمى تكليماً ما.

وقد كلم الله سبحانه موسى واصطفاه على البشر بكلامه له.
وأيضاً، فإن الله سبحانه حيث ذكر موسى ذكر تكليمه له باسم التكليم الخاص دون الاسم العام، كقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرِيكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ بل ذكر تكليمه له بأخص من ذلك، وهو تكليم خاص كقوله: ﴿وَوَدَّعَيْنَاهُ مِنَ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، فناداه وناجاه والنداء والنجاه أخص من التكليم لأنه تكليم خاص، فالنداء تكليم من البعد يسمعه المنادي، والنجاه تكليم من القرب^(١).



سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّيرِ وَالْمُؤْمِنِ وَالتَّقْوَىٰ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضاً، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحاليتين، وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق.

فأما ما بينه وبين الخلق: من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم، وصحبته لهم، تعاوناً على مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى، اللذان هما جماع الدين كله، وإذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر، إما تضمناً، وإما لزوماً، ودخوله فيه تضمناً أظهر؛ لأن البر جزء مسمى التقوى، وكذلك التقوى، فإنه جزء مسمى البر. وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر.

ونظير هذا: لفظ «الإيمان والإسلام»، و«الإيمان والعمل الصالح»، و«الفقير والمسكين»، و«الفسوق والعصيان»، و«المنكر والفاحشة»، ونظائره كثيرة. وهذه قاعدة جلييلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة، أشكلت على طوائف كثيرة من الناس.

ولنذكر من هذا مثلاً واحداً يستدل به على غيره، وهو البر والتقوى. فإن حقيقة البر: هو الكمال المطلوب من الشيء والمنافع التي فيه والخير، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها في الكلام.

ومنه «البرُّ» بالضم لمنافعه وخيره، بالإضافة إلى سائر الحبوب.

ومنه رجل بار، وبر، وكرام بررة، والأبرار.

فالبر: كلمة لجميع أنواع الخير والكمال والمطلوب من العبد، وفي مقابلته الإثم. وفي حديث النواس بن سمعان: أن النبي ﷺ قال له: «جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ»^(١).

فالإثم: كلمة جامعة للشور والعيوب التي يذم العبد عليها.

فيدخل في مسمى البر: الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة، ولا ريب أن التقوى جزء هذا المعنى. وأكثر ما يعبر عن بر القلب، وهو وجود طعم الإيمان فيه وحلاوته، وما يلزم ذلك من طمأنينته، وسلامته، وانسراحه وقوته، وفرحه بالإيمان. فإن للإيمان فرحة وحلاوة ولذة في القلب، فمن لم يجدها فهو فاقد الإيمان أو ناقصه. وهو من القسم الذي قال الله ﷻ فيهم: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسَلْنَا لَكُمْ لِقَاءَ الْيَوْمِ فَأَنبَأُوا بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْحَقُّ أَكْبَرُ مِنْهُمُ يَا قَوْمِ﴾ [الحجرات: ١٤].

فهؤلاء - على أصح القولين - مسلمون غير منافقين وليسوا بمؤمنين إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم فبإشراها حقيقة.

وقد جمع الله خصال البر في قوله تعالى: ﴿يَسَّ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها.

وأنة الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة.

وأنة الأعمال القلبية التي هي حقائقه، من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب، وأصول الإيمان الخمس. ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هي خصال التقوى بعينها، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأما «التقوى» فحقيقتها العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً، أمراً ونهياً، فيفعل ما أمر الله به؛ إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده، ويترك ما نهى الله عنه؛ إيماناً بالنهي وخوفاً من وعيده.

(١) هذا اللفظ من حديث «وابصة بن معبد» ﷺ، أخرجه الإمام أحمد ﷺ (٤/٢٢٧، ٢٢٨)، والدارمي (١٦١/٢) برقم (٢٥٣٣)، وأما حديث النواس بن سمعان ﷺ الذي أراد ابن القيم، فرواه مسلم (٢٥٥٣) بلفظ: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في الصدر، وكرهت أن يطلع عليه الناس).

كما قال طلق بن حبيب: «إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله».

وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى.

فإن كل عمل لا بد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك، بل لا بد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب.

ولهذا كثيراً ما يُقَرَّنُ بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا»، و«مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا»^(١)، ونظائره.

فقوله: «على نور من الله» إشارة إلى الأصل الأول: وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه.

وقوله: «ترجو ثواب الله» إشارة إلى الأصل الثاني: وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها توقع العمل، ولها يقصد به.

ولا ريب أن هذا اسم لجميع أصول الإيمان وفروعه، وأن البر داخل في هذا المسمى.

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر، كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾. فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها، فإن البر مطلوب لذاته؛ إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدم.

وأما التقوى فهي الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه، ولفظها يدل على هذا. فإنها فُعْلَى، ومن وقى يقي، وكان أصلها «وَقْوَى»، فقلبوا الواو تاء، كما قالوا: تُرَاث من الوراثة، وتُجَاه من الوجه، وتُخْمة من الوخمة، ونظائرها. فلفظها دال على أنها من الوقاية، فإن المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية، فالوقاية من باب دفع الضرر، فالتقوى والبر كالعافية والصحة.

وهذا باب شريف ينتفع به انتفاعاً عظيماً في فهم ألفاظ القرآن ودلالته، ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، فإنه هو العلم النافع.

(١) رواه البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠).

وقد ذم الله تعالى في كتابه من ليس له علم بحدود ما أنزل الله على رسوله. فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين. إحداهما: أن يُدخل في مسمى اللفظ ما ليس منه، فيحكم له بحكم المراد من اللفظ، فيساوي بين ما فرق الله بينهما. والثانية: أن يخرج من مسمى بعض أفراده الداخلة تحته، فيسلب عنه حكمه، فيفرق بين ما جمع الله بينهما. والذكي الفطن يتفطن لإفراد هذه القاعدة وأمثالها، فيرى أن كثيراً من الاختلاف أو أكثره إنما ينشأ من هذا الموضوع. وتفصيل هذا لا يفي به كتاب ضخيم. والمقصود: أن المقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم: هو التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علماً وعملاً. فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه، فاقترضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنساني قائماً بعضه ببعضه، معيناً بعضه لبعضه.

□ □ □

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. و﴿الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ في جانب النهي نظير: ﴿الزَّيْرِ وَالنَّفَقَاتِ﴾ في جانب الأمر. والفرق بين الإثم والعدوان، كالفرق ما بين محرم الجنس ومحرم القدر. فالإثم: ما كان حراماً لجنسه. والعدوان: ما حرم لزيادة في قدره وتعدي ما أباح الله منه. فالزنا والخمر والسرقة ونحوها: إثم. ونكاح الخامسة واستيفاء المجني عليه أكثر من حقه ونحوه: عدوان. فالعدوان: هو تعدي حدود الله التي قال فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقال في موضع آخر: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]. فنهى عن تعديها في آية وعن قربانها في آية، وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام، ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتكون منه، وتارة لا تكون داخلة فيه فتكون لها حكم المقابلة، فالاعتبار الأول نهى عن تعديها، وباعتبار الثاني نهى عن قربانها.

□ □ □

فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس: وهو أن تكون مخالطته لهم تعاوناً على البر والتقوى، علماً وعملاً.

وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالى: فهو إثارة طاعته وتجنب معصيته، وهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق، وواجهه بينه وبين الحق. ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر، ولا يتم له أداء الواجب الثاني إلا بعزل الخلق من البين، والقيام له بالله إخلاصاً ومحبة وعبودية.

فينبغي التفتن لهذه الدقيقة، التي كل خلل يدخل على العبد في أداء هذين الأمرين الواجبين، إنما هو من عدم مراعاتها علماً وعملاً، وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر قدس الله روحه: «كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخييط، ولم يزل أمره فرطاً»^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

تأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام؛ إيداناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل، ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيداناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم، إذ هم القائمون به المقيمون له. وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمة حقاً، وهم قابلوها.

وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خصوا به دون الأمم. وفي إتمام النعمة بـ«على» المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة، فجاء بـ«أتممت» في مقابلة (أكملت)، و«عليكم» في مقابلة «لكم»، و«نعمتي» في مقابلة (دينكم)، وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله: (ورضيت لكم الإسلام ديناً).

(١) الرسالة التبوكية (١٢ - ٢٣).

وكان بعض السلف يقول: يا له من دين لو أن له رجالاً^(١).
والنعمة نعمتان: نعمة مطلقة ونعمة مقيدة.

فالنعمة المطلقة: هي المتصلة بسعادة الأبد، وهي نعمة الإسلام والسنّة. وهي التي أمرنا الله ﷻ أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراط أهلها، ومن خصهم بها، وجعلهم أهل الرفيق الأعلى، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة، وأصحابها أيضاً هم المعنيون بقول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، فأضاف الدين إليهم، إذ هم المختصون بهذا الدين القيم دون سائر الأمم.

والدين تارة يضاف إلى العبد، وتارة يضاف إلى الرب، فيقال: الإسلام دين الله الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه، ولهذا يقال في الدعاء: اللهم انصر دينك الذي أنزلت من السماء.

ونسب الكمال إلى الدين والتمام إلى النعمة، مع إضافتها إليه؛ لأنه هو وليها ومسديها إليهم. وهم محل محض النعمة قابلين لها. ولهذا يقال في الدعاء المأثور للمسلمين: «واجعلهم مثين بها عليك، قابليها، وأتممها عليهم»^(٢)، وأما الدين فلما كانوا هم القائمين به، الفاعلين له بتوفيق ربهم نسبة إليهم، فقال: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وكان الإكمال في جانب الدين والإتمام في جانب النعمة.

واللفظتان - وإن تقاربتا وتواخيتا - فبينهما فرق لطيف يظهر عند التأمل. فإن الكمال أخص بالصفات والمعاني، ويطلق على الأعيان والذوات، ولكن باعتبار صفاتها وخواصها، كما قال النبي ﷺ: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد»^(٣)، وقال

(١) مفتاح دار السعادة (٣٢٤).

(٢) صحيح البخاري (٥٤٣/٦، ٥٤٤) في أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ...﴾ الآية.

(٣) مسلم (٢٩٠/٥) في فضائل الصحابة، باب: من فضائل خديجة أم المؤمنين.
أقول: ليس في الحديث ذكر خديجة ﷺ، انظر: البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١) [الشامي].

عمر بن عبد العزيز: «إن للإيمان حدوداً وفرائض، وسنناً وشرائع، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان».

وأما الإتمام فيكون في الإيمان والمعاني، ونعم الله أعيان وأوصاف ومعان. وأما دينه فهو شرعه المتضمن لأمره ونهيه ومحابه. فكانت هبة الكمال إلى الدين والتمام إلى النعمة أحسن، كما كانت إضافة الدين إليهم والنعمة إليه أحسن. والمقصود: أن هذه النعمة هي النعمة المطلقة: وهي التي اختصت بالمؤمنين. وإذا قيل: ليس الله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو صحيح.

والنعمة الثانية: النعمة المقيدة كنعمة الصحة والغنى وعافية الجسد وبسطة الجاه، وكثرة الولد والزوجة الحسنة، وأمثال هذه. فهذه النعمة مشتركة بين البر والفاجر، والمؤمن والكافر وإذا قيل: لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار، فهو حق. فلا يصح إطلاق السلب والإيجاب إلا على وجه واحد، وهو أن النعمة المقيدة لما كانت استدراجاً للكافر، ومآلها إلى العذاب والشقاء، فكأنها لم تكن نعمة، وإنما كانت بلية، كما سماها الله تعالى في كتابه كذلك. فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]؛ أي: ليس كل من أكرمه في الدنيا ونعمته فيها فقد أنعمت عليه، وإنما كان ذلك ابتلاء مني له واختباراً، ولا كل من قدرت عليه رزقه فجعلته بقدر حاجته بقدر فضله أكون قد أهنته، بل أبتلي عبدي بالنعمة كما أبتليه بالمصائب.

فإن قيل: كيف يلتزم هذا المعنى ويتفق مع قوله: ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ فأثبت له الإكرام، ثم أنكر عليه قوله: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾، وقال: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس ذلك إكراماً مني هو ابتلاء، فكأنه أثبت له الإكرام ونفاه.

قيل: الإكرام المثبت غير الإكرام المنفي، وهما من جنس النعمة المطلقة والمقيدة، فليس هذا الإكرام المقيد بموجب لصاحبه أن يكون من أهل الإكرام المطلق.

وكذلك: أيضاً إذا قيل: إن الله أنعم على الكافر نعمة مطلقة، ولكنه رد نعمة الله وبدلها. فهو بمنزلة من أعطي مالا ليعيش به فرماه في البحر، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَبَدَّلْنَاهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فهدايته إياهم نعمة منه عليهم، فبدلوا نعمة الله، وآثروا عليها الضلال.

فهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر نعمة أم لا؟^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

وأما تقديم غسل الوجه ثم اليد ثم مسح الرأس ثم الرجلين في الوضوء، فمن يقول: إن هذا الترتيب واجب وهو الشافعي وأحمد ومن وافقهما، فالآية عندهم اقتضت التقديم وجوباً لقرائن عديدة:

أحدها: أنه أدخل ممسوحاً بين مغسولين وقطع النظر عن نظيره. ولو أريد الجمع المطلق لكان المناسب أن يذكر المغسولات متسقة في النظم والممسوح بعدها، فلما عدل إلى ذلك دل على وجوب ترتيبها على الوجه الذي ذكره الله.

الثاني: أن هذه الأفعال هي أجزاء فعل واحد مأمور به وهو الوضوء؛ فدخلت الواو عاطفة لأجزائه بعضها على بعض، والفعل الواحد يحصل من ارتباط أجزائه بعضها ببعض، فدخلت الواو بين الأجزاء للربط فأفادت الترتيب، إذ هو الربط المذكور في الآية. ولا يلزمه كونها لا تفيد الترتيب بين أفعال لا ارتباط بينهما نحو: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النور: ٥٦]، أن لا تفيد بين أجزاء فعل مرتبطة بعضها ببعض، فتأمل هذا الموضع ولطفه، وهذا أحد الأقوال الثلاثة في إفادة الواو للترتيب؛ وأكثر الأصوليين لا يعرفونه ولا يحكونه، وهو قول «ابن أبي موسى» من أصحاب أحمد، ولعله أرجح الأقوال.

الثالث: أن لبداء الرب تعالى بالوجه دون سائر الأعضاء خاصة، فيجب مراعاتها وأن لا تلغى وتهدر فيهدر ما اعتبره الله ويؤخر ما قدمه الله؛ وقد أشار النبي ﷺ إلى أن ما قدمه الله فإنه ينبغي تقديمه ولا يؤخر، بل يقدم ما قدمه الله ويؤخر ما أخره الله، فلما طاف بين الصفا والمروة بدأ بالصفا، وقال: «نبدأ بما بدأ الله به»^(٢).

وفي رواية النسائي: «ابدؤوا بما بدأ الله به» على الأمر، فتأمل بداءته بالصفا معللاً ذلك بكون الله بدأ به فلا ينبغي تأخيره.

وهكذا يقول المرتبون للوضوء سواء: نحن نبدأ بما بدأ الله به، ولا يجوز تأخير

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (١ - ٣). (٢) رواه مسلم (١٢١٨).

ما قدمه الله ويتعين البداءة بما بدأ الله به، وهذا هو الصواب؛ لمواظبة المبين عن الله مراده ﷺ على الوضوء المرتب، فاتفق جميع من نقل عنه وضوءه كلهم عن إيقاعه مرتباً، ولم ينقل عنه أحد قط أنه أخل بالترتيب مرة واحدة، فلو كان الوضوء المنكوس مشروعاً لفعله، ولو في عمره مرة ليبين جوازه لأُمَّته، وهذا بحمد الله واضح^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦].

فألحقت الأمة أنواع الحدث الأصغر على اختلافها في نقضها بالغاائط. والآية لم تنص من أنواع الأصغر إلا عليه، أو على اللبس أو على قول من فسره بما دون الجماع، وألحقت الاحتلام بملامسة النساء، وألحقت واجد ثمن الماء بواجده، وألحقت من خاف على نفسه أو بهائمه من العطش إذا توضأ بالعدام، فجوزت له التيمم وهو واجد للماء، وألحقت من خشي المرض من شدة برد الماء بالمريض في العدول عنه إلى البدل.

وإدخال هذه الأحكام وأمثالها في العمومات المعنوية التي لا يستريب من له فهم عن الله ورسوله في قصد عمومها، وتعليق الحكم به، وكونه متعلقاً بمصلحة العبد، أولى من إدخالها في عمومات لفظية بعيدة التداول لها^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوِّمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فإذا كان قد نهى عباده أن يحملهم بغضهم لأعدائه أن لا يعدلوا عليهم مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله، فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحملهم بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول تصيب وتخطئ على أن لا يعدل فيهم، بل يجرد لهم العداوة وأنواع الأذى، ولعله لا يدري أنهم أولى بالله ورسوله وما جاء به منه؛ علماً وعملاً ودعوة إلى الله على بصيرة وصبراً من قومهم على الأذى في الله وإقامة الحجة لله، ومعدرة لمن خالفهم بالجهل، لا كمن نصب معالمه صادرة عن

(٢) إعلام الموقعين (١/٢٦٨).

(١) بدائع الفوائد (١/٦٩، ٧٠).

آراء الرجال، فدعا إليها وعاقب عليها وعادى من خالفها بالعصبية وحمية الجاهلية. والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَحْرَفُونَ
الْكَرَّ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

والقسوة: الشدة والصلابة في كل شيء. يقال: حجر قاس وأرض قاسية لا تنبت شيئاً.

قال ابن عباس: قاسية عن الإيمان.

وقال الحسن: طبع عليها.

والقلوب ثلاثة: قلب قاس وهو اليابس الصلب الذي لا يقبل صورة الحق ولا تنطبع فيه. وضده القلب اللين المتماسك، وهو السليم من المرض الذي يقبل صورة الحق بليته ويحفظه بتماسكه، بخلاف المريض الذي لا يحفظ ما ينطبع فيه لميعانه ورخاوته كالمائع الذي إذا طبعت فيه الشيء قبل صورته بما فيه من اللين، ولكن رخاوته تمنعه من حفظها.

فخير القلوب القلب الصلب الصافي اللين؛ فهو يرى الحق بصفائه ويقبله بليته، ويحفظه بصلابته، وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ: «القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها»^{(٢)(٣)}.

* * *

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

قيل: هي سبل تجمع في سبيل واحد، وهي بمنزلة الجواد والطرق في الطريق الأعظم، فهذه هي سبل شعب الإيمان وهو شعبة، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشعبها، وهذه السبيل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره وطاعة أمره، وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها ليس إلا^(٤)!

(١) بدائع الفوائد (٢/١٦٥، ١٦٦).

(٢) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٦٩١): «أخرجه الطبراني في المعجم الكبير» (المنتقى منه)، . . . وإسناده قوي، رجاله كلهم ثقات أثبات غير بقية، وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء . . . وهو هنا قد صرح بالتحديث . . .

(٣) شفاء العليل (١٠٥، ١٠٦). (٤) حادي الأرواح (٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَفْقَرُوا لِقَوْمِهِمْ أَدْرَأُكُمْ عَلَى اللَّهِ عَالِمِينَ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠ - ٢٦].

(ومن تلاعب الشيطان باليهود): أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه، وفرق بهم البحر، وأراهم الآيات والعجائب ونصرهم وآواهم وأعزهم، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين.

ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب الله لهم، وفي ضمن هذا بشارتهم بأنهم منصورون، ومفتوح لهم، وأن تلك القرية لهم. فأبوا طاعته وامتنال أمره، وقابلوا هذا الأمر والبشارة، بقولهم: ﴿فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

وتأمل: تल्पف نبي الله تعالى موسى ﷺ بهم، وحسن خطابه لهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وبشارتهم بوعد الله لهم: بأن القرية مكتوبة لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أديبارهم، وأنهم إن عصوا أمره، ولم يمثلوا: انقلبوا خاسرين. فجمع لهم بين الأمر والنهي، والبشارة والندارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم السالفة، فقابلوه أقبح المقابلة، فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم: ﴿يَمْوَسَّىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، فلم يوقروا رسول الله وكليمه، حتى نادوه باسمه، ولم يقولوا: يا نبي الله. وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، ونسوا قدرة جبار السماوات والأرض الذي يذل الجبابرة لأهل طاعته، وكان خوفهم من أولئك الجبارين - الذين نواصيهم بيد الله - أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه، وكانوا أشد رهبة في صدورهم منه.

ثم صرحوا بالمعصية والامتناع عن الطاعة. فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا﴾، فأكدوا معصيتهم بأنواع التأكيد:

أحدها: تمهيد عذر العصيان بقولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.

والثاني: تصريحهم بأنهم غير مطيعين، وصدور الجملة بحرف تأكيد، وهو «إِنَّ»، ثم حققوا النفي بأداة «لن» الدالة على نفي المستقبل، أي: لا ندخلها الآن، ولا في المستقبل.

ثم علقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بطاعته والانقياد إلى أمره، من الذين يخافون الله. هذا قول الأكثرين، وهو الصحيح.

وقيل: من الذين يخافون من الجبارين، أسلما واتبعا موسى ﷺ: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبُيُوتَ﴾؛ أي: باب القرية، فاهجموا عليهم، فإنهم قد ملثوا منكم رعباً ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ثم أرشدهم إلى ما يحقق النصر والغلبة لهم وهو التوكل .
فكان جواب القوم أن: ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّآ لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ .

فسبحان من عظم حلمه؛ حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة، ويواجه رسوله بمثل هذا الخطاب، وهو يحلم عنهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل وسعهم حلمه وكرمه، وكان أقصى ما عاقبهم به: أن ردهم في برية التيه أربعين عاماً يظلل عليهم الغمام من الحر، وينزل عليهم المن والسلوى .

وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال ^(١): «لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا فقاعدون، ولكننا نقاتل عن يمينك وشمالك، وبين يديك ومن خلفك . فرأيت رسول الله ﷺ أشرق وجهه لذلك، وسُرَّ به .

فلما قابلوا نبي الله بهذه المقابلة قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ^(٢) .

قال الأخفش في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ قال: أراد الطول والقوة والعظم . ذهب في هذا إلى الجبار من النخل والطويل الذي فات الأيدي . ويقال: رجل جبار إذا كان طويلاً عظيماً قوياً تشبيهاً بالجبار من النخل، قال قتادة: كانت لهم أجسام وخلق عجيبة ليست لغيرهم .

وقيل: الجبار ههنا من جبره على الأمر إذا أكرهه عليه .

قال الأزهري وهي لغة معروفة وكثير من الحجازيين يقولونها ^(٣) .

(١) هو في صحيح البخاري (٣٣٥/٧) في المغازي، باب: قصة غزوة بدر... وأخرجه في التفسير (١٢٢/٨) .

(٢) إغاثة اللهفان (٣١٢/٢، ٣١٤) . (٣) شفاء العليل (١٢١) .

وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فجعل التوكل شرطاً في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وأحسن ما قيل في تفسير الآية: إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه، على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه، علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله، والله أعلم^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مِنَ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِعَٰثِرٍ نَّفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس، وقال: معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبه في مقدار الإثم والعقوبة، واللفظ لم يدل على هذا، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿سَمِعُوعَنَ الْكَاذِبِ سَمْعُوعَنَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفٍ وَلَا كَلِمَةٍ مِّنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ...﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله، أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك وإلا حرقه.

كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها يردون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب بحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته، فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق وتعوضت بالباطل عن كلام الله

(١) طريق الهجرتين (٢٣٧، ٢٣٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (٩٠).

(٣) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٢٢١، ٢٢٢).

تعالى ورسوله، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسمع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبت من كلام الله»، فالقلب الطاهر لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل المحرفين للحق، لم يحصل لها الطهارة، ولا يصح أن تفسر الإرادة ههنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمراً ومحبة، ولم يرده منهم كوناً، فأراد الطهارة لهم وأمرهم بها، ولم يرد وقوعها منهم لما له في ذلك من الحكمة التي فواتها أكره إليه من فوات الطهارة منهم، وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير ^(١) في القدر.

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه، فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه، ولهذا حرم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين ولهذا يقال لهم: ﴿طَيِّبَتْ فَاَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. أي: ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ نُوْقِفُهُمُ الْمَلَكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا أَدْخُلْنَا الْجَنَّةَ إِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فالجنة لا يدخلها خبيث ولا من فيه شيء من الخبيث.

فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية كالكافر، لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعدما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم لا يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط، حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهدبون وينقون من بقايا بقيت عليهم قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذبوا ونُقُوا أذن لهم في دخول الجنة، والله سبحانه

(١) هو كتابه النفيس «شفاء العليل...»، وهو مطبوع.

بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر.

فهما طهارتان: طهارة البدن وطهارة القلب، ولهذا شرع للمتوضى أن يقول عقيب وضوءه^(١): «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين»؛ فطهارة القلب بالتوبة وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٤ - ٤٧].

فأكد هذا التأكيد، وقرر هذا التقرير في موضع واحد؛ لعظم مفسدة الحكم بغير ما أنزله، وعموم مضرته وبلية الأمة به^(٣).

وقال رحمه الله تعالى: قال ابن عباس: ليس بكفر ينقل عن الملة. بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر. وكذلك قال طاوس وقال عطاء: هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له. وهو قول عكرمة وهو تأويل مرجوح، فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام. وهذا تأويل عبد العزيز الكناني. وهو أيضاً بعيد؛ إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل، وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعة وبيعضه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمداً عن غير جهل به ولا خطأ في التأويل، حكاها البغوي^(٤) عن العلماء عموماً.

(١) حديث صحيح مستقيم الإسناد. كذا قال محدث مصر الشيخ أحمد شاكر رحمته الله. في سنن الترمذي (٧٩/١). فانظر: تخريجه هناك مفصلاً فإنه هام ونفيس.

(٢) إغاثة اللفهان (١/٥٥، ٥٦). (٣) إعلام الموقعين (١/٢٨٨).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٢/٥٧، ٥٨).

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب. وهو قول قتادة، والضحاك، وغيرهما. وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ، فلا يُصار إليه.

ومنهم: من جعله كفراً ينقل عن الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكافرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم. فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانياً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة؛ فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه حكم الله فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه؛ فهذا مخطئ، له حكم المخطئين^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن عباس: سبيلاً وسنة.

وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، فالسبيل الطريق وهي المنهاج، والسنة الشريعة وهي تفاصيل الطريق وحزوناته، وكيفية المسير فيه، وأوقات المسير، وعلى هذا فقوله: سبيلاً وسنة: يكون السبيل المنهاج، والسنة الشريعة فالمقدم في الآية للمؤخر في التفسير، وفي لفظ آخر: سنة وسبيلاً، فيكون المقدم للمؤخر للتالي^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَن أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْنَا أَنبَاً يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُؤُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

أخبر سبحانه أن كل حكم خالف حكمه الذي أنزله على رسوله فهو من أحكام الهوى، لا من أحكام العقل، وهو من أحكام الجاهلية، لا من حكم الله والهدى. فأخبر ﷺ: أنه ليس وراء ما أنزله إلا اتباع الهوى، الذي يضل عن سبيله، وليس وراء حكمه إلا حكم الجاهلية، وكل هذه الآراء والمعقولات المخالفة لما جاء به الرسول، هي من قضايا الهوى وأحكام الجاهلية، وإن سماها أربابها

(١) مدارج السالكين (١/٣٣٦، ٣٣٧). (٢) شفاء العليل (٨١، ٨٢).

بالقواطع العقلية، والبراهين اليقينية كتسمية المشركين أوثنانهم وأصنامهم آلهة، وتسمية المنافقين السعي في الأرض بالفساد وصد القلوب عن الإيمان إصلاحاً وإحساناً وتوفيقاً^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِبٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فقد ذكر لهم أربع علامات:

أحدها: أنهم ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، قيل: معناه: أرقاء، رحماء مشفقين عليهم. عاطفين عليهم. فلما ضمن ﴿أَذِلَّةٌ﴾ هذا المعنى عداه بأداة «على»؛ قال غطاء: للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]^(٢).

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة، فكل محب يأخذه اللوم على محبوبه؛ فليس بمحب على الحقيقة. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه اللوم^(٣)
قال: وكذلك وصف أهل المحبة في قوله: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِبٍ﴾، فوصفهم بست صفات:

أحدها: محبتهم له.

والثانية: محبته لهم.

والثالثة: ذلهم ولينهم على أوليائه.

والرابعة: عزهم وشدتهم على أعدائه.

والخامسة: جهادهم في سبيله.

(١) الصواعق المرسلة (٣/١٠٤٦).

(٢) لم يذكر المصنف الثانية، وهي في قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الشامي].

(٣) مدارج السالكين (٣/٢٢).

والسادسة: احتمالهم لوم الخلق لهم على ذلك، وأنهم ليسوا بمنزلة من يحتمل الملام والعدل في محبة ما لا يحبه الله، ولا بمنزلة من أظهر من مكروهات الرب تبارك وتعالى، ما يلامون عليه، ويسمون بالملامية؛ إظهاراً منهم لما يلامون عليه في الظاهر، وهم منطوون في الباطن على الصدق والإخلاص ستراً لحالهم عن الناس، فهم فعلوا ذلك لعدم احتمالهم الملام، والأولون احتملوا الملام في ما لا يحبه الله، وأحباء الله فعلوا ما أحبه الله، ولم تأخذهم فيه لومة لائم، فالأقسام ثلاثة: أحدها: من يصده اللوم عن محاب الله.

والثاني: مَنْ لا تأخذه في محبة الله لومة لائم.

والثالث: مَنْ يظهر ما يلام عليه إخفاء لقيامه بمحاب الله.

فالأول مفرط، والثالث مؤمن ضعيف، والوسط هو الوسط الخيار، وهو المؤمن القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وأعلى ما يحبه الله ورسوله الجهاد في سبيل الله، واللائمون عليه كثير، إذ أكثر النفوس تكرهه^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤].

فهذا إما أن يراد به: العداوة التي بين اليهود والنصارى، أو يراد به العداوة التي بين فرقهم، وإن كانوا ملة واحدة، وهذا لا يمنع قبول شهادة بعضهم على بعض، فإنها عداوة دينية، فهي كالعداوة بين فرق هذه الأمة وإلباسهم شيعاً، وإذاقة بعضهم بأس بعض^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

كسر عتبة بن أبي وقاص رباعية النبي ﷺ يوم أحد، قال بعض العلماء^(٣)

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٨٨، ٢٨٩).

(٢) الطرق الحكيمة (١٩١).

(٣) قائل ذلك: الإمام العلامة «السهيلي» في الروض الأنف (٥/٤٧٠). وانظر: الطبقات لابن

سعد (٢/٤٥)، والسيرة لابن هشام (٣/٤٢).

«الأخير: التتن في الفم وغيره، والهتم، يقال: هتم فاهُ يهتمهُ: ألقى مقدّم أسنانه»، مستفاد من القاموس المحيط.

بالأخبار: إنه استقرئ نسله فلا يبلغ أحد منهم الحلم إلا أبخر وأهتم، يعرف ذلك فيهم، وهو من شؤم الآباء على الأبناء. واختلف فيما وقع للنبي ﷺ من هذا ونحوه، فقيل: وهو قبل نزول قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وقيل: العصمة الموعود بها عصمة النفس من القتل لا عصمته من أذاهم بالكلية، بل أبقي الله تعالى لرسوله ثواب ذلك الأذى، ولأتمته حسن التأسي به إذا أودى أحدهم نظر إلى ما جرى عليه ﷺ فتأسى وصبر، وللمؤذنين الأشقياء الأخذة الربابية^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُنِيتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقد تضمنت هذه الحجة دليلين ببطان إلهية المسيح وأمه: أحدهما: عن القيام بنفسيهما، بل هي محتاجة فيما يقيمها إلى الغذاء والشراب. والمحتاج إلى غيره لا يكون إلهاً؛ إذ من لوازم الإله أن يكون غنياً. الثاني: أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان، من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها، ولهذا، والله أعلم، كنى الله سبحانه عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الدهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة. فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولداً من هذا الجنس؟!

ولو كان يليق به ذلك أو يمكن، لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب، ولا يكون منه الفضلات المستقدرة التي يُستحي منها ويرغب عن ذكرها. فانظر ما تضمنه هذا المعنى العظيم الجليل الذي لا يجد سامعه مغمراً له، ولا مطعناً فيه، ولا تشكيكاً ولا سؤالاً يورده عليه، بل يأخذ بقلبه وسمعه^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

فلفظ الخمر عام في كل مسكر، فأخرج بعض الأشربة المسكرة عن شمول اسم

(١) بدائع الفوائد (٣/٢١١، ٢١٢). (٢) الصواعق المرسله (٢/٤٨٢، ٤٨٣).

الخمير لها تقصير به، وهضم لعمومه، بل الحق ما قاله صاحب الشرع: كل مسكر خمير^(١)، وإخراج بعض أنواع الميسر عن شمول اسمها لها تقصير أيضاً به، وهضم لمعناه، فما الذي جعل النرد الخالي عن العوض من الميسر، وأخرج الشطرنج عنه مع أنه من أظهر أنواع الميسر، كما قال غير واحد من السلف: إنه ميسر، وقال علي كرم الله وجهه: هو ميسر العجم^(٢).

ومن أعظم مكاييد الشيطان: ما نصبه للناس من الأنصاب والأزلام، التي هي من عمله، وقد أمر الله تعالى باجتنب ذلك، وعلق الفلاح باجتنابه.

فالأنصاب: كل ما نصب يعبد من دون الله: من حجر، أو شجر أو وثن، أو قبر. وهي جمع، واحدها نصب، كطنب وأطناب.

قال مجاهد وقتادة وابن جريج: كانت حول البيت أحجار كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويُسْرَحُونَ اللحم عليها، وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها. قالوا: وليست بأصنام، إنما الصنم ما يصور وينتقش.

وقال ابن عباس: هي الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى.

وقال الزجاج: حجارة كانت لهم يعبدونها، وهي الأوثان.

وقال الفراء: هي الآلهة التي كانت تعبد من أحجار وغيرها.

وأصل اللفظة: الشيء المنصوب الذي يقصده من رآه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ مَرْتَبًا إِنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفَسُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

قال ابن عباس: إلى غاية، أو علم يسرعون. وهو قول أكثر المفسرين.

وقال الحسن: يعني: إلى أنصابهم، أيهم يستلمها أولاً.

قال الزجاج: هذا على قراءة من قرأ «نُصْبٌ» بضمين^(٣)، كقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَىٰ

النُّصْبِ﴾ [المائدة: ٣] قال: ومعناه: أصنام لهم.

والمقصود: أن النصب كل شيء نصب من خشبة، أو حجر، أو علم،

والإيفاض: الإسراع.

وأما الأزلام، فقال ابن عباس رضي الله عنه: هي قداح كانوا يستقسمون بها الأمور، أي:

يطلبون بها علم ما قسم لهم.

(١) رواه مسلم (٢٠٠٣).. (٢) إعلام الموقعين (١/٢٨٢).

(٣) قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: «إلى نُصْبٍ» بضم النون والصاد. وقرأ الباقون: «إلى نُصْبٍ» بفتح النون وسكون الصاد. (القراءات لابن مجاهد: ٦٥١).

وقال سعيد بن جبير: كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يغزو، أو يجلس، استقسم بها.

وقال أيضاً: هي القدحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية في أمورهم. أحدهما عليه مكتوب: أمرني ربي، والآخر: نهاني ربي. فإذا أرادوا أمراً ضربوا بها، فإن خرج الذي عليه أمرني، فعلوا ما همُّوا به. وإن خرج الذي عليه نهاني تركوه.

وقال أبو عبيد: الاستقسام: طلب القسمة.

وقال المبرد: الاستقسام: أخذ كل واحد قَسْمَهُ.

وقيل: الاستقسام: إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح، كقسم اليمين.

وقال الأزهري: وأن تستقسموا بالأزلام: أي تطلبوا من جهة الأزلام ما قسم لكم من أحد الأمرين.

وقال أبو إسحاق الزجاج وغيره: الاستقسام بالأزلام حرام. ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجم: لا نخرج من أجل نجم كذا، وأخرُج من أجل طلوع نجم كذا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤].

وذلك دخول في علم الله ﷻ الذي هو غيب عنا. فهو حرام كالأزلام التي ذكرها الله تعالى.

والمقصود: أن الناس قد ابتلوا بالأنصاب والأزلام، فالأنصاب للشرك والعبادة، والأزلام للتكهن، وطلب علم ما استأثر الله به، هذه للعلم، وتلك للعمل، ودين الله ﷻ مضاة لهذا وهذا، والذي جاء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إبطالهما، وكسر الأنصاب والأزلام.

فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين: من شجرة أو عمود أو وثن، أو قبر، أو خشبة، أو عين، ونحو ذلك.

والواجب هدم ذلك كله أو محو أثره. كما أمر النبي ﷺ علياً ﷺ بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض. كما روى مسلم^(١) في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي. قال: قال لي علي ﷺ: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته».

(١) رواه مسلم (٩٦٩).

وعَمَى الصحابة بأمر عمر رضي الله عنه قبر دانيال، وأخفوه عن الناس ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أصحابه فقطعها. رواه ابن وضاح^(١) في كتابه، فقال: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها. فخاف عليهم الفتنة.

قال عيسى بن يونس: هو عندنا من حديث ابن عون عن نافع: أن الناس كانوا يأتون الشجرة، فقطعها عمر رضي الله عنه.

فإذا كان هذا فعل عمر رضي الله عنه بالشجرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن، وبايع تحتها الصحابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فماذا حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان، التي قد عظمت الفتنة بها، واشتدت البلية بها؟ وأبلغ من ذلك: أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هدم مسجد الضرار^(٢).

ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فساداً منه، كالمساجد المبنية على القبور. فإن حكم الإسلام فيها أن تهدم كلها، حتى تسوى بالأرض. وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القباب التي على القبور، يجب هدمها كلها؛ لأنها أسست على معصية الرسول، لأنه قد نهى عن البناء على القبور كما تقدم. فبناءً أسس على معصيته ومخالفته بناءً غير محترم، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعاً.

وقد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بهدم القبور المشرفة كما تقدم. فهدم القباب والبناء والمساجد التي بنيت عليها أولى وأحرى، لأنه لعن متخذي المساجد عليها. ونهى عن البناء عليها، فيجب المبادرة والمساعدة إلى هدم ما لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فاعله ونهى عنه. والله عز وجل يقيم لدينه وسنة رسوله من ينصرهما، ويذُبُّ عنهما فهو أشد غيرة وأسرع تغييراً. وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سرج على قبر، وطفئه.

(١) انظر كتاب: «البدع والنهي عنها» ص(٤٢) لمحمد بن وضاح القرطبي.

(٢) وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَّكًا وَكُفْرًا... إلى قوله... لَا نُقَمَّرُ فِيهِ أَبَدًا...﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

وانظر: سيرة ابن هشام (١٧١/٤)، وتفسير ابن كثير (٤١٤/٢).

فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولا يصح هذا الوقف. ولا يحل إثباته وتنفيذه^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَيْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

حرم الله سبحانه وتعالى السكر لشيئين ذكرهما [في الآية الكريمة]. فأخبر الله سبحانه أنه يوجب المفسدة الناشئة من النفس بواسطة زوال العقل ويمنع المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه، وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس، ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة. بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه؛ وإلا لم يكن شرطاً له. إذا ثبت هذا فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته.

وفي إعادة الفعل في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، دون الاكتفاء بالفعل الأول، سر لطيف وفائدة جليلة، سنذكرها عن قريب، إن شاء الله تعالى^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن سَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠١، ١٠٢].

وقد اختلف في هذه الأشياء المسؤول عنها: هل هي أحكام قدرية أو أحكام شرعية؟ على قولين:

(١) إغاثة اللهفان (٢٠٧ - ٢١٠).

(٢) روضة المحبين (١٥٢).

(٣) الرسالة التبوكية (٤٥، ٤٦)، وانظر ذلك في تفسيره للآية (٥٩) النساء.

فقيل إنها أحكام شريعة، عفا الله عنها، أي: سكت على تحريمها فيكون سؤالهم عنها سبب تحريمها، ولو لم يسألوا؛ لكانت عفواً، ومنه قوله ﷺ وقد سئل عن الحج^(١): «أفي كل عام؟ فقال: لو قلت: نعم، لوجبت، ذروني ما تركتكم، وإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم». ويدل على هذا التأويل حديث أبي ثعلبة المذكور: «إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً»^(٢) الحديث، ومنه الحديث الآخر: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدد حدوداً فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها»^(٣).

وفسرت بسؤالهم عن أشياء من الأحكام القدرية؛ كقول عبد الله بن حذافة: من أبي يا رسول الله؟^(٤) وقول آخر: أين أبي يا رسول الله؟ قال: «في النار»^(٥).

والتحقيق أن الآية تعم النهي عن النوعين، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْرُسْكُمْ تَسْأَلُونَ عَنْهُ، وَأَمَّا فِي أَحْكَامِ الْخَلْقِ وَالْقَدْرِ، فَإِنَّ يَسْأَلُونَ عَنْهُ مَا يَكْرَهُونَ مِمَّا يَسْأَلُونَ عَنْهُ، وَأَمَّا فِي أَحْكَامِ التَّكْلِيفِ، فَإِنَّ يَسْأَلُونَ عَنْهُ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ تَكْلِيفَهُ مِمَّا سَأَلُوا عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ أَنْزَارَهُمْ تَدْرُسْكُمْ﴾، فيه قولان:

أحدهما: إن القرآن إذا نزل بها ابتداءً بغير سؤال فسألتم عن تفصيلها وعلمها، أبدي لكم، وبين لكم، والمراد بحين النزول زمنه المتصل به لا الوقت المقارن للنزول، وكأن في هذا إذناً لهم في السؤال عن تفصيل المنزل ومعرفته بعد إنزاله، ففيه رفع لتوهم المنع من السؤال عن الأشياء مطلقاً.

والقول الثاني: إنه من باب التهديد والتحذير، أي: ما سألتكم عنها في وقت نزول الوحي جاءكم ما سألتكم عنه بما يسوؤكم، والمعنى: لا تتعرضوا للسؤال عما يسوؤكم بيانه، وإن تعرضتم له في زمن الوحي أبدي لكم.

(١) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

(٣) رواه الدارقطني (٤/٢٩٧، ٢٩٨)، وفيه «نهشل الخراساني» كذاب. وانظر: (٦٩/١) من مشكاة المصابيح.

(٤) رواه البخاري (٩٢)، ومسلم (٢٣٦٠). (٥) رواه مسلم (٢٠٣).

وقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾، أي: عن بيانها خبراً وأمراً؛ بل طوى بيانها عنكم رحمة ومغفرة وحلماً والله غفور رحيم، فعلى القول الأول؛ عفا الله عن التكليف بها توسعة عليكم، وعلى القول الثاني؛ عفا الله عن بيانها لئلا يسوءكم بيانها.

وقوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾، أراد نوع تلك المسائل لا أعيانها، أي: قد تعرض قوم من قبلكم لأمثال هذه المسائل فلما بينت لهم كفروا بها، فاحذروا مشابهتم، والتعرض لما تعرضوا له، ولم ينقطع حكم هذه الآية؛ بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه، بل يستعفي ما أمكنه ويأخذ بعفو الله.

ومن هاهنا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(١): يا صاحب الميزاب لا تخبرنا، لما سأله رفيقه عن مائه: أظاهر أم لا؟ وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدي له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه، وستره، فلعله يسوؤه إن أبدي له، فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله، فإنه سبحانه يكره إبداءها، ولذلك سكت عنها، والله أعلم^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَنتَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَاصْلَبْتُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ لَهُمَا لَ تَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦].

(١) لم أعر عليه بهذا اللفظ، ولم يبين صاحب «فقه السنة» وهو ممن استشهد به مصدره، والذي في الموطأ (٢٣/١، ٢٤): أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص رضي الله عنه حتى وردوا حوضاً. فقال عمرو بن العاص لصاحب الحوض: يا صاحب الحوض هل ترد حوضك السباع؟ فقال عمر بن الخطاب: يا صاحب الحوض، لا تخبرنا، فإننا نرد على السباع وترد علينا. ورواه الدارقطني (١/٣٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (١/١٤٢)، وذكره النووي في المجموع (١/١٧٣، ١٧٤)، وقال: «هذا الأثر إسناده صحيح إلى يحيى بن عبد الرحمن لكنه مرسل منقطع، فإن يحيى وإن كان ثقة فلم يدرك عمر، بل ولد في خلافة عثمان. هذا هو الصواب... إلا أن هذا المرسل له شواهد تقويه...»، وابن قدامة صاحب المغني (١/٨٧)، ولم يذكر صاحب كنز العمال إلا هذه الرواية (٣/٨٠٤)، وانظر: مشكاة المصابيح، حديث رقم (٤٨٦)، (٩/٥٨٢)، والله أعلم.

(٢) إعلام الموقعين (١/١٠٩ - ١١١).

ذكر محمد بن إسحاق^(١) عن أبي النضر بن باذان - مولى أم هانئ - عن ابن عباس عن تميم الداري، قال: برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء - وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام - فأتيا الشام - وقدم زيد بن أبي مريم - مولى بني سهم - ومعه جام من فضة وهو أعظم تجارته، فمرض فأوصى إليهما، قال تميم: فلما ما أخذنا الجاه فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء، فلما قدمنا دفعنا ماله إلى أهله، فسألوا عن الجاه؟ فقلنا: ما دفع إلينا غير هذا، فلما أسلمت تأثمت من ذلك، فأتيت أهله، فأخبرتهم الخبر، وأديت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فأتوا به إلى النبي ﷺ، فسألهم البيعة فلم يجيبوا، فأحلفهم بما يعظم به على أهل دينهم فأنزل الله ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، فحلف عمرو بن العاص وأخو سهم، فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بداء^(٢).

وروى يحيى بن أبي زائدة^(٣) عن محمد بن القاسم عبد الملك بن سعيد بن جبيرة عن أبيه عن ابن عباس قال: كان تميم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة بالتجارة، فخرج رجل معهم من بني سهم، فتوفي بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما، فدفعنا تركته إلى أهله، وحبسنا جاماً من فضة مخصوصاً بالذهب، فتفقدته أولياؤه، فأتوا رسول الله ﷺ فحلفهما: ما كتمنا، ولا أضعنا، ثم عرف الجاه بمكة، فقالوا: اشتريناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله: إن هذا لجام السهمي، ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذاً لمن الظالمين فأخذ الجاه، وفيهما نزلت هذه الآية. والقول بهذه الآية هو قول جمهور السلف.

قالت عائشة ؓ: سورة المائدة آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها حلالاً فحللوه، وما وجدتم فيها حراماً فحرموه.

وصح^(٤) عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: هذا لمن مات وعنده المسلمون،

(١) أبو النضر بن باذان، هو محمد بن السائب الكلبي وضاع، ورواه الترمذي (٢٤١/٥) في التفسير، حديث رقم (٣٠٥٩)، وقال: حديث غريب وليس إسناده بصحيح... وانظر: الطبري (١٠٠/٧)، وابن كثير (١٢٠/٢)، والدر المنثور (٢٢٠/٣). وانظر: ترجمة (عدي بن بداء) في الإصابة (٤٠٠/٦).

(٢) رواه البخاري تعليقاً برقم (٢٧٨٠)، والترمذي برقم (٣٠٥٩).

(٣) رواه الحاكم (٣١١/٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) رواه الطبري (١٠٨/٧).

فأمر الله أن يشهد في وصيته عدلين من المسلمين، ثم قال تعالى: ﴿أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين، فأمر الله ﷻ أن يشهد رجلين من المسلمين، فإن ارتيب بشهادتهما، استحلفا بعد الصلاة بالله: لا نشترى بشهادتنا ثمناً، وقد تقدم أن أبا موسى حكم بذلك.

وقال سفيان الثوري: عن أبي إسحاق السبيعي عن عمرو بن شرحبيل قال: لم يُنسخ من سورة المائدة شيء.

قال وكيع: عن شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب: ﴿أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من أهل الكتاب. وفي رواية صحيحة عنه: من غير أهل ملتكم. وصح عن شريح قال: لا تجوز شهادة المشركين على المسلمين إلا في الوصية، ولا تجوز في الوصية إلا أن يكون مسافراً.

وصح عن إبراهيم النخعي: من غيركم من غير أهل ملتكم.

وصح عن سعيد بن جبير: ﴿أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: إذا كان في أرض الشرك، فأوصى إلى رجلين من أهل الكتاب، فإنهما يحلفان بعد العصر، فإن اطلع بعد حلفهما على أنهما خانا، حلف أولياء الميت، أنه كذا وكذا، واستحقوا. وصح عن الشعبي: ﴿أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، قال: من اليهود والنصارى. وصح ذلك عن مجاهد قال: من غير أهل الملة. وصح عن يحيى مثله، وصح عن ابن سيرين ذلك.

فهؤلاء أئمة المؤمنين: أبو موسى الأشعري، وابن عباس، وروي نحو ذلك عن علي رضي الله عنه، وذكر ذلك أبو محمد بن حزم^(١)، وذكره أبو يعلى عن ابن مسعود ولا مخالف لهم من الصحابة.

ومن التابعين: عمرو بن شرحبيل، وشريح، وعبيدة، والنخعي، والشعبي، والسعيدان، وأبو مجلز، وابن سيرين، ويحيى بن يعمر، ومن تابعي التابعين: كسفيان، ويحيى بن حمزة، والأوزاعي.

وبعد هؤلاء: كأبي عبيد، وأحمد بن حنبل، وجمهور فقهاء أهل الحديث، وهو قول جميع أهل الظاهر.

وخالفهم آخرون، ثم اختلفوا في تخريج الآية على ثلاثة طرق:

(١) «المحلى» لابن حزم (٩/٤٠٥، ٤٠٦).

أحدها: أن المراد بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾؛ أي: من غير قبيلتكم، وروي ذلك عن الحسن، وروي عن الزهري أيضاً.

والثاني: أن الآية منسوخة، وهذا مروى عن زيد بن أسلم وغيره.

والثالث: أن المراد بالشهادة فيها: إيمان الوصي بالله تعالى للورثة لا الشهادة المعروفة.

قال القائلون بها: أما دعوى النسخ فباطلة، فإنه يتضمن أن حكمها باطل، لا يحل العمل به، وأنه ليس من الدين، وهذا ليس بمقبول إلا بحجة صحيحة لا معارض لها، ولا يمكن أحداً قط أن يأتي بنص صحيح صريح متأخر عن هذه الآية مخالف لها، لا يمكن الجمع بينه وبينها، فإن وجد إلى ذلك سبيلاً صح النسخ، وإلا فما معه إلا مجرد الدعوى الباطلة، ثم قد قالت أعلم نساء الصحابة بالقرآن: إنه لا منسوخ في المائدة، وقاله غيرها أيضاً من السلف، وعمل به أصحاب رسول الله ﷺ، بعده. ولو جاز قبول دعوى النسخ بلا حجة لكان كل من احتج عليه بنص يقول: هو منسوخ، وكان القائل لذلك لم يعلم أن كون النص منسوخاً، أن الله سبحانه حرم العمل به، وأبطل كونه من الدين والشرع ودون هذا مفاوز تنقطع فيها الأعناق.

قالوا: وأما قول من قال: المراد بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير قبيلتكم: فلا يخفى بطلانه وفساده، فإنه ليس في أول الآية خطاب لقبيلة دون قبيلة، بل هو خطاب عام لجميع المؤمنين، فلا يكون غير المؤمنين إلا من الكفار، هذا مما لا شك فيه، والذي قال من غير قبيلتكم: زلة عالم، غفل عن تدبر الآية.

وأما قول من قال: إن المراد بالشهادة أيمان الأوصياء للورثة فباطل من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه قال: ﴿شَهَدَةُ بَيْنَكُمْ﴾، ولم يقل: أيمان بينكم.

الثاني: أنه قال: ﴿أَنْتَانِ﴾، واليمين لا تختص بالاثنتين.

الثالث: أنه قال: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾، واليمين لا يشترط فيها ذلك.

الرابع: أنه قال: ﴿أَوْ عَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، واليمين لا يشترط فيها شيء من ذلك.

الخامس: أنه قيد ذلك بالضرب في الأرض، وليس ذلك شرطاً في اليمين.

السادس: أنه قال: ﴿وَلَا تَكْفُرُ شَهَدَةُ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيْمِينَ﴾، وهذا لا يقال في

اليمين في هذه الأفعال، بل هو نظير قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْفُرْهَا فَاِنَّهُٗٓ عِندَ رَبِّهِٖٓ كَإِنَّمَا وَقَفَ عَلَىٰ قَلْبِهِٗٓ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

السابع: أنه قال: ﴿ذَلِكَ آدَعٌ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾، ولم يقل: بالآيمان.
 الثامن: أنه قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المائدة: ١٠٨]، فجعل
 الآيمان قسيماً للشهادة، وهذا صريح في أنها غيرها.
 التاسع: أنه قال: ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدْتِيهِمَا﴾ [المائدة: ١٠٧]،
 فذكر اليمين والشهادة، ولو كانت اليمين على المدعى عليه لما احتاجا إلى ذلك،
 ولكفاهما القسم: أنهما ما خانا.

العاشر: أن الشاهدين يحلفان بالله ﴿وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾، ولو كان المراد بها
 اليمين، لكان المعنى يحلفان بالله لا نكتم اليمين، وهذا لا معنى له البتة، فإن قيل:
 اليمين لا تكتم؛ فكيف يقال: احلف أنك لا تكتم حلفك؟
 الحادي عشر: أن المتعارف من «الشهادة» في القرآن والسنة: إنما هو الشهادة
 المعروفة، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا
 شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق:
 ٢]، ونظائره.

فإن قيل: قد سمي الله أيمان اللعان شهادة في قوله: ﴿شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ
 بِاللَّهِ﴾ [النور: ٦] وقال: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ [النور: ٨].
 قيل: إنما سمي أيمان الزوج شهادة؛ لأنها قائمة مقام البينة، ولذلك ترجم
 المرأة إذا نكلت، وسمى أيمانها شهادة، لأنها في مقابلة شهادة الزوج.
 وأيضاً: فإن هذه اليمين خصت من بين الأيمان بلفظ: (الشهادة بالله) تأكيداً
 لشأنها، وتعظيماً لخطورها.

الثاني عشر: أنه قال: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، ومن المعلوم أنه
 لا يصح أن يكون أيمان بينكم إذا حضر أحدكم الموت، فإن الموصي إنما يحتاج
 للشاهدين، لا إلى اليمين.

الثالث عشر: أن حكم رسول الله ﷺ الذي حكم به - وحكم الصحابة بعده - هو
 تفسير الآية قطعاً، وما عداه باطل، فيجب أن يرغب عنه^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤].

فذكر الأمرين^(١) ولم يجئ في القرآن سواه، ولا رأيت أحداً تعرض لهذا ولا نبه عليه.

وتحت سر عجيب دال على كمال معرفة المسيح بربه وتعظيمه له؛ فإن هذا السؤال كان عقيب سؤال قومه له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، فخوفهم بالله وأعلمهم أن هذا مما لا يليق أن يسأل عنه وأن الإيمان يرده. فلما ألحوا في الطلب وخاف المسيح أن يداخلهم الشك إن لم يجابوا إلى ما سألوا؛ بدأ في السؤال باسم (اللهم)^(٢) الدال على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، ففي ضمن ذلك تصوره بصورة المثني الحامد الذاكر لأسماء ربه المثني عليه بها. وأن المقصود من هذا الدعاء وقضاء هذه الحاجة، إنما هو أن يثني على الرب بذلك ويمجده به ويذكر آلاءه، ويظهر شواهد قدرته وربوبيته ويكون برهاناً على صدق رسوله فيحصل بذلك من زيادة الإيمان، والثناء على الله أمر يحسن معه الطلب ويكون كالعذر فيه.

فأتى بالاسمين اسم الله الذي يثني عليه به، واسم الرب الذي يدعى ويسأل به، لما كان المقام مقام الأمرين.

فتأمل هذا السر العجيب ولا ينب عنه فهمك؛ فإنه من الفهم الذي يؤتبه الله من يشاء في كتابه وله الحمد^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

قال المسيح ﷺ: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾. ولم يقل: لم أقله. وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره. فقال: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي﴾، ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه، وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، ثم أثنى على ربه، ووصفه بتفرد بعلم الغيوب كلها، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾، ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به

(١) أي: الدعاء والثناء معاً.

(٢) راجع في معناها الآية رقم (٢٦) من سورة آل عمران.

(٣) بدائع الفوائد (٢/١٩٤).

- وهو محض التوحيد - فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله ﷻ وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم، فقال: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثم قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام؛ أي: شأن السيد رحمة عبده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك، فإن عذبتهم - مع كونهم عبيدك - فلولا أنهم عبيد سوء من أنجس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له لم تعذبهم؛ لأن قرابة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبده؟ إلا لفرط عتوهم، وإيائهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب؟! وقد تقدم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ أي: هم عبادك، وأنت أعلم بسرهم وعلايتهم؛ فإذا عذبتهم؛ عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه.

فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه.

فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهلة ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ولم يقل: (الغفور الرحيم). وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى. فإنه قال في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة، بل مقام براءة منهم.

فلو قال: (فإنك أنت الغفور الرحيم) لأشعر باستعطاف ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجز الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم. وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال: هو مغفرة

القادر العالم. وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا القام عين الأدب في الخطاب^(١).

وأما قوله: ﴿فَأَنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، فليس المراد به أنك قادر عليهم مالك لهم، وأي مدح في هذا لو قلت لشخص: إن عذبت فلاناً فإنك قادر على ذلك. أي مدح يكون في ذلك؟ بل في ضمن ذلك الإخبار بغاية العدل.

وأنة تعالى إن عذبهم فإنهم عباده؛ أنعم عليهم بإيجادهم وخلقهم ورزقهم وإحسانه إليهم لا بوسيلة منهم، ولا في مقابلة بذل بذلوه؛ بل ابتدأهم بنعمه وفضله؛ فإذا عذبهم بعد ذلك وهم عبيده؛ لم يعذبهم إلا بجرمهم واستحقاقهم وظلمهم، فإن من أنعم عليهم ابتداءً بجلال النعم كيف يعذبهم بغير استحقاق أعظم النقم.

وفيه أيضاً أمر آخر أطف من هذا وهو كونهم عباده، يقتضي عبادته وحده، وتعظيمه، وإجلاله، كما يجلب العبد سيده، ومالكة الذي لا يصل إليه نفع إلا على يده، ولا يدفع عنه ضرراً إلا هو، فإذا كفروا به أقبح الكفر، وأشركوا به أعظم الشرك، ونسبوه إلى كل نقيصة مما تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأً، كانوا أحق عباده وأولاهم بالعذاب.

والمعنى: هم عبادك الذين أشركوا بك، وعدلوا بك، وجحدوا حقك فهم عباد مستحقون للعذاب.

وفيه أمر آخر أيضاً لعله أطف مما قبله وهو: إن تعذبهم فإنهم عبادك، وشأن السيد المحسن المنعم أن يتعطف على عبده ويرحمه ويحنو عليه. فإن عذبت هؤلاء وهم عبيدك لا تعذبهم إلا باستحقاقهم وإجرامهم، وإلا فكيف يشقى العبد بسيدته وهو مطيع له متبع لمرضاته؟

فتأمل هذه المعاني، ووازن بينها وبين قول من يقول: إن تعذبهم فأنت الملك القادر، وهم المملوكون المربوبون وإنما تصرفت في ملكك من غير أن يكون قام بهم سبب العذاب^(٢)!!

[وأما قوله]: ﴿إِن سَأَلْتَهُنَّ فَوَدَّ عَلِمَتَهُنَّ﴾. فهذا شرط دخل على ماضي اللفظ

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٤٥، ٤٤٦).

(١) مدارج السالكين (٣٧٨، ٣٧٩).

وهو ماضي المعنى قطعاً؛ لأن المسيح إما أن يكون صدر هذا الكلام منه بعد رفعه إلى السماء، أو يكون حكاية ما يقوله يوم القيامة.

وعلى التقديرين: فإنما تعلق الشرط وجزأؤه بالماضي.

وغلط على الله من قال: إن هذا القول وقع منه في الدنيا قبل رفعه.

والتقدير: إن أكن أقول هذا فإنك تعلمه، وهذا تحريف للآية؛ لأن هذا الجواب

إنما صدر من بعد سؤال الله له عن ذلك، والله لم يسأله وهو بين أظهر قومه، ولا

اتخذوه وأمه إلهين إلا بعد رفعه بمئين من السنين؛ فلا يجوز تحريف كلام الله؛

انتصاراً لقاعدة نحوية هدم مائة أمثالها أسهل من تحريف معنى الآية.

وقال ابن السراج في أصوله: يجب تأويلها بفعالين مستقبلين تقديرهما: إن ثبت

في المستقبل أنني قلته في الماضي يثبت أنك علمته، وكل شيء تقدر في الماضي

كان ثبوته في المستقبل فيحسن التعليق عليه.

وهذا الجواب أيضاً ضعيف جداً ولا ينبئ عنه اللفظ، وليت شعري ما يصنعون

بقول النبي ﷺ: «إن كنت ألممت بذنب فاستغفري وتوبني إليه»!

هل يقول عاقل: إن الشرط هنا مستقبل؟!

أما التأويل الأول: فمتف هنا قطعاً.

وأما الثاني: فلا يخفى وجه التعسف فيه، وأنه لم يقصد أنه يثبت في المستقبل

أنك أذنبت في الماضي فتوبي، ولا قصد هذا المعنى. وإنما المقصود المراد ما دل

عليه الكلام: إن كان صدر منك ذنب فيما مضى فاستقبله بالتوبة، لم يرد إلا هذا

الكلام^(١).



سورة الأنعام

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].
 أي: يعدلون به غيره في العبادة، التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح القولين^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣].
 تأمل كيف أتت [السموات] مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية.
 فالمعنى: وهو الإله وهو المعبود في كل واحدة من السماوات، ففي كل واحدة من هذا الجنس هو المألوه المعبود.
 فذكر الجمع هنا أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد. ولما عذب هذا المعنى عن فهم بعض المتسنّنة؛ فسّر الآية بما لا يليق بها، فقال: الوقف التام على السموات، ثم يتندي بقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ﴾، وغلط في فهم الآية.
 وإن معناها ما أخبرتك به، وهو قول محققي أهل التفسير^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ تَنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُسْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

(٢) بدائع الفوائد (١/١١٦).

(١) مدارج السالكين (٣/٢١).

فذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس، وهو ذنوبهم. فهم الأصل ونحن الفرع، والذنوب: العلة الجامعة، والحكم: الهلاك، فهذا محض قياس العلة، وقد أكد سبحانه بضرب من الأولى، وهو أن من قبلنا كانوا أقوى منا فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ فَتُضَيِّقُ الْأَمْرَ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨، ٩]. فأخبر سبحانه عن المانع الذي منع من إنزال الملك عياناً بحيث يشاهدونه، وأن حكمته وعنايته بخلقه منعت من ذلك، فإنه لو أنزل الملك ثم عاينوه ولم يؤمنوا لعوجلوا بالعقوبة، ولم ينظروا، وأيضاً فإنه جعل الرسول بشراً؛ ليتمكنهم التلقي عنه، والرجوع إليه، ولو جعله ملكاً؛ فإما: أن يدعه على هيئة الملائكة أو يجعله على هيئة البشر، والأرل يمنعهم من التلقي عنه.

والثاني: لا يحصل مقصودهم؛ إذ كانوا يقولون: هو بشر لا ملك^(٢).

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي: لو أنزلنا عليهم ملكاً لجعلناه في صورة آدمي، إذ لا يستطيعون التلقي عن الملك في صورته التي هو عليها، وحينئذ فيقع اللبس من عليهم، لأنهم لا يدرون: أرجل هو، أم ملك؟ ولو جعلناه رجلاً لخلطنا عليهم، وشبهنا عليهم الذي طلبوه بغيره.

وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه جزاء لهم على لبسهم على ضعفائهم.

والمعنى: أنهم شبهوا على ضعفائهم، ولبسوا عليهم الحق بالباطل، فشبّه عليهم، وتلبس عليهم الملك بالرجل.

الثاني: أنا تلبس عليهم ما لبسوا على أنفسهم، وأنهم خلطوا على أنفسهم ولم يؤمنوا بالرسول منهم، بعد معرفتهم صدقه، وطلبوا رسولاً ملكياً يعاينونه. وهذا تلبس منهم على أنفسهم^(٣).

* * *

(٢) مفتاح دار السعادة (١٩٦، ١٩٧).

(١) إعلام الموقعين (١٨١، ١٨٢).

(٣) مدارج السالكين (١/٢٤٥، ٢٤٦).

قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ١٢].

قد أخبر سبحانه في كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا إيجاب منه على نفسه، فهو الموجب وهو متعلق بالإيجاب الذي أوجبه، فأوجب بنفسه على نفسه، وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى بما يوضحه كل الإيضاح، ويكشف حقيقته بقوله في الحديث الصحيح^(١): «لما قضى الله الخلق كتب بيده على نفسه في كتاب فهو عنده موضوع فوق العرش؛ إن رحمتي تغلب غضبي»، وفي لفظ: «سبقت غضبي». فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل الكتابة، وصفة اليد، ومحل الكتابة، وأنه كتاب، وذكر مستقر الكتاب، وأنه عنده فوق العرش، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع من التأكيد وهو إيجاب منه على نفسه^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩].

المراد بالآية شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته، فإن المشركين^(٣) قالوا لرسول الله ﷺ: من يشهد على ما تقول؟ فأنزل الله سبحانه آيات شهادته له وشهادة ملائكته، وشهادة علماء أهل الكتاب به، فقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٤٣]. أي: ومن عنده علم الكتاب يشهد لي، وشهادته مقبولة؛ لأنها شهادة بعلم ما قال الله تعالى: ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾.

فأخبر سبحانه في هذه المواضع بشهادته لرسوله، وكفى بشهادته إثباتاً لصدقه، وكفى به شهيداً، فإن قيل: وما شهادته لصدقه بعد العلم بها ضرورة؟ فدلالته على صدقه أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق. فشهادته سبحانه لرسوله أصدق شهادة، وأعظمها، وأدلها على ثبوت المشهود به.

(١) رواه البخاري (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١). (٢) بدائع الفوائد (٢/١٦١، ١٦٢).

(٣) روى الطبري عن ابن عباس ؓ: أن النحام بن زيد، وقرم بن كعب، وبحري بن عمير، جاؤوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره، فقال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو»، فأنزل الله تعالى فيهم وفي قولهم: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً... إلى قوله... لا يُؤْمِنُونَ ﴾، تفسير الطبري (٧/١٦٤)، وانظر: الدر المنثور (٣/٢٥٦).

فهذا وجه. ووجه آخر أنه صدّقه بقوله، وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه. فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولاً؛ لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر، وصحت الشهادة له به قطعاً، فهذا معنى الآية^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

أي ومن بلغه القرآن، فكل من بلغه القرآن وتمكن من فهمه؛ فهو منذر به، والأحاديث التي رويت في امتحان^(٢) الأطفال، والمعتوهين، والهالك في الفترة؛ إنما تدل على امتحان من لم يعقل الإسلام. فهؤلاء يدلون بحجتهم أنهم لم تبلغهم الدعوة، ولم يعقلوا الإسلام، ومن فهم دقائق الصناعات والعلوم؛ لا يمكنه أن يدل على الله بهذه الحجة.

وعدم ترتيب الأحكام عليهم في الدنيا قبل البلوغ، لا يدل على عدم ترتيبها عليهم في الآخرة.

وهذا القول هو المحكي عن أبي وأصحابه، وهو في غاية القوة^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَئِن تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

أي: لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرؤوا منه وأنكروه^(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

وهذه الأكنة والوقر هي شدة البغض، والنفرة، والإعراض، التي لا يستطيعون معها سمعاً ولا عقلاً، والتحقيق أن هذا ناشئ عن الأكنة والوقر، فهو موجب ذلك ومقتضاه. فمن فسر الأكنة والوقر به؛ فقد فسرها بموجيها ومقتضاها. وبكل حال فتلك النفرة والإعراض والبغض من أفعالهم، وهي مجعولة لله سبحانه، كما أن الرأفة والرحمة وميل الأفتدة إلى بيته هو من أفعالهم، والله جاعله، فهو الجاعل

(١) طريق الهجرتين (٣١٥، ٣١٦).

(٢) انظر: الأحاديث الواردة في هذه المسألة وأقوال العلماء، وفهمهم لها عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ الآية (١٧٢) من سورة الأعراف.

(٣) تحفة الودود (٢٥٢). (٤) روضة المحبين (٥١).

للذوات وصفاتها وأفعالها وإرادتها واعتقادها، فذلك كله مجعول مخلوق له، وإن كان العبد فاعلاً له باختياره وإرادته^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقد حام أكثر المفسرين^(٢) حول معنى هذه الآية وما أوردوا، فراجع أقوالهم تجدها لا تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ومعناها أجل وأعظم مما فسروا به، ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببيل، ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه، وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتئمًا مع قوله: ﴿مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، قدروا مضافاً محذوفاً وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل، فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه، وهو: أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم، بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه، ولما عللوا أن هذا وارد عليهم؛ قالوا: إن القوم في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه، وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فلما وقفوا على النار بدا لهم جزء ذلك الذي أخفوه.

قال الواحدي: وعلى هذا أهل التفسير. ولم يصنع أرباب هذا القول شيئاً، فإن السياق والإضراب ببيل والإخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وقولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لا يلتئم بهذا الذي ذكره، فتأمله.

وقالت طائفة منهم الزجاج: بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث.

وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، وفيه من التكلف ما ليس بخاف.

وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال: كأن كفرهم لم يكن بادياً لهم؛ إذ خفيت عليهم مضرته. ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضره عاقبته ووباله، فكأنه كان خفياً عنهم لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته

(١) شفاء العليل (٥٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧/ ١٧٤ - ١٧٦)، وما ذهب إليه ابن القيم لا يبعد عما ذهب إليه الطبري في تفسير الآيات المذكورة. والدر المنثور (٣/ ٢٦١)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٤٠٦).

وشره. قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل: قد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك. وقد كان ظاهراً له قبل هذا، ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذي كان ينادون به على رؤوس الأشهاد، ويدعون إليه كل حاضر وباد، بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم. ولا يقال لمن أظهروا الظلم، والفساد، وقتل النفوس والسعي في الأرض بالفساد، أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته، وخفائها عليه.

فمعنى الآية - والله أعلم بما أراد من كلامه: أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار، وعابنوها وعلموا أنهم داخلوها، تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا؛ فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله، فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان، بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله. وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها، تبين معنى الإضراب ببل، وتبين معنى الذي بدا لهم، والذي كانوا يخفونه، والحامل لهم على قولهم: ﴿يَلَيِّنَّا نُرْدُ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾.

فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله، وتيقنوا ذلك وتحققوه، ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم؛ بل تواصلوا بكتمانه.

فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينظرون عليه من علمهم أنهم على باطل، وأن الرسل على حق؛ فعابنوا ذلك عياناً بعد أن كانوا يكتمونونه، ويخفونه، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنما تمنوا لما عابنوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله.

وهذا كمن كان يخفي محبة شخص ومعاشرته، وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد في عدوله عنه، فقليل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك. وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول: بل محبته ومعاشرته هي الصواب. فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة، تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك، وفي قلبه من محبته

والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاناة العقوبة، بل بعد أن مسته وأنهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو رد لعاد لما نهى عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى، وهو نفي قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا؛ لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق، أي: ليس كذلك، بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه، وكنتم تخفونه، فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا، بل ظهر لكم ما كان معلوماً، وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه، والله أعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. لا يكون الجحد إلا بعد الاعتراف بالقلب واللسان؛ ومنه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، وعلى هذا لا يحسن استعمال الفقهاء لفظ الجحود في مطلق الإنكار في باب الدعاوى وغيرها؛ لأن المنكر قد يكون محقاً فلا يسمى جاحداً^(٢). والمعنى: أنهم قد عرفوا صدقك، وأنت غير كاذب فيما تقول، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون، قال قتادة: يعلمون أنك رسول، ولكن يجحدون، قال تعالى: ﴿وَجْحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقد اختلف في الكتاب هاهنا^(٣): هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ؟ على قولين:

فقالت طائفة: المراد به القرآن، وهذا من العام المراد به الخاص، أي: ما

(١) عدة الصابرين (١٨٧).

(٢) بدائع الفوائد (٤/١١٨، ١١٩).

(٣) وممن ذهب إلى أنه اللوح المحفوظ: الإمام الطبري في تفسيره (٧/١٨٨)، والبغوي (٣/١٣٢)، والزمخشري (٢/١٢)، وابن كثير (٢/١٤١). ولم يرجح «القرطبي» أحد القولين، وإن يفهم ميله إلى أنه القرآن (٣/٢٤١٧). وانظر: الدر المنثور (٣/٢٦٦).

فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه، كقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ويجوز أن يكون من العام المراد به عمومه. والمراد أن كل شيء ذكر مجملاً ومفصلاً، كما قال ابن مسعود^(١)، وقد لعن الواصلة والمستوصلة: ما لي لا ألعن من لعن الله في كتابه؟ فقالت: لقد قرأت القرآن فما وجدته. فقال: إن كنت قرأته فقد وجدته. قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاكَ إِلَّا مَا نَزَّلْنَا بِهِ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. ولعن رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة. وقال الشافعي: ما نزل بأحد من المسلمين نازلة إلا وفي كتاب الله سبيل الدلالة عليها.

وقالت طائفة: المراد بالكتاب في الآية: اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء، وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس، وكان هذا القول أظهر في الآية، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾، وهذا يتضمن أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل، والتقدير الأول، وأنها لم تخلق سدى، بل هي معبدة مذلة، قد قدر خلقها وأجلها ورزقها، وما تصير إليه، ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها، ثم قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، فذكر مبدأها ونهايتها وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أي: كلها قد كتبت وقدرت وأحصيت قبل أن توجد، فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول.

ولمن نصر القول الأول أن يجيب عن هذا: بأن في ذكر القرآن هاهنا الإخبار عن تضمنه لذكر ذلك والإخبار به، فلم نفرط فيه من شيء، بل أخبرناكم بكل ما كان وما هو كائن إجمالاً وتفصيلاً.

ويرجح أمر آخر وهو أن هذا ذكر عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧] منبهم على أعظم الآيات وأدلها على صدق رسول الله ﷺ، وهو الكتاب الذي يتضمن بياناً لكل شيء ولم يفرط فيه من شيء، ثم نبهم بأنهم أمة من جملة الأمم التي في السماوات والأرض، وهذا يتضمن التعريف بوجود الخالق وكمال قدرته وعلمه، وسعة ملكه وكثرة جنوده والأمم التي لا يحصيها غيره، وهذا يتضمن أنه لا إله غيره ولا رب سواه، وأنه رب العالمين.

(١) رواه البخاري (٤٨٨٦) ومسلم (٢١٢٥).

فهذا دليل على وحدانيته وصفات كماله من جهة خلقه وقدره، وإنزال الكتاب الذي لم يفرض فيه من شيء دليل من جهة أمره وكلامه، فهذا استدلال بأمره، وذاك بخلقه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

ولمن نصر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ؛ أن يقول: لما سألوا آية أخبرهم سبحانه بأنه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك، فإنه قادر على ذلك، وإنما ينزلها لحكمته ورحمته بهم وإحسانه إليهم، إذ لو أنزلها على وفق اقتراحهم لعوجلوا بالعقوبة إن لم يؤمنوا. ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته بخلق الأمم العظيمة التي لا يحصي عددها إلا هو، فمن قدر على خلق هذه الأمم مع اختلاف أجناسها وأنواعها وصفاتها وهيئاتها؛ كيف يعجز عن إنزال آية؟ ثم أخبر عن كمال قدرته، وعلمه بأن هؤلاء الأمم قد أحصاهم وكتبهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم في كتاب لم يفرض فيه من شيء، ثم يميتهم ثم يحشرهم إليه، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُفُّوا فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] عن النظر والاعتبار الذي يؤديهم إلى معرفة ربوبيته، ووحدانيته، وصدق رسله، ثم أخبر أن الآيات لا تستقل بالهدى، ولو أنزلها على وفق اقتراح البشر، بل الأمر كله له ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، فهو أظهر القولين، والله أعلم^(١).

□ □ □

قوله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ...﴾ قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب، وأخلاق الخنازير، وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوس بشيابه، كما يتطوس الطاووس في ريشه، ومنهم من يكون بليداً كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم أشباه الثعالب تروغ كروغانها.

وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغي: بالحمير تارة، وبالكلب تارة وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشابهة باطنياً، حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد^(٢).

* * *

(٢) الجواب الكافي (١٦٠).

(١) شفاء العليل (٤٠، ٤١).

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم، في أقوالهم وأفعالهم، فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله، وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره، فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده، وكماله، ومجده، من قول الحق وفعله، وبالله التوفيق^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وهذا من أعظم الغرة: أن تراه يتابع عليك نعمه، وأنت مقيم على ما يكره. فالشيطان موكل بالغرور، وطبع النفس الأمانة الاغترار، فإذا اجتمع الرأي والبغي والشيطان الغرور، والنفس المغتررة لم يقع هناك خلاف.

فالشياطين غروا المغترين بالله، وأطمعوهم - مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه - في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويق، حتى هجم الأجل، فأخذوا على أسوأ أحوالهم^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

فلا ريب أن هذا التعليل لفعله المذكور وهو امتحان بعض خلقه ببعض، كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم؛ أنف وحمي أن يسلم معه أو بعده، ويقول: هذا يسبني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا؟ فلو كان ذلك خيراً وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه. فهذا القول منهم هو بعض الحكم، والغاية المطلوبة بهذا الامتحان، فإن هذا القول دال على إباء واستكبار، وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به، وهذا وإن كان علة فهو مطلوب لغيره.

(٢) الروح (٢٩٨).

(١) إعلام الموقعين (١/٢١٥).

والعلل الغائية تارة تطلب لنفسها وتارة تطلب لغيرها، فتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه، وقول هؤلاء ما قالوه. وما يترتب عليه هذا القول موجب لآثار مطلوبة لنفسه، وقول هؤلاء: عدله وحكمته، وعزه وقهره وسلطانه، وعطاؤه من يستحق عطاءه، ويحسن وضعه عنده، ومنعه من يستحق المنع، ولا يليق به غيره، ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون المنعم عليهم فيما منّ عليهم، من بين من لا يعرفها، ولا يشكر ربه عليها، وكانت فتنة بعضهم ببعض لحصول هذا التميز الذي ترتب عليه شكر هؤلاء وكفر هؤلاء^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].
والله سبحانه قد بيّن في كتابه: سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء، وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء، وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل فيها هؤلاء.
وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما، وأوضحهما وبينهما غاية البيان، حتى شاهدتهما البصائر، كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «أعوذ بوجهك»^(٣)، ولكن قد ثبت عنه ﷺ أنه لا بد أن يقع في أمته خسف، ولكن لا يكون عاماً، وهذا عذاب من تحت الأرجل، وروي أنه كان في الأمة قذف أيضاً، وهذا عذاب من فوق، فيكون هذا من باب الإخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال، فهو من المقدره على ما لا يريد.

وقد صرح سبحانه: بأنه لو شاء لفعل ما لم يفعله، في غير موضع من كتابه^(٤).

* * *

(١) شفاء العليل (١٩١، ١٩٢).
(٢) الفوائد (١٠٧).
(٣) رواه البخاري (٤٦٢٨).
(٤) التبيان في أقسام القرآن (٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرًا أَنْتَخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَلَّا أَجُوبُ الْأَفْلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَّتْ قَالَ يَتَقَوَّمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ [الأنعام: ٧٤ - ٨٠].

[إنها] أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته، ودحضت حجته، فقال بعد أن بين بطلان إلهية الكواكب والقمر والشمس: بأفولها، وأن الإله لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إلا شاهداً غير غائب، كما لا يكون إلا غالباً قاهراً غير مغلوب ولا مقهور، نافعاً لعباده، يملك لعباده الضر والنفع، فيسمع كلامه ويرى مكانه ويهديه ويرشده ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه، وذلك ليس إلا لله وحده، فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة، صعد منها إلى فاطرها وخالفها ومبدعها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾، وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوام لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها. والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلهاً. فحاجه قومه في الله، ومن حاج في عبادة الله فحجته داحضة. فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾، وهذا من أحسن الكلام، أي: تريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه، وقد أرشدني وبين لي الحق، حتى استبان لي كالعيان، وبين لي بطلان الشرك، وسوء عاقبته، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعبديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به، وقد هداني إلى الحق وسبيل الرشاد؟

فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار، ومجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك.

فخوفه بألهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشرك الموحد بإلهه الذي يؤلهه مع الله أن يناله بسوء.

فقال الخليل: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾، فإن آلهتكم أقل وأحق من أن تضر من كفر بها، وجحد عبادتها، ثم رد الأمر إلى مشيئة الله وحده، وأنه هو الذي يخاف ويرجى، فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾، وهذا استثناء منقطع. والمعنى: لا أخاف آلهتكم فإنها لا مشيئة لها، ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئاً نالني وأصابني، لا آلهتكم التي لا تشاء، ولا تعلم شيئاً، وربّي له المشيئة النافذة، وقد وسع كل شيء علماً؛ فمن أولى بأن يخاف ويعبد هو سبحانه، أم هي؟ ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له، ولا يعلم شيئاً ممن له المشيئة التامة، والعلم التام.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢].

يقول لقومه: كيف يسوغ في عقل، أو عند ذي لب أن أخاف ما جعلتموه الله شريكاً في الإلهية، وهي ليست بموضع نفع ولا ضرر، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في إلهيته أشياء لم ينزل [الله بها] حجة عليكم، ولا شرعها لكم؟ فالذي أشرك بخالقه وفاطره وباريه - الذي يقر بأنه خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه ومالك الضر والنفع - آلهة لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً، ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، وجعلها نداً له ومثلاً في الإلهية تعبد، ويسجد لها، ويخضع لها، ويتقرب إليها، أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلهاً آخر، بل وحده، وأفرده بالإلهية، والربوبية، والعظمة، والسلطان، والحب، والخوف والرجاء، فأَي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟

فحكم الله سبحانه بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب، وأقرت به الفطر،

وانقادت له العقول، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ .

فتأمل هذا الكلام، وعجيب موقعه، في قطع الخصوم، وإحاطته بكل ما وجب في العقل أن يرد به ما دعوه إليه وأرادوا حمله عليه وأخذه بمجامع الحجة التي لم تبق لطاعن مطعناً، ولا سؤالاً .

ولما كانت بهذه المثابة، أشاد سبحانه بذكرها وعظمها بالإشارة إليها، وأضافها إلى نفسه تعظيماً لشأنها، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] .

فعلم السامع بإضافته إياها إلى نفسه أنه هو الذي فهمها خليله، ولقنها إياه، وعنه سبحانه أخذها الخليل، وكفى بحجة يكون الله ﷻ ملقنها ل خليله وحبيبه أن تكون قاطعة لمواد العناد، قامة لأهل الشرك والإلحاد^(١) .

وفي قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾، أنكر على من فهم أنه ظلم النفس بالمعاصي، وبين أنه الشرك، وذكر قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، مع أن سياق اللفظ عند إعطائه حقه من التأمل يبين ذلك، فإن الله سبحانه لم يقل: ولم يظلموا أنفسهم، بل قال: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ ولبس الشيء بالشيء تغطيته به، وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الكفر^(٢) .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣] .

قال زيد بن أسلم^(٣) وغيره: بالحجة والعلم، ولما غلب أعداء الله معه بالحجة وظهرت حجته عليهم، وكسر أصنامهم، فكسر حججهم، ومعبودهم، هموا بعقوبته، وإلقائه في النار، وهذا شأن المبطلين، إذا غلبوا وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة، كما قال فرعون لموسى، وقد أقام عليه الحجة: ﴿لَئِنِ اتَّخَذَتِ ٱلْأَنهَارُ غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلسَّجُونِ﴾ [الشعراء: ٢٩] .

(١) الصواعق المرسله (٤٨٥، ٤٩٠) . (٢) إعلام الموقعين (١/٤٣٤) .

(٣) انظر: الطبري (٧/٢٥٩)، والدر المثور (٣/٣١٠) .

فأضرموا له النار وألقوه في المنجنيق، فكانت تلك السفرة من أعظم سفرة سافرها وأبركها عليه، فإنه ما سافر سفرة أبرك ولا أعظم ولا أرفع شيئاً وأقر لعينه منها، وفي تلك السفرة عرض له جبرائيل بين السماء والأرض فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]: قالها نبيكم، وقالها إبراهيم حين ألقى في النار، فجعل الله سبحانه عليه النار برداً وسلاماً.

وقد ثبت في صحيح البخاري ^(١) من حديث أم شريك: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الوزغ وقال: «كانت تنفخ على إبراهيم» ^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٨، ٨٩].

وقد قيل: إن هؤلاء القوم هم الأنبياء. وقيل: أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: كل مؤمن. هذه أمهات الأقوال، بعد أقوال متفرعة من هذه، كقول من قال: هم الأنصار، أو المهاجرون والأنصار، أو قوم من أبناء فارس، وقال آخرون: هم الملائكة.

قال ابن جرير ^(٣): وأولى هذه الأقوال بالصواب: أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم في الآيات قبل الآية. قال: ذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما يليها بأن يكون خبراً عنهم أولى وأحق بأن يكون خبراً عن غيرهم.

فالتأويل: فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا، وكذبوا بها، وجحدوا حقيقتها؛ فقد استحفظناها، واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك الذين لا يجحدون حقيقتها، ولا يكذبون بها، ولكنهم يصدقون بها، ويؤمنون بصحتها.

قلت: السورة مكية، والإشارة بقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى من كفر به من قومه أصلاً

(٢) جلاء الأفهام (١٦٠).

(١) رواه البخاري (٣٣٥٩).

(٣) تفسير الطبري (٧/٢٦٣).

ومن عداهم تبعاً، فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة، والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلاً، والمؤمنون بهم تبعاً، فيدخل كل من قام بحفظها، والذب عنها، والدعوة إليها.

ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلاً، وللمؤمنين بهم تبعاً، وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول، خلفائه في أمته، وورثته؛ فهم الموكلون بها، وهذا ينتظم في الأقوال التي قيلت في الآية.

وأما قول من قال: إنهم الملائكة^(١). فضعيف جداً لا يدل عليه السياق، وتأباه لفظة ﴿قَوْمًا﴾؛ إذ الغالب في القرآن، بل المطرد تخصيص القوم ببني آدم دون الملائكة. وأما قول إبراهيم لهم: ﴿قَوْمٌ مُّكْرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، فإنما قاله لما ظنهم من الإنس.

وأيضاً فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها وأنه لا ضيعة عليها، وأن هؤلاء وإن ضيعوها، ولم يقبلوها فإن لها قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها، ويذبون عنها، فكفر هؤلاء بها لا يضيعها، ولا يذهبها، ولا يضرها شيئاً، فإن لها أهلاً، ومستحقاً سواهم.

فتأمل شرف هذا المعنى، وجلالته، وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها، والمسارة إلى قبولها، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم، وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين، وما تحته من احتقارهم، وازدرائهم، وعدم المبالاة، والاحتفال بهم، وإنكم وإن لم تؤمنوا بها؛ فعبادي المؤمنون بها، الموكلون بها سواكم كثير، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَمِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تُوْمِنُونَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

وإذا كان للملك عبيد قد عصوه، وخالفوا أمره، فنظر إليهم وقال: إن يكفر هؤلاء نعمي ويعصوا أمري ويضيعوا عهدي فإن لي عبيداً سواهم، وهم أنتم تطيعون أمري، وتحفظون عهدي وتؤدون حقي؛ فإن عبيده المطيعين يجدون في أنفسهم من الفرح، والسرور، والنشاط، وقوة العزيمة، ما يكون موجباً لهم المزيد من القيام

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور، عن ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، ونسبه لأبي رجاء العطاردي (٣/٣١٢).

بحق العبودية، والمزيد من كرامة سيدهم، ومالكهم، وهذا أمر يشهد به الحس والعيان.

وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها، والقيام بحقوقها ومراعاتها، والذب عنها، والنصيحة لها، كما يوكل الرجل غيره بالشيء ليقوم به ويتعهد، ويحافظ عليه.

وقوله: (بها) الأولى متعلقة بـ(وكلنا)، و(بها) الثانية متعلقة ﴿بِكُفْرِي﴾، والباء في ﴿بِكُفْرِي﴾ لتأكيد النفي. فإن قلت: فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء الموكلين أنه وكيل الله بهذا المعنى، كما يقال: ولي الله؟.

قلت: لا يلزم من إطلاق فعل التوكيد المقيد بأمر ما أن يصاغ منه اسم فاعل مطلق. كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال: خليفة الله لقوله: «ويستخلفكم في الأرض»، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم: إنه خليفة الله، لأنه استخلاف مقيد، ولما قيل للصديق: يا خليفة الله. قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله وحسبي ذلك. ولكن يسوغ أن يقال: هو وكيل بذلك، كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾. والمقصود: أن هذا التوكيل خاص بمن قام به علماً، وعملاً، وجهاداً لأعدائها وذباً عنها، ونفياً لتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وأيضاً فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص، لا توكيل حاجة كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجة إليه. ولهذا قال بعض السلف: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾، يقول: رزقناها قوماً. فهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها: إنه وكيل الله. وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله من الموالاتة فإنها المحبة والقرب. فكما يقال: عبد الله، وحبيبه، يقال: والله تعالى يوالي عبده إحساناً إليه وجبراً له ورحمة، بخلاف المخلوق فإنه يوالي المخلوق؛ لتعززه به، وتكثره بموالاته، لذل العبد، وحاجته. وأما العزيز الغني، فلا يوالي أحداً من ذل ولا حاجة.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكِبَرَهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، فلم ينف الولي نفيّاً عاماً مطلقاً، بل نفي أن يكون له ولي من الدن، وأثبت في موضع آخر أن له أولياءه بقوله: ﴿أَلَا

إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ [يونس: ٦٢]، وقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشِيرًا مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وهذا إنما وصف به الذين لا يؤمنون بجميع كتبه المنزلة من المشركين واليهود وغيرهم، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، ولم يقل: وما قدروا الله قدره، فإن حق قدره هو الحق الذي لقدره، فهو حق عليهم لقدره سبحانه، فوجدوا ذلك الحق وأنكروه، وما قاموا بذلك الحق معرفة، ولا إقراراً، ولا عبودية، وذلك جحود وإنكار لبعض قدره من صفات كماله وأفعاله، لجحودهم أن يتكلم أو يعلم الجزئيات أو يقدر على إحداث فعل. فشبّهات منكري الرسالة ترجع إلى ذلك. أما إنكار علمه تعالى، أو إنكار قدرته، أو إنكار كلامه، فمن أقرب بما أرسل به رسله، وأنه عالم به متكلم بكتبه التي أنزلها عليهم؛ قادر على الإرسال لا يليق بحكمته تركه، فقد قدره حق قدره من هذا الوجه إن لم يقدره حق قدره مطلقاً^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

يعني: الذي أنزله. جعل سبحانه تعليمهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلاً على صحة النبوة والرسالة، إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل، فكيف يقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء؟ وهذا من فضل العلم وشرفه، وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة، والله الموفق للرشاد^(٣).

ولكن بقي أن يقال: فكيف يحسن الرد عليهم بما لا يقرون به من إنزال الكتاب الذي جاء به موسى؟ وكيف يقال لهم: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

(١) مفتاح دار السعادة (١٧٥ - ١٧٧).

(٢) الصواعق المرسله (٤/١٣٦٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (٦٢).

ولا سيما على قراءة من قرأ بقاء الخطاب، وهل ذلك صالح لغير اليهود؟ فإنهم كانوا يخفون من الكتاب ما لا يوافق أهواءهم، وأغراضهم، ويبدون منه ما سواه؛ فاحتج عليهم بما يقرون به من كتاب موسى، ثم ويخهم بأنهم خانوا الله ورسوله فيه، فأخفوا بعضه وأظهروا بعضه، وهذا استطراد من ذكر جحدهم النبوة بالكلية، وذلك إخفاء لها وكتمان إلى جحد ما أقروا به كتابهم بإخفائه وكتمانه، فتلك سجية لهم معروفة لا تنكر، إذ من أخفى بعض كتابه الذي يقر بأنه من عند الله، فكيف لا يجحد أصل النبوة؟

ثم احتج عليهم بأنهم قد علموا الوحي ما لم يكونوا يعلمونه هم ولا آباؤهم، ولولا الوحي الذي أنزله على أنبيائه ورسله لم يصلوا إليه، ثم أمر الرسول أن يجيب على هذا السؤال، وهو قوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى فَقُلْ أَفَلَا يَتَّقُونَ﴾، أي: الله الذي أنزله، أي: إن كفروا به وجحدوه فصدق به أنت وأقر به ﴿تَدْرَهُمْ فِي حَوَاضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وجواب هذا السؤال أن يقال: إن الله سبحانه احتج عليهم بما يقر به أهل الكتابين، وهم أولو العلم دون الأمم التي لا كتاب لها، أي إن جحدتم أصل النبوة وأن يكون الله أنزل على بشر شيئاً، فهذا كتاب موسى يقر به أهل الكتاب - وهم أعلم منكم - فاسألوهم عنه. ونظائر هذا في القرآن كثيرة، يستشهد سبحانه بأهل الكتاب على منكري النبوات والتوحيد.

والمعنى: أنكم إن أنكرتم أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً فمن أنزل كتاب موسى؟ فإن لم تعلموا ذلك فاسألوا أهل الكتاب.

وأما قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، فمن قرأها بالياء فهو إخبار عن اليهود بلفظ الغيبة، ومن قرأها بقاء للخطاب فهو خطاب لهذا الجنس الذين فعلوا ذلك؛ أي تجعلونه يا من أنزل عليه كذلك.

وهذا من أعلام نبوته أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم، وأنهم جعلوه قراطيس وأبدوا بعضه وأخفوا كثيراً منه، وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلا بوحي من الله.

ولا يلزم أن يكون قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ﴾ خطاباً لمن حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾؛ بل هذا استطراد من الشيء إلى نظيره، وشبهه، ولازمه. وله نظائر في القرآن كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٧٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا الطُّفْلَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

مُضَعَّفَةً ﴿ إلى آخر الآية [المؤمنون: ١٢ - ١٤]، فاستطرد من الشخص المخلوق من الطين وهو آدم إلى النوع المخلوق من النطفة وهم أولاده، وأوقع الضمير إلى الجميع بلفظ واحد.

وعلى التقديرين فهؤلاء لم يتم لهم إنكار نبوة النبي ﷺ ومكابرتهم إلا بهذا الجحد والتكذيب العام، ورأوا أنهم إن أقروا ببعض النبوات وجحدوا نبوته ظهر تناقضهم وتفريقهم بين المتماثلين، وأنهم لا يمكنهم الإيمان بنبي وجحد نبوة من نبوته أظهر وآياتها أكثر وأعظم ممن أقروا به، وأخبر سبحانه أن من جحد أن يكون قد أرسل رسله وأنزل كتبه لم يقدره حق قدره، وأنه نسبه إلى ما لا يليق به بل يتعالى ويتنزه عنه، فإن في ذلك إنكار دينه وإلهيته وملكه وحكمته ورحمته والظن السيء به أنه خلق خلقه عبثاً باطلاً، وإنه خلأهم سدى وهملاً، وهذا ينافي كماله المقدس وهو متعالٍ عن كل ما ينافي كماله.

فمن أنكر كلامه وتكليمه وإرساله الرسل إلى خلقه فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ولا عظّمه حق عظّمته، كما أن من عبد معه إلهاً غيره لم يقدره حق قدره معطل، جاحد لصفات كماله، ونعوت جلاله، وإرسال رسله، وإنزال كتبه، ولا عظّمه حق عظّمته^(١).

□ □ □

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١].

رتب على ذلك بعضهم أن الذكر بالاسم المفرد وهو «الله، الله» أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر». وهذا فاسد مبني على فاسد، فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلاً، ولا مفيد شيئاً، ولا هو كلام أصلاً، ولا يدل على مدح ولا تعظيم، ولا يتعلق به إيمان ولا ثواب، ولا يدخل به الذاكر في عقد الإسلام جملة، فلو قال الكافر: «الله، الله». من أول عمره إلى آخره لم يصير بذلك مسلماً، فضلاً عن أن يكون من جملة الذكر، أو يكون أفضل الأذكار.

وبالغ بعضهم في ذلك حتى قال: الذكر بالاسم المضمّر أفضل من الذكر بالاسم الظاهر! فالذكر بقوله: «هو، هو» أفضل من الذكر بقولهم: «الله، الله».

وكل هذا من أنواع الهوس، والخيالات الباطلة المفضية بأهلها إلى أنواع من الضلالات، فهذا فساد هذا البناء الهائر، وأما فساد المبني عليه، فإنهم ظنوا أن قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ؟ أَي: قل هذا الاسم. فقال: الله الله. وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله، فإن اسم الله هنا جواب لقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُ فِرَاطِيْسَ يُدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ إلى أن قال: ﴿قُلِ اللَّهُ؟﴾، أي: قل: الله أنزله. فإن السؤال معاد في الجواب، فيتضمنه فيحذف اختصاراً، كما يقول: من خلق السماوات والأرض؟ فيقال: الله، أي: الله خلقها. فيحذف الفعل للدلالة السؤال عليه. فهذا معنى الآية الذي لا تحتتمل غيره^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة - وهم الصادقون - أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الحَىٰ مِنَ الحَبِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٩].

فأمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه وإثماره، ووقت نضجه وإدراكه، يقال: أينعت الثمار، إذا نضجت وطابت، لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة، ثم خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة، إلى ذلك اللون المشرق الناصع، والطعم الحلو اللذيذ الشهي، لآيات لقوم يؤمنون.

وقال بعض السلف: حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها فينظروا إليها ثم تلا: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]^(٣).

* * *

(٢) الروح (٧٥).

(١) طريق الهجرتين (٣١٦، ٣١٧).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/٢٠٥).

قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

لو كان المراد بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾: إنه لا يرى بحال. لم يكن في ذلك مدح ولا كمال، لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يرى، ولا تدركه الأبصار، والرب جل جلاله يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإن المعنى: أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، فقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية. فالرب تعالى يرى ولا يدرك، كما يُعلم ولا يحاط به، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية.

قال ابن عباس^(١): ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لا تحيط به الأبصار. وقال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار. وقال عطية^(٢): ينظرون إلى الله ولا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يحيط بهم، فذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾؛ فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عياناً ولا تدركه أبصارهم، بمعنى: أنها لا تحيط به؛ إذ كان غير جائز أن يوصف الله ﷻ بأن شيئاً يحيط به، وهو بكل شيء محيط، وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه، ولا يحيطون بكلامه، وهكذا يعلم الخلق ما علمهم، ولا يحيطون بعلمه^(٣).

ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل، وكشف من الحجاب شيئاً سيراً ساخ الجبل في الأرض وتكدك، ولم يقم لربه تبارك وتعالى، وهذا معنى قول ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: ذلك الله ﷻ إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء. وهذا من بديع فهمه رضي الله تعالى عنه، ودقيق فطنته، كيف وقد دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه الله التأويل، فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عياناً، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له، وإن رآته فالإدراك أمر وراء الرؤية، وهذه الشمس - والله المثل الأعلى - نراها ولا ندرکہا كما هي عليه، ولا قريباً من ذلك، ولذلك قال ابن

(١) انظر: الطبري (٧/٣٠٠) في الفرق بين الإدراك والنظر.

(٢) تفسير الطبري (٧/٢٩٩)، والدر المنثور (٣/٣٣٥).

(٣) حادي الأرواح (٢٣٧).

عباس لمن سأله وأورد عليه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فقال: أأنت ترى السماء؟ قال: بلى. قال: أفندركها؟ قال: لا، قال: فالله تعالى أعظم وأجل^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فحرم الله تعالى سب آلهة المشركين، مع كون السب غيظاً وحمية لله وإهانة لآلهتهم، لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائر؛ لئلا يكون سبباً في فعل ما لا يجوز^(٢).

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾.

فهذا التزيين منه سبحانه حسن؛ إذ هو ابتلاء واختبار للعبد لتمييز المطيع منهم من العاصي، والمؤمن من الكافر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وأيضاً فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيء عقوبة منه له على إعراضه عن توحيد عبوديته، وإيثار سيء العمل على حسنه، فإنه لا بد أن يعرفه سبحانه السيء من الحسن، فإذا أثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه، زينه سبحانه له وأعماه عن رؤية قبحه، بعد أن رآه قبيحاً، وكل ظالم وفاجر وفاسق، لا بد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحاً، فإذا تمادى عليه، ارتفعت رؤية قبحه من قلبه فربما رآه حسناً، عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه، وهو حجة الله عليه، فإذا تمادى في غيئه وظلمه ذهب ذلك النور، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم.

ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة، وبالتعريف الأول.

فتزيين الرب تعالى عدل، وعقوبته حكمة، وتزيين الشيطان إغواء وظلم، والمعصوم من عصمه الله، والمخذول من خذله الله، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين^(٣).

* * *

(٢) إعلام الموقعين (١/١٨١).

(١) الوابل الصيب (٧٤).

(٣) شفاء العليل (١٠٣، ١٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقِلَبُ أَفْتَدَتْهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةً وَنَذَرْتَهُمْ فِي طُعَيْنِهِمْ يَعْهُونَ ﴿[الأنعام: ١٠٩، ١١٠].﴾
فعاقبتهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلب أفندتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له^(١).

[وقوله: (ونقلب)] عطف على قوله: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: نحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون. واختلف في قوله: ﴿كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةً﴾.

فقال كثير من المفسرين: المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة. قال ابن عباس في رواية عطاء عنه: ونقلب أفندتهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي. قال: وهذا كقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال آخرون: المعنى: ونقلب أفندتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة، فعاقبتهم بتقليب أفندتهم وأبصارهم، وهذا معنى حسن. فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل. كقوله: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُوا لِي آذْكَرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]، والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه - الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر. والتقليب: تحويل الشيء من وجه إلى وجه. وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ووصولهم إليها كما سألوها: أن يؤمنوا إذ جاءتهم؛ لأنهم رأوها عياناً وعرفوا أدلتها وتحققوا صدقها. فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليباً لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه.

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه كيف يشاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»^(٢).

وروى الترمذي من حديث أنس قال: كان رسول الله ﷺ يكشر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء»^(١)، قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وروى حماد عن أيوب وهشام ويعلى بن زياد عن الحسن قال: قالت عائشة رضي الله عنها: دعوة كان رسول الله ﷺ يكشر أن يدعو بها: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، فقلت: يا رسول الله، دعوة كثيراً ما تدعو بها؟ قال: «إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله. فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه»^(٢).

وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، قال ابن عباس: أخذلهم وأدعهم في ضلالهم يتمادون^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به الأعمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به، بصغوها وميلها إليه، ورضاها به لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولاً وعملاً.

فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر، الذي فيه بيان أصول الباطل، والتنبيه على مواقع الحذر منها، وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل، رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة، ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، - وأكثر الخلق كذلك - حتى إن الفجار

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠).

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٩١/٦)، والآجري في الشريعة، ص (٣١٧)، وابن أبي عاصم في السنة رقم (٢٢٤ - ٢٣٣)، وصححه العراقي كما في الإحياء (٤٤/٣)، والألباني في تعليقه على السنة.

(٣) شفاء العليل (٩٩، ١٠٠).

ليسمون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع، ويميل إليها الطبع، فيسمون أم الخبائث أم الأفراح.. ويسمون مجالس الفجور والفسوق مجالس الطيبة^(١)، حتى إن بعضهم لما عزل عن شيء من ذلك قال لعازله: ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة الله، وجرأة على سعة عفوه ومغفرته. فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلي بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة^(٢)؟

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِنَصِّغَنَّ إِلَيْهِ أَفْئِدَةَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَّضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

اللام على بابها للتعليل، فإنها إن كانت تعليلاً لفعل العدو، وهو إيحاء بعضهم إلى بعض، فظاهر، وعلى هذا فيكون عطفاً على قوله: غروراً، فإنه مفعول لأجله، أي ليغروهم بهذا الوحي، ولتصغي إليه أفئدة من يلقي إليه فيرضاه، ويعمل بموجبه فيكون سبحانه قد أخبر بمقصودهم من الإيحاء المذكور، وهو أربعة أمور: غرور من يوحون إليه، وإصغاء أفئدتهم إليهم، ومحبتهم لذلك، وانفعالهم عنده بالاقتراف.

وإن كان ذلك تعليلاً لجعله سبحانه لكل نبي عدواً، فيكون هذا الحكم من جملة الغايات، والحكم المطلوبة بهذا الجعل، وهي غاية وحكمة مقصودة لغيرها، لأنها مفضية إلى أمور هي محبوبة، مطلوبة للرب سبحانه، وفواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من حصولها، وعلى التقديرين فاللام لام التعليل والحكمة^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وهذا يبيّن أن الحَكَم بين الناس هو الله ﷻ وحده، بما أنزله من الكتاب

(١) رحم الله هذا الإمام ذا البصيرة المستنيرة بنور الله تعالى. فالذي ذكره ديدن أعداء الدين إلى الآن فهم يُرغبون الناس في الفسق والفجور، بعد تسميتها بأسماء مزخرفة. فيصرفون قلوب العباد عن القرآن إلى الغناء وتسميته: «غذاء الروح»، و«الإمتاع النفسي»، والتبرج والمسرحيات والأفلام الماجنة الفاجرة تحت اسم «الإبداع الفني» و«التنوير الفكري» و«الحرية الشخصية» و«الموضة»، حتى سمو الخمر التي هم أم الخبائث: «بالمشروبات الروحية» وهلم جرّاً... فلبسوا على الناس دينهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(٢) الصواعق المرسله (٢/٤٣٨). (٣) شفاء العليل (١٩٣).

المفصل، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].
فقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغَى حَكْمًا﴾.

استفهام إنكار، يقول: كيف أطلب حكماً غير الله، وقد أنزل كتاباً مفصلاً؟ فإن قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ جملة في موضع الحال وقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ يبين أن الكتاب الحاكم مفصل بين، ضد ما يصفه به من يزعم أن عقول الرجال^(١) وآراءهم تعارض بعض نصوصه، وأن نصوصه خيلت وأفهمت خلاف الحق، لمصلحة المخاطب، وأن لها معاني لا تفهم، ولا يعلم المراد منها، أو أن لها تأويلات باطلة خلاف ما دلت عليه ظواهرها.
فهؤلاء كلهم ليس الكتاب عندهم مفصلاً، بل مجمل.

□ □ □

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وذلك أن الكتاب الأول مصدق للقرآن، فمن نظر فيه علم علماً يقيناً أن هذا وهذا من مشكاة واحدة، لا سيما في باب التوحيد والأسماء والصفات، فإن التوراة مطابقة للقرآن في ذلك، موافقة له، وهذا يدل على أن ما في التوراة من ذلك ليس هو من المبدل المحرف الذي أنكره الله عليهم، بل هو من الحق الذي شهد للقرآن وصدقه، ولهذا لم ينكر النبي ﷺ عليهم ما في التوراة من الصفات ولا عابهم به، ولا جعله تشبيهاً وتجسيماً وتمثيلاً، كما فعل كثير من النفاة، وقالوا: اليهود أمة التشبيه والتجسيم ولا ذنب لهم في ذلك، فإنهم فسروا ما

(١) انظر في ذلك: درة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مؤلفه العظيم: «درء تعارض العقل والنقل». مطبوع بتحقيق جيد، للدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله تعالى.

في التوراة. فالذي عابهم الله به من تأويل التحريف والتبديل لم يعيهم به المعطلة النفاة بل شاركوهم فيه، والذي استشهد الله سبحانه على نبوة رسوله به من موافقة ما عندهم من التوحيد والصفات، عابوهم به ونسبوهم فيه إلى التجسيم والتشبيه.

وهذا ضد ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، فإنهم كانوا إذا ذكروا له شيئاً من هذا الذي تسميه المعطلة تجسيمياً وتشبيهاً، صدقهم عليه أو أقرهم ولم ينكره، كما صدقهم في خبر الخبر المتفق على صحته^(١) من حديث عبد الله بن مسعود، وضحك تعجباً وتصديقاً له، وفي غير ذلك.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ [الأنعام:

١١٥].

فقرر أن ما أخبر به فهو صدق، وأمر به فهو عدل، وهذا يبين أن ما في النصوص من الخبر فهو صدق، علينا أن نصدق به، لا نعرض عنه، ولا نعارضه، ومن دفعه أو عارضه بعقله لم يصدقوا به، ولو صدقه تصديقاً مجملاً ولم يصدقه تصديقاً مفصلاً في أعيان ما أخبر به لم يمكن مؤمناً، ولو أقر بلفظه مع جحد معناه، أو حرقه إلى معانٍ آخر غير ما أريد به لم يكن مصدقاً، بل هو إلى التكذيب أقرب^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَاحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قرأ: «وما قدروا الله حق قدره». قال يحيى بن سعيد: وزاد فيه فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله: فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً له.

هذه رواية البخاري (٤٠٤/١٣) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدِي﴾، ومسلم (٦٥٥/٥) في صفة القيامة.

(٢) الصواعق المرسله (٣/١٠٤٢ - ١٠٤٦).

فجمع له بين النور والحياة، كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة، فقال ابن عباس وجميع المفسرين: كان كافراً ضالاً فهديناه وجعلنا له نوراً.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يتضمن أموراً:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور، وهم في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق. وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراه ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم^(١).

[وفي قوله]: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾، جمع بين الأصلين: الحياة والنور، فالحياة تكون قوته، وسمعه وبصره، وحياءه وعفته، أو شجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن وبغضه للقيح. فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات، وحيائه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها، ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقيح، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر^(٢).

فإن المراد بها: من كان ميت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان، فأحياه الرب تعالى بروح أخرى غير الروح التي أحيا بها بدنه، وهي روح معرفته وتوحيده ومحبته وعبادته وحده لا شريك له. إذ لا حياة للروح إلا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات، ولهذا وصف الله تعالى من عدم ذلك بالموت، فقال: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وسمى وحيه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

(٢) إغاثة اللهفان (١/٢٠).

(١) الفوائد (٨٩).

فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن، ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم. وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة: فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيى^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الأنعام: ١٢٧].

[في] تسمية الجنة بدار السلام، وإضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها إضافة إلى مالكتها السلام سبحانه.

الثاني: أنها إضافة إلى تحية أهلها، فإن تحيتهم فيها سلام.

الثالث: أنها إضافة إلى معنى السلامة، أي: دار السلامة من كل آفة ونقص

وشر.

والثلاثة متلازمة، وإن كان الثالث أظهرها، فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكتها لأضيفت إلى اسم من أسمائه غير السلام، وكان يقال: دار الرحمن، أو دار الله، أو دار الملك، ونحو ذلك، فإذا عهدت إضافتها إليه ثم جاء دار السلام حملت على المعهود.

وأيضاً فإن المعهود في القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها؛ أما الأول: فنحو دار القرار، دار الخلد، جنة المأوى، جنات النعيم، جنات الفردوس. وأما الثاني: فنحو دار المتقين ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله في القرآن، فالأولى حمل الإضافة على المعهود في القرآن.

وكذلك إضافتها إلى التحية ضعيف من وجهين: أحدهما: أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة، وما يضاف إلى الجنة لا يكون إلا مختصاً بها، كالخلد والقرار والبقاء. الثاني: أن من أوصافها غير التحية ما هو أكمل منها، مثل كونها دائمة وباقية ودار الخلد، والتحية فيها عارضة عند التلاقي والتزاور، بخلاف السلامة من كل عيب ونقص وشر، فإنها من أكمل أوصافها المقصودة على الدوام، التي لا يتم النعيم فيها إلا به، فأضافتها إليه أولى وهذا ظاهر^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

يعني: قد استكثرتهم من إضلالهم وإغوائهم.

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم^(١): أضللتهم منهم كثيراً. فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم: ﴿رَبَّنَا اسْتَمَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر، فاستمتاع الجن بالإنس: طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به: من الكفر والفسوق والعصيان، فإن هذا أكثر أغراض الجن من الإنس، فإذا أطاعوهم فيه فقد أعطوهم مناهم. واستمتاع الإنس بالجن: أنهم أعانوهم على معصية الله تعالى، والشرك به بكل ما يقدرون عليه: من التحسين والتزيين والدعاء، وقضاء كثير من حوائجهم، واستخدامهم بالسحر والعزائم وغيرها. فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم: من الشرك والفواحش والفجور، وأطاعتهم الجن فيما يرضيهم: من التأثيرات والإخبار ببعض المغيبات فتمتع كل من الفريقين بالآخر.

وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية، الذين لهم كشف شيطانية وتأثير شيطاني، فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنما هم من أولياء الشيطان. أطاعوه في الإشراف ومعصية الله، والخروج عما بعث به رسله وأنزل به كتبه، فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغتر بهم من قل حظه من العلم والإيمان، فوالى أعداء الله وعادى أوليائه، وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسنته، وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول وما جاء به، ولم يدعها لأقوال المختلفين، وآراء المتحيرين، وشطحات المارقين، وترهات المتصوفين.

والبصير الذي نور الله بصيرته بنور الإيمان والمعرفة، إذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الخلق، وكان ناقداً لا يروج عليه الزغل؛ تبين له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية وهي منطبقة عليهم.

فالفاسق يستمتع بالشيطان بإعانتة له على أسباب فسوقه، والشيطان يستمتع به في قبوله منه، وطاعته له، فيسره ذلك ويفرح به منه.

والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به وعبادته له، ويستمتع هو بالشيطان في قضاء حوائجه وإعانتة له.

(١) تفسير الطبري (٨/٣٣). وانظر: الدر المنثور (٣/٣٥٧).

ومن لم يحط علماً بهذا لم يعلم حقيقة الإيمان والشرك، وسر امتحان الرب سبحانه كلاً من الثقلين بالآخر.

ثم قالوا: ﴿وَبَقَعْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا لَكُنَّا﴾، وهو يتناول أجل الموت، وأجل البعث، فكلاهما أجل الله تعالى لعباده. وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدِي﴾ [الأنعام: ٢].

وكأن هذا - والله أعلم - إشارة منهم إلى نوع استعطف، وتوبة، فكأنهم يقولون: هذا أمر كان إلى وقت وانقطع بانقطاع أجله فلم يستمر ولم يدم، فبلغ الأمر الذي كان أجله، وانتهى إلى غايته ولكل شيء آخر، فقال تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوًى لِّمَثْوِيهَا﴾، فإنه وإن انقطع زمن التمتع وانقضى أجله، فقد بقي زمن العقوبة. فلا يتوهم أنه إذا انقضى زمن الكفر والشرك وتمتع بعضهم ببعض أن مفسدته زالت بزواله، وانتهت بانتهائه، والمقصود أن الشيطان تلاعب بالمشركين حتى عبده واتخذوه وذريته أولياء من دون الله^(١).

وقوله: ﴿النَّارُ مَثْوًى لِّمَثْوِيهَا﴾ إلا ما شاء الله ﴿فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف^(٢)، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ يُظَلِّمُ وَأَهْلَهَا عَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

دلت الآية على أنه لا تلازم بين قبح الفعل والعقوبة، وأنه لا يعاقب إلا بإرسال الرسل. وعلى أحد القولين - وهو أن يكون المعنى: لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسل - فتكون الآية دالة على الأصلين: أن أفعالهم وشركهم ظلم قبيح قبل البعثة، وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد الإرسال^(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءآخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

(٢) أي: الجن.

(١) إغاثة اللفهان (٢/٢٣٦ - ٢٣٨).

(٤) مدارج السالكين (١/٢٣٢).

(٣) طريق الهجرتين (٣٩٠).

فهذا قياس جلي بقوله سبحانه: إن شئت أذهبكم واستخلفت غيركم كما أذهبت من قبلكم واستخلفتكم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَعِدُّ فِي مَا أُوْحِي إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فالضمير في قوله: «فإنه» وإن كان عوده إلى الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم، فإنه يترجح اختصاص لحم الخنزير به، لثلاثة أوجه. أحدها: قربه منه.

والثاني: تذكيره دون قوله: فإنها رجس.

والثالث: أنه أتى «بالفاء» و«إن» تنبيهاً على علة التحريم، لتزجر النفوس عنه، ويقابل هذه العلة ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته فنفى عنه ذلك، وأخبر أنه رجس، وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم؛ لأن كونهما رجساً أمر مستقر معلوم عندهم، ولهذا في القرآن نظائر فتأملها^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

فأخبر سبحانه: أن الحججة له عليهم: برسله وكتبه، وبيان ما ينفعهم ويضرهم، وتمكنهم من الإيمان. ومعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول. فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك، واضمحلت حججهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

[هذا] مما يدل على أن لفظ الشهادة غير مشروط.

(٢) زاد المعاد (٥/٧٦٢).

(١) إعلام الموقعين (١/١٨٥).

(٣) شفاء العليل (١٧).

ومعلوم قطعاً أنه لم ينكر عليهم إلا مجرد قولهم: إن الله حرم هذا. لم يخص الإنكار بقول من قال: يشهد أن الله حرمه، ولا نهى رسول الله ﷺ أن يتلفظ بالشهادة على التحريم، بل هو نهى له أن يقول: إن الله حرمه^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فلما ذكر إتيانه سبحانه، ربما توهم متوهم أن المراد إتيان بعض آياته، أزال هذا الوهم ورفع الإشكال بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾، فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصاً صريحاً في معناه، لا يحتمل غيره وإذا تأملت أحاديث الصفات؛ رأيت هذا لائحاً على صفاتها، بادياً على ألفاظها، كقوله ﷺ^(٢): «إنكم ترون ربكم عياناً كما ترى الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحب، وكما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحب»^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

أنت عدد الأمثال لتأويلها بحسنات، ومثله قراءة أبي العالية^(٤): (لا تنفع نفساً إيمانها) بالتاء والفعل مسند إلى الإيمان لكنه طاعة وإثابة في المعنى^(٥).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

قال ابن عباس رضي الله عنه^(٦): سيداً وإلهاً، يعني: فكيف أطلب رباً غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخِيَّ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

(١) بدائع الفوائد (٤/٥٥).

(٢) انظر ما سبق.

(٣) الصواعق المرسله (١/٣٩٥، ٣٩٦).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٢/٢٠٧).

(٥) بدائع الفوائد (٤/٢٠٩).

(٦) يشير إلى الحديث الشريف الصحيح: «من قال حين يمسي: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، كان حقاً على الله أن يرضيه». رواه الإمام أحمد (٥/٣٦٧)، وأبو داود (١٣/٤١٢، ٤١٣) في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، والترمذي (٥/٤٣٤) في الدعوات، باب: ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى. وقال: حسن غريب والطبراني في الدعاء (٢/٩٣١، ٩٣٢)، والحاكم (١/٥١٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ كما في «نتائج الأفكار» (٢/٣٥١ - ٣٥٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٣٤).

يعني: معبوداً وناصرأ ومعينأ وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً. ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله رباً ولا يبغى رباً سواه، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصرأ، بل يوالي من دونه أولياء ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك.

بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه. فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته؛ فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاثة هي أصل التوحيد: أن لا يتخذ سواه رباً ولا إلهاً ولا غيره حكماً^(١).



(١) مدارج السالكين (٢/ ١٨١، ١٨٢).

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١، ٢].

والله تعالى رفع الحرج عن الصدور بكتابه، وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق، فلما أنزل كتابه؛ ارتفع به عنها ذلك الحرج، وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمنوا به، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومن آمن به من وجه دون وجه ارتفع عنه الحرج والضيق من الوجه الذي آمن به دون ذلك الوجه، فمن أقر أنه منزل من عند الله أنزله على رسوله، ولم يقر بأنه كلامه الذي تكلم به، بل جعله مخلوقاً من مخلوقاته كان في صدره من الضيق والحرج ما يناسب ذلك، ومن أقر بأنه تكلم بشطره، وهو المعاني، دون شطره الآخر - وهو حروفه - كان من الحرج منه ما يناسب ذلك.

ومن زعم أنه غير كاف في معرفة الحق، وأن العباد يحتاجون معه إلى معقولات وآراء ومقاييس وقواعد منطقية ومباحث عقلية؛ ففي صدره منه أعظم حرج، وأعظم حرج منه من اعتقد أن فيه ما يناقض العقل الصريح، ويشهد العقل بخلافه، وكذلك من زعم أن آياته لا يستفاد منها علم ولا يقين ففي صدره منه من الحرج ما الله به عليم.

ومن زعم أن الخطاب به خطاب جمهوري يخيل للعامة ما ينتفعون به مما ليس له حقيقة في نفس الأمر؛ ففي صدره منه أعظم حرج، ومن زعم أن أجل ما فيه وأشرفه وأفضله، وهو قسم التوحيد المتضمن للأسماء والصفات مجازات واستعارات وتشبيهات لا حقائق؛ ففي صدره منه أعظم حرج.

فكل هذه الطوائف في صدورهم منه حرج وريب، وليس في حقهم هدى، ولا شفاء، ولا رحمة، ولا هو كاف لهم بشهادتهم على أنفسهم، وشهادة الله وملائكته والشهداء من عباده عليهم، وبالله التوفيق^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

فأمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره. فما هو إلا اتباع المنزل، واتباع أولياء من دونه. فإنه لم يجعل بينهما واسطة فكل من لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل واتباع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَآئِنَتِنَا يَطْلُمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

قال حذيفة وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف.

وهذه الموازنة تكون بعد القصاص واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته، فإذا بقي شيء منها وزن هو وسيئاته^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

فإن نفي كونه من الساجدين، أخص من نفي السجود عنه، لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية، والاستعداد. فهو أبلغ في الذم من أن يقال: لم يسجد^(٤).

* * *

(١) الصواعق المرسله (٤/١٥١٨، ١٥١٩). (٢) الرسالة التبوكية (٥٤).

(٣) طريق الهجرتين (٣٨٠). (٤) بدائع الفوائد (٣/٥٧، ٥٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقد قيل: إن طرد إبليس، ولعنه إنما كان بسبب التأويل، فإنه عارض النص بالقياس، وقدمه عليه، وتأول لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود فإنه قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾. وهذا دليل قد حذف إحدى مقدمتيه، وهي أن الفاضل لا يخضع للمفضول، وطوى ذكر هذه المقدمة (كأنها مقدمة)؛ لكونها معلومة، وقرر المقدمة الأولى بقوله: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، فكان نتيجة المقدمتين امتناعه من السجود، وظن أن هذه الشبهة العقلية تنفعه في تأويله، فجرى عليه ما جرى، وصار إماماً لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة، ولا إله إلا الله كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين!

وأنت إذا تأملت عامة شبه المتأولين التي تأولوا لأجلها النصوص وعطلوها رأيتها من جنس شبهته، والقائل: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل من هاهنا اشتق هذه القاعدة، وجعلها أصلاً لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها، كما زعم إمامه أن دليل العقل يخالف نص الأمر بالسجود حين قدمه عليه، وعرضت لعدو الله هذه الشبهة من ناحية كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنص الوحي، وهكذا تجد كل مجادل في نصوص الوحي بالباطل، إنما يحمله على ذلك كبر في صدره ما هو ببالغ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١١) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

قال جمهور المفسرين والنحاة^(٢): حذف «على» فانصب الفعل^(٣)، والتقدير:

(١) الصواعق المرسله (١/٣٧١، ٣٧٢).

(٢) راجع: الطبري (٨/١٣٣)، وابن كثير (٢/٢٢٠)، والقرطبي (٣/٢٦١٠)، والآلوسي (٨/٩٤).

(٣) كذا في الأصل والصحيح «فانصب الاسم»، وهو: «صراطك».

لأقعدن لهم على صراطك، والظاهر: أن الفعل مضمر، فإن القاعد على الشيء ملازم له، فكانه قال: لألزمته، ولأرصدنه، ولأعوجنه، ونحو ذلك.

قال ابن عباس: دينك الواضح. وقال ابن مسعود: هو كتاب الله. وقال جابر: هو الإسلام. وقال مجاهد: هو الحق.

والجميع عبارات عن معنى واحد، وهو الطريق إلى الله تعالى، وقد تقدم حديث سبرة بن الفاكه^(١): «أن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة كلها - الحديث»، فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، قال ابن عباس^(٢) في رواية عطية عنه: من قبل الدنيا. وفي رواية علي عنه: أشككهم في آخرتهم. وكذلك قال الحسن: من قبل الآخرة، تكذيباً بالبعث والجنة والنار. وقال مجاهد: من بين أيديهم من حيث يبصرون. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أرغبهم في دنياهم. وقال الحسن: من قبل دنياهم أزينها لهم وأشهيها لهم. وعن ابن عباس رواية أخرى: من قبل الدنيا. قال أبو صالح: أشككهم في الآخرة وأباعدهم عليها، وقال مجاهد أيضاً: من حيث لا يبصرون.

﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أشبه عليهم أمر دينهم. وقال أبو صالح: الحق أشككهم فيه. وعن ابن عباس أيضاً: من قبل حسناتهم أيضاً.

قال الحسن: من قبل الحسنات أثبطهم عنها، وقال أبو صالح أيضاً: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: أنفقهم عليهم وأرغبهم فيه.

وقال الحسن: ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ السيئات يأمرهم بها ويحثهم عليها ويزينها في أعينهم. وصح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال^(٣): «ولم يقل: من فوقهم؛ لأنه علم أن الله فوقهم».

(١) رواه النسائي (٢١/٦، ٢٢) في الجهاد، باب: ما لمن أسلم وهاجر وجاهد. وابن حبان (٥٧/٧)، وصححه. والطبري (١٣٤/٨). وحسنه الحافظ، كما في الإصابة (١٢٠/٤).
وصححه الألباني (صحيح الجامع رقم ١٦٤٨).

سيرة بن الفاكه ويقال: ابن الفاكهة ويقال: ابن أبي الفاكه - صحابي نزل الكوفة، الإصابة (١٢٠/٤)، وانظر: شرح الحديث في تفسير الآلوسي (٩٤/٨، ٩٥).

(٢) الطبري (١٣٧/٨، ١٣٨)، الدر المنثور (٤٢٦/٣).

(٣) رواه الطبري (١٣٧/٨)، وانظر: الدر المنثور (٤٢٦/٣، ٤٢٧).

قال الشعبي: فالله ﷻ أنزل الرحمة عليهم من فوقهم. وقال قتادة: أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

قال الواحدي: وقول من قال: الأيمان كناية عن الحسنات، والشمائل كناية عن السيئات؛ حسن، لأن العرب تقول: اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك، تريد: اجعلني من المتقدمين عندك ولا تجعلني من المؤخرين. وأنشد لابن الدمينه^(١):

أَلْبُنَى أَفِي يُمْنَى يَدِيكَ جَعَلْتَنِي فَأَفْرَحَ أَمْ صَيَّرْتَنِي فِي شِمَالِكَ؟
وروى أبو عبيد عن الأصمعي: هو عندنا باليمين، أي: بمنزلة حسنة، وبضد ذلك: هو عندنا بالشمال، وأنشد:

رَأَيْتَ بَنِي الْعَلَاتِ لَمَا تَظَافَرُوا يَحُوزُونَ سَهْمِي بَيْنَهُمْ فِي الشَّمَائِلِ
أي: ينزلونني بالمنزلة السيئة.

وحكى الأزهري عن بعضهم في هذه الآية: (لأغوينهم) حتى يكذبوا بما تقدم من أمور الأمم السالفة، ومن خلفهم بأمر البعث (وعن أيمانهم وعن شمائلهم)، أي: لأضلنهم فيما يعملون، لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما كسبت يداك، وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئاً؛ لأنهما الأصل في التصرف، فجعلنا مثلاً لجميع ما يعمل بغيرهما. وقال آخرون - منهم أبو إسحاق والزمخشري^(٢) - واللفظ لأبي إسحاق: ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التوكيد، أي: لآتينهم من جميع الجهات والحقيقة، والله أعلم، أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم.

وقال الزمخشري: ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم، وتسويله ما أمكنه وقدر عليه، كقوله: ﴿وَأَسْتَفْرِزُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، وهذا يوافق ما حكيناه عن قتادة: أتاك من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك.

وهذا القول أعم فائدة ولا يناقض ما قال السلف، فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين.

(١) هو: عبيد الله بن عبد الله، والدِّمِينَةُ أُمُّهُ وهو من خثعم.

طبقات الشعراء لابن قتيبة (٣٧٥).

(٢) الكشف للزمخشري (٥٦/٢)، وانظر: القرطبي (٢٦١٢/٣).

قال شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَلِي لَفَّاقًا لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]. وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه فأقرأ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. ومن قبل يميني يأتيني من قبل النساء فأقرأ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ومن قبل شمالي يأتيني من قبل الشهوات فأقرأ: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَيَبْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤].

قلت: السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأبي سبيل من هذه وجد الشيطان عليها رسداً له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبته عنها ويقطعه، أو يعوقه ويبطئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له، وخادماً، ومعيناً، وممناً، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك.

ومما يشهد لصحة أقوال السلف قوله تعالى: ﴿وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]. قال الكلبي: أَلزَمْنَاهُمْ قُرْنَاءَ مِنَ الشَّيَاطِينِ. وقال مقاتل: هيأنا لهم قرناء من الشياطين. وقال ابن عباس: ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة. والمعنى: زينوا لهم الدنيا حتى آثروها، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة، والإعراض عنها، وقال الكلبي: زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة: إنه لا جنة ولا نار، ولا بعث، وما خلفهم من أمر الدنيا ما هم عليه من الضلالة. وهذا اختيار الفراء، وقال ابن زيد: زينوا لهم ما مضى من خبث أعمالهم وما يستقبلون منها.

والمعنى على هذا: زينوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه، وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه.

فقول عدو الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيهِمْ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يتناول الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، فإن ملك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه على فعل الخير، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يثبته عنه، وإن ملك السيئات عن الشمال ينهأ عنها، فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرضه عليها^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَيْتُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١].

علم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما، فإنها معصية، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انتهك ذلك الستر فبدت لهما سواتهما، فالمعصية تبدي السواة الباطنة والظاهرة، ولهذا رأى النبي ﷺ في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سواتهم.

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباساً ظاهراً يوارى العورة ويسترها، ولباساً باطنياً من التقوى، يجمل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها.

وقوله ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً﴾ أي كراهة أن تكونا ملكين، وكراهة أن تخلدا في الجنة، ومن ها هنا دخل عليهما، لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم^(١).

□ □ □

وخروج آدم من الجنة، إنما كان بسبب التأويل وإلا فهو ﴿عَلِيمٌ﴾ لم يقصد بالأكل معصية الرب، والتجرؤ على مخالفة نهي، وأن يكون ظالماً مستحقاً للشقاء بخروجه من الجنة، هذا لم يقصده أبو البشر قطعاً، ثم اختلف الناس في وجه تأويله.

فقال طائفة: تأول بحمله النهي المطلق على الشجرة المعينة، وغرّه عدو الله بأن جنس هذه الشجرة هي شجرة الخلد، وأطمعه في أنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة. وفي هذا الذي قالوه نظر ظاهر، فإن الله سبحانه أخبر أن إبليس قال له: ﴿مَا نَهَيْتُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

فذكر لهما عدو الله الشجرة التي نهيا عنها إما بعينها، أو بجنسها، وصرح لهما بأنها هي المنهي عنها، ولو كان عند آدم أن المنهي عنه تلك الشجرة المعينة دون سائر النوع لم يكن عاصياً بأكله من غيرها، ولا أخرج الله من الجنة ونزع عنه لباسه.

وقالت فرقة أخرى: تأول آدم أن النهي نهي تنزيه لا نهي تحريم فأقدم على الأكل لذلك.

(١) إغاثة اللفهان (١/١١١).

وهذا باطل قطعاً من وجوه كثيرة يكفي منها قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وأيضاً فحيث نهى الله عن فعل الشيء بقربانه لم يكن إلا للتحريم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُمْ حَتَّىٰ تَطْهَرُوا﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وأيضاً لو كان للتنزيه لما أخرجه الله من الجنة وأخبر أنه عصى ربه.

وقالت طائفة: بل كان تأويله أن النهي إنما كان عن قربانهما وأكلهما معاً، لا عن أكل كل منهما على انفراد، لأن قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبَا﴾ [البقرة: ٣٥] نهى لهما على الجميع، ولا يلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الانفراد، وهذا التأويل ذكره ابن الخطيب^(١) في تفسيره.

وهو كما ترى في البطلان والفساد. ونحن نقطع أن هذا التأويل لم يخطر بقلب آدم وحواء البتة، وهما كانا أعلم بالله من ذلك وأصح أفهاماً، أفترى فهم أحد عن الله تعالى من قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ﴾ [الإسراء: ٣٢] ونظائره، أي: إنما نهيتكم عن اجتماعكم على ذلك دون انفراد كل واحد منكم به!

فيا للعجب من أوراق وقلوب تسود على هذه الهذيان، وتجد لها حاملاً وقابلاً يستحسنها ويصغي بقلبه وسمعه إليها.

والصواب في ذلك أن يقال: إن آدم صلوات الله وسلامه عليه لما قاسمه عدو الله أنه ناصح، وأخرج الكلام على أنواع متعددة من التأكيد:
أحدها: القسم.

الثاني: الإتيان بالجملة اسمية لا فعلية.

الثالث: تصديرها بأداة التأكيد.

الرابع: الإتيان بلام التأكيد في الخبر.

الخامس: الإتيان به اسم فاعل لا فعلاً دالاً على الحدث.

السادس: تقديم المعمول على العامل فيه.

ولم يكن آدم يظن أن أحداً يقسم بالله كاذباً يمين غموس، يتجرأ فيها هذه الجرأة على الله، فغره عدو الله بهذا التأكيد والمبالغة، فظن آدم صدقه، وأنه إن أكل منها

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي (٣/٥، ٦).

لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة النهي أثناء ذلك إما باعتذار، وإما بتوبة، وإما بغير ذلك، كما تجد هذا التأويل قائماً في نفس كل من يؤمن بالله واليوم الآخر، إيماناً لا شك فيه إذا أقدم على المعصية.

فوازن بين هذا التأويل وبين تأويلات المحرفين؛ يظهر لك الصواب من الخطأ. والله الموفق للصواب^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّنَا تَغْفِرٌ لَّنَا وَرَحْمَةً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها، وعقابها، ويق العبد من ذلك وإلا ضرته آثارها ولا بد، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق ونحوه، وإلا ضره ولا بد، وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما يصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به؛ وإلا خسر، والمغفرة تمنع الشر والرحمة توجب الخير، والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقه السيئات ويرحمه فيؤته الحسنات، وإلا هلك ولا بد، إذ كان ظالماً لنفسه ظلوماً بنفسه، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإن لم تتحرك إلى الخير تحركت إلى الشر، فضرّت صاحبها، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفساً، لأن ما ليس حساساً متحركاً بالإرادة فليس نفساً، ففي الصحيح^(٢) عن النبي ﷺ: «أصدق الأسماء حارث وهمام»؛ فالحارث الكاسب العامل، والهمام الكثير الهم، والهم مبدأ الإرادة؛ فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَنْبَغِيْ عَادِمٍ فَدَأْرُنَا عَلَيْكُمُ لِيَأْسًا يُّورِي سَوَاءَ بَيْتِكُمْ وَرِدِيْشًا وَلِيَأْسَ التَّقْوَى ذَلِكُمْ خَيْرٌ ذَلِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فأخبر سبحانه أن لباس التقوى وزينتها خير من المال، والرياش، والجمال

(١) الصواعق المرسلة (١/٣٧٢ - ٣٧٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٥٠)، ولم أجده في الصحيحين.

(٣) طريق الهجرتين (١٠٠).

الظاهر. فإله سبحانه خلق عباده، وجَمَل ظواهرهم بأحسن تقويم، وجَمَل بواطنهم بهدأيته إلى الصراط المستقيم^(١).

فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فقوله ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ دليل على أنها في نفسها فحشاء، وأن الله لا يأمر بما يكون كذلك، وأنه يتعالى ويتقدس عنه، ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة كان بمنزلة أن يقال: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه، وهذا كلام يسان عن آحاد العقلاء، فكيف بكلام رب العالمين؟ ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. فأخبر أنه يتعالى عن الأمر بالفحشاء، بل أوامره كلها حسنة في العقول مقبولة في الفطر، فإنه أمر بالقسط لا بالجور، وبإقامة الوجوه له عند مساجده، لا لغيره، ويدعونه وحده، مخلصين له الدين، لا بالشرك، فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿١٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩، ٣٠].

وروى ابن عبد البر بإسناده عن موسى بن عبيدة: سمعت محمد بن كعب القرظي^(٤) في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿١٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، قال: من ابتداء الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى، وإن عمل بعمل أهل الضلالة، ومن ابتداء خلقه للضلالة صيره إلى الضلالة، وإن عمل بعمل أهل الهدى، ابتداء

(١) الصواعق المرسله (٤/١٥٥٢، ١٥٥٣). (٢) إغاثة اللهفان (١/٥٨).

(٣) مفتاح دار السعادة (٣٣٦، ٣٣٧).

(٤) رواه الطبري (٨/١٥٦). وانظر: الدر المشور (٣/٤٣٧).

خلق إبليس على الضلالة، وعمل بعمل أهل السعادة مع الملائكة، ثم رده الله إلى ما ابتدأ خلقه عليه من الضلالة، فقال: وكان من الكافرين، وابتدأ خلق السحرة على الهدى، وعملوا عمل أهل الضلالة، ثم هداهم الله إلى الهدى، والسعادة، وتوفاهم عليها مسلمين.

فهذا المنقول عن محمد بن كعب يبين أن الذي ابتدأهم عليه هو ما كتب أنهم صائرون إليه، وأنهم قد يعملون قبل ذلك غيره، وأن من ابتدئ على الضلالة أي كتب أن يكون ضالاً؛ فقد يكون قبل ذلك عاملاً بعمل أهل الهدى، وحينئذ فمن ولد على الفطرة السليمة المقتضية للهدى؛ لا يمنع أن يعرض لها ما غيرها فيصير إلى ما سبق به القدر.

كما في الحديث الصحيح^(١): «إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة».

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، قال: كما كتب عليكم تكونون، وقال مجاهد: كما بدأكم تعودون؛ شقي وسعيد. وقال أيضاً: يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً. وقال أبو العالية: عادوا إلى علمه فيهم؛ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة.

قلت: هذا المعنى صحيح في نفسه، دل عليه القرآن والسنة والآثار السلفية وإجماع أهل السنة. وأما كونه هو المراد بالآية ففيه ما فيه، والذي يظهر من الآية أن معناها معنى نظرائها وأمثالها من الآيات التي يحتج الله سبحانه فيها على النشأة الثانية بالأولى، وعلى المعاد بالمبدأ، فجاء باحتجاج في غاية الاختصار والبيان، كما بدأكم تعودون. كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [٣١] أَلَمْ يَكُ نُطْعَمُ مِنْ مَمْنَى يَمْنَى﴾ [١٧] ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ خَلْقٍ فَسْوَى﴾ [٧٨] جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [٣٩] أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦، ٤٠]، وقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [٥] خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [١] يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [٧] إِنَّهُ

(١) رواه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ ﴿٥-٨﴾، أي: على رجوع الإنسان حياً بعد موته، هذا هو الصواب في معنى الآية.

يبقى أن يقال: فكيف يرتبط هذا بقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ الآية؟

فيقال: هذا الذي أوجب لأصحاب ذلك القول ما تأولوا به الآية، ومن تأمل الآية علم أن القول أولى بها، ووجه الارتباط أن الآية تضمنت قواعد الدين علماً، وعملاً، واعتقاداً، فأمر سبحانه فيها بالقسط الذي هو حقيقة شرعه ودينه، وهو يتضمن التوحيد فإنه أعدل العدل، والعدل في معاملة الخلق، والعدل في العبادة وهو الاقتصاد في السنة. ويتضمن الأمر بالإقبال على الله، وإقامة عبوديته في ثبوته، ويتضمن الإخلاص له، وهو عبوديته وحده لا شريك له.

فهذا ما فيها من العمل، ثم أخبر بمبدأهم ومعادهم؛ فتضمن ذلك حدوث الخلق وإعادته فذلك الإيمان بالمبدأ والمعاد، ثم أخبر عن القدر الذي هو نظام التوحيد، فقال: فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة؛ فتضمنت الآية الإيمان بالقدر، والشرع، والمبدأ، والمعاد، والأمر بالعدل، والإخلاص، ثم ختم الآية بذكر حال من لم يصدق هذا الخبر ولم يطع هذا الأمر؛ بأنه قد والى الشيطان دون ربه، وأنه على ضلال وهو يحسب أنه على هدى، والله أعلم^(١).

□ □ □

فإن قيل: فما الفرق بين قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦] وبين قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

قيل الفرق من وجهين: لفظي، ومعنوي.

أما اللفظي فهو أن الحروف الحواجز بين الفعل والفاعل في قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أكثر منها في قوله: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ﴾، وقد تقدم أن الحذف مع كثرة الحواجز أحسن.

وأما المعنوي فإن (مَنْ) في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ واقعة على الأمة، والجماعة، وهي مؤنثة لفظاً ألا تراه يقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٠]، ثم قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾؟ أي: من تلك الأمم أمم

(١) شفاء العليل (٢٩٢، ٢٩٣).

حقت عليهم الضلالة، ولو قال بدل ذلك ضلّلت لتعينت التاء، ومعنى الكلامين واحد، وإذا كان معنى الكلامين واحداً، كان إثبات التاء أحسن من تركها، لأنها ثابتة فيما هو في معنى الكلام الآخر، وأما ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾؛ فالفريق مذكر، ولو قال: فريقاً ضلوا لكان بغير تاء وقولهم: «فحق عليهم الضلال» في معناه، فجاء بغير تاء، وهذا أسلوب لطيف من أساليب العربية؛ تدع العرب حكم اللفظ الواجب له في قياس لغتها إذا كان في معنى كلمة لا يجب لها ذلك الحكم، تراهم يقولون: هو أحسن الفتیان وأجمله، لأنه في معنى هو أحسن فتى وأجمله. ونظيره: تصحيحهم حَوِلَ وَعَوِرَ؛ لأنه في معنى أحول وأعور ونظائره كثيرة جداً، فإذا حسن الحمل على المعنى؛ فيما كان القياس لا يجوزه، فما ظنك به حيث يجوزه القياس والاستعمال^(١)؟

* * *

قوله تعالى: ﴿يَبْنِيٰ مَادَمَ خُدُوًا زَيْنَتَكَرَّ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوًا وَاشْرَبُوًا وَلَا تُسْرِفُوًا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].
جمعت أصول أحكام الشريعة كلها، فجمعت الأمر والنهي والإباحة والخبر^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها، لا تستحسنها العقول، فتعلق التحريم بها لفحشها. فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق، يدل على أنه هو العلة المقتضية له، وهذا دليل على أنه حرّمها لكونها فواحش، وحرّم الخبيث لكونه خبيثاً، وأمر بالمعروف لكونه معروفاً، والعلة يجب أن تغاير المعلول. فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيّاً عنه، وكونه خبيثاً هو معنى كونه محرماً: كانت العلة عين المعلول، وهذا محال، فتأمل. وكذا: تحريم الإثم والبغي دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل التحريم^(٣).

(١) بدائع الفوائد (١/١٢٦، ١٢٧).

(٢) بدائع الفوائد (٧/٤).

(٣) راجع: مفتاح دار السعادة (٣٣٣).

ودخل في قوله تعالى تحريم كل فاحشة ظاهرة وباطنة، وكل ظلم وعدوان في مال أو نفس أو عرض، وكل شرك بالله، وإن دق في قول أو عمل أو إرادة، بأن يجعل الله عدلاً بغيره في اللفظ، أو القصد، أو الاعتقاد، وكل قول على الله لم يأت به نص عنه، ولا عن رسوله في تحريم أو تحليل أو إيجاب أو إسقاط، أو خبر عنه باسم أو صفة نفيًا أو إثباتًا، أو خبراً عن فعله، فالقول عليه بلا علم حرام في أفعاله وصفاته ودينه^(١).

□ □ □

فهذه الأنواع الأربعة التي حرّمها تحريماً مطلقاً؛ لم يبيح منها شيئاً لأحد من الخلق، ولا في حال من الأحوال؛ بخلاف الميتة والدم ولحم الخنزير، فإنها تحرم في حال وتباح في حال، وأما هذه الأربعة فهي محرمة.

فالفواحش متعلقة بالشهوة، وتعديل قوة الشهوة باجتنابها.

والبغي بغير الحق متعلق بالغضب، وتعديل القوة الغضبية باجتنابه.

والشرك بالله ظلم عظيم، بل هو الظلم على الإطلاق، وهو مناف العدل والعلم. وقوله: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ سُلْطَانًا﴾ متضمن تحريم أصل الظلم في حق الله، وذلك يستلزم إيجاب العدل في حقه وهو عبادته وحده لا شريك له^(٢).

وذكر سبحانه المحرمات الأربع مبتدئاً بالأسهل منها، ثم ما هو أصعب منه، ثم كذلك حتى ختمها بأعظمها وأشدّها، وهو القول عليه بلا علم، فكيف بالكذب عليه؟ قالوا: ولأن الكذب عليه بأنه قال: كذا ولم يقله، نسبه للقول المكذوب إليه بأنه قاله فالكاذب يعلم أن ما اختلقه كذب، فإذا نسبه إلى رسول الله ﷺ فقد نسب إليه الكذب^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَلْبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوْفَّوهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا

(١) إعلام الموقعين (١/٤١٣).

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٥٨).

(٣) الكلام على مسألة السماع (٣٢٤، ٣٢٥).

أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِنَهُمْ لِأُولِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرِنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿الأعراف: ٣٧ - ٣٩﴾.

قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أَوَلَيْكَ يٰنَاهُمْ نَصِيْبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطية: أي: ما سبق لهم في الكتاب من الشقاوة والسعادة. ثم قرأ عطية: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

والمعنى: أن هؤلاء أدركهم ما كتب لهم من الشقاوة. وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء قال: يريد ما سبق في علمي في اللوح المحفوظ، فالكتاب على هذا القول الكتاب الأول، ونصيبهم ما كتب لهم من الشقاوة وأسبابها.

وقال ابن زيد والقرظي والربيع بن أنس: ينالهم ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال، فإذا فني نصيبهم واستكملوه، جاءتهم رسلنا، يتوفونهم. ورجح بعضهم هذا القول لمكان «حتى» التي هي للغاية، يعني: أنهم يستوفون أرزاقهم، وأعمارهم إلى الموت.

ولمن نصر القول الأول أن يقول: «حتى» في هذا الموضع هي التي تدخل على الجمل، ويتصرف الكلام فيها إلى الابتداء كما في قوله:

فيا عجباً حتى كليب تسبني

والصحيح: أن نصيبهم من الكتاب يتناول الأمرين، فهو نصيبهم من الشقاوة، ونصيبهم من الأعمال التي هي أسبابها، ونصيبهم من الأعمار التي هي مدة اكتسابها، ونصيبهم من الأرزاق التي استعانوا بها على ذلك؛ فعمت الآية هذا النصيب كله، وذكر هؤلاء بعضه، وهؤلاء بعضه، هذا على القول الصحيح. وأن المراد ما سبق لهم في أم الكتاب.

وقالت طائفة: المراد بالكتاب القرآن. قال الزجاج: معنى نصيبهم من الكتاب: ما أخبر الله من جزائهم، نحو قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]، وقوله: ﴿يَسْأَلُكَ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧]، قال أرباب هذا القول: وهذا هو الظاهر؛ لأنه ذكر عذابهم في القرآن في مواضع؛ ثم أخبر أنه ينالهم نصيبهم منه.

والصحيح القول الأول، وهو نصيبهم الذي كتب لهم أن ينالوه قبل أن يخلقوا.

ولهذا القول وجه حسن، وهو أن نصيب المؤمنين من الرحمة والسعادة ونصيب هؤلاء من العذاب والشقاء. فنصيب كل فريق منه ما اختاروه لأنفسهم وآثروه على غيره، كما أن حظ المؤمنين منه كان الهدى والرحمة، فحظ هؤلاء منه الضلال والخيبة، فكان حظهم من هذه النعمة أن صارت نقمة وحسرة عليهم^(١).

□ □ □

فليتدبر العاقل هذه الآيات، وما اشتملت عليه من العبر.

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾.

ذكر الصنفين المبطلين:

أحدهما: منشئ الباطل والفرية وواضعها وداعي الناس إليها.

والثاني: مكذب بالحق.

فالأول: كفره بالافتراء وإنشاء الباطل.

والثاني: كفره بجحود الحق.

ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]؛ فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين: عذاباً بكفرهم وعذاباً بصددهم عن سبيله.

وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

يعني: ينالهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا إِنَّا مَا كُنْهُمْ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ [الأعراف: ٣٧]، زالوا وفارقوا وبطلت تلك الدعوة، ﴿وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ، ادخلوا في جملة هذه الأمم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْتُمْ لِأَوْلَادِهِمْ﴾، كل أمة متأخرة لأسلافها ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا فَغَابَ عَنْهُمْ عَذَابًا صِغَعًا مِنَ النَّارِ﴾، ضاعفه عليهم

بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك، قال الله تعالى: ﴿لِكَلِّ ضِعْفٌ﴾، من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلاله وكفره ﴿وَلَكِنْ لَا فَعْلَمُونَ﴾، لا تعلم كل طائفة بما فيها أختها من العذاب المضاعف. ﴿وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأَخْرَجْنَهُنَّ فَمَا كَانَتْ لَكُنَّ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل، وبينوا لكم الحق وحثروكم من ضلالنا ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا، فأبيتهم إلا اتباعنا وتقليدنا، وترك الحق الذي أتتكم به الرسل، فأبي فضل كان لكم علينا، وقد ضللتم كما ضللنا، وتركتم الحق كما تركنا، فضللتم أتمم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين، فأبي فضل كان لكم علينا؟ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، فيالله ما أشفاها من موعظة وما أبلغها من نصيحة، لو صادفت من القلوب حياة. فإن هذه الآية وأمثالها، مما يذكر قلوب السائرين إلى الله، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾

[الأعراف: ٤٠].

فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم بل أغلقت عنها؛ لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة؛ بل أغلقت عنها. وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم حتى وصلت إلى الله سبحانه، فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه، وقامت بين يديه فرحها وأمر بكتابة اسمها في عليين^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم: أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وهذا أحسن من قول مَنْ قال: إنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر، فهما خبران عن مخبر واحد. فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا؛ بل هو حكم شامل لجميع الخلق، مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابطة وتقدير صفة

(٢) طريق الهجرتين (٢٥٥).

(١) الرسالة التبوكية (٥٦ - ٥٨).

محذوفة، أي: نفساً منها، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

[الأعراف: ٤٣].

قول أهل الجنة ذلك، يحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم، ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وأنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا، وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتُولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦ - ٤٩].

فقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، أي: بين أهل الجنة والنار حجاب، قيل: هو السور الذي يضرب بينهم له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي الكفار من جهتهم العذاب. والأعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع، وهو سور عال بين الجنة والنار، عليه أهل الأعراف.

قال حذيفة وعبد الله بن عباس^(٣): هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار؛ فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته.

قال عبد الله بن المبارك: أخبرنا أبو بكر الهذلي قال: كان سعيد بن جبير يحدث عن ابن مسعود قال: يحاسب الله الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٢١، ٢٢٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (٩٢، ٩٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨٨/٨) وما بعدها.

أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨ - ٩]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم، وبإيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، فإذا أتوا على الصراط، سلب الله تعالى نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ماذا لقي المنافقون قالوا: ﴿أَتَيْمَنَا نُورَنَا﴾ [التحریم: ٨].

وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم ومنعتهم سيئاتهم أن يمضوا بها، فبقي في قلوبهم الطمع، إذا لم ينزع النور من أيديهم، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾. فكان الطمع للنور الذي في أيديهم، ثم أدخلوا الجنة وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً - يريد آخر أهل الجنة دخولاً ممن لم يدخل النار - . وقيل: هم قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم، وهذا من جنس القول الأول. وقيل: هم في قوم رضي عنهم أحد الأبوين دون الآخر يحبسون على الأعراف حتى يقضي الله بين الناس، ثم يدخلهم الجنة، وهي من جنس ما قبله فلا تناقض بينهما.

وقيل: هم أصحاب الفترة، وأطفال المشركين.

وقيل: هم أولو الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف، فيطلعون على أهل النار وأهل الجنة جميعاً.

وقيل: هم الملائكة لا من بني آدم.

والثابت عن الصحابة هو القول الأول، وقد رويت فيه آثار^(١) كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت أسانيدها^(٢).

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي (٣/٤٥٩) وما بعدها.

(٢) انظر: المستدرک للحاکم، وقال: «وقد ذكرت في شرائط هذا الكتاب إخراج التفاسير عن =

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ صريح في أنهم من بني آدم ليسوا من الملائكة، وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾، يعني: يعرفون الفريقين بسيماهم ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ﴾، أي: نادى أهل الأعراف أهل الجنة بالسلام، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، الضميران في الجملتين لأصحاب الأعراف، لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها.

قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريد بها بهم، وقال الحسن: الذي جمع الطمع في قلوبهم يوصلهم إلى ما يطمعون.

وفي هذا رد على قول من قال: إنهم أفاضل المؤمنين علوا على الأعراف يطالعون أحوال الفريقين، فعاد الصواب إلى تفسير الصحابة وهم أعلم الأمة بكتاب الله ومراده منه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، هذا دليل على أنه بمكان مرتفع بين الجنة والنار. فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام، وطمعوا في الدخول إليها، وإذا أشرفوا على أهل النار سألو الله أن لا يجعلهم معهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ [الأعراف: ٤٨]، يعني: من الكفار الذين في النار، فقالوا لهم: ﴿مَا آغَىٰ عَنْكُمُ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨] يعني: ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجروؤكم على الحق، ولا استكباركم. وهذا إما نفي، وإما استفهام وتوبيخ، وهو أبلغ وأفخم.

ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يستزلونهم في الدنيا،

= الصحابة» (٥٥/١).

وقال أيضاً: «... إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند» (٢٥٨/٢).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إن أصح الطرق - في تفسير القرآن - أن يفسر القرآن بالقرآن، ... ثم بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له... وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى قول الصحابة، فإنهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها...».

من مقدمة التفسير، في أول تفسيره (١/١١٠، ١١١). والموقوف عن الصحابة في حكم المرفوع - والله أعلم - إذا تعلق بالتفسير والعقيدة؛ لأنهم يعلمون حكم القائل في القرآن: برأيه. وانظر: حديث رقم (١٦٢٣) من السلسلة الصحيحة والتعليق عليه.

ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم بفضلهم، كما لم يختصهم دونهم في الدنيا، فيقول لهم أهل الأعراف: ﴿أَهْتَوْلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ [الأعراف: ٤٩]. أيها المشركون أن الله تعالى لا ينالهم برحمته، فها هم في الجنة يتمتعون ويتنعمون وفي رياضها يحبرون. ثم يقال لأهل الأعراف: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وقيل: إن أصحاب الأعراف إذا عيروا الكفار، وأخبروهم أنهم لم يغن عنهم جمعهم واستكبارهم، عيّرهم الكفار بتخلفهم عن الجنة، وأنهم يصيرون إلى النار فتقول لهم الملائكة حينئذ: ﴿أَهْتَوْلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، والقولان قويان محتملان، والله أعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فمجيء تأويله مجيء نفس ما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر والمعاد وتفصيله والجنة والنار، ويسمى تعبير الرؤيا تأويلاً بالاعتبارين، فإنه تفسير لها وهو عاقبتها وما تؤول إليه^(٢).

فتأويل ما أخبرت به الرسل هو مجيء حقيقته ورؤيتها عياناً، ومنه تأويل الرؤيا؛ وهو حقيقتها الخارجية التي ضربت للرائي في عالم المثال^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فخلقه وأمره صدرا عن حكمته وعلمه، وحكمته وعلمه اقتضيا ظهور خلقه وأمره. فمصدر الخلق والأمر عن هذين المتضمنين لهاتين الصفتين. ولهذا يقرن سبحانه بينهما عند ذكر إنزال كتابه، وعند ذكر ملكه وربوبيته، إذ هما مصدر الخلق والأمر.

ولما كان سبحانه كاملاً في جميع أوصافه، ومن أجلها كلمته كانت عامة التعلق بكل مقدور، كما أن علمه عام التعلق بكل معلوم، ومشيتها عامة التعلق بكل

(١) طريق الهجرتين (٣٥٥ - ٣٥٧).

(٢) الصواعق المرسلة (١/١٧٦).

(٣) جلاء الأفهام (١١٥).

موجود، وسمعه وبصره عام التعلق لكل مسموع ومرئي، فهذا من لوازم صفاته فلا بد أن تكون حكمته عامة التعلق بكل ما خلقه وقدره وأمر به ونهى عنه، وهذا أمر ذاتي للصفة يمتنع تخلفه وانفكاكه عنها، كما يمتنع تخلف الصفة نفسها وانفكاكها عنه، وهذا وحده برهان كاف شاف في إبطال تلك الأسولة كلها، وأنه يكفي في إبطالها إثبات عموم تعلق صفاته، وذلك يستلزم إثبات الصفات، وهي تستلزم إثبات الذات فإثبات ذات الرب تعالى كاف في بطلان الأسولة الإيليسية^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُسِيذُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة. ويراد به مجموعهما وهما متلازمان.

فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره، أو دفعه. ومن يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقاً. والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر. . ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً، وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر، القاصر والمتعدي، فلا يملكون لأنفسهم ولا لعبادتهم. وهذا في القرآن كثير بَيِّن: أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر، فهو يُدعى للنفع ودفع الضر دعاء المسألة، ويُدعى خوفاً ورجاء دعاء العبادة.

فعلم أن النوعين متلازمان: فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

(١) الصواعق المرسله (٤/١٥٦٤، ١٥٦٥).

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء. وبكل منهما فسرت الآية. قيل: أعطيه إذا سألني. وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان. وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنيه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً. فتأمله فإنه موضع عظيم النفع، قلّ من يفظن له. وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً، هي من هذا القبيل.

□ □ □

فقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يتناول نوعي الدعاء، ولكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره، قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وأن الله ذكر عبداً صالحاً ورضي بفعله، وقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيماناً، لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفي. وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا. وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم. ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه ومن رفع صوته لديهم مقتوه، والله المثل الأعلى. فإذا كان ربنا يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده. فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته، وكسرتة، وضراعتة إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعتة ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

ورابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

وخامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الله في الدعاء؛ فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في حمده وتجريد همته وقصده للمدعو ﷻ.

وسادسها: - وهو من النكت السرية البديعة جداً - أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه، وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه. فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد. ولهذا: أثنى ﷺ على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]؛ فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليساً له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، والله المثل الأعلى سبحانه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال: «اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلتكم»^(١)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقد جاء أن سبب نزولها: أن الصحابة قالوا^(٢): «يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؛ هذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء، لا للنداء الذي هو رفع الصوت فإنهم عن هذا سألوا، فأجيبوا: بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجى، لا مسألة البعيد المنادى.

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قريباً عاماً من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده، و«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(٣)؛ وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة، الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد، كما قال النبي ﷺ راوياً عن ربه تبارك وتعالى^(٤): «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً»؛ فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائله، فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

(١) رواه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٢) رواه الطبري (٤٨٠/٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى: «وهذا الحديث ضعيف جداً، منهار الإسناد بكل حال» (٤٨١/٣). وانظر: تفسير ابن كثير (٢٢٤/١).

(٣) رواه مسلم (٤٨٢). (٤) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب. وأما قربه تبارك وتعالى من مُجِبِّهِ فنوع آخر، وبناء آخر، وشأن آخر، كما قد ذكرناه في كتاب التحفة المكية. على أن العبارة تنبو عنه، ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبداً، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب. وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها فتزل بك قدم بعد ثبوتها، وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم؛ فوقعوا في أنواع الطامات والشطح، وقابلهم من غلظ حجابه، فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوق فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا. وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في «كتاب التحفة» أكثر من مائة طريق. والمقصود هاهنا: الكلام على هذه الآية.

وسابعتها: أنه أذعَى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ، ويكرر رافعاً صوته؛ فإنه لا يطول له ذلك، بخلاف من يخفض صوته.

وثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع، والمشوشات، والمضعفات. فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل له هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفتنت له الأرواح الشريرة والخبيثة من الجن والإنس، فشوشت عليه ولا بد، ومانعته وعارضته ولو لم يكن من ذلك إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى. ومن له تجربة يعرف هذا؛ فإذا أسرَّ الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

وتاسعها: أن أعظم النعم هو الإقبال على الله، والتعبد له، والانتقاع إليه والتبتل إليه. ولكل نعمة حاسد على قدرها، دقت أو جلّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة. فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد وأن لا يقصد إظهارها له. وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْضُصْ رَبِّيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]، وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب قلبه كفيه. ولهذا يوصي العارفون والشيخوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحداً ويتكتمون به غاية التكتم، كما أنشد بعضهم في ذلك:

من سارروه فأبدى السر مجتهداً لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يأمنون مديعاً بعض سرهم حاشا ودادهم من ذلكم حاشا
والقوم أعظم شيء كتماناً لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته
والأنس به، وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتدي والسالك. فإذا تمكن أحدهم
وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في
قلبه؛ بحيث لا يخشى من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليقتدى به
ويؤتم به لم يبال. وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال
على الله فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين،
وهذه فائدة شريفة نافعة.

وعاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه
بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما
قال النبي ﷺ: «أفضل الدعاء الحمد لله»^(١)، فسمى «الحمد لله» دعاء، وهو ثناء
محض؛ لأن الحمد يتضمن الحب والثناء. والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب،
فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب من ربه حاجة
ما.

فتأمل هذا الموضوع؛ فإذا تأملته لا تحتاج إلى ما قيل: إن الذاكر متعرض
للنوال، وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض، كما
قال أمية بن أبي الصلت في ممدوحه:

أذكر حاجتي، أم قد كفاني حياؤك؟ إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو
طلب المحبة، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب
الذي هو دونه.

والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه. وقد قال

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣).

تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه. قال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكره في الصدر بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح. وقد تقدم حديث أبي موسى: «كنا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(١).

□ □ □

وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، فذكر التضرع فيهما معاً، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها. وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويشمرها ولا بد. فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقرن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره؛ لأنها توجب الإدلال والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات، إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألُّه له، فإذا حصل المقصود فلا اشتغال بالوسيلة باطل. ولقد حدثني رجل: أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه؟ فقال له: بلى. فقال له: فقلب المرید أعز عليه من ضياع عشرة دراهم، أو كما قال. وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه. فقال له: هذا غرور بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله وحفظ قلبه مع الله. فالشيخ المربي العارف يأمر المرید بأن يخرج إلى الأمر ويراعي حفظ قلبه، أو كما قال.

فتأمل هذا الغرور العظيم؛ كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة. وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته، ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري. ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده

(١) رواه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن . وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف . فهذه طريقة عبّاده وأوليائه .

وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات، ويقول: المحب لا يضره ذنب، وقد صنف بعضهم في ذلك مصنفاً، وذكر فيه أثراً مكذوباً: «إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب»، وهذا كذب قطعاً منافٍ للإسلام . فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم بالبدن، ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ - وأما عن رسول الله ﷺ فمعاذ الله من ذلك - فله محمل، وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب منافٍ لكونه محباً لله، وإذا لم يصر على الذنب، بل بادر إلى التوبة النصوح منه، فإنه يُمَحَى أثره ولا يضره الذنب، وكلما أذنب وتاب وأتاب إلى الله زال عنه أثر الذنب وضرره، فهذا المعنى صحيح .

والمقصود: أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق، وردّه إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته، لئلا تخرج عن الدرب والرجاء حادٍ يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها . فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصي تردّها إذا حادت عن الطريق، وتركت تركب التعاسيف خرجت عن الطريق وضلت عنها، فما حفظت حدود الله ومحارمه .

وما وصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فساداً لا يرجى صلاحه أبداً، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه .

فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر، والخفية بالدعاء، مع دلالة على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضاً، فإنه قال: ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فلم يحتج بعدها أن يقول: «خفية»، وقال في الدعاء: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، فلم يحتج أن يقول في الأولى: ادعوا ربكم تضرعاً وخفية فانتظمت كل واحدة من الآيتين، للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلت على ذلك أكمل دلالة .

وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه، إذ طلب ما لا يطمع فيه ممتنع.

وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه كما تقدم. فذكر في كل آية ما هو اللائق بها، والأولى بها: من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاءً لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

قيل: المراد أنه لا يحب المعتدين في الدعاء. كالذي يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك. وقد روى أبو داود^(١) في سننه من حديث حماد بن سلمة عن سعيد الجريري عن أبي نعمان أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل الله الجنة وتعوذ من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء».

وعلى هذا فالاعتداء في الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب، أو يسأله أن يطلعه على غيبه أو يسأله أن يجعله من المعصومين، أو يسأله أن يهب له ولداً من غير زوجة ولا أمة، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء. فكل سؤال يناقض حكمة الله أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله.

وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضاً في الدعاء. قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء، والنداء في الدعاء والصياح.

وبعد، فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء في الدعاء مراداً بها فهو من جملة المراد، والله لا يحب المعتدين في كل شيء، دعاء كان أو غيره، كما قال: ﴿وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٨٧/٤)، وأبو داود (٩٦).

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان، وهم الذين يدعون معه غيره. فهؤلاء أعظم المعتدين عدواناً. فإن أعظم العدوان هو الشرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها. فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلياً في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ومن العدوان: أن يدعو دعاء غير متضرع، بل دعاء مُدِلٍّ، كالمستغني بما عنده المدل على ربه به. وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد.

ومن الاعتداء: أن تعبه بما لم يشرعه، وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه. فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب.

وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما: محبوب للرب تبارك وتعالى مرضي له، وهو الدعاء تضرعاً وخفية. والثاني: مكروه له مبغوض، مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه الله وندب إليه، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو أنه لا يحب فاعله ومن لم يحبه الله فأبي خير يناله؟ وفي قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ عقب قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، دليل على أن من لم يدعه تضرعاً وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم. فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعاً وخفية، ومعتد بترك ذلك.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله. فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به، ومخالفة أمره. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم، وتقول: اللهم العنهم، فبسببهم أجدبت الأرض، وقحط المطر.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ: هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول. فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة. فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه، وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله.

ومن تدبر هذا حق التدبر، وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين؛ وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي حق غيره عموماً وخصوصاً، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف، والطمع. فأمر أولاً بدعائه تضرعاً وخفية، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضاً خوفاً وطمعاً، وفصل بين الجملتين بجملتين؛ إحداهما: خبرية متضمنة للنهي، وهي قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، والثانية: طلبية، وهي قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾؛ والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى، مؤكدتان لمضمونها. ثم لما تم تقريرها وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه خوفاً وطمعاً، ثم قرر ذلك وأكد مضمونه بجملة خبرية، وهي قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فتعلق هذه الجملة بقوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، كتعلق قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

ولما كان قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مشتملاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء، عقبها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنما ينال الرحمة من دعاه خوفاً وطمعاً، فهو المحسن والرحمة قريب منه؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية، عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

وانتصاب قوله: «تضرعاً، وخفية، وخوفاً، وطمعاً»، قيل: هو على الحال، أي: ادعوه متضرعين، مخفين، خائفين، طامعين، وهذا هو الذي رجحه السهيلي وغيره.

وقيل: هو نصب على المفعول له. وهذا قول كثير من النحاة.

وقيل: هو نصب على المصدر. وفيه على هذا تقديران:

أحدهما: أنه منصوب بفعل مقدّر من لفظ المصدر، والمعنى: تضرعوا إليه تضرعاً وأخفوا خفية.

الثاني: أنه منصوب بالفعل المذكور نفسه؛ لأنه في معنى المصدر، فإن الداعي متضرع طامع في حصول مطلوبه خائف من فواته. فكأنه قال: تضرعوا تضرعاً. والصحيح في هذا: أنه منصوب على الحال، والمعنى عليه، فإن المعنى ادعوا ربكم متضرعين إليه خائفين طامعين. ويكون وقوع المصدر موقع الاسم على حد قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْآلِرَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: 177]، وقولهم: رجل عدل، ورجل صوم، قال الشاعر:

فإنما هي إقبال وإدبار

وهو أحسن من أن يقال: ادعوه متضرعين خائفين، وأبلغ. والذي حسّنه أن الأمور به هنا شيثان: الدعاء الموصوف المقيّد بصفة معينة وهي صفة التضرع والخوف والطمع. فالمقصود تقييد الأمور به بتلك الصفة، وتقييد الموصوف الذي هو صاحبها بها. فأتى بالحال على لفظ المصدر لصلاحيته؛ لأن يكون صفة للفاعل وصفة للفعل المأمور به.

فتأمل هذه النكتة؛ فإنك إذا قلت: اذكر ربك تضرعاً فإنك تريد: اذكره متضرعاً إليه، واذكره ذكر تضرع، فأنت مرید للأمرين معاً. ولذلك إذا قلت: ادعه طمعاً، أي: ادعه دعاء طمع، وادعه طامعاً في فضله، وكذلك إذا قلت: ادعه رغبة ورهبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: 90] كان المراد: ادعه راغباً وراهباً وادعه دعاء رغبة ورهبة.

فتأمل هذا الباب تجده كذلك، فأتى فيه المصدر الدال على وصف المأمور به بتلك الصفة، وعلى تقييد الفاعل بها تقييد صاحب الحال بالحال.

ومما يدل على هذا: أنك تجد مثل هذا صالحاً وقوعه جواباً لكيف. فإذا قيل: كيف أدعوه؟ قيل: تضرعاً وخفية، وتجد اقتضاء «كيف» لهذا أشد من اقتضاء «لِمَ»،

ولو كان مفعولاً له لكان جواباً للم، ولا تحسن هنا. ألا ترى أن المعنى ليس عليه. فإنه لا يصح أن يقال: لم أدعوه؟ فيقول: تضرعاً وخفية. وهذا واضح، ولا هو انتصاب على المصدر الميّن للنوع الذي لا يتقيّد به الفاعل، لما ذكرناه من صلاحيته جواباً لكيف.

وبالجملة، فالمصدرية في هذا الباب لا تنافي الحال، بل الإتيان بالحال ها هنا بلفظ المصدر يفيد ما يفيد المصدر مع زيادة فائدة الحال، فهو أتم معنى ولا تنافي بينهما، والله أعلم.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته القريبة من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفاً وطمعاً، فقرب مطلوبكم منكم وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم، وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم. فإن الله هو الغني الحميد، وإن أحستتم أحستتم لأنفسكم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليه، ودلالة بمفهومه. فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بتعليه وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين.

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم، لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان، لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته. وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعداً يبعد وقرباً بقرب، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته. والله سبحانه يحب المحسنين ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه.

والإحسان ها هنا هو فعل المأمور به؛ سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه. فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله والإقبال عليه والتوكل عليه، وأن

يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابة وحياء ومحبة وخشية، فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه»^(١).

وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريبة من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وإنما كتب رحمته ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِتَابِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، والذين يتبعون رسوله فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ يعني: هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه؟ قال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟ وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ثم قال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»^(٢).

□ □ □

وأما الإخبار عن الرحمة - وهي مؤنثة بالتاء - بقوله: «قريب» وهو مذكر، ففيه اثنا عشر مسلكاً [نذكر منها ما اختاره الإمام ابن القيم].
المسلك السادس: أن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر، لكونه تبعاً له ومعنى من معانيه. فإذا ذكر أغنى عن ذكره لأنه يفهم منه.
فعلى هذا يكون الأصل في الآية: إن الله قريب من المحسنين. وأن رحمة الله قريبة من المحسنين؛ فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وسوغ ذلك ظهور المعنى.
وهذا المسلك مسلك حسن إذا كسي تعبيراً أحسن من هذا، وهو مسلك لطيف المنزع دقيق على الإفهام، وهو من أسرار القرآن.
والذي ينبغي أن يعبر عنه به: أن الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى، والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه؛ لأن الصفة لا تفارق موصوفها. فإذا كانت قريبة من المحسنين فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منه، بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين.

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩ - ١٠).

(٢) رواه البغوي (١١/٧، ١٢). وقال السيوطي في الدر المنثور (٧/٧١٣): «أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه».

وقد تقدم في أول الآية أن الله تعالى قريب من أهل الإحسان بإثابته ومن أهل سؤاله بإجابته، وذكرنا شواهد ذلك، وأن الإحسان يقتضي قرب الرب من عبده كما أن العبد قرب من ربه بالإحسان، وأن من تقرب منه شبراً تقرب الله منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً.

فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين ورحمته قريبة منهم، وقربه يستلزم قرب رحمته.

ففي حذف التاء ها هنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة، وأن الله تعالى قريب من المحسنين، وذلك يستلزم القربين؛ وقربه وقرب رحمته.

ولو قال: إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على وقربه تعالى منهم، لأن وقربه تعالى أخص من قرب رحمته، والأعم لا يستلزم الأخص بخلاف وقربه، فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب رحمته فلا تستهن بهذا المسلك، فإن له شأناً، وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب. وما أظن صاحب هذا المسلك قصد هذا المعنى ولا ألم به، وإنما أراد أن الإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين كاف عن الإخبار عن قرب رحمته منهم.

فهو مسلك سابع: في الآية وهو المختار، وهو من أليق ما قيل فيها.

فهذا تمام اثني عشر مسلكاً في هذه الآية؛ أصحها المسلك المركب من السادس والسابع. وبأقيها ضعيف واه ومحمتمل، والمبتدي والمقلد لا يدرك هذه الدقائق، والفاضل المنصف لا يخفى عليه قوبها من ضعيفها. وليكن هذا آخر الكلام على الآية، والله أعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِّفَالًا سُقِنَهُ لِبَدًا مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَٰلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧، ٥٨].

أخبر سبحانه أنهما إحياءان، وأن أحدهما معتبر بالآخر مقيس عليه. ثم ذكر قياساً آخر: أن من الأرض ما يكون أرضاً طيبة. فإذا أنزلنا عليها الماء أخرجت

(١) بدائع الفوائد (١/٣ - ٣٥).

نباتها بإذن ربها، ومنها ما يكون أرضاً خبيثة، لا يخرج نباتها إلا نكدًا، أي قليلاً غير منتفع به. فهذه إذا أنزل عليها الماء لم تخرج ما أخرجت الأرض الطيبة. فشبّه سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء على القلوب بالماء الذي أنزله على الأرض، لحصول الحياة بهذا وهذا.

وشبه القلوب بالأرض، إذ هي محل الأعمال، كما أن الأرض محل النبات، وأن القلب الذي لا ينتفع بالوحي، ولا يزكو عليه، ولا يؤمن به كالأرض التي لا تنتفع بالمطر، ولا تخرج نباتها به إلا قليلاً، لا ينفع. وأن القلب الذي آمن بالوحي وزكا عليه، وعمل بما فيه كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر.

فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله، وتدبره بان أثره عليه، فشبّه بالبلد الطيب الذي يمرج ويخصب، ويحسن أثر المطر عليه، فنبت من كل زوج كريم، والمعرض عن الوحي عكسه، والله الموفق^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١].
من تأمل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ تبين له تفاوت ما بينهما، وأنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنى، أي: هو فاحشة من الفواحش وعرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل ونعم الرجل زيد، أي: أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي لظهور فحشها وكمالها غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ أَلَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٩].

أي: الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد، ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشتمز منه القلوب، وتنبو عنه الأسماع وتنفر منه الطباع أشد نفرة، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى،

(١) إعلام الموقعين (١/١٨٧، ١٨٨).

فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [الأعراف: ٨١]. ثم نبه عن استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي مال لأجلها الذكر إلى الأنثى، من قضاء الوطر، ومن لذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التي تنسى المرأة لها أباؤها، وتذكر بعلمها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة، وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال على النساء، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة^(١) النبي ﷺ بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح.

والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله وتربي عليه بما لا يمكن حصر فساده، ولا يعلم تفصيله إلا الله، ثم أكد قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور، وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب الله سبحانه ديارهم فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلبوا هم ونكسوا في العذاب على رؤوسهم، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد فقال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

فتأمل: هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنى.

وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿وَيَجْنِبْنَاهُ مِنَ الْقَرْتَبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَجْبَتِثُ﴾ [الأنبياء: ٧٤]. ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَسِيقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]. وسماهم مفسدين في قول نبيهم: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]. وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات، ومن ذمّه الله بمثل هذه المذمات، ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة، وقد أخبروه بإهلاكهم قيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ

(١) يشير للحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد رحمته الله (١٥٨/٣) عن أنس رضي الله عنه. ورواه أبو داود (٤٥/٦) في النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء. والنسائي (٦٥/٦)، (٦٦) في النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، وانظر: تخريجه في آداب الزفاف للألباني، ص(١٣٢).

عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ عَزِيزٌ مَرْدُودٌ ﴿٧٦﴾ [هود: ٧٦].^(١)

* * *

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْرَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلِّكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رِيتًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

[هذا ما قاله نبي الله شعيب لقومه]، وهذا يبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنى الأمر، فقد علمت أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء، ثم قال شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه، فإن له سبحانه في خلقه علماً محيطاً ومشيئته نافذة وراء ما يعلمه الخلاق، فامتنعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، والله علم آخر ومشيئة أخرى وراء علومنا ومشيئتنا، فلذلك رد الأمر إليه^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩].

إنما هو في حق الفجار والكفار، ومعنى الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلة الله على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون، والذي يخافه العارفون بالله من مكره أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال، فيحصل منهم نوع اغترار فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب على غرة وفترة^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: قال أبو إسحاق: هذا إخبار عن قوم لا يؤمنون، كما قال عن نوح: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦]. واحتج على هذا بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾، قال: وهذا يدل على أنه قد طبع على قلوبهم.

(٢) شفاء العليل (٦٤).

(١) الداء والدواء (٢٥٨ - ٢٦٠).

(٣) الفوائد (١٦١).

وقال ابن عباس: فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا يوم أخذ ميثاقهم، حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهاً، وأقروا باللسان وأضمروا التكذيب.

وقال مجاهد: فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم.

قلت: وهو نظير قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال آخرون: لما جاءتهم رسلهم بالآيات التي اقترحوها وطلبوها، ما كانوا ليؤمنوا بعد رؤيتها ومعابقتها، فمنعهم تكذيبهم السابق بالحق لما عرفوه من الإيمان به بعد ذلك، وهذه عقوبة من رد الحق أو أعرض عنه فلم يقبله، فإنه يصرف عنه ويحال بينه وبينه ويقلب قلبه عنه.

فهذا إضلال العقوبة وهو من عدل الرب من عبده، وأما الإضلال السابق الذي ضل به عن قبوله أولاً والاهتداء به، فهو إضلال ناشئ عن علم الله السابق في عبده أنه لا يصلح للهدى ولا يليق به، وأن محله غير قابل له، فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه.

كما هو أعلم حيث يجعل رسالته فهو أعلم؛ حيث يجعلها أصلاً وميراثاً، وكما أنه ليس كل محل أهلاً لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلى الخلق، فليس كل محل أهلاً لقبولها والتصديق بها^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ أَحْسَنُ مَا قَالُوا لَنَا هَذَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَّأَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

إذا أصابهم الخصب والسعة والعافية قالوا لنا: هذه، أي: نحن الجديرون الحقيقيون به ونحن أهله، وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه قالوا: هذا بسبب موسى وأصحابه أصبنا بشؤمهم ونفض علينا غبارهم، يقوله المنطير لمن يتطير به، فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده، كما قال تعالى عن أعداء رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

(١) شفاء العليل (٣١).

فهذه ثلاثة مواضع حكى فيها التطير عن أعدائه، وأجاب سبحانه عن تطيرهم بموسى وقومه: أن طائرهم عند الله لا بسبب موسى، وأجاب عن تطير رسول الله ﷺ بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، وأجاب عن الرسل بقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩]، وأما قوله: «ألا إنما طائرکم عند الله»، فقال ابن عباس^(١): طائرهم ما قضى عليهم وقدر، وفي رواية: شؤمهم عند الله ومن قبله، أي إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرْضَىٰ وَلَٰكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفْرَأَ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرْضَىٰ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وبيان الدلالة^(٣) من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل هو من أبطل الباطل وأعظم المحال، وهو عند فروخ اليونان والصابئة الفرعونية بمنزلة من يسأله أن يأكل ويشرب وينام، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه، فيا لله العجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله تعالى من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه ويجب له وأشد تنزيهاً له منه.

الوجه الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالاً لأنكره عليه، ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى لم ينكر عليه^(٤)، ولما سأل عيسى بن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر^(٥) سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاته ابنه أنكر عليه سؤاله، وقال: ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَن تَكُونَ مِنَّ

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/٩، ٣٠). والدر المنثور (٣/٥١٨، ٥١٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (٥٨٧).

(٣) أي: الدلالة على رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة، وذلك يوم الدين جعلنا الله منهم برحمته.

(٤) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ...﴾ الآية [البقرة: ٢٦].

(٥) وذلك في قوله تعالى ذكره: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ...﴾ الآية [المائدة: ١١٤].

الْجَهْلِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿[هود: ٤٦، ٤٧].

الوجه الثالث: أنه أجاب بقوله: (لن تراني). ولم يقل: لا تراني، ولا أنني لست بمرئي، ولا تجوز رؤيتي. والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، وهذا يدل على أنه ﷺ يرى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى، يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾، فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف؟

الوجه الخامس: أن الله تعالى قادر أن يجعل الجبل مستقراً مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالاً في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته، ولو كانت الرؤية محالاً لكان ذلك نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف أكل وأشرب وأنام، فالأمران عندكم سواء.

الوجه السادس: قوله ﷺ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى، فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته، ويريهم نفسه، فأعلم ﷺ موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه ﷻ قد كلمه منه إليه، وخاطبه وناجاه وناداه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم أن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم؛ وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين، فأنكروا أن يكلم أحداً أو يراه أحد، ولهذا سأله موسى النظر إليه لما أسمعته كلامه، وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه، فلم يخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على احتمالها، كما لم يثبت الجبل لتجليه، وأما قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل، ولا يدل على دوام النفي، ولو قيّد بالتأبيد فكيف إذا أطلقت؟ قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، مع قوله تعالى: ﴿وَنَادُوا يَمْكُلِكُ لِيَقْضِ عَيْنَا رَبِّكَ﴾^(١) [الزخرف: ٧٧].

إن الله سبحانه أراد أن يُري موسى ﷺ من كمال عظمته، وجلاله، ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار لا تثبت لرؤيته، ومشاهدته عياناً؛ لصيرورة الجبل دكاً عند تجلي ربه سبحانه أذى تجل، كما رواه ابن جرير^(١) في تفسيره من حديث حماد بن سلمة: أخبرنا ثابت عن أنس عن النبي ﷺ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، قال حماد: «ووضع الإبهام على مفصل الخنصر الأيمن»، فقال حميد لثابت: أتحدث بمثل هذا؟ فضرب ثابت صدر حميد ضربة بيده، وقال: «رسول الله ﷺ يحدث به وأنا لا أحدث به». رواه الحاكم في صحيحه، وقال: هو على شرط مسلم، وهو كما قال^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨].
 به بهذا الدليل على أن من لا يكلم، ولا يهدي، لا يصلح أن يكون إلهاً^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].
 أي: إن ذلك إلا امتحانك واختبارك، كما يقال: فتنت الذهب إذا امتحنته واختبرته، وليس من الفتنة التي هي الفعل المسمى^(٤).
 [وقال]: أي امتحانك وابتلاؤك، تضل بها من وقع فيها وتهدي من نجا منها^(٥).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٥٣/٩). ورواه الإمام أحمد ﷺ (١٢٥/٣). والترمذي (٥/٢٤٨) في التفسير باب (٨): «ومن سورة الأعراف». وقال: حديث حسن غريب صحيح. والحاكم (٣٢٠/٢، ٣٢١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وقال ابن كثير: «ورواه أبو محمد الحسن بن محمد بن علي الخلال عن محمد بن علي بن سويد عن أبي القاسم البغوي عن هذبة بن خالد عن حماد بن سلمة فذكره وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه...»، تفسير ابن كثير (٢/٢٦٢، ٢٦٣). ورواه ابن أبي عاصم في السنة (١/٢١٠) وما بعدها، وصححه الألباني.

(٢) مدارج السالكين (٣/١٠٠). (٣) الصواعق المرسله (٣/٩١٤).

(٤) طريق الهجرتين (١٥٥). (٥) إغاثة اللهفان (١/١٥٩).

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ وَيَصْعَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾
[الأعراف: ١٥٧].

إذا كان لا معنى عند نفاة الحكمة عن الرب، والحسن والقبیح الفطريين للمعروف: إلا ما أمر به، فصار معروفاً بالأمر فقط، ولا للمنكر: إلا ما نهى عنه. فصار منكراً بنهيه فقط، فأى معنى لقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؟ وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه؟

وهذا كلام ينزه عنه كلام آحاد العقلاء، فضلاً عن كلام رب العالمين. وهل دلت الآية إلا على أنه أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول، وتقر بحسنه الفطر، فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم. ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول؛ بحيث إذا عرض أمره ونهيه على العقل السليم قبله أعظم قبول، وشهد بحسنه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: بم عرفت أنه رسول الله؟ فقال: ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال: ليته أمر به.

فهذا الأعرابي أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء، وقد أقر عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقبح ما نهى عنه، حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته. ولو كان جهة كونه معروفاً ومنكراً هو الأمر المجرد لم يكن فيه دليل، بل كان يطلب له الدليل من غيره.

ومن سلك ذلك المسلك الباطل لم يمكنه أن يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه.

ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به، والملة التي دعا إليها من أعظم براهين صدقه، وشواهد نبوته. ومن ثبت لذلك صفات وجودية أوجبت حسنه وقبول العقول له، ولضده صفات أوجبت قبحه ونفور العقول عنه، فقد سد على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة، وجعلها مستدلاً عليه فقط.

ومما يدل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾، فهذا صريح في أن الحلال كان طيباً قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثاً قبل تحريمه. ولم يستفد طيب هذا وخبيث هذا من نفس التحليل والتحريم.

فتأمل هذا الموضوع حق التأمل، يطلعك على أسرار الشريعة، ويشرفك على محاسنها، وكمالها، وبهجتها، وجلالها. وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين: أن تكون بخلاف ما وردت به. وأن الله تعالى منزه عن ذلك، كما ينتزه عن سائر ما لا يليق به^(١).

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾ سمي سبحانه التكليف الشاقة أغلالاً لشدتها وصعوبتها، قال الحسن: هي الشدائد التي كانت في العبادة، كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم، وقال ابن قتيبة: هي تحريم الله سبحانه عليهم كثيراً مما أطلقه لآمة محمد ﷺ، وجعلها أغلالاً لأن التحريم يمنع، كما يقبض الغل اليد^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة؛ لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد.

قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه، وهو غير فقيه، إذ الفقيه هو من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده، وتعظيم حرماته، والوقوف عندها، ليس المتحيل على إباحة محارمه، وإسقاط فرائضه.

ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكديباً لموسى ﷺ، وكفراً بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويل، واحتيال ظاهره ظاهر الاتقاء وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا، والله أعلم، مُسخوا قردة؛ لأن صورة القرد فيها شبهة من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبهة منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى، بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٢، ٣٣٣). (٢) شفاء العليل (٩٤ - ٩٥).

دون حقيقته مسخهم الله تعالى قردة، يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقاً^(١).

ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالى بأكل الحرام، واستباحة الفروج الحرام، والدم الحرام؛ وذلك أعظم إثماً من مجرد العمل يوم السبت؛ ولكن لما استحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه وخادعوه مخادعة الصبيان، ومسخوا دينه بالاحتيال، مسخهم الله تعالى قردة.

وكان الله تعالى قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يوماً واحداً، فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا إلى الصيد فيه، وساعد القدر بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت وإرسالها عليهم يوم السبت، وهكذا يفعل الله سبحانه بمن تعرض لمحارمه؛ فإنه يرسلها عليه بالقدر تزلف إليه بأبها يبدأ، فانظر ما فعل الحرص وما أوجب من الحرمان بالكلية، ومن هاهنا قيل: من طلبه كله فاته كله^(٢).

وهذا جار على قواعد من لم يعتبر المقاصد ولم يسد الذرائع^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْذَّارُ الْآخِرَةُ حَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْتَقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

أخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى، مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيغفر لنا، وإن يأتهم عرض مثل يَأْخُذُوهُ، فهم مصرون على ذلك. وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق.

فيقولون: هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وكل من أثر الدنيا من أهل العلم واستحباها، فلا بد أن يقول على الله غير الحق،

(٢) إغاثة اللهفان (١/٣١٧، ٣١٨).

(١) إغاثة اللهفان (١/٣٤٣).

(٣) إعلام الموقعين (٣/٢٠٦).

في فتواه، وحكمه، في خبره وإلزامه، لأن أحكام الرب - سبحانه - كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس. ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم، إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً.

فإذا كان العالم والحاكم محيين للرياسة متبعين للشهوات، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق^(١)

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نُنَقِّنَا جَبَلٍ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

ومن تلاعب الشيطان بهم أنهم لما عرضت عليهم التوراة لم يقبلوها، وقد شاهدوا من الآيات ما شاهدوه حتى أمر الله سبحانه جبريل: فقلع جبلاً من أصله على قدرهم، ثم رفعه فوق رؤوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها ألقيناها عليكم، فقبلوها كرهاً، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نُنَقِّنَا جَبَلٍ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قال عبد الله بن وهب: قال ابن زيد^(٢): لما رجع موسى من عند ربه بالألواح، قال لبني إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، وأمره الذي أمركم به ونهيه الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله إلينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى، فيقول: هذا كتابي فخذوه، فجاءت غضبة من الله تعالى، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله تعالى بعد موتهم، فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله قالوا: لا. قال: فبعث الله ملائكته فنتقت الجبل فوقهم، فقيل لهم: أتعرفون هذا، قالوا: نعم، الطور. قال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم. قال: فأخذوه بالميثاق.

وقال السدي: لما قال الله تعالى لهم: ﴿وَأَدْخُلُوا أَبْابَ سَجْدًا وَفُولُوا حِطَّةً﴾ [البقرة: ٥٨]، فأبوا أن يسجدوا، فأمر الله الجبل أن يرتفع فوق رؤوسهم فنظروا إليه وقد غشيهم فسقطوا سجداً على شق ونظروا بالشق الآخر، ثم تولوا من بعد هذه

(١) الفوائد (٩٨).

(٢) انظر: الطبري (١٠٨/٩، ١٠٩)، والدر المشور (٣/٥٩٥).

الآيات، وأعرضوا، ولم يعملوا بما في كتاب الله ونبذوه وراء ظهورهم، فقال تعالى مذكراً لهؤلاء بما جرى من أسلافهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٢﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣، ٦٤] (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قيل: هذا موضع قد اضطربت فيه الأقدام، وطال فيه النزاع والخصام. وأحسن ما فسرت به الآية قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة: فأبواه يهودانه وينصرانه»، فالميثاق الذي أخذه سبحانه عليهم، والإشهاد الذي أشهدهم على أنفسهم، والإقرار الذي أقروا به، هو الفطرة التي فطروا عليها، لأنه سبحانه احتج عليهم بذلك، وهو لا يحتج عليهم بما لا يعرفه أحد منهم ولا يذكره، بل بما يشتركون في معرفته والإقرار به.

وأيضاً، فإنه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ولم يقل: (من آدم)، ثم قال: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل (من ظهره)، ثم قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ولم يقل: (ذريته)، ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وهذا يقتضي إقرارهم بربوبيته إقراراً تقوم عليهم به الحجة.

وهذا إنما هو الإقرار الذي احتج به عليهم على السنة رسله كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥]، ونظائر ذلك كثيرة: يحتج عليهم بما فطروا عليه من الإقرار بربهم وفاطرهم، ويدعوهم بهذا الإقرار إلى عبادته وحده، وألا يشركوا به شيئاً: هذه طريقة القرآن، ومن ذلك هذه الآية التي في «الأعراف»، وهي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ الآية، ولهذا قال في آخرها: ﴿أَنْ تَقُولُوا ﴿١٧٢﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾

(١) إغاثة اللهفان (٢/٣١١، ٣١٢).

(٢) قال القرطبي: «قرأ أبو عمرو بالبياء». «أن يقولوا»، «أو يقولوا» - فيها.

ردهما على لفظ الغيبة المتكرر قبله،... وقرأ الباقون بالتاء فيهما...».

أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣]، فاحتج عليهم بما أقروا به من ربوبيته على بطلان شركهم وعبادة غيره، وألا يعتذروا، إما بالغفلة عن الحق، وإما بالتقليد في الباطل، فإن الضلال له سببان: إما غفلة عن الحق، وإما تقليد أهل الضلال، فيطابق الحديث مع الآية، ويبيّن معنى كل منهما بالآخر.

□ □ □

وأما قول أحمد في مواضع أخرى: يولد على ما فطر عليه من شقاوة أو سعادة، فلا تنافي بينه وبين قوله: إنها الدين، فإن الله سبحانه قدّر الشقاوة والسعادة وكتبهما، وإنها تكون بالأسباب التي تحصل بها كفعل الأبوين: فتهويدهما وتنصيرهما وتمجيسهما هو بما قدّر الله تعالى، والمولود يولد على الفطرة مسلماً، ويولد على أن هذه الفطرة السليمة قد يغيرها الأبوان، كما قدّر الله ذلك وكتبه، كما مثل النبي ﷺ ذلك بقوله: «كما تُنْتَجُ البهيمة جمعاء هل تحسّن فيها من جدعاء؟» فبيّن أن البهيمة تولد سليمة ثم يجدها الناس، وذلك أيضاً بقضاء الله وقدره، فكذلك المولود يولد على الفطرة مسلماً، ثم يفسده أبواه.

وإنما قال أحمد وغيره: ولد على ما فطر عليه من شقاوة وسعادة، لأن القدرية كانوا يحتجون بهذا الحديث على أن الكفر والمعاصي ليست بقدر الله، بل بما فعله الناس، لأن كل مولود يولد على الفطرة، وكفره بعد ذلك من الناس. ولهذا لما قيل لمالك: إن القدرية يحتجون علينا بأول الحديث، قال: احتجوا عليهم بآخره، وهو قوله: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

فبيّن الأئمة أنه لا حجة فيه للقدرية، فإنه لم يقل: إن الأبوين خلقا تهويده وتنصيره، والقدرية لا تقول ذلك، بل عندهم أنه تهوّد وتنصّر باختياره، ولكن كان الأبوان سبباً في حصول ذلك بالتعليم والتلقين، وهذا حق لا يقتضي نفي القدر السابق من العلم والكتاب والمشية، بل ذلك مضاف إلى الله تعالى علماً وكتابة ومشية، وإلى الأبوين سبباً وتعليماً وتلقيناً، وإلى الشيطان تزيباً ووسوسة، وإلى العبد رضى واختياراً ومحبة.

= تفسير القرطبي (٣/٢٧٥٤)، وانظر: «كتاب السبعة في القراءات» لابن مجاهد، ص(٢٩٨).

ويدل على صحة ما فسر به الأئمة الفطرة أنها «الدين» ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى^(١): «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»، وهذا صريح في أنهم خلقوا على الحنيفية، وأن الشياطين اقتطعتهم بعد ذلك عنها، وأخرجوهم منها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾

[البقرة: ٢٥٧].

وهذا يتناول إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال.

وفي المسند وغيره من حديث الأسود بن سريع^(٢)، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فأفضى بهم القتل إلى الذرية، فقال لهم النبي ﷺ: «ما حملكم على قتل الذرية؟» قالوا: يا رسول الله، أليسوا أولاد المشركين؟ قال: «أو ليس خياركم أولاد المشركين؟» ثم قام النبي ﷺ خطيباً فقال: «ألا إن كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه»، فخطبته لهم بهذا الحديث عقيب نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين، وقوله لهم: «أو ليس خياركم أولاد المشركين؟» نص أنه أراد أنهم ولدوا غير كفار، ثم الكفر طراً بعد ذلك. ولو أراد: أن المولود حين يولد يكون إما كافراً وإما مسلماً على ما سبق به القدر، لم يكن فيما ذكره حجة على ما قصده من نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين.

□ □ □

قال أبو عمر: والحنيف في كلام العرب المستقيم المخلص، ولا استقامة أكبر

(١) رواه الإمام أحمد ﷺ (٤/١٦٢، ٢٦٦). رواه مسلم (٥/٧١٦) في الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. وأبو داود الطيالسي رقم (١٠٧٩)، ص (١٤٥). والنسائي في فضائل القرآن، ص (١٠٤)، وانظر: التمهيد (١٨/٧٣)، «درء تعارض العقل والنقل» (٧/٤٠٠).

(٢) الأسود بن سريع، صحابي، شاعر مشهور. الإصابة (١/٦٨). والحديث رواه الإمام أحمد (٣/٤٣٥) و(٤/٢٤). والدارمي (٢/١٤١، ١٤٢)، وأبو يعلى (٢/٢٤٠)، والطبراني (١/٢٨٤)، والحاكم (٢/١٢٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: «بعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح» (٥/٣١٦) مجمع الزوائد.

من الإسلام. قال: وقد روي عن الحسن قال: «الحنيفية حج البيت»، وهذا يدل على أنه أراد الإسلام. وكذلك روي عن الضحاك والسدي «حنفاء: حجاجاً»، وعن مجاهد: «حنفاء: متبعين»، قال: وهذا كله يدل على أن الحنيفية: الإسلام.

قال: وقال أكثر العلماء: الحنيف المخلص. وقال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ آيَاتُكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، قال الراعي^(١):

أخليفة الرحمان إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً
عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلاً

قال: فوصف الحنيفية بالإسلام، وهو أمر واضح لا خفاء به. قال: ومما احتج به من ذهب إلى أن الفطرة في هذا الحديث: «الإسلام» قوله ﷻ: «خمس من الفطرة»، ويروى: «عشر من الفطرة»، يعني: فطرة الإسلام. انتهى.

قال شيخنا^(٢): فالأدلة الدالة على أنه أراد فطرة الإسلام كثيرة: كألفاظ الحديث الصحيح المتقدمة، كقوله: «على الملة»: و«على هذه الملة»؛ وقوله: «خلقت عبادي حنفاء»، وفي الرواية الأخرى: «حنفاء مسلمين».

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣].

فذكر سبحانه لهم حجتين يدفعهما هذا الإشهاد:

إحدهما: أن يقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، فبيّن أن هذا علم فطري ضروري لا بد لكل بشر من معرفته، وذلك يتضمن حجة الله في إبطال التعطيل، وأن القول: بإثبات الصانع علم فطري ضروري، وهو حجة على نفي التعطيل.

والثانية: أن يقولوا: إنما أشرك آبائنا من قبل، وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون، وهم آبائنا المشركون، أي: أفتعاقبنا بذنوب غيرنا؟ فإنه لو قدر أنهم

(١) هو: حصين بن معاوية من بني نمير، قيل له: الراعي؛ لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره... انظر: «طبقات الشعراء» لابن قتيبة، ص (٢٠١). وطبقات فحول الشعراء (١/ ٥٠٨)، وجمهرة أشعار العرب، ص (١٧٢ - ١٧٦).

(٢) يعني: الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. وانظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٧١/٣).

لم يكونوا عارفين بأن الله ربهم ووجدوا آباءهم مشركين، وهم ذرية من بعدهم ومقتضى الطبيعة العادية أن يحتذي الرجل حذو أبيه حتى في الصناعات والمساكن والملابس والمطاعم، إذ كان هو الذي رباها، ولهذا كان أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإذا كان هذا مقتضى العادة والطبيعة، ولم يكن في فطرتهم وعقولهم ما يناقض ذلك، قالوا: نحن معذورون، وأباؤنا هم الذين أشركوا، ونحن كنا ذرية لهم بعدهم، ولم يكن عندنا ما يبيّن خطأهم، فإذا كان في فطرتهم ما شهدوا به من أن الله وحده هو ربهم، كان معهم ما يبيّن بطلان هذا الشرك وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم.

فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء، كانت الحجّة عليهم الفطرة الطبيعية الفعلية السابقة لهذه العادة الطارئة، وكانت الفطرة الموجبة للإسلام سابقة للتربية التي يحتاجون بها؛ وهذا يقتضي أن نفس العقل الذي به يعرفون التوحيد حجة في بطلان الشرك لا يحتاج ذلك إلى رسول، فإنه جعل ما تقدم حجة عليهم بدون هذا.

وهذا لا يناقض قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فإن الرسول يدعو إلى التوحيد، ولكن الفطرة دليل عقلي يعلم به إثبات الصانع، لم يكن في مجرد الرسالة حجة عليهم: فهذه الشهادة على أنفسهم التي تتضمن إقرارهم بأن الله ربهم، ومعرفتهم بذلك أمر لازم لكل بني آدم، به تقوم حجة الله تعالى في تصديق رسله، فلا يمكن أحداً أن يقول يوم القيامة: إني كنت عن هذا غافلاً، ولا أن الذنب كان لأبي المشرك دوني؛ لأنه عارف بأن الله ربه لا شريك له، فلم يكن معذوراً في التعطيل والإشراك، بل قام بما يستحق به العذاب.

ثم إن الله سبحانه - لكمال رحمته وإحسانه - لا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسول إليه، وإن كان فاعلاً لما يستحق به الذم والعقاب: فله على عبده حجتان قد أعدهما عليه لا يعذبه إلا بعد قيامهما:

إحدهما: ما فطره عليه وخلق عليه من الإقرار بأنه ربه ومليكه وفطره، وحقه عليه لازم.

والثانية: إرسال رسله إليه بتفصيل ذلك وتقريره وتكميله، فيقوم عليه شاهد الفطرة والشرعة، ويقرّ على نفسه بأنه كان كافراً، كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فلم ينفذ عليهم الحكم إلا بعد إقرار وشاهدين، وهذا غاية العدل^(١).

(١) أحكام أهل الذمة (٢/٥٢٤ - ٥٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

فشبهه^(١) سبحانه من آتاه كتابه، وعلمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودينياه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات، وأوضعها قدراً، وأخسها نفساً، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدّها شرهاً وحرصاً. ومن حرصه: أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم، ويستروح حرصاً وشرهاً. ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزاء جسمه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنيا، والجيف الفذرة المروحة أحب إليه من اللحم، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بمبمته تكفي مائة كلب لم يدع كلباً يتناول معه منها شيئاً إلا هَرَّ عليه وقهره، لحرصه وبخله وشره.

ومن عجيب أمره وحرصه: أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية، وحال رزيّة نبهه، وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعة في قوته. وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة: وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيهه من أثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة - مع وفور علمه - بالكلب في حال لهته: سر بديع، وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه: إنما كان لشدة لهفه على الدنيا، لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة. فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه. واللهف واللث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

قال ابن جريج^(٢): الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له: إن تحمل عليه يلهث، أو تركه يلهث. فهو مثل الذي يترك الهدى، لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده: أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللث،

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢٨/٩). وذكر أكثر الأقوال الواردة هنا.

(٢) الطبري (١٢٩/٩).

وهكذا هذا الذي انسلخ من آيات الله، لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها. فهذا يلهث على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث عن قلة صبره عن الماء. فالكلب من أقل الحيوانات صبراً عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإذا كان فيه صبر على الجوع. وعلى كل حال فهو أشد الحيوانات لهثاً: يلهث قائماً، وقاعداً، وماشياً، وواقفاً. وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث.

فهكذا مشبهه: شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث، فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث.

قال مجاهد: ذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به. وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها. وإن تركه لم يهتد إلى خير، كالكلب إن كان رابضاً لهث، وإن طرد لهث.

وقال الحسن^(١): هو المنافق لا يثبت على الحق، دعي أو لم يدع، وعظ أو لم يوعظ؛ كالكلب يلهث طرداً وتركاً.

وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه.

وقال أبو محمد بن قتيبة^(٢): «كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، أو علة إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش».

فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال؛ كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث.

ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَالِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعاني.

فمنها قوله: ﴿ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾، فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه. ثم قال: ﴿فَأَنسَلَخْنَا مِنْهَا﴾، أي: خرج منها، كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلم عن اللحم.

(١) نفس المصدر.

(٢) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة، ص(٣٦٩).

ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباعه هواه.
ومنها: قوله سبحانه: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لحقه وأدركه، كما قال في قوم
فرعون ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]، وكان محفوظاً محروساً بآيات الله محمي
الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئاً إلا على غِرَّةٍ وَخَطْفَةٍ. فلما انسلخ من
آيات الله ظفر به الشيطان ظَفَرَ الأَسَدِ بفريسته ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ العاملين بخلاف
علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء.

ومنها: أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾، فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده
ليست بمجرد العلم. فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره،
وقصد مرضاة الله. فإنَّ هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم
ينفعه به. نعوذ بالله من علم لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم
يرفعه الله فهو موضوع، لا يرفع أحد به رأساً، فإن الرب الخافض الرافع سبحانه
خفضه ولم يرفعه.

والمعنى: لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناها.

قال ابن عباس: لو شئنا لرفعناه بعلمه.

وقالت طائفة^(١): الضمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ عائد على الكفر. والمعنى: لو
شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا. قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر
بالإيمان وعصمناه.

وهذا المعنى حق: والأول هو مراد الآية، وهذا من لوازم المراد.

وقد تقدم أن السلف كثيراً ما ينبهون على لازم معنى الآية، فيظن الظان أن ذلك
هو المراد منها.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾، قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض.
وقال مجاهد: سكن. وقال مقاتل: رضي بالدنيا. وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ.
والمخلد من الرجال: هو الذي يبطن في مشيته. ومن الدواب: التي تبقى ثناياه
إلى أن تخرج ربايعيته.

وقال الزجاج: خلد وأخلد. وأصله من الخلود... وهو الدوام والبقاء. يقال:
أخلد فلان بالمكان إذا أقام به. قال مالك بن نويرة:

(١) انظر: تفصيل الأقوال في الآية في تفسير الطبري (١٢٧/٩).

بأبناء حَيٍّ مِنْ قَبَائِلِ مَالِكٍ وَعَمْرٍو بْنِ يَرْبُوعٍ أَقَامُوا فَأَخْلَدُوا
 قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]، أي: قد خلقوا
 للبقاء، لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم على سن واحد أبداً.
 وقيل: هم المقرطون في آذانهم، والمسورون في أيديهم.
 وأصحاب هذا القول فسروا اللفظة ببعض لوازمها. وذلك أمانة التخليد على
 ذلك السن فلا تنافي بين القولين.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها.
 وقال أبو رزوق^(١): اختار الدنيا على الآخرة. وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع
 شيطانه.

وقال ابن زيد: كان هواه مع القوم، يعني: الذين حاربوا موسى وقومه.
 وقال ابن يمان: اتبع امرأته؛ لأنها هي التي حملته على ما فعل.

□ □ □

فإن قيل: الاستدراك بـ«لكن» يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي قبلها، أو ينفي ما
 أثبت، كما تقول: لو شئت لأعطيته، لكنني لم أعطه، ولو شئت لما فعلت كذا لكنني
 فعلته. والاستدراك يقتضي: ولو شئنا لرفعناه بها ولكننا لم نشأ، أو لم نرفعه، فكيف
 استدرك بقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾.

قيل: هذا من كلام الملحوظ فيه جانب المعنى، المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ
 إلى المعاني. وذلك أن مضمون قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أنه لم يتعاط الأسباب
 التي تقتضي رفعه بالآيات: من إيثار الله ومرضاته على هواه، ولكنه أثر الدنيا،
 وأخلد إلى الأرض واتبع هواه.

وقال الزمخشري^(٢): المعنى: ولو لزم آياتنا لرفعناه بها.

فذكر المشيئة. والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه، كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه
 بها.

قال: ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ﴾، فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو
 فعله. فوجب أن يكون: ولو شئنا في معنى: ما هو فعله، ولو كان الكلام على
 ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه، ولكننا لم نشأ.

(١) أبو رزوق، هو عطية بن الحارث، صاحب التفسير، صدوق. تهذيب التهذيب (٧/٢٢٤).

(٢) راجع: نص كلام «الزمخشري» في تفسيره «الكشاف» (٢/١٠٤).

فهذا من الزمخشري شنشنة نعرفها من قدري نافي للمشيئة العامة، مبعده للنجعة في جعل كلام الله معتزلياً قدرياً.

فأين قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ من قوله: ولو لزمها؟ ثم إذا كان اللزوم لها موقوفاً على مشيئة الله - وهو الحق - بطل أصله.

وقوله: إن مشيئة الله تابعة للزوم الآيات: من أفسد الكلام وأبطله، بل لزومه لآياته تابع لمشيئة الله، فمشيئة الله سبحانه متبوعة لا تابعة، وسبب لا مسبب. وموجب مقتض لا مقتضى، فما شاء الله وجب وجوده وما لم يشأ امتنع وجوده^(١).

□ □ □

فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه وذلك من وجوه:

أحدها: أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾، ولم يقل: تبعه، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى.

ورابعها: أنه غوى بعد الرشد، والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقتربنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليته إلى ما هناك وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام، كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض.

(١) إعلام الموقعين (١/٢١٦).

وثامنها: أنه رغب عن هداها، واتبع هواه، فجعل هواه إماماً له يقتدي به ويتبعه.
وتاسعها: أنه شبه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفساً
وأبخلها، وأشدها كلباً، ولهذا سمي كلباً.
وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدائها، وحرصه في
تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا... هذا إن
ترك فهو لهثان على الدنيا - وإن وعظ وزجر فهو كذلك - فاللهث لا يفارقه في كل
حال كلهث الكلب^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ
بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس، كانوا بمنزلة فاقديةها،
فالقلب يوصف: بالبصر، والعمى، والسمع، والصم، والنطق، والبكم، بل هذه له
أصلاً، وللعين والأذن واللسان تبعاً، فإذا عدما القلب فصاحبه أعمى. وإن كان
مفتوح العين، أصم ولا أفة بأذنه، أبكم وإن كان فصيح اللسان. قال تعالى: ﴿فَأَتَاهَا
لَا تَعَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد، وهو سبحانه يدعو
عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويشنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من
عبوديتها، وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم
جواد يحب كل جواد، وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عفو يحب العفو
وأهله، حيي يحب الحياء وأهله، بر يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور
يحب الصابرين، حلیم يحب أهل الحلم؛ فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة والعفو
والصفح: خلق من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه^(٣).

□ □ □

(٢) مفتاح دار السعادة (١/١٠١).

(١) الفوائد (١٠٠ - ١٠٢).

(٣) مدارج السالكين (١/٤٢٠).

وكذلك أسماء الرب تعالى كلها أسماء مدح. فلو كانت ألفاظاً مجردة لا معاني لها لم تدل على المدح، وقد وصفها الله سبحانه بأنها حسنى كلها، فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فهي لم تكن حسنى لمجرد اللفظ، بل لدلالاتها على أوصاف الكمال، ولهذا لما سمع بعض العرب قارئاً يقرأ: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم﴾، قال: ليس هذا كلام الله تعالى، فقال القارئ: أَتَكْذِبُ بكلام الله تعالى فقال: لا ولكن ليس هذا بكلام الله، فعاد إلى حفظه وقرأ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال الأعرابي: صدقت عز فحكمت فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع. ولهذا إذا ختمت آية الرحمة باسم عذاب، أو بالعكس ظهر تنافر الكلام وعدم انتظامه^(١).

والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (ل ح د)؛ فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط. ومنه الملحد في الدين، المائل عن الحق إلى الباطل. قال ابن سكيت: الملحد المائل عن الحق، المدخل فيه ما ليس منه، ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا﴾ [الكهف: ٢٧] أي من تعدل وتهرب إليه وتلتجئ إليه وتبتهل إليه فتميل إليه عن غيره. تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهاً، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وألهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته، أو علة فاعله بالطبع ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول من يقول من

(١) جلاء الأفهام (٩٣).

الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات، ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به. وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماء وصفاته لألهتهم، وهؤلاء سلّبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها؛ فكلاهما ملحد في أسمائه، وكل من جحد شيئاً عما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك فليستقل أو يستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً، فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها. وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بستته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى؛ بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم برياً من التشبيه وتنزيههم خلياً من التعطيل. لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً. وأهل السنة وسط في النحل. كما أن أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء. فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره ويسهل لنا السبيل للوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله، إنه قريب مجيب^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فجعل علة السكون أنها منه، ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن الأنقص من الصور، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره، ولا يجد محيداً لقلبه عنه.

ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا

(١) بدائع الفوائد (١/١٦٩).

أنه شيء في ذات النفس، وربما كانت المحبة بسبب من الأسباب، فتفنى بفنائها^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٩٤) أَلْهَمُ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥].

فبين سبحانه أن هذه أشباح وصور خالية عن صفات الإلهية، وأن المعنى المعتبر معدوم فيها، وأنها لو دُعيت لم تجب، فهي صور خالية عن أوصاف ومعان تقتضي عبادتها، وزاد هذا تقريراً بقوله: ﴿أَلْهَمُ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، أي: أن جميع ما لهذه الأصنام من الأعضاء التي نحتتها أيديكم، إنما هي صور عاطلة عن حقائقها وصفاتها؛ لأن المعنى المراد المختص بالرجل هو مشيها، وهو معدوم في هذه الرجل، والمعنى المختص باليد هو بطشها، وهو معدوم في هذه اليد، والمراد بالعين إبصارها، وهو معدوم في هذه العين، ومن الأذن سمعها وهو معدوم فيها، والصور في ذلك كله ثابتة موجودة، وكلها فارغة خالية عن الأوصاف والمعاني فاستوى وجودها وعدمها^(٢). فجعل سبحانه عدم البطش والمشي والسمع والبصر دليلاً على عدم إلهية من عدمت فيه هذه الصفات؛ فالبطش والمشي من أنواع الأفعال، والسمع والبصر من أنواع الصفات^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال جعفر بن محمد: أمر الله ﷺ نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل^(٤): «ما هذا؟ قال: لا أدري حتى أسأل؟ فسأل، ثم رجع إليه فقال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال:

(١) روضة المحبين (٨٤).

(٢) إعلام الموقعين (١/١٩٩، ٢٠٠).

(٣) الصواعق المرسله (٣/٩١٥).

(٤) رواه ابن جرير (٩/١٥٥)، مرسلًا عن سفيان بن عيينة، عن رجل قد سماه. وانظر: الدر

المنثور (٣/٦٢٨)، وابن كثير (٢/٢٩٧).

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم ما يذلولونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موال، ومعاد له معارض، وله في كل واحدة من هذه واجب.

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم وينهاهم عن ضده، وواجبه فيما يذلولونه من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوعت له به أنفسهم سماحة واختياراً، ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم، وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه، فقد قال الله تعالى لنبية ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: أمر الله بنبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس. وقال مجاهد: يعني: خذ العفو من أخلاق الناس من غير تخسيس، مثل قبول الاعتذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث والتفتيش عن حقائق بواطنهم. وقال ابن عباس رضي الله عنه: خذ ما عفا لك من أموالهم وهو الفاضل عن العيال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، وهو كل معروف، وأعرفه: التوحيد، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، يعني: إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وعلى هذا فليست بمنسوخة. بل يعرض عنه مع إقامة حق الله تعالى ولا ينتقم لنفسه، وهكذا كان خلقه ﷺ، قال أنس رضي الله عنه^(١): «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً»، وقال^(٢): «ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت

(١) رواه البخاري (٥٩٨/١٠) في الأدب، باب: الكنية للصبى... ومسلم (٨٥٧/٤) في الأدب، باب: جواز تكنية من لم يولد له...

(٢) روى آخره البخاري (٤٧١/١٠)، وهو قوله: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت... إلخ» في الأدب، باب: حسن الخلق والسخاء... وكذا مسلم (١٦٦/٥) في الفضائل، حسن خلقه ﷺ. ورواه بتامه الترمذي (٣٢٣/٤، ٣٢٤) في البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ. وقال: حسن صحيح.

رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا^(١). متفق عليهما.

وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، ليس المراد إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده، وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه. قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم: صن نفسك عن مقابلتهم على سفههم، وهذا كثير في كلامهم^(٢).

وفي هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم. فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتمهم وشفتمهم فإن العفو ما عفي من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

أمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه^(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والتذكر: تفعل من الذكر، وهو حصول صورة من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجب له البصيرة، فالبصر ما جعل دليلاً عليه فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين التذكر والتبصر^(٥).

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٤ - ٣٠٦).
 (٢) مفتاح دار السعادة (١٠٩ - ١١٠).
 (٣) الرسالة التبوكية (٨٥).
 (٤) إغاثة اللهفان (١/ ٩٦).
 (٥) إعلام الموقعين (١/ ١٩٤).

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَفِي مُعَدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].
 قرئ^(١) بكسر الدال وفتحها، فقيـل: المعنى: أنهم ردف لكم. وقيل: يردف بعضهم بعضاً أرسالاً لم يأتوا دفعة واحدة.

فإن قيل: ها هنا ذكر أنه أمدهم بألف، وفي (سورة آل عمران) قال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [١٧٤] بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُنذِرْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥].

فكيف الجمع بينهما؟

قيل: قد اختلف^(٢) في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف، والذي بالخمسة على قولين:

أحدهما: أنه كان يوم أحد، وكان إمداداً معلقاً على شرط فلما فات شرطه، فات الإمداد، وهذا قول الضحاك ومقاتل وإحدى الروایتين عن عكرمة.
 والثاني: أنه كان يوم بدر، وهذا قول ابن عباس ومجاهد، وقتادة. والرواية الأخرى عن عكرمة، اختاره جماعة من المفسرين.

وحجة هؤلاء أن السياق يدل على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٦٣] إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [١٧٤] بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٥] إلى أن قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾، أي: هذا الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

(١) قال القرطبي: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بفتح الدال قراءة نافع، والباقون بالكسر. «(٢٨٠٦/٤).

(٢) راجع: تفسير الطبري (٧٦/٤) و(١٨٩/٩)، والقرطبي (١٤٣٢/٣).

قال هؤلاء: فلما استعاثوا؛ أمدهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتفقوا، فكان هذا التدرج ومتابعة الإمداد أحسن موقفاً وأقوى لنفوسهم وأسر لهم من أن يأتي به مرة واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق أحد، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً في أثنائها، فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢١، ١٢٢]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فذكرهم نعمته عليهم لما نصرهم ببدر وهم أذلة ثم عاد إلى قصة أحد، وأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ مِنْكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَلِّينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتفقوا أمدهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف، وإمداد بدر بألف، وهذا معلق على شرط، وذلك مطلق. والقصة في سورة آل عمران هي قصة أحد مستوفاة مطولة، وبدر ذكرت فيها اعتراضاً، والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة، فالسياق في (آل عمران) غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا أن قوله: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ [آل عمران: ١٢٥]. قد قال مجاهد: إنه يوم أحد. وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه. فلا يصح قوله: إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر، وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد، والله أعلم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

قيل في تفسيرها: قووا قلوبهم وبشروهم بالنصر. وقيل: احضروا معهم القتال. والقولان حق: فإنهم حضروا معهم القتال وثبتوا قلوبهم^(٢).

* * *

(٢) مدارج السالكين (١/٤٦).

(١) زاد المعاد (٣/١٧٦ - ١٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].
قلت: اعتقد جماعة أن المراد بالآية: سلب فعل الرسول ﷺ عنه، وإضافته إلى الرب تعالى.

وجعلوا ذلك أصلاً في الجبر، وإبطال نسبة الأفعال إلى العباد وتحقيق نسبتها إلى الرب وحده، وهذا غلط منهم في فهم القرآن.

فلو صح ذلك لوجب طرده في جميع الأعمال، فيقال: ما صليت إذ صليت، وما صمت إذ صمت، وما ضحيت إذ ضحيت، ولا فعلت كل فعل إذ فعلته، ولكن الله فعل ذلك. فإن طردوا ذلك لزمهم في جميع أفعال العباد - طاعتهم ومعاصيهم - إذ لا فرق، فإن خصوه بالرسول ﷺ وحده وأفعاله جميعها، أو رمية وحده: تناقضوا، فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد بالآية.

وبعد، فهذه الآية نزلت^(١) في شأن رمية الرسول ﷺ المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء، فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته، ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ. فكان منه ﷺ مبدأ الرمي وهو الخذف، ومن الله ﷻ نهايته وهو الإيصال.

فأضاف إليه رمي الخذف الذي هو مبدؤه، ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته. ونظير هذا قوله في الآية نفسها: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]، ثم قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ فأخبره: أنه هو وحده هو الذي تفرد بقتلهم. ولم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرد بإيصال الحصى إلى أعينهم، ولم يكن ذلك من رسوله، ولكن وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه أقام أسباباً ظاهرة، كدفع المشركين، وتولى دفعهم، وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس. فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافاً إليه وبه، وهو خير الناصرين^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلِيَسْبِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧].
فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء، وليس من

(١) رواه ابن إسحاق (٢/٢٧٠) في أحداث غزوة بدر. والطبراني في الكبير (٣/٢٠٣) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه. قال الهيثمي (رواه في الكبير والأوسط، وإسناده حسن) (٦/٨٤). ورواه في الكبير أيضاً (١١/٢٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنه. قال الهيثمي: (ورجاله رجال الصحيح) (٦/٨٤). وصححه الألباني كما في فقه السيرة (ص ٢٣٩). وانظر: تفسير الطبري (٩/٢٠٤)، وابن كثير (٢/٣١٦).

(٢) مدارج السالكين (٣/٤٢٦، ٤٢٧).

الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه، بل من أبلاه بلاء حسناً إذا أنعم عليه، يقال: أبلاك الله ولا ابتلاك. فأبلاه بالخير وابتلاه بالمكاره غالباً، كما في الحديث^(١): «إني مبتليك ومبتل بك»^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبه، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء، ويقع على الأرض الغليظة العالية التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له.

ثم أكد الله هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى، وهي الكبر والإعراض وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق، ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان، وإقامة حجة لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة. وأما المؤمنون: فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة؛ فصار القرآن لهم هدى ورحمة، ولأولئك هدى بلا رحمة.

والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة^(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فتضمنت هذه الآية أموراً:

أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية، مشتركة بينه وبين أرذل

(١) رواه الإمام أحمد رحمته (٤/١٦٢، ٢٦٦)، ومسلم (٢٨٦٥).

(٢) طريق الهجرتين: (٣٢٠). (٣) إغاثة اللفهان (٢/١٧١، ١٧٢).

الحيوانات . فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً . فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا ، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان . ولهذا كان أكمل الناس حياة ، أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ ؛ فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة ، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة ، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول . قال مجاهد : ﴿لَمَّا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني : للحق .

وقال قتادة : هو هذا القرآن ، فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة . وقال السدي : هو الإسلام ، أحياءهم به بعد موتهم بالكفر . قال ابن إسحاق^(١) وعروة بن الزبير - واللفظ له - ﴿لَمَّا يُحْيِيكُمْ﴾ ، يعني : للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم . وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة^(٢) : وهي القيام بما جاء به الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً .

قال الواحدي : والأكثر على أن معنى قوله : ﴿لَمَّا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهاد . وهو قول ابن إسحاق ، واختيار أكثر أهل المعاني . قال الفراء : إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم ، يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد ، فلو تركوا الجهاد ؛ ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم . قلت : الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا ، وفي البرزخ ، وفي الآخرة . أما في الدنيا : فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد . وأما في البرزخ : فقد قال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْفَعُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩] . وأما في الآخرة : فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم .

ولهذا قال ابن قتيبة^(٣) : «لما يحييكم» يعني : الشهادة . وقال بعض المفسرين : «لما يحييكم» يعني : الجنة ، فإنها دار الحيوان ، وفيها الحياة الدائمة الطيبة . حكاها أبو علي الجرجاني .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣١٢/٢) . (٢) راجع : تفسير الطبري (٢١٣/٩) .
(٣) في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : «أي : إلى الجهاد الذي يحيي دينكم ويعليكم» ، (ص ١٥١) .

والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد تحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة. والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة.

والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة.

حياة بدنه: التي بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره. ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك؛ ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك.

وحياة قلبه وروحه: التي بها يميز بين الحق والباطل، والغي والرشاد، والهوى والضلال فيختار الحق على ضده؛ فتفيد هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم، والإرادات، والأعمال، وتفيد قوة الإيمان والإرادة والحب للحق، وقوة البغض والكراهة للباطل، فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته ونصرته بحسب نصيبه من هذه الحياة، كما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم، فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة القلب.

فإذا بطلت حياته بطل تمييزه، وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار، كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله من روجه؛ فيصير حياً بذلك النفخ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات.

فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقى إليه. قال تعالى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]. وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. فأخبر أن وحيه روح ونور. فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي، فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان.

ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين، وفاتته الأخرى.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

المشهور في الآية: أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وطاعته. وهذا قول ابن عباس، وجمهور المفسرين^(١).

وفي الآية قول آخر: إنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية، فهو بينه وبين قلبه، ذكره الواحدي عن قتادة. وكأن هذا أنسب بالسياق، لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه، فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه؟

وعلى القول الأول فوجه المناسبة: إنكم إن تذاقتم عن الاستجابة، وأبطأتم عنها؛ فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة، وعقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون كقوله: ﴿وَقَلْبٌ أَفْشَتْهُمُ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرْقٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١]. ففي الآية

تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب، وإن استجاب بالجوارح.

وفي الآية سر آخر؛ وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به وهو الاستجابة، وبين القدر وبين الإيمان به. فهي كقوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٧٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦].

والله أعلم^(٢).

وتأمل كيف أخبر عن حيلولته بين المرء وقلبه بعد أمره بالاستجابة له ولرسوله، كيف تجدد في ضمن هذا الأمر، والخبر أن من ترك الاستجابة له ولرسوله؛ حال بينه وبين قلبه عقوبة له على ترك الاستجابة، فإنه سبحانه يعاقب القلوب بإزاغتها عن هداها ثانياً، كما زاغت هي عنه أولاً. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]^(٣).

* * *

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/٢١٤ - ٢١٧). (٢) الفوائد (٨٧ - ٩٠) و(١٣٠).

(٣) الكلام في مسألة السماع (١٠٠، ١٠١).

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فأشارت هذه الآية إلى أن محبة الرسول، وحقيقة ما جاء به، إذا كان في القلب؛ فإن الله لا يعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة. وإذا كان وجود الرسول في القلب مانعاً من تعذيبه، فكيف بوجود الرب تعالى في القلب!! فهاتان إشارتان^(٢).

وتأمل كيف يفهم منه أنه إذا كان وجود بدنه وذاته فيهم دفع عنهم العذاب، وهم أعداؤه. فكيف وجود سره والإيمان به ومحبته، ووجود ما جاء به إذا كان في قوم أو كان في شخص، أفليس رفعه العذاب عنهم بطريق الأولى والأحرى^(٣)!!

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. قال ابن عباس وابن عمر وعطية ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة: «المكاء: الصغير، التصدية: التصفيق».

وكذلك قال أهل اللغة: المكاء: الصغير. يقال: مكا، يمكو، مُكاء: إذا جمع يديه ثم صفر فيهما. ومنه: مكت است الدابة، إذا خرجت منها الريح بصوت، ولهذا جاء على بناء الأصوات كالرغاء والعواء والشغاء، قال ابن السكيت: الأصوات كلها مضمومة إلا حرفين: النداء والغناء.

وأما التصدية: فهي في اللغة: التصفيق. يقال: صدى يصدي تصدية إذا صفق بيديه.

قال حسان بن ثابت يعيب المشركين بصغيرهم وتصفيقهم:

(١) التبيان في أقسام القرآن (٥٨).

(٢) الكلام في مسألة السماع (٣٩٧).

(٣) إعلام الموقعين (١/٢٩٠).

إذا قام الملائكة انبعثتم صلاتكم التصدي والمكاء وهكذا الأشباه. يكون المسلمون في الصلوات الفرض والتطوع، وهم في الصغير والتصفيق.

قال ابن عباس: «كانت قريش يطوفون بالبيت عراة، ويصفرون ويصفقون». وقال مجاهد: «كانوا يعارضون النبي ﷺ في الطواف، ويصفرون ويصفقون يخلطون عليه طوافه وصلاته»، ونحوه عن مقاتل. ولا ريب أنهم كانوا يفعلون هذا وهذا، فالمتقربون إلى الله بالصغير والتصفيق أشباه النوع الأول، وإخوانهم المخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة أشباه النوع الثاني.

قال ابن عرفة وابن الأنباري: المكاء والتصدية ليسا بصلاة، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها: المكاء والتصدية؛ فألزمهم ذلك عظيم الأوزار. وهذا كقولك: زرته فجعل جفائي صلتني، أي: أقام الجفاء مقام الصلة.

والمقصود: أن المصفيقين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر، فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم، والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح؛ لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً؟^(١)

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّهُ لِلَّهِ﴾

[الأنفال: ٣٩].

فناقض بين كون الفتنة، وبين كون الدين كله. فكل منهما يناقض الآخر. والفتنة قد فسرت بالشرك.

فما حصلت به فتنة القلوب فهو إما شرك وإما من أسباب الشرك، وهي جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات^(٢).

* * *

(٢) إغاثة اللهفان (٢/١٥٨).

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٤٤، ٢٤٥).

قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

أما اللام فهي لام التعليل على بابها، فإنها مذكورة في بيان حكمته في جمع أوليائه وأعدائه على غير ميعاد، ونصرة أوليائه مع قلتهم ورقتهم وضعف عددهم وعدتهم على أصحاب الشوكة والعدد والحد والحديد، الذي لا يتوهم بشر أنهم ينصرون عليهم.

فكانت تلك آية من أعظم آيات الرب سبحانه، صدق بها رسوله وكتابه ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بيّنة، فلا يكون له على الله حجة، ويحيا من حي بالإيمان بالله ورسوله عن بيّنة، فلا يبقى عنده شك ولا ريب، وهذا من أعظم الحكم^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فأمرهم بالذكر الكثير والجهاد معاً؛ ليكونوا على رجاء من الفلاح، وقد قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]. وقال تعالى: ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، أي: كثيراً^(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَّا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقُسُوفَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سراقه بن مالك، وقال: أنا جار لكم من بني كنانة أن يقصدوا أهلكم وذرايكم بسوء، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرّ عنهم وأسلمهم، كما قال حسان: دَلَّاهُمْ بِغُرُورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ إِنْ الْخَبِيثَ لَمَنْ وَالِاهُ غَرَارٌ وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِالرَّاهِبِ^(٣) الَّذِي قَتَلَ الْمَرْأَةَ وَوَلَدَهَا، أَمْرَهُ بِالزَّنَا ثُمَّ بَقْتَلَهَا ثُمَّ دَلَّ

(١) شفاء العليل (١٩٣).

(٢) الوابل الصيب (٤٩) طبعة: دار البيان.

(٣) يقصد ما رواه كثير من المفسرين عند قوله - جلّ ذكره - في سورة الحشر آية (١٦). انظر: =

أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود؛ فلما فعل فر عنه وتركه، وفيه أنزل الله سبحانه: ﴿كَذَلِكِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]. وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر لينصره، ويقضي حاجته فإنه يتبرأ منه ويسلمه، كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار ويقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فأوردتهم شر الموارد، وتبرأ منهم كل البراءة.

وتكلم الناس^(١) في قول عدو الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، فقال قتادة وابن إسحاق: «صدق عدو الله في قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وكذب في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردتهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه».

وقالت طائفة: «إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه لا أنه خاف عقابه في الآخرة».

وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيماناً ولا نجاة.

قال الكلبي: «خاف أن يأخذه جبريل فيعرفهم حاله فلا يطيعونه». وهذا فاسد فإنه إنما قال لهم ذلك بعد أن فر ونكص على عقبيه، إلا إنه يريد أنه إذا عرف المشركين أن الذي أجارهم وأوردتهم إبليس لم يطيعوه فيما بعد ذلك، وقد أبعاد النجعة إن أراد ذلك، وتكلف غير المراد.

وقال عطاء: «إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك». وهذا خوف هلاك الدنيا فلا ينفعه.

وقال الزجاج وابن الأنباري: «ظن أن الوقت الذي أنظر إليه قد حضر - زاد ابن

= تفسير الطبري (٤٩/٢٨، ٥٠) عن علي وعن عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وتفسير البغوي (٦٨/٧) عن ابن عباس رضي الله عنه، وتفسير ابن كثير (٣٦٢/٤)، وقال: «وذكر بعضهم ها هنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل، هي كالمثال لهذا المثال، لا أنها المرادة وحدها بالمثال، بل هي منه مع غيرها من الواقع المشاكلة لها...»، ثم ساقها من رواية ابن جرير. ورواه مختصراً مرفوعاً القرطبي، وقال: «ذكره القاضي إسماعيل وعلي بن المديني عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عبيد بن رفاعة الزرقني عن النبي صلى الله عليه وسلم» (٦٥١٦/٨) عند تفسير آية الحشر. وانظر: الدر المنثور (١١٦/٨)، وفتح القدير للشوكاني (٢٠٥/٥).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨/١٠ - ٢٠).

الأنباري - قال: أخاف أن يكون الوقت المعلوم الذي يزول معه إنظاري قد حضر، فيقع بي العذاب، فإنه لما عاين الملائكة؛ خاف أن يكون وقت الإنظار قد انقضى، فقال ما قال إشفافاً على نفسه^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُعِيراً نَعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وإشارتها أنه إذا عاقب قوماً وابتلاهم لم يغير ما بهم من العقوبة والبلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعصية إلى الطاعة، كما قال العباس عم رسول الله ﷺ: «ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة». ومنه قول النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة»^(٢).

فإذا منع الكلب والصورة دخول الملك إلى البيت، فكيف تدخل معرفة الرب ومحبة في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها^(٣).

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيّر غير عليه جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد. فإن غيّر المعصية بالطاعة؛ غيّر الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز^(٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

وتأليف القلوب: جعل بعضها يألف بعضاً ويميل إليه ويحبه، وهو من أفعالها الاختيارية، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره^(٥).

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١٠٨/١ - ١١٠).

(٢) رواه البخاري (٣٩٤/١٠) في اللباس، باب: التصاوير، ومسلم (٨١٣/٤) في اللباس، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان.

(٣) الكلام في مسألة السماع (٣٩٧، ٣٩٨).

(٤) الجواب الكافي (١٠٥). (٥) شفاء العليل (٥٧).

قوله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّيْنِ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

أي: الله وحده كافيك، وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

وهنا تقديران:

أحدهما: أن تكون الواو عاطفة لـ«مَنْ» على الكاف المجرورة، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار. وشواهد كثيرة وشبه المنع منه واهية.

والثاني: أن تكون الواو واو «مع»، وتكون «من» في محل نصب عطفاً على الموضع. فإن «حسبك» في معنى: كافيك، أي: الله يكفيك ويكفي من اتبعك، كما تقول العرب: حسبك وزيداً درهم. قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهتد

وهذا أصح التقديرين.

وفيها تقدير ثالث: أن تكون «من» في موضع رفع بالابتداء. أي: ومن اتبعك من

المؤمنين فحسبهم الله.

وفيها تقدير رابع: وهو خطأ من جهة المعنى؛ وهو أن يكون «من» في موضع

رفع عطفاً على اسم الله، ويكون المعنى: حسبك الله وأتباعك.

وهذا - وإن قال: به بعض الناس - فهو خطأ محض، لا يجوز حمل الآية عليه؛

فإن الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ

يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ففرق بين الحسب والتأييد. فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره

وبعباده.

وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده؛ حيث أفرده بالحسب

فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَخْشَوْهُمْ فزادهم إيماناً

وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: حسبنا الله

ورسوله. فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله:

«الله وأتباعك حسبك»، وأتباعه قد أفردهوا الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه

وبين رسوله فيه؟! فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟ هذا من أمحل

المحال، وأبطل الباطل، ونظير هذا: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾

[التوبة: ٥٩]. فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله. كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]. وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾، ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]. فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا لله ﷻ.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. فالحسب هو الكافي، فأخبر ﷻ أنه وحده كاف عبده؛ فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟ والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكر هاهنا^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كَتَبْنَا مِنَّا لَكُم مِّنَ اللَّهِ سَبَقًا لِّمَسِّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُم مِّنَ عَذَابِ عَظِيمٍ﴾ [الأنفال: ٦٨].

وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق: فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم: لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم. وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم، وإن عملوا ما شأوا لعاقبهم.

وقال آخرون: وهو الصواب: لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، والله أعلم^(٢).

* * *

الفهرس الموضوعي للمجلد الأول

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
مقدمة الطبعة الأولى	١١
الكتب التي تم جمع الكتاب منها	١٤
مقدمة الإمام ابن القيم	٢١
* تفسير سورة الفاتحة *	
قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الآية ١)	٢٣
قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾... (الآيات ٢ - ٧)	٢٦
قبسات من إحياءات السورة، وفيها فصول:	٢٩
الفصل الأول: الفاتحة عماد الصلاة	٣١
الفصل الثاني: المطالب العالية في سورة الفاتحة	٣٣
الفصل الثالث: التوحيد في سورة الفاتحة	٣٧
الفصل الرابع: اشتمال الفاتحة على شفاءين	٤٠
الفصل الخامس: العبادة والاستعانة في سورة الفاتحة	٤٣
- العبادة والاستعانة	٤٣
- تقديم العبادة على الاستعانة	٤٤
- حكمة تقديم المعبود والمستعان على الفعلين	٤٥
- أقسام الناس بحسب العبادة والاستعانة	٤٥
الفصل السادس: التحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾	٤٨
- المتابعة والإخلاص	٤٨
- أفضل العبادات	٤٩
- قواعد العبادة	٥٣
- لزوم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى الموت	٥٣
- انقسام العبودية إلى عامة وخاصة	٥٤

الصفحة

الموضوع

- الفصل السابع: مراتب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علماء وعملًا ٥٥
- مراتب العبودية ٥٥
- عبودية القلب ٥٦
- عبودية اللسان ٥٨
- عبوديات الجوارح ٥٩
- الفصل الثامن: مراتب الهداية في ﴿أَهْدِنَا﴾ ٦٢
- الفصل التاسع: بحث في «فقه اللغة» لسورة الفاتحة ٦٤
- سورة البقرة •
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ الآية (١) ٩٠
- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الآية (٢) ٩١
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ...﴾ الآيتان (٦، ٧) ٩٢
- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَنَّا...﴾ الآيتان (٨ - ٩) ٩٥
- قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ الآية (١٠) ٩٥
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم لَّا تُفْسِدُوا﴾ الآيتان (١١ - ١٢) ٩٧
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم ءَامِنُوا﴾ الآية (١٣) ٩٨
- قوله تعالى: ﴿مِثْلَهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي أَسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ الآيات من (١٧ - ٢٠) ٩٨
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمْ...﴾ الآيات (٢١ - ٢٤) ١٠٥
- قوله تعالى: ﴿وَيَبْئُرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية (٢٥) ١٠٩
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا...﴾ الآية (٢٦) ١١٣
- قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ...﴾ الآية (٢٨) ١١٣
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ...﴾ الآيات من (٣٠ - ٣٣) ١١٤
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا...﴾ الآية (٣٤) ١١٧
- قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ...﴾ الآيتان (٣٥ - ٣٦) ١٢١
- قوله تعالى: ﴿يَبْنَیْ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِي...﴾ الآية (٤٠) ١٢٤
- قوله تعالى: ﴿وَرِءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا...﴾ الآية (٤١) ١٢٤
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ...﴾ الآية (٤٢) ١٢٤
- قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ...﴾ الآية (٤٣) ١٢٥
- قوله تعالى: ﴿وَأَسْعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...﴾ الآيتان (٤٥، ٤٦) ١٢٥
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...﴾ الآيتان (٥٨، ٥٩) ١٢٥
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ...﴾ الآية (٦١) ١٢٦

- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ...﴾ الآية (٦٥) ١٢٧
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ...﴾ الآيات (٦٧ - ٧٣) ١٢٨
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ...﴾ الآية (٧٤) ١٣٠
- قوله تعالى: ﴿أَنْظِمُوهُنَّ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآيات (٧٥ - ٧٩) ١٣٠
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَسْبَابًا مَقْدُودَةً...﴾ الآية (٨٠) ١٣١
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ...﴾ الآيات (٨٤ - ٨٥) ١٣١
- قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ...﴾ الآية (٨٧) ١٣٢
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ...﴾ الآية (٨٨) ١٣٢
- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ...﴾ الآية (٨٩) ١٣٣
- قوله تعالى: ﴿بِسْمَا أَسْرَفُوا بِوَعْدِ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا...﴾ الآية (٩٠) ١٣٥
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا...﴾ الآية (٩١) ١٣٥
- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ الآية (٩٤) ١٣٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ...﴾ الآية (١٠١) ١٣٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْرَيْنَاهُ...﴾ الآية (١٠٢) ١٣٨
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعُوا...﴾ الآية (١٠٤) ١٣٩
- قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ ءَايَةٍ...﴾ الآية (١٠٦) ١٣٩
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا...﴾ الآية (١١١) ١٤٠
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ...﴾ الآيات (١١٦ - ١١٧) ١٤١
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ...﴾ الآية (١٢١) ١٤٤
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرٰهِيْمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...﴾ الآية (١٢٤) ١٤٤
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً...﴾ الآية (١٢٥) ١٤٥
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصٰرَى تَهْتَدُوا...﴾ الآيات (١٣٥ - ١٣٦) ١٤٥
- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ...﴾ الآية (١٣٧) ١٤٦
- قوله تعالى: ﴿سَبِّحُوا الشَّهَآءَ مِنَ النَّاسِ...﴾ الآيات (١٤٢ - ١٥٠) ١٤٧
- قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ الآية (١٤٣) ١٥٨
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ...﴾ الآيات (١٥٣ - ١٥٧) ١٥٨
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ...﴾ الآية (١٥٩) ١٥٩
- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا...﴾ الآية (١٦٥) ١٥٩
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوٰنَ الْعَذَابَ...﴾ الآية (١٦٥) ١٦٠
- قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا...﴾ الآية (١٦٦) ١٦٠

- قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَعَوَّضُ...﴾ الآية (١٧١) ١٦٢
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُلًا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْتَكُمْ...﴾ الآية (١٧٢) ١٦٤
- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ...﴾ الآية (١٧٧) ١٦٤
- قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتِي أَوْلِيَ الْأَلْبَابِ...﴾ الآية (١٧٩) ١٦٤
- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا...﴾ الآية (١٨٢) ١٦٦
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ...﴾ الآيتان (١٨٣ - ١٨٤) ١٦٦
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...﴾ الآية (١٨٦) ١٦٧
- قوله تعالى: ﴿فَأَلْفَنَ بَشِيرُهُنَّ وَابْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ الآية (١٨٧) ١٦٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ...﴾ الآية (١٨٨) ١٦٩
- قوله تعالى: ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ...﴾ الآية (١٨٩) ١٦٩
- قوله تعالى: ﴿رَقَبَتُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً...﴾ الآية (١٩٣) ١٧٠
- قوله تعالى: ﴿وَسَكَرُوا فَإِنِ كَرِهَ الْآزَادُ التَّفْوِئَةَ...﴾ الآية (١٩٧) ١٧٠
- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ...﴾ الآية (٢٠٠) ١٧٠
- قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ الآية (٢١٣) ١٧٠
- قوله تعالى: ﴿سَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ...﴾ الآية (٢١٥) ١٧١
- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ...﴾ الآية (٢١٦) ١٧٢
- قوله تعالى: ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْفَحْرِ الْفَحْرِ فِيهِ...﴾ الآية (٢١٧) ١٧٣
- قوله تعالى: ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ...﴾ الآية (٢٢٢) ١٧٥
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ...﴾ الآية (٢٢٢) ١٧٥
- قوله تعالى: ﴿سَأَأْتِيكُمْ حَرْبٌ لَكُمْ...﴾ الآية (٢٢٣) ١٧٦
- قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ...﴾ الآية (٢٢٥) ١٧٧
- قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ...﴾ الآيتان (٢٢٦ - ٢٢٧) ١٧٨
- قوله تعالى: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ الآيتان (٢٢٨ - ٢٢٩) ١٨٣
- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا...﴾ الآية (٢٢٩) ١٨٤
- قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا حِجْلَ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا...﴾ الآية (٢٣٠) ١٨٥
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِعَنَادِهِنَّ...﴾ الآية (٢٣١) ١٨٥
- قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ...﴾ الآية (٢٣٣) ١٨٥
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ...﴾ الآية (٢٣٤) ١٨٧
- قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ...﴾ الآية (٢٣٥) ١٨٧
- قوله تعالى: ﴿وَرَزَادُهُمْ بَسَطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ...﴾ الآية (٢٤٧) ١٨٨

- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ...﴾ الآية (٢٤٨) ١٨٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ...﴾ الآيتان (٢٥٠ - ٢٥١) ١٨٩
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ آية الكرسي (٢٥٥) ١٩٠
- قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ الآية (٢٥٦) ١٩١
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية (٢٥٧) ١٩١
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَ إِلَى الَّذِينَ جَاءَ إِزْرَهُمْ فِي رِيحِهِمْ...﴾ الآية (٢٥٨) ١٩٢
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِزْرَهُمْ رَبِّي أَرِنِي...﴾ الآية (٢٦٠) ١٩٢
- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية (٢٦١) ١٩٣
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ...﴾ الآية (٢٦٢) ١٩٤
- قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ...﴾ الآية (٢٦٣) ١٩٦
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ...﴾ الآية (٢٦٤) ١٩٧
- قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...﴾ الآية (٢٦٥) ١٩٩
- قوله تعالى: ﴿أَبُودُ أَحَدِكُمْ أَنَّ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ...﴾ الآية (٢٦٦) ٢٠٠
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبَتْ...﴾ الآية (٢٦٧) ٢٠٤
- قوله تعالى: ﴿السَّخِطُونَ يُعَذِّبُهُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُهُمُ بِالْفَحْشَاءِ...﴾ الآية (٢٦٨) ٢٠٥
- قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ الآيات (٢٦٩ - ٢٧٢) ٢٠٧
- قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية (٢٧٣) ٢٠٨
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا...﴾ الآية (٢٧٨) ٢١٠
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ...﴾ الآية (٢٨٢) ٢١١
- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا...﴾ الآية (٢٨٣) ٢١٤
- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...﴾ الآية (٢٨٦) ٢١٤
- ◉ سورة آل عمران ◉
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ الآيات (١ - ٣) ٢١٥
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ...﴾ الآيتان (٥ - ٦) ٢١٦
- قوله تعالى: ﴿رُزِقَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ الآيات (١٤ - ١٧) ٢١٦
- قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ الآيات (١٨ - ١٩) ٢١٧
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ الآية (١٩) ٢٢٥
- قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ...﴾ الآية (٢٦) ٢٢٧
- قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآية (٢٨) ٢٢٩
- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾ الآية (٣١) ٢٢٩

- قوله تعالى: ﴿يَمْرُسُ أَفْتَى لِرَبِّكَ...﴾ الآية (٤٣) ٢٣٠
- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ...﴾ الآية (٤٤) ٢٣٠
- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ...﴾ الآية (٥٥) ٢٣٠
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ...﴾ الآية (٥٩) ٢٣١
- قوله تعالى: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآيات (٧٠ - ٧١) ٢٣١
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ...﴾ الآية (٧٧) ٢٣١
- قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ...﴾ الآية (٨٦) ٢٣٢
- قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالٌ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ...﴾ الآيات (٩٣ - ٩٥) ٢٣٢
- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾ الآية (٩٧) ٢٣٣
- قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا...﴾ الآية (١٠٣) ٢٣٧
- قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾ الآية (١٠٤) ٢٣٩
- قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا آذَى...﴾ الآية (١١١) ٢٣٩
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ...﴾ الآيات (١١٦ - ١١٧) ٢٣٩
- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ الآية (١٢٨) ٢٤٠
- قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ الآيات (١٣٣ - ١٣٦) ٢٤٠
- قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ...﴾ الآية (١٣٧) ٢٤١
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ...﴾ الآيات (١٣٩ - ١٤٣) ٢٤١
- قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ الآيات (١٤٤ - ١٤٦) ٢٤٣
- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا...﴾ الآيات (١٤٧ - ١٥٠) ٢٤٤
- قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ...﴾ الآيات (١٥١ - ١٥٢) ٢٤٤
- قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ...﴾ الآية (١٥٣) ٢٤٦
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً...﴾ الآية (١٥٤) ٢٤٧
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ...﴾ الآيات (١٥٥، ١٥٦) ٢٥٢
- قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾ الآية (١٥٩) ٢٥٤
- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَصْرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ...﴾ الآية (١٦٠) ٢٥٤
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآيات (١٦٩، ١٧٠) ٢٥٥
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ الآيات (١٧٢، ١٧٣) ٢٥٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ...﴾ الآية (١٧٥) ٢٥٧
- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ...﴾ الآية (١٧٩) ٢٥٨
- قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْوَأ...﴾ الآية (١٨٨) ٢٥٩

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيتان (١٩٠ - ١٩١) ٢٥٩
- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ...﴾ الآيتان (١٩٣ - ١٩٤) ٢٦٠
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا...﴾ الآية (٢٠٠) ٢٦٢
- ☪ سورة النساء ☪
- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ ءَلَا تُقْسِطُوا فِي ءَالِنَتَيْنِ...﴾ الآية (٣) ٢٦٤
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ ءَمْوَالِكُمْ...﴾ الآية (٥) ٢٦٦
- قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ...﴾ الآية (١٢) ٢٦٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ...﴾ الآية (١٧) ٢٦٧
- قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا...﴾ الآية (١٩) ٢٦٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ...﴾ الآية (٢٢) ٢٦٩
- قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ الآية (٢٤) ٢٧٠
- قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا...﴾ الآية (٢٨) ٢٧٣
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا ءَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِٱلْبِطْلِ﴾ الآية (٢٩) ٢٧٣
- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ...﴾ الآية (٣١) ٢٧٤
- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُوا حَكْمًا...﴾ الآية (٣٥) ٢٧٥
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى...﴾ الآية (٤٣) ٢٧٦
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ الآية (٥٩) ٢٧٧
- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ...﴾ الآية (٦٥) ٢٨٠
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية (٦٩) ٢٨٢
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ...﴾ الآية (٧٧) ٢٨٣
- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نُصِبْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾ الآيتان (٧٨ - ٧٩) ٢٨٣
- قوله تعالى: ﴿فَقَدِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ...﴾ الآية (٨٤) ٢٨٨
- قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا...﴾ الآية (٨٥) ٢٨٨
- قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي التَّنْفِيقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا...﴾ الآية (٨٨) ٢٨٩
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية (٩٤) ٢٩٠
- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ...﴾ الآيتان (٩٥ - ٩٦) ٢٩٠
- قوله تعالى: ﴿إِلَّا السُّتَمَّعِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ...﴾ الآية (٩٨) ٢٩٣
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية (١٠٠) ٢٩٤
- قوله تعالى: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ...﴾ الآية (١٠٨) ٢٩٤
- قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾ الآية (١١٣) ٢٩٥

- قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا...﴾ الآيات (١١٧ - ١٢٠) ٢٩٧
- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآية (١٢٣) ٢٩٩
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ...﴾ الآية (١٢٥) ٢٩٩
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِأَلْسِنَتِهِمْ...﴾ الآية (١٣٥) ٣٠٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ الآية (١٤١) ٣٠٣
- قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ...﴾ الآية (١٤٧) ٣٠٤
- قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ يَسْتَفْتِهِمْ لَعْنَتُهُمْ...﴾ الآية (١٥٥) ٣٠٤
- قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرِيحٍ مُّبِينَةٍ عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾...﴾ الآيات (١٥٦ - ١٥٨) ... ٣٠٤
- قوله تعالى: ﴿فِيظَلُّوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ...﴾ الآية (١٦٠) ٣٠٥
- قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ...﴾ الآية (١٦٤) ٣٠٥
- سورة المائدة ○
- قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالنَّقْوَى...﴾ الآية (٢) ٣٠٧
- قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ الآية (٣) ٣١١
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...﴾ الآية (٦) ٣١٤
- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ حُنُبًا فَأَطَهِّرُوا...﴾ الآية (٦) ٣١٥
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ...﴾ الآية (٨) ٣١٥
- قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ يَسْتَفْتِهِمْ لَعْنَتُهُمْ...﴾ الآية (١٣) ٣١٦
- قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ...﴾ الآيات (١٥ - ١٦) ٣١٦
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ...﴾ الآيات (٢٠ - ٢٦) ٣١٧
- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الآية (٢٧) ٣١٩
- قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ الآية (٣٢) ٣١٩
- قوله تعالى: ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ...﴾ الآية (٤١) ٣١٩
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ...﴾ الآيات (٤٤ - ٤٧) ٣٢١
- قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾ الآية (٤٨) ٣٢٢
- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنزَلَ اللَّهُ...﴾ الآيات (٤٩، ٥٠) ٣٢٢
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ...﴾ الآية (٥٤) ٣٢٣
- قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ...﴾ الآية (٦٤) ٣٢٤
- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ الآية (٦٧) ٣٢٤
- قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ الآية (٧٥) ٣٢٥
- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ...﴾ الآية (٩٠) ٣٢٥

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ...﴾ الآية (٩١) ٣٢٩
- قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ الآية (٩٢) ٣٢٩
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَآءِهِمْ...﴾ الآيات (١٠١ - ١٠٢) ٣٢٩
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ...﴾ الآية (١٠٦) ... ٣٣١
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً...﴾ الآية (١١٤) ٣٣٥
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقِيبَ ابْنَ مَرْيَمَ...﴾ الآيات (١١٦، ١١٨) ٣٣٦
- سورة الأنعام ○
- قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآية (١) ٣٤٠
- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ...﴾ الآية (٣) ٣٤٠
- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ...﴾ الآية (٦) ٣٤٠
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ...﴾ الآيات (٨ - ٩) ٣٤١
- قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ...﴾ الآية (١٢) ٣٤٢
- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَهَدَةً...﴾ الآية (١٩) ٣٤٢
- قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ...﴾ الآية (١٩) ٣٤٣
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا...﴾ الآية (٢٣) ٣٤٣
- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً...﴾ الآية (٢٥) ٣٤٣
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ...﴾ الآيات (٢٧ - ٢٨) ٣٤٤
- قوله تعالى: ﴿فَأَنهَمُ لَا يَكْفُرُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَابِعُونَ اللَّهَ يَحْمَدُونَ﴾ الآية (٣٣) ٣٤٦
- قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ...﴾ الآية (٣٨) ٣٤٦
- قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ...﴾ الآية (٣٩) ٣٤٩
- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ...﴾ الآية (٤٤) ٣٤٩
- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ...﴾ الآية (٥٣) ٣٤٩
- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآبَتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ...﴾ الآية (٥٥) ٣٥٠
- قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ...﴾ الآية (٦٥) ٣٥٠
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَاذِرْ...﴾ الآيات (٧٤ - ٨٠) ٣٥١
- قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ...﴾ الآيات (٨١ - ٨٢) ٣٥٢
- قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ الآية (٨٣) ٣٥٣
- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَآءُ...﴾ الآيات (٨٨ - ٨٩) ٣٥٤
- قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ الآية (٩١) ٣٥٧
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ...﴾ الآية (٩١) ٣٥٧

- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ...﴾ الآية (٩٣) ٣٦٠
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَابِ وَالنُّوِثِ...﴾ الآيات (٩٥ - ٩٩) ٣٦٠
- قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرَةَ...﴾ الآية (١٠٣) ٣٦١
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسَبِّحُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية (١٠٨) ٣٦٢
- قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾ الآيات (١٠٩، ١١٠) ٣٦٣
- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا...﴾ الآية (١١٢) ٣٦٤
- قوله تعالى: ﴿وَلِيَصْحَبَ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ الآية (١١٣) ٣٦٥
- قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغَىٰ حَكَمًا...﴾ الآية (١١٤) ٣٦٥
- قوله تعالى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا...﴾ الآية (١١٥) ٣٦٧
- قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ...﴾ الآية (١٢٢) ... ٣٦٧
- قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ...﴾ الآية (١٢٧) ٣٦٩
- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا لِيَمْعَشَرَ الْجَنِّ فَذِ اسْتَكْبَرْتُمْ...﴾ الآية (١٢٨) ٣٧٠
- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكًا لِّقُرْآنِ بَاطِلٍ...﴾ الآية (١٣١) ٣٧١
- قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ...﴾ الآية (١٣٣) ٣٧١
- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا...﴾ الآية (١٤٥) ٣٧٢
- قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ...﴾ الآية (١٤٩) ٣٧٢
- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمُّ شُهَدَاءَكُمْ...﴾ الآية (١٥٠) ٣٧٢
- قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ...﴾ الآية (١٥٨) ٣٧٣
- قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ...﴾ الآية (١٦٠) ٣٧٣
- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْبِرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ الآية (١٦٤) ٣٧٣

• سورة الأعراف •

- قوله تعالى: ﴿الْقَصِّ ﴿١﴾ كُنْتُ أَنْزِلُ إِلَيْكَ﴾ الآيات (١ - ٢) ٣٧٥
- قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ الآية (٣) ٣٧٦
- قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنَ بِوِزْرِ الْحَقِّ...﴾ الآيات (٨، ٩) ٣٧٦
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ الآية (١١) ٣٧٦
- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ...﴾ الآية (١٢) ٣٧٧
- قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ الآيات (١٦ - ١٧) ... ٣٧٧
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ الآيات (٢٠ - ٢١) ٣٨١
- قوله تعالى: ﴿فَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا...﴾ الآية (٢٣) ٣٨٣
- قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُ عَادِمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ...﴾ الآية (٢٦) ٣٨٣

- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِيشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا...﴾ الآية (٢٨) ٣٨٤
- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ...﴾ الآيات (٢٩ - ٣٠) ٣٨٤
- قوله تعالى: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ خُدُوًا زَيْنَتُكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية (٣١) ٣٨٧
- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ...﴾ الآية (٣٣) ٣٨٧
- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾ الآيات (٣٧ - ٣٩) ٣٨٨
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا...﴾ الآية (٤٠) ٣٩١
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا...﴾ الآية (٤٢) ٣٩١
- قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا...﴾ الآية (٤٣) ٣٩٢
- قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا جَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ...﴾ الآيات (٤٦ - ٤٩) ٣٩٢
- قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ...﴾ الآية (٥٣) ٣٩٥
- قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ...﴾ الآية (٥٤) ٣٩٥
- قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً...﴾ الآيات (٥٥ - ٥٦) ٣٩٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا...﴾ الآية (٥٦) ٤٠٤
- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ الآيات (٥٧ - ٥٨) ... ٤٠٩
- قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَتْحَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ...﴾ الآيات (٨٠، ٨١) ٤١٠
- قوله تعالى: ﴿فَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلِّكُمْ...﴾ الآية (٨٩) ٤١٢
- قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ...﴾ الآية (٩٩) ٤١٢
- قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَفْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَآهَا...﴾ الآية (١٠١) ٤١٢
- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ نُهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ...﴾ الآية (١٣١) ٤١٣
- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرْضَىٰ وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ...﴾ الآية (١٤٣) ٤١٤
- قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ...﴾ الآية (١٤٨) ٤١٦
- قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ شَاءَ...﴾ الآية (١٥٥) ٤١٦
- قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ الآية (١٥٧) ٤١٦
- قوله تعالى: ﴿وَسْتَأْذِنُ عَنِ الْقَرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةً الْبَحْرِ...﴾ الآية (١٦٣) ٤١٨
- قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا...﴾ الآية (١٦٩) ٤١٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ...﴾ الآية (١٧١) ٤٢٠
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ الآية (١٧٢) ٤٢١
- قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ...﴾ الآية (١٧٣) ٤٢٤
- قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا...﴾ الآيات (١٧٥ - ١٧٦) ٤٢٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا...﴾ الآية (١٧٩) ٤٣١

الصفحة

الموضوع

- ٤٣١ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ الآية (١٨٠) .
- ٤٣٣ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ الآية (١٨٩) .
- ٤٣٤ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ...﴾ الآيتان (١٩٤ - ١٩٥) .
- ٤٣٤ قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ...﴾ الآية (١٩٩) .
- ٤٣٦ قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ...﴾ الآية (٢٠٠) .
- ٤٣٦ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ...﴾ الآية (٢٠١) .
- * سورة الأنفال *
- ٤٣٧ قوله تعالى: ﴿أَفِي مُيَدَّنِكُمْ يُأْتِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ...﴾ الآية (٩) .
- ٤٣٨ قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبِّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتَىٰ مَعَكُمْ...﴾ الآية (١٢) .
- ٤٣٩ قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ...﴾ الآية (١٧) .
- ٤٣٩ قوله تعالى: ﴿وَلِيَسِيءَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا...﴾ الآية (١٧) .
- ٤٤٠ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ...﴾ الآية (٢٣) .
- ٤٤٠ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ...﴾ الآية (٢٤) .
- ٤٤٤ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا...﴾ الآية (٢٩) .
- ٤٤٤ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...﴾ الآية (٣٣) .
- ٤٤٤ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً...﴾ الآية (٣٥) .
- ٤٤٥ قوله تعالى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ هَٰذَا لَا تَكُونُ فِتْنَةً...﴾ الآية (٣٩) .
- ٤٤٦ قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنَّا بَيْنَةً...﴾ الآية (٤٢) .
- ٤٤٦ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِبُوا فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا...﴾ الآية (٤٥) .
- ٤٤٦ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهْمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ...﴾ الآية (٤٨) .
- ٤٤٨ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُعْتِرًا نِعْمَةً...﴾ الآية (٥٣) .
- ٤٤٨ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾...﴾ الآيتان (٦٢ - ٦٣) .
- ٤٤٩ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾...﴾ الآية (٦٤) .
- ٤٥٠ قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ...﴾ الآية (٦٨) .
- ٤٥١ * الفهرس